الفرج بعد الشدة

للقاضي أبي علي المحسن علي التنوخي

الدكتور
محمد حسن عبد الله

٢٠٠٠

الناشـــر
دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــــاب : الفَرَجُ بَعدَ الشِّدَّة
للقاضى أبى علىٍّ المُحَسِّن بن علىٍّ التَّنُوخِى
المؤلـــــــف : د. محمد حسَن عَبدالله
تاريخ النشر : ٢٠٠٠م

الناشـــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التـــــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المطابع : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧
رقـم الإيـــداع : ٥٥٣٢ / ٩٩
الترقيــم الدولــى : ISBN
977 - 303 - 163 - 2


الفرج بعد الشدة
للقاضي أبي علي المحسن علي التنوخي

بسم الله الرحمن الرحيم

تنوير

تقوم مادة هذا الكتاب على اختيار قصص وأخبار ونوادر، من كتاب "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" للقاضى التَّنوخِيِّ.

هذا الاختيار انتقاء واصطفاء يرتفع بالتراث إلى "المعاصرة" ويلبى مطالبها، دون أن تتعارض مع "الأصالة".

قدَّمنا لهذه المختارات بدراسة فنية ضافية، وسجلنا - عقبها - القصص دون تعديل يمسُّ بناءها الفنى أو يُغيِّر من محتواها ومغزاها.

إننا نقدمٌ هذا الكتاب إلى :

❁ الباحث فى التراث القصصى عند العرب.

❁ الكاتب الدرامى للإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما.

❁ أهل الدعوة والتذكير.

❁ المؤرخ الذى يبحث عن الحقيقة خارج كتب التاريخ "الرسمية".

❁ القارىء العام الذى يبحث عن سر القوة فى حضارة العروبة والإسلام.

✿✿✿

القسم الأول

الدراسة الفنّيّة

"عـن عصـر القـاضى التَّنُوخِـىِّ، وشـخصيته، ومصـادره فـى اجتنـاء القصص والأخبار، ومحاور اهتمامـه، وخصائص فنه".



ثلاث صُوَر

"العصر – الكاتب – الكتاب"

١- صورة العصر :

كتاب "الفَرَجُ بعد الشِّدّة" أَلَّفه القاضى "المُحسِّنُ بن علىٍّ التَّنوخىُّ" المعروف بالقاضى التَّنوخِىِّ. وهذا الكتاب تقوم مادته الأساسية على الأخبار والنوادر التى تُساق فى أسلوب قصصى، ومع أهمية هذا الجانب، من الفن القَصصى فى التراث العربى، لا يزال قليلَ الحظ من عناية الباحثين، وموضعَ اتهامٍ عند بعض المستشرقين؛ فإن أهمية : الفَرج بعد الشِّدَّة" تتجاوز كونَه من أحسن المصادر وأقربها إلى المنهج العلمى التَّوْثيقىِّ، وإلى الشمول أيضاً، إلى أمور أخرى لا تقل فى درجة الضرورة، لعَلاقته بالسيرة الشخصية لمؤلفه، وَلدِلاِته المتنوعة التى تتشعب إلى المستويات الاجتماعية، والأنشطة الإنسانية فى عصر مؤلِّفه.

لقد وُلِدَ القاضى التَّنوخِىُّ سنة سبع وعشرينَ وثلثمائة (٣٢٧هـ) بالبَصرَة[1]،وتُوُفِّىَ سنةَ أربعٍ وثمانين وثلثمائة (٣٨٤هـ) ببغداد، وإذاً فقد عاش فى صميم القرن الهجرىِّ الرابع فى أهم مواطن الحضارة العربية الإسلامية، وفى أنضج مراحلها وأشدها خطراً.

وهذا القرن الرابع الهجرىُّ، له صورتان على قدرٍ من التَّضَادِّ عظيم، فهو عصر التقدم العلمى والنشاط التأليفى، عصرُ الانفتاح على الحضارات الأجنبية وتَميُّز الحضارة العربية، عصرُ الترف الزائد والفقرالقاتل. عصرُ المؤامرات والاضطرابات والأوبئة، عصرُ السُّلْطة الضائعة والأمْنِ المفتقَد.

فى القرن الرابع الهجرى ظهرت الثِّمارُ العظيمةُ التى غرسها عصرُ الرشيد، وعصر المأمون من بعده. فى مجالات الحضارة بكل ما تنطوى عليه من توسع فى العمران،

---

(١) انظر : وفيات الأعيان مجلد : ١٦٢/٤، وتاريخ بغداد: ١٥٦/١٣، والنجوم الزاهرة: ١٦٨/٤، ومفتاح السعادة: ١:٢٤٩. وفى معجم الأدباء (٩٢/١٧): أنه ولد سنة ٣٢٩هـ.

واعتناء بالفنون والآداب،وتشجيع للعلماء، وتيسير للحصول على المعرفة من منابعها المتقدمة. تُوُفِّيَ المأمون سنة ٢١٨هـ، أى قبل ميلاد القاضى التَّنوخِىِّ بقرن كامل يزيد بضْعَ سنوات، وفى إبان تلك الفترة كانت الخمائر قد عَملت عملها، وتفتحت البراعم العظيمة التى شَهدِ عصرُ المأمون نفسه بشائرَها، وفاض نورها فى عصر المُعتصم، واستمر إشعاعُها فى عصور خلفائه لتبلغ الذِّرْوَةَ فى السطوع والإبهار أثناء مراحلَ تُوصَفُ من الناحية السياسية بأنها عصرُ ضعف الخلفاء، واضطراب الأمن، وانتشار الفساد الإدارى. وهذا هو الوجه الآخر القاتم المضادُّ للوجه المشرق بنور الحضارة العربية.

وإذا كنا لا نستطيع أن نستقصىَ جوانبَ الصورة على امتداد الأرض العربية، ما بين المَشْرق والأندلس، فإننا لا نستطيع - أيضاً - أن نَخوضَ فى تفاصيلها الدقيقة، وإنْ تَكُنْ فى حدود العراق وما حوله؛ لأن الوفاء بهذه التفاصيل يتجاوز قدرة هذه الصفحات، ونكتفى بأن نُسجِّل إشاراتٍ دالةً فى حدود الفَترة التى عاشها التنوخى، بذكر بعض أعلام العصر فى بعض مجالات المعرفة، فنجد أمثال أبى الحسن الأشْعَرِىِّ، والإسْفِرَايينى، والقُشَيْرى، وإمام الحرمين الجُوَيْنِى، والباقلانى وأبى بكر الجَصَّاص، وهم من الفقهاء والمتكلمين. ومن علماء اللغة : محمد بن دُرَيْدٍ الأزْدِىِّ، وأبى بكر الأنْبارىِّ، وأبى الحسن الرُّمّانىِّ. ومن المُتَصوِّفةً : "جماعة إخوان الصفا" التى تُعتبر من أهم مدارس الاستنارة العقلية فى تاريخ الفسلفة الإسلامية. وفى مجال الطب وترجمة كتب الحكمة من اليونانية والسُّريانية إلى العربية نكتفى بأن نُقلِّب صفحات كتاب ابن أبى أصَيْبعَة "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" لنكتشف أن العملَ فى ميدان الطب ممارسةً وترجمة، وفى مجال الفلسفة، اختُصَّتْ به أسرٌ يتوارثه أفرادُها جيلاً بعد جيل، مثل آل بَخْتَيْشُوع بن جُورجس، وآل الطَّيْفُورى وآل حُنَيْن، وحُنَيْن بن إسحق هو الذى نقل بعض ما كتب أرسطو بأمر المأمون، وآل ثابت بن قُرَّة الحَرَّانِى، وفى مجال التأليف كان عصر المشافهة قد ولّى، وآتى ثمارَه التوثيقية فى مؤلفات القرنين الثانى والثالث، ثم طُوِّر التأليفُ كَماً وكَيفاً، فظهرت الدراساتَ المتخصصة، كما ظهرت الدراسات الموسوعيَّةُ المتعددةُ الاهتمامات، بأحجامها الهائلة، وقد ذكرنا من أسماء الفقهاء واللغويين والحكماء مَن لا يَصعُبُ الوقوف على ما كتبوا فى حقول نشاطهم الخاص وعلى المستوى الموسوعى- فيما يخص المرحلة التى نعنى بها- يكفى أن نذكر "تاريخ الرسل والملوك"

لمحمد بن جَرير الطَّبرىّ (ت.٣١٠هـ)، و "مُروُجَ الذهب" للمَسْعودىّ (ت ٣٤٦هـ) و"الأغانى" لأبى الفَرَجِ الأصَبهانىّ (ت٣٥٦هـ)، و"الفَهْرِسْت" لابن النديم (ت٣٨٥هـ) وهذه المصادر لا يستغنى عنها طالبُ المعرفة فى أى مجال له علاَقة بالحضارة العربية، منذ أقدم عصورها، وحتى تاريخ تأليف هذه الكتب الموسوعية، وسنرى فى فِقْرَةٍ تاليةٍ كيف أضاف القاضى التَّنوخِىُّ من مؤلفات معاصريه، فَضْلاً عن سابقيهِ، ما أغنى به سماعه من جلسائه وأساتذته، مما يدل -فى النهاية - علَى ازدهار حركة التأليف، فضلاً عن الإبداع الفنى، والمُتَنبِىَ وحده (ت٣٥٤هـ) يُضىء قرناً كاملاً، بل هو مضىء إلى اليوم وسيبقى كذلك ما بقيت العربية، والنقد الأدبىُّ، ويكفى أن نذكر : ابنَ طَبَاطَبَا العلوى صاحب "عيار الشعر" (ت٣٢٢هـ)، وقُدامةَ بنَّ جعفر مؤلف "نقد الشعر" (ت٣٣٧هـ) والآمدىَّ، صاحب كتاب "المُوازنة" (ت٣٧٠هـ)، والقاضى الجُرْجَانىّ مؤلف "الوساطة" (ت٣٩٢هـ).. هذه دعائم عصر مزدهر بألوان الثقافة المتنوعة، يقف أبو بكر الرَّازى - الطبيب الفيلسوف - علامةً شامخة على بدايته (توفى سنة ٣١١هـ)، ويقف بَديعُ الزمان الهَمَذانىُّ على نهايته (توفى سنة ٣٩٨هـ)، وقد يكون فى الانتقال من الطب والفسلفة فى البداية إلى المقامات الأدبية وصنعتها اللغوية فى النهاية دلالاتٌ مختلفةٌ على تحرك مركز الثِّقْل فى ثقافة العصر، وتمهيده للطابع الخاص الذى سيميِّز القرن التالى.

لقد ألف المستشرق "آدم ميتْز" كتابه تحت عنوان : "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، أو : عصر النهضة فى الإسلام"، وهذا الربط أو هذا الوصف له مُسَوِّغاتُه التى تجد أدلتها فى كل أشكال النشاط الفكرى والفنى والعلمى والعمرانى [1] ولعل هذه الصياغة لعنوان الكتاب، كانت وراء اختياره لعنوان كتابه عن المرحلة ذاتها فى سلسلة كتاباته عن التاريخ والحضارة الإسلامية، إذ سماه "ظُهْرَ الإسلام" والظُّهْر عَاليَةُ النهار، وليس فيما قبله - أوبعده -ما يدانيه فى تمامه. لقد أرجع الشيخ محمد الخُضرى رقىَّ العلوم فى عصر المأمون إلى سببين: أن المأمون نفسهَ قد أشتغل بالعلم وأمْعَنَ فيه، وأن كثرةً من العلماء مختلفِى الاتجاهات قد وُجدت فى عصره[2]، ولعله كان ينبغى عليه أن يضيف سبباً ثالثاً هو الحرية الفكرية التى أتيحت للعلماء، بدرجة سمحت بعقد ندوات

(١) نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبو ريدة سنة ١٩٦٧.
(٢) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ص٢٠٦.

ومناظرات حتى فى مجلس الخليفة نفسه، بغير قيود إلاّ أدب المناظرة، بل يذكر الشيخ الخضرى أنه تَنَاظَر فى مجلس المأمون اثنان فى معنى "الإمامة" ينصر أحدُهما "الإمامية" والآخرُ "الزَّيْدِيةَّ"؛ يقول الخضرى "وهذان المذهبان كلاهما إن صحّا يذهبان بما فى أيدى آل العباس من الأمامة، و لم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهما"[1]. وقد استمر هذا الاتجاه الصاعد فى عصر المُعتصم، وتراجع بعضَ الشىء فى عصر المُتوكل (قُتِل سنة ٢٤٧) تذبذب صعوداً وهبوطاً فيما بعد، ولكن باب الحوار لم يُغلق على الرَّغم من تسلط بعض المذاهب المحافظة كالحنابلة، ونستطيع أن نجد فى صميم القرن الرابع محاورةً مشهودة بين أبى سعيد السِّيرافىِّ النحوى (ت٣٦٨هـ) ومَتّى بن يُونُس القُنّائىَّ، الذى "انتهت إليه رئاسة أهل المنطق فى عصره" حول المنطق اليونانى والنحو العربى[2]، وهى مؤشِّرمهم عن طبيعة العصر واتجاه التيَّارات الفكرية. كما سنجد بعضَ الخلفاء يَقْرِضُونَ الشعر، ويُلحِّنون ويُغَنُّون، وكان الوزراء من كبار المثقفين، وحتى أولئك الذين لم يكونوا عرباً فإنهم لم يكونوا أقل حماسة للثقافة العربية، كان عَضُدُ الدولة البُوَيْهِي يقول الشعر ويحاور ندماءه فيه، وكان القاضى التَّنوخىُّ من جلسائه، كما كانت له خزائن كتب نادرة، أقام لها خازناً خاصاً، هو أحمد بن محمد مسكَوَيْه، الذى اختُصَّ من الفلسفة بالناحية الخُلُقية، فألَّف "تهذيب الأخلاق" كما ألف كتاب "تجارب الأمم" جرى فيه على نَسَق خاص، وهو الاهتمام بمواضع العِبرْة فى الأحداث التاريخية، والتعليقَ عليها تعليقَ الحكيم المجرِّب[3].

هذا هو الوجه المشرق للقرن الرابع الهجرى، أما الوجه الآخر فتمثله أوضاع الخلافة فى ضَعْفها وضياعها بين المتغلبين من قادة التُّرْك، والدَّيْلم، والمتسللين إلى مواقع التأثير فى قصر الخلافة من الجوارى والقَهْرَمَانات والخصيِّان، إلى الاستقلال من أصحاب الحركات الانفصالية، كالقرامطة، والدَّيْلَم، والطُّولُونيّة، والحَمدانية، وغيرهم ممن عانت منهم دولةُ الخلافة العباسية أشد العناء.

---

(١) المرجع السابق ص٢١٠، وقد عابت عليه بعض الطوائف والعامة ذلك.
(٢) أوردها أبو حيان التوحيدى فى كتابيه: المقابسات ص١٢١، والإمتاع والمؤانسة/ ١/ ١٠٤ وما بعدها.
(٣) ظهر الإسلام : ١/٢٣٢.

إن كتاب "الفَرَجُ بعد الشِّدّة" سيقدم لنا من خلال أخباره القَصصية صورة ذلك العصر السياسية، وهى لا تزيد على أن تكون سلسلة لا تنقطع من الحروب الداخلية وحوادث النهب والتَّصْفية والمصادرة، وإخراب المدن وكَبْسِ السجون وقطع الطريق على القوافل، تلك التى تحمل رسائل أمير المؤمنين خليفة المسلمين، لقد خُلعَ الخليفةُ القاهر، وسُمِلَ[1](سنة ٣٢٢هـ). وأخذ الخليفة الرَّاضى مكانه، وقد وُلدَ القاضى التنوخى بعد خمس سنوات مضت من خلافة الراضى، وهذا يعنى أنه عاصر خلافة الرَّاضى، والمُتّقى، والمُستَكْفِى، والمُطيع، والطائع -الذى خُلِعَ سنة ٣٨١هـ- وأعقبه القَادِر، الذى ظَل خليفةً لأكثر من واحد وأربعين عاماً، وقد مات التّنوخىُّ بعد ثلاث سنوات فى خلافته، وهؤلاء الخلفاء الستة لم يكن لهم من الخلافة غير الاسم، وهم بين مقتول ومعزول ومَن لا يَدْرى من أمره شيئاً، فضلاً عن أمر المسلمين. وقد كان منصب الوَزارة جزءاً من هذه الفوضى وصدىً لها، فكان لمن يتغلبُ على خصمه، أو يستولى على إقليم، أو يُجزِلُ الرِّشوةَ للخليفة. ويكفى أن نقلِّبَ صفحات الجزء الثامن من كتاب ابن الأثير "الكامل فى التاريخ"، الذى يرصد الحوادث المُستجدَّةَ عاماً بعد عام، لنرى الصورة القلقة، بل المفزعة، للحياة السياسية والإدارية ، وللنظام المالى فى ذلك العصر الذى يزهو بالعلماء والأدباء. سنكتفى بمجرد إشارة إلى أسباب مبايعة المُقتدر بالخلافة بعد وفاة المُكتفى. لقد فكر الوزير -وهو العباس بن الحسن- فيمَن يصلح للخلافه، فطلب، مشورةَ أصحابه، وكان عبدُالله بن المعتز أكثرَ المرشحين شُهرة، ولكن مستشار الوزير رفضه، وقال معللاً : "فَلْيَتّقِ اللهَ الوزيرُ، ولا يُنصِّبُ إلاَّ مَنْ قد عَرَفَه، واطَّلعَ على جميع أحواله، ولا يُنَصِّبُ بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم، ولا طماعاً فَيشْرَهُ فى أموالهم، فيصادرهم، ويأخذ أموالهم وأملاكهم، ولا قليل الدِّين فلا يخاف العقوبة والآثام، ويرجو الثواب فيما يفعله، ولا يُوَلِّ مَن عرف نعمة هذا، وبستان هذا، وضَيْعةَ هذا وفرس هذا، ومَن قد لَقىَ الناس ولقوه، وعاملهم وعاملوه، ويتخيل، ويحسِّب حساب نعِمَ الناس، وعرف وجوه دَخْلِهم وخَرْجهم". فقال الوزير : صَدقْتَ ونَصَحْتَ، فبمَن تشير؟ قال : أصْلَحُ الموجود جعفر بن المعتضد. قال: وَيْحُكَ، هو

(١) السمل : إفقاد العين إبصارها بتقريب مسمار أو حديدة محماة.

صَبىٌّ!! قال ابنُ الفُرات (المستشار): إلا أنه ابن المعتضد، ولِمَ نـأت برجـل كـامل يُباشـر الأمورَ بنفسه، غيرَ محتاج إلينا؟

هكذا بُويع للمقتدر بالخلافة، لأنه لا يعرف شيئاً، ولا يستطيع أن يباشر الأمور بنفسه ومن ثَمَّ سيظل أسير إرادة وزرائه، فلا يُستغرب أن تتسلط أم الخليفة، وَقَهْرَمَانَةُ قصره، وقد صار لهما الحكمُ فى كل شئون الدولة، وصارت أعظم المناصب تُنَال بالرِّشوة، ويدل قلق منصب "الوزارة" على هذا الاضطراب العام، فقد شغله العباس بن الحسن، ثم ابنُ الفرات (إبانَّ فتنة ابن المعتز) ثم ابنُ خاقان، ثم علىُّ بن عيسى، ثم ابن الفرات مرة ثانية، ثم حامدٌ بن العباس، ثم عبدالله بن محمد (بن خاقان الوزير الأسبق) ثم أبوالعباس الخصْيبى ثم ابنُ مُقْلة، ثم سليمان بن الحسن، ثم أبوالقاسم الكَلْوَذَانى، ثم الحسين بن القاسم، ثم الفضل بن حَجَر، فهؤلاء اثْنَا عشر وزيراً فى أربعة وعشرين عاماً. تولى بعضهم الوزارةَ أكثر من مرة، لم ينلها أكثرهم عن جدارة، بل بما بذل من رشوة لابد أن يستردها مضاعفة، ومهما يكن من أمر فقد قُتل المقتدرُ بعد حكم طويل، وبدأت المشاورات بين أصحاب النفوذ الحقيقى من القادة والحُجَّاب، وهنا ظهرت مُسَوِّغاتٌ جديدة لاختيار الخليفة، أجْمَلَها ابن الأثير فى عبارات قاطعة، قال : لما قُتل المقتدر بالله عَظُمَ قتلُه على مُؤْنس (مُؤنس المظفر الخادم من أصحاب النفوذ طوال عصر المقتدر، وقد شارك فى تدبير قتله) وقال : الرأى أن يُنصبَ ولدُهُ أبوالعباس أحمد فى الخلافة، فإنه تربيتى، وهو صبى عاقل. وفيه دين وكرم، ووفاء بما يقول، فإذا جلس فى الخلافة سَمَحَتْ نفسُ جَدته -والدةُ المقتدر- وإخوتُه، وغلمانُ أبيه ببذل الأموال، و لم يَنْتَطِحْ فى قَتْلِ المقتدر عَنْزَان (ما دام ابنه أخذ مكانه)، فاعترض عليه أبو يعقوب إسحق بن إسماعيل النُوبَخْتى، وقال: بعد الكدّ والتعب، استرحنا من خليفة له أم، وخالة، وخدم يدبرونه، فنعود إلى تلك الحال؟! والله لا نرضى إلا برجل كامل، يدبِّرُ نفسَه، ويُدَبِّرُنا".

هكذا اختلت مقاييس اختيار الرجال لأجَلِّ المناصب، وافترقت بين قطبين متباعدين: لماذا نأتى برجل كامل يباشر الأمورَ بنفسه، غير محتاج إلينا؟- و: والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه، ويدبرنا، لقد اختير "القاهر" على هذا الأساس الأخير. ولكنه قُتلَ بعد عام ونصف عام لا تزيد، لأنه لم يكن رجل المنصب، كما لم يكن رجل جماعة المسلمين، بل كان رجل المصالح، ومحاور النفوذ، واختلاف الظروف، لا غير.

سيكون :الفَرَجُ بعد الشِّدَة" شاهد صدْق على عصر المؤامرات، والاستنزاف الكبير لأهم مصادر القوَّة فى الدولة الإسلامية: الإنسان.

✿✿✿

٢- صورة شخصية :

ليس من شك فى أن كتاب "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" باستطاعته أن يمنحَنا جوانبَ مُهمةً من حياة مؤلفه العملية، وملامحه النفسية، ترتيباً على أن الكاتب -أى كاتب- يُفيض جانباً من نفسه فيما يكتب، فضلاً عن دلالة الاختيار للموضوع الذى يُؤثِرُهُ، وبخاصة حين يكون الموضوع إنسانياً، له مساس مباشر بالحياة الشخصية لكثير من كبراء العصر ومشاهيره، ومع هذا فإن كتب التراجم قد عُنِيتْ بإيراد بعض التفاصيل التى سيكون باستطاعتها أن تَجْلُوَ أمامنا صورةَ هذا القاضى الأديب، وأسباب اختياره لموضوع الفَرَج بعد الشِّدَّة دون غيره، وللتَّنوخىِّ غير هذا الكتاب ديوان شعر وُصِفَ بأنه كبير، يفوق فى حجمه ديوان والده، وكتاب "نُشوارُ المحاضرةَ" وقد طُبع مؤخرا فى أجزاءَ ثمانية [1]، وكتاب "المستجاد من فَعَلات الأجواد"، ولكن يبقى الكتاب الذى نحن بصدده أكثر إقناعاً لدى كُتَّاب التراجم. وأقدم عبارة مأثورة أطلقها الثعالبى - صاحب يتيمة الدهر- وقد عاصر التَّنوخِىَّ، إذ عاش الثعالبى بين عامى (٣٥٠ و ٤٢٩).، وفيها قال مفتتحاً ترجمته : هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشجر، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله، والفرع المثيل لأصْله، والنائب عنه فى حياته، والقائم مقامه بعدوفاته، وفيه يقول أبو عبدالله بنُ الحَجَّاج (من الوافر):

إذا ذُكِرَ القُضاة وهم شُيُوخ ... تَخيَّرْتُ الشبابَ على الشيوخِ

وَمَنْ لم يرْضَ لم أصْفَعْهُ إلاَّ ... بحضرةِ سيدى القاضي التَّنوخِى

وله كتاب "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" بحُسنه، وإمتناع فنه، وما جرى الفأل بيمْنْهِ، لا جَرَمَ أنه أسْيَرُ مِن الأمثال، وأسْرَى من الخيال"[2]. وقد ترددت هذه العبارات فيما كُتب

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، حققه ونشره عبود الشالجى سنة ١٩٧١، والنشوار: هو ما يظهر من كلام حسن، وهناك مصادر قديمة وحديثة سمته "نشوان المحاضرة" والكتاب أقل تماسكاً -من الوجهة الفنية- من الفَرَجُ بعد الشَّدَّة. أما "المستجاد" فقد حققه محمد كرد على، ونشره عام ١٩٧٠.

(٢) يتيمة الدهر : ٣٤٦/٢.

عن التّنوخِي بعد الثعالبى، وهى تشير بإلحاح إلى شخصية والده، وكيف كان الولد صورةَ أبيه أو مستفيداً من منزلته، وارثاً لمناصبه فى الحقيقة. أما أوْفَى ترجمةٍ له فنجدها عند ياقوتَ الحَمَوِى[(١)]، وقد أثبت اسمه، فهو: المحسِّن – بكسر السين– بن علىّ بن محمد، بن داود، بن الفَهْم التّنوخِي، وكنيته أبو على، وقد كان علىٌّ هذا قاضياً –فيما بعد– وكان يُكْنَى أبا القاسم، وهو نفس اسم جده –والد المحسِّن – وكنيته، وقد كان قاضياً أيضاً، وهناك اختلاف محدود فى سلسلة نسبه، فجاء فى بعض المصادر "ابن أبى الفَهْم" بدلاً من "ابن الفهم"[(٢)]، كما أضاف ابنُ العمَاد الحنبلىُّ تفصيلاً آخر، فداود بن إبراهيم بن تميم [(٣)] وعنه أخذ محسن الأمين – فيما نظن– وأضاف بعدها: القحطانى التّنوخِي، وربما كان العكس، هو الصحيح.[(٤)]

ومهما يكن من أمر، فإنه بشخصية هذا الوالد –"القاضى أبو القاسم على التنوخى"– يبدأ تاريخ صاحبنا وتتحدد مكانته الاجتماعية ووجْهَتُهُ فى التأليف، فقد كان من أعلام عصره. مرموقَ المنزلة، وقد رُوعِيتْ هذه المنزلة فى اختيار ابنه المحسِّن لمنصب القضاء وهو لا يزال فى شَرْخِ شبابه، بل أسبغَتْ عليه حمايةُ الوزير أبى محمد المُهَلّبِىِّ – وزير مُعزِّ الدولة البُوَيْهِىِّ –الذى يصفه ابنُ الأثير بأنه "كان كريماً فاضلاً، ذا عقل ومروءة"[(٥)] وهذا المشهد الذى اختير فيه المحسِّنُ لتولى القضاء جديرٌ بأن يُروَى، لما له من معانى التواضع والذكاء والإفادة من الفرصة المتاحة. يقول :

"نزل الوزير أبومحمد المهلبىُّ السُّوسَ (بلدة بخُوزسْتَان) فقصدْتُه للسلام عليه وتجديد العهد بخدمته، فقال لى : بلغنى أنك شَهدْتَ عند ابن سَيَّار قاضى الأهْوَاز؟ قلت: نعم. قال: ومَنْ ابنُ سيّار حتى تشهدَ عنده، وأنت ولدى وابن أبى القاسم التّنوخىّ أستاذ ابن سَيَّار؟ قلت ألا إن فى الشهادة عنده مع الحَدَاثَة جمالاً – وكانت سنّى يومئذ عشرين سنة – قال : وجب أن تجىء إلى الحضرة لأتقدم إلى أبى السائب قاضى القُضاة بتقليدك عملاً تَقْبَلُ أنت فيه شهوداً. قلتُ : ما فات ذاك إذا أنعم سيدُنا الوزيرُ به،

---

(١) معجم الأدباء : ٩٢/١٧.
(٢) تاريخ بغداد ص١٥٥– والنجوم الزاهرة : ١٦٨/٤.
(٣) شذرات الذهب فى أخبار مَن ذهب : ١١٢/٣.
(٤) أعيان الشيعة : ٩٤/٤٢.
(٥) الكامل فى التاريخ : ٥٤٧/٨.

وسبيلى إليه الآن مع قَبول الشهادة أقرب. فضحك وقال لمن كان بين يديه : انظروا إلى ذكائه كيف اغتَنَمَها؟ ثم قال لى : اخرج معى إلى بغداد. فقبّلتُ يَده ودعوتُ له، وسار من السوس إلى بغداد، ووردْتُ إلى بغداد فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة [1] فتقدمٌ إلى أبى السائب فى أمرى، بما دعاه إلى أن قلّدنى عملاً بسَقْى الفرات، وكنت ألازمُ الوزير أبا محمد، وأحضر طعامه ومجالس أُنسه[2]، وهكذا صار المحسِّن قاضياً وهو لا يكاد يجاوز العشرين عاماً، وصار محسوباً من خاصة الوزير المُهَلَّبىّ، ولم يقف الأمر عند حضور طعامه ومجالس أنسه، فقد ذكر حادثة تدل على عمق المحبة التى يُكنُّها الوزير له، والحماية التى يحرص على بسطها عليه، فقد كان الوزير فى مجلسٍ عام ذات يوم وكان المحسِّن عنده، ثم جاء الحاجب يستأذن لدخول أبى السائب -قاضى القضاة- وهنا أَسْتَدْنَى الوزيرُ المحسن، وتظاهر بأنه يخاطبه فى أمر خاص على جانب من السّرية، وقال للمحسِّن هَمْساً - بينما قاضى القضاة واقفٌ بالباب يرى المشهد ولا يسمع وينتظر إذْن الوزير له بالجلوس -: "ليس بيننا سِرٌّ، وإنما أردتُ أن يدخل أبو السائب فيراك تسارُّنى فى مثل هذا المجلس الحافل فلا يشك أنك معى فى أمرٍ من أمور الدولة، فيرهَبك ويحشمكَ ويتوَّفرَ عليك ويكرمَك فإنه لا يجيء إلا بالرهبة، وهو يَبْغَضُكَ بزيادة عَداوة كانت لأبيك، ولا يشتهى أن يكون له خَلَفٌ مثلك".

ويسجل المحسِّن لنا صدى هذه العَلاقة الخاصة بينه وبين الوزير وأثرها على سلوك قاضى القضاة تجاهه، فيقول "وجئتُ من غد إلى أبى السائب فكاد يحملنى على رأسه، وأخذ يجاذبنى بضروبٍ من المحادثة والمباسطة وكان ذلك دهراً طويلاً".

وهناك جانب آخر من شخصية هذا الأب القاضى، وأشار إليه ابن خلّكان صراحة، وأغفله المُحسِّن، لما يحرص عليه الابن عادة من إجلال سيرة أبيه، وتجنب ذكر ما يمس نزاهته ووقاره، فقد وُصف هذا الأب بأنه كان إلى فقهه وقضائه: أديباً وشاعراً ظريفاً، وأنه كان من ندماء الوزيرالمهلّبى وسُماره، وتعيين المحسَّن فى منصب القضاء وهو لا يزال صغير السن، وإرهاب قاضى القضاة من أجله دليل على ما كان بين الوزير

---

(١) لعل هذا سبب نص ياقوت أن المحسَّن وُلد سنة ٣٢٩هـ مخالفاً جميع مَن ترجموا له، واعتمدوا على روايته هو نفسه بأنه وُلد سنة ٣٢٧هـ.

(٢) معجم الأدباء : ١٧/٩٥، ٩٦، ٩٧ - وعن مولده راجع ص ٩٢.

والأب، وعبارة ابن خلّكان حاسمة بالنسبة لتقرير بعض الصفات. يقول : "كان الوزير المهلّبيّ وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه، ويتعصبون له، ويعدونه ريحانة الندماء، وتاريخ الظرفاء، وكان فى جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المُهلبيّ، ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة".[1]

سنجد "اطراح الحشمة"، "التبسط فى القصف والخلاعة" فى مجالس الرؤساء ماثلة فى حياة المُحسِّن أيضا، كما سنرى، مع فقهه وقضائه وجدِّه، بل سنجد الوصف بالظرف وسرعة الخاطر مما اشتهر به ابنه عليّ، وكان قاضيا أيضا، يقول عنه ابن شاكر الكتبي : وكان ظريفاً نبيلاً جيد النادرة، اجتاز يوماً فى بعض الدروب ، فسمع امرأة تقول لأخرى: كم عمر بنتك يا أختى؟ فقالت: رزقتها يوم صُفِعَ القاضى وضُرِب بالسياط. فرفع رأسه إليها وقال يا بَظْراء، وصار صفعى تاريخك، وما وجدت تاريخاً غيره"؟

"... وكان يوماً نائماً، فاجتاز واحد غَثٌّ وأزعجه مما يصيح : شِرَاكُ النّعال شِرَاكُ النعال، فقال لغلامه: اجمع كلَّ نَعْلٍ فى البيت وأعطها لَهذا يصلحها ويشتغل بها. ثم نام. وأصلحها الإسكافى واشتغل بها إلى آخر النهار، ومضى لشأنه. فلما كان فى اليوم الثانى فعل كذلك ولم يدعه ينام، فقال للغلام: أدخله، فأدخله فقال له: يا ماصَّ بَظْرَ أُمِّه، أمس أصلحْتَ كل نعل عندنا، واليوم تصيح على بابنا، هل بلغك أننا نتصافع بالنعال ونقطعها؟ قفاه، قفاه. يا سيدى أتوب ولا أعود أدخل إلى هذا الدرب أبداً"[2]
ومع هذا الظُرف، بل هذه "الخلاعة" فى استخدام بعض الألفاظ -التى تجنبنا ذكر ما زاد فحشه منها- لا يتردد ابن شاكر فى وصفه بأنه كان شيعياً مُعتزلياً، وكان ساكناً وقوراً".

هذان شعاعان مُسلَّطان على شخصية صاحبنا المحسِّن التّنوخِيّ، أحدهما من والده أبى القاسم علي التنوخى، والآخر من ابنه أبى القاسم على بن المحسِّن التّنوخِيّ، ولعلهما أن يكشفا جانباً لم يَنُصّ عليه مؤرخو حياة المحسِّن، وهو ظرفه وتسامحه، بل حسه الفنى الذى يكاد يخرج به عن تزمت الفقيه وجِد القاضى.

(١) وفيات الأعيان الجزء الأول.
(٢) فوات الوفيات : ٣/٦٠-٦٢.

لم يقف تأثير الوالد على ولده عند حدود ما استوجب من الرعاية من خاصة أصدقائه، كما رأينا من حَدَبِ الوزير المهلبي على المحسِّن، مع أن هذا الوالد- نديم المهلبي- كان قد مات منذ عام ٣٤٢هـ، أى قبل أن يتولى ابنه القضاء، بسبع سنين، فهناك جانب "الوراثة" التى يمكن أن نلمح آثارها فى مزاج الابن وتنشئته وميوله، وحرصه على أن يسير على النمط الذى سارت عليه حياة أبيه، وهناك جانب ثالث لا يقل أهمية فيما نحن بصدده، فقد شغل هذا الأب منصب القاضى فى أكثر من مكان.

١- رامْهُرمز : وهى مدينة من نواحى خُوزِسْتَان، نستنتج هذا من قول المحسِّن فى صدر الخبر: "أخبرنى أبو محمد الحسن بن عبدالرحمن بن خلاد الرامهرمزى، خليفة أبى على القضاء بها..."[1].

٢-الأهواز: نستنتج ذلك من وصفه لمحمد بن بكر الخُزاعى -صاحب ابن دُرَيْد - بقوله فى سياق أسانيده: "وكان شيخاً من أهل الأدب والحديث، فقد استوطن الأهواز سنين، وكان ملازما لأبى رحمه الله،يتفقده ويبره..".

٣- الكَرْخ: وهى من ضواحى بغداد وأكثر أهلها من الشيعة. نستنتج ذلك من قوله فى إسناد خبر آخر: "وحدثنى أبى رضى الله عنه قال: لما كنت بالكرخ، أتقلد القضاء بها، وبالمرج وأعمالها، كان بوابى رجل من أهل الكرخ".

٤- البصرة: وقد نص عليه ابن خلّكان، ونقله عنه أحمد أمين[2] وليس من شك فى أن التنقل بين جهات العراق وفارس كان بمثابة المدد الذى لا ينقطع لذاكرة الصبى بالحوادث المتجددة، والنماذج البَشرية المختلفة، ومثيراً لتداعيات التاريخ القريب والبعيد، ولن نعجب إذاً، حين نجد مادة كتابه مستَمدة من تاريخ العراق وفارس، فى نسبتها الغالبة، ومن أخبار مدنهما وحكايات شعبيهما.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان هذا الأب مصدراً لبعض الأخبار التى رواها ابنه المحسِّن، مبتدئاً بما عاشه هذا الأب من تجارب وما شاهد من رجال وحوادث، أو ناقلاً رواية عن غيره، كما كان مجلسه يجمع أهم أدباء عصره فى البصرة بخاصة، وفيها سمع المحسِّن من أبى بكر الصُّولى، وهو لم يزل حَدَثاً[3].

---

(١) الفَرَجُ بعد الشِّدَّة (القسم الثانى) الفصل الخامس، القصة رقم ٥.

(٢) ظهر الإسلام: ٢٤٠/١.

(٣) محمد بن يحيى بن عبدالله، أبو بكر الصولى، توفى سنة ٣٣٥هـ، وقد ذكر القاضى التَّنوخِيَ بأنه سمع منه فى هذه السنة، انظر مثلاً : (القسم الثانى) الفصل الرابع، القصة رقم ١١ بعنوان : صفاء البديهة.

لقد مات القاضى أبوالقاسم على التّنوخِىُّ، وولده المُحَسِّن فى الخامسة عَشَرْةَ من عمره، وإذاً فقد قضى فى رعاية أبيه أهم سنوات تكوينه الثقافى، وأفاد إفادةً مباشرة من "النّدْوَة" الثقافية التى كان يؤمهـا مثقفـو البصـرة فـى بيـت هـذا الأب المُحَدِّث الشـاعر الأديب، ولقد كانت البصرة، إلى عصر المحسِّن، عاصمةً ثقافية هامة، تتوارث الرواية عن بوادى نجد والحجاز مما يليها، وتُعتبر مستقراً لنوادر الأعراب ولهجاتهم، ممـا أغنـى ثقافـة هذه المدينة وجعل منها مدرسة محددة الملامح، شامخة الأثر، فـى الشـعر واللغـة والنحـو، وغير ذلك من مُكَوِّنات الثقافة العربية التراثية، ولم تكن النوادروالأخبـار كـل مـا تعلمَّـه وسمعه المُحَسِّنُ فى مجلس أبيه، فقد ذكرت المصادر أنه سمع الحديث النبوىَّ ورواه، ويحدد الخطيبُ البَغْدَادِىُّ بداية ذلك بسنةِ ثلاثٍ وثلاثين وثلثمائة، أى أنه سمع الحديث وهو فـى نحو السابعة من عمره، وقد سمع من وَاهب بن يحيى المازنِىّ، وأبى العباس الأثْرَمَ، ومحمـد بن يَحيى الصُّولى والحسن بن محمد بن عثمان النّسوى، وأبى بكر بن دَاسـة، وأحمـد بـن عُبَيْد الصَّفَّار وطبقتهم، ونزل بغـداد وأقـام بهـا وحـدَّثَ إلى حـين وفاتـه، وكـان سماعـه صحيحاً.[1] ولا تختلف عبارة ابن خلكان عما قاله البغدادى.[2] أمـا ابـن العمـاد الحنبلى فإن عبارته تُشعر بأنه استمر فى سماع الأحاديث النبوية حين ترك البصرة إلى بغداد، كما أنه يخالف فى أول سماعه فيجعله سنة ست وثلاثين وثلثمائـة [3] . ولعـل هـذا أقـرب إلى القبول، إذ كان المحسِّن فى التاسعة أو العاشرة من عمره.

لقد تقلب المحسِّن فى وظائف مختلفة وشغل منصب القاضى فى أكثر مـن مكـان، ومما يؤسف له حقـاً أن المصـادر التاريخيـة القريبـة مـن عصـره لم تهتـم بـأن ترتـب هـذه الوظائف زمنياً، مع أهمية ذلك فى تحديد أطراف خبراته العملية، وعلاقـة هـذه الخبرات بنشاطه التأليفى، ويمكن اعتبار "نُشْـوار المحـاضرة" مصـدراً أساسـياً للمعرفـة بحياتـه، مـن حيث قيام مادته على تدوين ما يدور فى المجالس وما يرتبط به من حوادث لم تُدَوَّنْ فـى الكتب، وقد بذل محقق "النُشوار"[4] -عبود الشالجى- جهداً طيباً فـى تجميـع مـا يتصـل بحياة القاضى التّنوخِىّ مباشرة، وترتيبه فى سياق زمنى متصل، أو شبه متصل. لقد استقر به الأمر فى بغداد عقب توليه قضاء القصر وبابل بِسِقْى الفرات، سنة ٣٤٩هـ، وأصبح

---

(١) تاريخ بغداد ص١٥٥-١٥٦

(٢) وفيات الأعيان : ١٦٠/٤

(٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : ١١٢/٣.

(٤) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : ٢٠/١-٢٤.

عضواً فى مجلس الوزير المُهَلَّبى. ويستنتج المحقق أن المحسِّن بَقِيَ فى بغداد حتى سنة ٣٥٥هـ، وأن بعض الأعمال المتصلة بالقضاء قد أسندت إليه أيضاً فى تلك الفترة، ثم غاب عن بغداد ما بين عامى (٣٥٥ و٣٦٠هـ). ثم عاد إليها ليستأنف ما انقطع من وجاهته الاجتماعية التى احتفظ بها برغم هذا الانقطاع. والدلائل تشير إلى أنه كان يتولى قضاء وَاسِطَ سنة ٣٦٣هـ، وبعدها لجأ التّنوخىّ إلى البطيحة، هارباً من ابن بَقِيَّةَ، وزير عزالدولة بُخْتِيَار، وبقى بعيداً إلى أن وثق صلته بعَضُدِ الدولة- ابن عم عزِّ الدولة وأقوى شخصية فى عصره - وقد كانت بينهما علاقة خاصة تحتاج قدراً من الاهتمام.

كان عَضُدُ الدَّولةِ البُوَيْهِىُّ (توفى سنة ٣٧٢هـ) أديباً وشاعراً، وحاكماً حازماً، وكان بلاطه يحوى نُخبة من الشعراء والأدباء معدودة، وقد قدَّم ياقوت وصفاً لبعض مجالس السمر فى حضرة عضد الدولة، دل على تنوع ثقافة التّنوخِىّ فى الشعر والرواية والموسيقى، مما سنجد عليه أكثر من دليل فى تحليل مادة كتابه، وسنقتطف ما يدل على مزاج القاضى ومنزلته وتطور علاقته. فقد كان يحضر مجالس سمره وفيها الغناء والشرب، ولكنه كان لا يشرب، وكان يعد قصائد يمدح بها عضد الدولة فى بعض مناسباته الخاصة، كما كان يراعى منزلة هذا الملك الفارسىّ إذا ما سمع شيئاً من شعره، حدث أن ذكر أحدهم بيتاً من نظم عضد الدولة وهو :

وَشُرْب الكأسِ من صَهْبَاءَ صِرفٍ   يَفيضُ على الشَّروبِ يدَ النُّضارِ

يقول القاضى التنوخى : "فقطعت المذاكرة، وأقبلتُ أعظِّم البيت، وأفخِّم أمره وأفرط فى استحسانه، والاعتراف بأننى لا أحفظ ما يقاربه فى الحسن والجودة فأذاكر به"(١).

هذا إذاً.. القاضى التنوخى رجل الحاشية وجليس الملوك، وليس الفقيه أو القاضى، أو الناقد الأدبى، ويتأكد هذا حين نراه يُقَبِّلُ الأرض شكراً حين يُنعم عليه عَضُدُ الدولة بشىء جزيل. يستمر هذا النمط من الحياة إلى أن تحدث الوَحْشَة، ثم الفُرْقَةُ والعقوبة. وقد جرى ذلك على مرحلتين، فكانت السَّخْطةُ الأولى بسبب تسرب خبر أُلقِىَ يُشير إلى أن الملك بسبيله إلى القبض على الصاحب بن عَبَّاد، وقد أَسَنْدَ هذا التسريب إلى القاضى التّنوخىّ، فجفاه الملك خَمسةً وأربعين يوماً، يشاركه المجلس دون أن يبادله كلمةً أو يرفع إليه وجهاً، والقاضى لا يجسر على الانقطاع أو مفاتحة الملك

(١) معجم الأدباء : ١٧/١٠١.

فيما نُسِبَ إليه، إلى أن يدافع عن نفسه، ويعترفَ على نفسة بالوشاية بمن سبق أن اختلق الخبر وحمله عليه. وكان القاضي التّنوخي إبّان قُربه من عضد الدولة قد توسط في عَقْد مُصاهرة بين الوزير الفارسيِّ، المُتَغلِّب، والخليفة الطائع، إذ تزوج الخليفةُ من ابنة الوزير، ولكنه مع حبه لها وشغفه بها، لم يحاول أن يُنجبَ منها تَخَوُّفاً من تزايد المطامع الفارسية، وقد فَطَنَ عَضُدُ الدولة إلى معنى هذا الامتناع عن معاشرة ابنته، فَحَدَّثَ القاضي التّنوخيّ في الأمر، وحمله رسالةً إلى الخليفة على لسان والدة الصَّبية بأنها مُسْتَزيدةُ لإقبال مولانا- الخليفة- عليها وإدنائه إياها. "فَقد كُنتَ وسيط هذه المصاهرة. فقلت: السمعَ والطاعةَ، وعدت إلى داري لألبس ثياب دار الخلافة، فاتفق أن زَلَقَتْ وَوَثَئتْ رجلي"!! والحق أن القاضي تَمَارَضَ، وتصنّع حادثة الانزلاق ورض عظام رجله، لعله تخوَّف من الدخول في مرحلة خصومة قادمة بين الخليفة المستضعف ووزيره القويّ. والمهمة في ذاتها غير مشجعة، وهي تختلف كثيراً عن الوَسَاطة في عقد مصاهرة. وقد كُشفَ أمر التمارض، فصدر أمر الملك للقاضي أن يلزم بيته، وعُزلَ عَن جميع مناصبه، وصُودرت أموالُه، واستمر ذلك إلى وفاة عضد الدولة[1] هكذا استحكمت الشِّدَّة، التي انتهت إلى "فَرَج" طال انتظاره، وكان تأليف كتاب "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة"، بمثابة نوع من العزاء أو طلب السُّلْوَان وتبديد قسوة الانتظار. وهذا يعني أن القاضي التّنوخي ألف كتابه وقد جاوز الأربعين من العمر، وأصبح صاحب تجربة، ابْتَلَى الحياة وابتَلَتْهُ الحياة، وسنجده في كتابه هذا يتمتع بقَدرٍ عظيم من التسامح وَرَحَابَةِ الصدر، ينمّ على حِكْمَةٍ وبُعْدِ نظر.

خرجنا لنستسقي بُيمْنِ دعائِه	وقد كان هُدْبِ الغَيْمِ أن يبلغَ الأرْضَا
فلما ابْتَدا يدعو تَقَشَّعَت السَّمَا	فما تَمَّ إلاّ والغمام قد انقَضَّا

وقال متغزلاً :

أقولُ لها والحيُّ قد فَطِنُوا بنا	وما لي على أيدي المَنُونِ بَراحُ
لما ساءَني أن وشَّحَتْنِي سيوفُهُم	وأنَّك لي دونَ الوشاح وشَاحُ

(١) معجم الأدباء : ١١٣/١٧، ١١٤.

يقول الثعالبى فى تقديمه للبيتين الأخيرين: "وأنشدنى غيره له، وأنا مرتاب له لفرط جودته وارتفاعه عن طبقته"[1] وهى عبارة دالة على منزلة التّنوخى فى الشعر، أما موقعه، أو موقع كتابه بين فنون النثر فى التراث العربى، فهو ما يحتاج إلى عناية وتفصيل.

✿✿✿

٣- صورة كتاب :

قسَّمَ القاضى التّنوخيّ مادة كتابه فى أربعة عشر باباً أشار إليها فى مقدمته :

الباب الأول : ما أنبأ الله تعالى به فى القرآن، من ذكر الفَرجَ، بعد البؤس والامتحان.

الباب الثانى : ما جاء فى الآثار، من ذكر الفَرَج بعد اللأوَاء، وما يُتوصل به إلى كشف نازل الشِّدَّة والبلاء.

الباب الثالث : مَن بُشِّرَ من نُطْقِ فَال، ونجا من محنة بقَول أو دعاءٍ أو ابتهال.

الباب الرابع : مَن استعطف غضب السلطان بصادق لفظ، أو استوقف مكروهه بموقف بيان أو وعظ.

الباب الخامس : مَن خرج من حبس أو أسر أو اعتقال، إلى سراح وسلامة وصلاح حال.

الباب السادس : مَن فارق شدَّة إلى رخاء، بعد بُشْرَى منام، لم يَشُبْ صدْقَ تأويله كذبُ الأحلام.

الباب السابع : مَن استُنقِذَ من كَرْبٍ وضيق خناق، بإحدى حَالَتَىْ عَمْدٍ أو اتّفاق.

الباب الثامن : مَن أشفى على أن يُقْتل، فكان الخلاص إليه من القتل أعجل.

الباب التاسع : مَن شارف الموت بحيوان مُهْلكٍ رآه، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه، ونجّاه.

الباب العاشر : مَن اشتد بلاؤه بمرض ناله، فعافاه الله تعالى بأيسر سبب، وأقاله.

الباب الحادى عشر : مَن امتُحِنَ من لصوص بسرق أو قطع، فعُوِّض من الارتجاع والخُلْف بأجمل صنع.

---

(١) يتيمة الدهر : ٢/٣٤٧.

الباب الثانى عشر : مَن ألجأه خوف إلى هرب واستتار، فأبْدلَ بأمْنٍ، ومُستجدِّ نعمة، ومسار.

الباب الثالث عشر : مَن نالته شدة فى هواه، فكشفها الله تعالى عنه، وملَّكَهُ مَنْ يَهواه.

الباب الرابع عشر : ما اختير من مُلَحِ الأشعار فى أكثر معانى ما تقدَّم من الأمثال والأخبار.

بعد قراءة عناوين الأبواب، ونظام تتابعها، يمكن أن نكتشف أنها لا تخضع لاعتبار واحد، ومِنْ ثَمَّ فإنها لا تتكامل، بقدر ما يمكن أن تتداخل. إن الأخبار والقصص والحكايات التى اختيرت لتأخذ مكانها فى هذا الكتاب، تم انتقاؤها على أساسٍ من الشكل الفنى : الشِّدَّة - الفَرَج، وهو أساس سليم، يُعَبَّرُ عنه بلغة الفن الأدبى بكلمتى: الأزمة - الحل، ومن هنا كان ينبغى أن يكون أساس التقسيم فنياً، يعتمد على نوع الأزمة، أو أسلوب الحل، ولكن يبدو أن جانب "الموعظة" فى هذه الأخبار القصصية كان الأكثرَ وضوحاً فى ذهن المؤلف للرابطة النفسية النابعة من التجربة الخاصة، ومن جانب آخر فإننا لا نستطيع أن نُحَمِّلَ التَّنوخِىَّ صفة التقصير، و لم تكن أمامه تجربة رائدة، كما لم تكن قضايا المنهج مما يهتم له المؤلفون، وسنرى أنه حتى فى إطار هذا التقسيم العام، فى داخل كل باب، كان التَّدَاعى يقوم بالدور الأساسى فى تتابع الأخبار والقصص. قبل أى اعتبار آخر.

إن البابين : الأولَ والثانى استحقا الصدارة لمادتهما ذات الصلة بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وقصص الأنبياء السابقين. وقد تسللت إلى بعض هذه القصص أساطيرُ إسرائيلية وغير ذلك دون أن تفقد حقها فى الصدارة لمغزاها الدينى فى نظر المؤلف، وبصفة عامة فإن فِقْراتِ هذين البابين -وإن دخلت تحت عنوان الكتاب- فإنها خارج طابعه العام، فأكثرها أدعية وأذكار تقال عند الشدائد، وأُثِرتْ عن بعض الأنبياء والصالحين والمكروبين من غير هؤلاء وأولئك، وكانت سبباً فى تبديد هذه الشدائد، وليس من اليسير اعتبار هذه الأدعية والأذكار قصصاً أو أخباراً حتى وإن ذُكرت المناسبةُ فى عبارات موجزة، لا تُشَكِّلُ منها عملاً فنياً تصويرياً، وهو الطابع العام لهذا الكتاب، ومن جانب آخر فإن وسائل الفَرَج أو ظروفَه فى هذه المأثورات ذات الطابع الدينى

كانت تسلكها فى أبواب الكتاب الأخرى، و لم يكن من دَاع لاستقلالها سوى هذه "القدسية" التى أسبغها المؤلف على هذا النوع من الأخبار.

لقد رُوعى فى توزيع الأبواب سببُ الشِّدَّة غالباً، كما رُوعى أسلوبُ الخلاص منها فى أبواب أخرى، وأهمل هذان الاعتباران اكتفاء بمطلق الشِّدَّة أحياناً: سبب الأزمة أو الشِّدَّة، روُعى فى الأبواب: الخامس والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر، فى حين أن أسلوب الخلاص من الشِّدَّة قد رُوعى فى اختيار مادة الأبواب: الثالث والسادس، فإن التبشير بالفَرَج من نطق فأل، أو بعد منام، ليس مما يدخل فى علاقة السبب والمسبب. وهو ما رُوعى فى أبواب أخرى هى: الرابع والسابع. وفى حين يُراعَى مطلق الشِّدَّة فى الباب الثانى عشر، وهو ما يَعْنِى أنه كان من الممكن توزيع مادته على أبواب سابقة، فإن الباب الأخير، بما اقتبس من أشعار، يلمس بدرجة أو أخرى جميع أقسام الكتاب. لعل هذا التداخل كان من أسباب إيثارنا لتقسيم آخر، يقوم على رعاية موضوع القصة أو الخبر.

ومهما يكن من أمر العلاقة المنطقية المنهجية بين أبواب الكتاب فإننا لا نستطيع أن نوجه لوماً إلى القاضى التّنوخِىِّ، لقد كان "الاستطراد والتذكر بالمناسبة" أسلوباً مقبولاً لتأليف الكتب، وبخاصة تلك التى تعتمد على الرواية والرواة، فهذا التعويل الشديد على المشافهة والسماع يجعل المادةَ الكلامية فى حالةٍ من الاستقلال والتشابك فى الوقت نفسه: الاستقلال بذاتها دون وقوف عند "موضوع الشاهد" أو "بيت القصيد" أو "العبرة" لأن الراوى لابد أن يؤدى الخبر كما انتهى إليه بكل ملابساته، ثم يأتى التشابك من خلال مسارب متعددة، فقد يسترسل الراوى نفسُهُ فى قصص أخرى لا يُستبعد أن تخالفَ أو تناقض ما سبق أن رواه، وقد تُشبه فى المغزى وتختلف فى الشخصيات التى صنعت الخبر أو العصر الذى تنتمى إليه. قبل التّنوخِىِّ بقرن ونصف القرن تقريباً ألَّف الجَاحظُ كتابه الشهير "البُخَلاءَ"، وهو محكوم بعنوانه مثل "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" ومع هذا فإن الجاحظ لم يبذل جهداً فى تقسيم مادته حسب العصور أو البيئات أو أنواع السلوك التى يعتنقها البخلاء.

وبصفة عامة، فإننا يمكن أن نتلمس الاعتبارات التى يرجح أن الكاتب وضعها موضع الاعتبار عن قصد أو مستهدياً حسه الفنى دون أن يقصد إلى ذلك قصداً.

أول هذه الاعتبارات : التدرج في تنمية الشكل الفنى من البساطة إلى التعقيد، ومن الإيجاز إلى الإطالة والإشباع، ومن الغيبى الدينى، إلى الواقعى الاجتماعى. يبدأ بالأدعية والأذكار في مواطن الشِّدَّة التى تعرَّض لها الأنبياء، من آدم إلى محمد عليه السلام، ويغادر الأنبياء وقصصهم إلى مَن يلوذ بهم من الأولياء والصالحين. كما يغادر "المعجزة" إلى الكرامة" ثم يمضى إلى المواجهة بين ذوى السلطان ومن يدور فى فلكهم من الوزراء والعمَّال، أو المواجهة بين واحد من هؤلاء وشخص مغمور دَفعَتْ به الحوادثُ المُستجدَّة إلى براثنهم فنجاه الله بموعظةٍ أو كلمةِ صِدْق، ثم يتدرج إلى قصص اللصوص وقُطَّاع الطُرق وحيلهم وما حاق بالناس من شرهم، وحين يبلغ الباب قبل الأخير- وقد عقده لقصص المحبين والعُشَّاق - فإنه يكون قد بلغ أعلى درجات التركيب الفنى جودة، كما يتمكن من اتخاذ قصة الحب هذه وسيلة إلى الغوص فى حياة المجتمع - بكل طبقاته تقريباً- والغوص إلى أعماق جديدة فى النفس الإنسانية لم يبلغها فى قصصه السابقة.

الاعتبار الثانى : استدرار المادة القصصية بطريق التداعى، وقد أشرنا إلى هذا الجانب منذ قليل، فعلى الرغم من توزيع مادة الكتاب فى أبواب ذات عناوين تحاول أن تكون محدَّدة -وهذا ما لم يتحقق- فإن التداعى داخل قصص الباب الواحد قد تلعب الدور الأساسىَّ فى ترتيب هذه القصص، للأسباب التى أسلفنا، ونتيجة لذلك فإن طابع "المسامرة" قد غلب على الكتاب، وقد كانت "المسامرة" - التى يُفَضِّل القاضى التَّنوخِىُّ أن يدعوَها "المُذاكرة" مصدراً رئيسياً لإمداده بالقصص فى مجلس أبيه، وقد ترددت هذه العبارة فى صدر عدد من قصصه: "حدَّثنى أبى فى المذاكرة، من لفظه وحفظه، و لم أكتبه فى الحال، وعَلق بحفظى، والمعنى واحد، ولعل اللفظ يزيد أو ينقص"، بل إنه ينص على هذه المذاكرة فى عنوان كتابه الآخر: "نُشوار المحاضرة وأخبارُ المذاكرة".

ويمكن أن تنحصر أنواع التداعى التى استخدمت فى ترتيب القصص فى الآتى :

(أ) تَدَاعٍ مصدره شخصية "البطل" الذى يدور الخبر من حوله، مثل ذكره لأبيات دَلَّسَ بها الشاعر البحترى على "المعتز" فى سجنه قبل أن يصير خليفة (القسم الثانى: الفصل الثانى-القصة رقم ١٧) فتستدعى أبيات البحترى إلى خاطره أبياتاً أخرى قالها لشخص آخر وقع فى شدة، وذلك هو أبو سعيد الثغرى الذى سجنه المتوكل

وصادر أمواله، فتألم له البحترى فى أبيات، كان وصولها إلى أسماع المتوكل سبباً فى إطلاق الثغرى من حبسه، وتوليته، ثم يقول فى الخبر التالى: "ومن محاسن شعر البحترى، الذى يتعلق بهذا الباب، وإن كان تعلقاً ضعيفاً، إلا أن الشىء بالشىء يذكر ولاسيما إذا قاربه"، ثم يأتى بأبيات للبحترى قالها مهنئاً إبراهيم بن المدبر حين فرَّج الله شدَّته، بعد أن سقط فى أسر الزنج، وتمكن من نقب السجن والهرب... إلخ، ونستطيع أن نقول: إن التداعى الذى يرجع إلى شخصية البطل لم يُستخدم كثيراً، والقصص والأخبار الخاصة بالرشيد، والحجاج، والبرامكة، والمنصور، والمأمون – على كثرتها النسبية – ليست متتالية، وأحياناً ليست متقاربة إذ احتكم فيها إلى اعتبارات أخرى.

(ب) تداع مصدره شخصية الراوى، أو الكتاب الذى ينقل عنه، وبالنسبة لشخصية الرواية فإنه نقل كثيراً عن الصولى، كما تتكرر عنده سلسلة الرواية عن أبى قيراط وولديه. وقد يحدث أن يعتمد على النقل من مصدر واحد قصصاً متتابعة، وبخاصة حين يكون هذا المصدر محدد الموضوع، ومِنْ ثَمَّ يمكن أن تتجمع قصصه وأخباره فى إطار معنوى واحد. وقد حدث هذا كثيراً عند النقل عن الجَهشيارى[1]، وجدير بالذكر أن المصدر واحد، وهو كتاب الوزراء والكتّاب، والموضوع واحد أيضاً، حسْبما شَرَطَ على نفسه فى توزيع الأبواب، ولكن البطل مختلف فى كل قصة، بل إن الموضوع يختلف كثيراً إذا دققنا فى مغزاه وتركيبه، ويحدث الأمر نفسه عند النقل عن المدائنى، ولا نستطرد فى هذا الجانب الواضح، أما تداعيات الرواية أو السلسلة من الرواة فإنها أقل تأثيراً، بالإضافة إلى أبى قيراط، يمكن أن نجد قصصاً متتابعة من رواية : يحيى بن فهد الأزدى، وسعد بن محمد الأزدى، الشاعر المعروف بالوحيد، وعبدالله ابن محمد الصَّرَوى، كما تكررت سلسلة: علىّ بن أبى الطيب، عن ابن الجَرّاح، عن ابن أبى الدنيا، متقاربة ومتباعدة.

(جـ) تداع مصدره المغزى الدقيق للحادثة، أو المعنى اللغوى لها، من النوع الأول: ما حلم به الإسكندر الأكبر، إذ رأى فى منامه كأنه صارع دَارًا –ملك الفُرس – فصرعه دارا، فَكَرَبَهُ ذلك وزاد همَّه، ولكن عبارة الرؤيا أشارت إلى أن الإسكندر

(١) محمد بن عَبْدُوس الجَهْشيارى صاحب "الوزراء والكُتّاب" نشر بتحقيق مصطفى السقا وآخرون.

هو الذى سَيَظْفرُ بَخصمه، وقد قال له بعض فلاسفته معللاً: "أبشر أيها الملك بالغَلَبَةِ والنصر، فإنك تغلب دَارًا على الأرض؛ لأنك كُنْتَ تليها لما صَرَعَك!!.

ويستدعى هذا رؤيا رآها عبدالله بن الزبير إبّانَ صراعه مع عبدالملك بـن مـروان، فصرع عبدَالملك، وسمَّرَه فـى الأرض بأربعـة أوتـاد. وقـد فسَّـر ابـنُ سـيرين هـذه الرؤيـا بانتصار عبدالملك، للأسباب ذاتها التـى أعلنهـا الفيلسـوف اليونـانى. ويزيـد تفصيـلاً أن الأوتاد الأربعة هم أولادُ عبدالملك الأربعة الذين يرثون مُلْكه من بعده.

أما التداعى اللغوى فنجده ماثلاً فى حادثة الخلع الثـانى للخليفـة الْمُقْتَـدر، يرويهـا فتذكره بَخَلْع الأمين، مع فارق فى الدوافع والنتـائج، يسـتدعى منـه أن يعـود إلى حادثـة الخلع الأول للمقتدر.

الاعتبار الثالث: الاهتمامُ بتوثيق المادة الَمرْوِيةّ، سواء أكانت تاريخاً مروياً أبطالـه أشخاص معروفون، أو كـانت مجـرد أخبـار عـن نَكِـرَاتٍ مـن عامـة النـاس، أو كـانت حكاياتٍ وُضعت لسبب أو لآخر، كالوعظ والتعليم، وظلت واضحة الاختراع والوضـع برغم ذلك.

لقد حرص القاضى التّنوخِيُّ على تسجيل كيفية وصول الخبر أو القصة إليه، ومن هنا كـثر ترديـد كلمـات : حدَّثنـى، أخـبرنى، حدَّثنـا، أخبرنـا، إذا مـا كـانت الْمُشَـافَهَةُ والسمَّاعُ طريقة التوصيل، وكلمات : "وجدتُ بخَط القـاضى أبـى جعفـر"، "وقـد ذكـر محمد بن داود فى كتابه المسمى كتاب الوزراء"، وما إلى ذلك من عبارات تؤكـد صلتـه المباشرة بالمصدر الذى نقل عنه. وسنعود إلى هذه النقطة بشىء من التفصيل حين نـناقش مصادر المؤلف.

الاعتبار الرابع: أن المؤلف التزم بحدود العُنوان الذى اختاره لكتابه، ومع معرفتنـا بتكوينه الثقافى الذى تغلب عليه طبيعةُ الفَقيه، ونشاطه العملى الذى لابد أن يكـون قـد أصْطَبغَ بصِبْغَة القاضى، فإنه لم يحتكم إلى فقهه أو قضائه فى انتقاء مختاراتـه مـن الأخبـار والقصص والحكايات الشعبية، لقد كان يُخفي حِسًّا فنيـاً رَحْبـاً، يَهَـشُّ لروعـة المفاجـأة ويستجيب لمواطن الُمفارقة، ويتجاوب مع الفرح بالحياة، سواء اتفق هذا مع جـد الحيـاة، وعدالة السلوك والحكم أو ناقضه، وربما دلَّت الأبيـات القلائـل التى اقتبسـناها لـه علـى

شيء من ذلك، ومن الواضح أن قبُولَه منادمةَ مشاهير عصره، وبخاصة عَضُدُ الدولة، وقبولَ أن يكون شاهداً لما في هذه المجالس من مخالفة ما ينبغي الْتزامُهُ، حتى وإن لم يُشارك في الفعْل، يدل على هذا التسامح السلوكي، ولابد أنه كان يستجيب بطبعه إلى هذه الحياة، وقد ذكر في "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" قصةَ صاحب الشُرطة الذي رفض أن يكون نديماً للخليفة لأن هذا يناقض طبعه وانضباط مهنته، وبعد جفوة قصيرة قبل منه الخليفة هذا التفسير، بعبارة أخرى: لو أن القاضي التّنوخيَّ لا يملك رغبةً دَفينَةً في تَذَوّقِ مباهج الحياة ومُشاهدة مسرّاتها، ما استطاع أحد إكراهَهُ على ذلك.

هذه صورة شديدةُ العمومية للكتاب، تحتاج إلى أن نعود إلى تأمل نواحيها بشيء من التفصيل، من خلال علاقة القاضي التّنوخيِّ بموضوع "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة".

✿✿✿

الذات والموضوع

١- حسّ الفنان :

لم يكن القاضى التّنوخِى مُبْتَدِعَ عنوان "الفَرَجُ بعد الشِّدة"، فهو مسبوق إليه، كما سنرى، ومع هذا فإن هذا الاختيار لعنوان كتابه، يبدو وكأنه صادر عن نفسه، معبِّر عن رؤيته لنظام الكون، ونظام الحياة. لقد اجتاز محنةً شخصية كانت هى الدافع المباشر لتأليف الكتاب، ولكننانعرف أن "نقطة التحريك" التى تدفع كاتباً ما إلى الاهتمام بموضوع معيَّن، لا تَعْنِى بالضرورة أن تظل هذه النقطةُ أو هذا الحافزُ الشخصىُّ، يظل مسيطراً على أفكار المؤلف، وإلا لتشابهت الكتبُ ذاتُ الموضوعِ الواحد، أو الحافزِ الواحد، سيعود الأمر إلى حَجْمِ ذخيرةِ المؤلف من المعرفة، ومدى انفساح عقلِهِ وَرُوحهِ للموافَقة أو المخالفُة، ودَرايته الفنية بأساليب القول، وقدرتِهِ علَىَ اسْتِنْبَاطِ ما هو ظاهر، والغوص إلى الرموز والدّلالات. وفى كل هذه الجوانب ودون أن نعمَد إلى الموازنة التفصيلية بين ما كتب التّنوخِىّ وما كتب سابقوه فى إطار الفَرَج بعد الشِّدَّة، قدَّم التّنوخِىُّ من براهين اتساع الأفق، والقدرة على الغفران، والحدْب على الضعف الإنسانى ومجانبة التزمت والعُنْف، ما يؤكد امتلاء نفسه بحسِّ الفنَّان واستنارة بصيرته، حتى إن ذلك كان يؤدى به أحياناً إلى الخروج عما شَرَطَ على نفسه فى عنوان كتابه، وإلى مجانبة الجد، بل منُاقضة الهدف الأخلاقىِّ الذى حَرَصَ عليه أحياناً، وأهمله أحياناً، من زاوية أن "الأخلاق" ليست شرطاً للفن الجميل، وهذه مَقُولَةٌ لم يبتدعْها القاضى التّنوخِىُّ، وقد عُرِفَتْ قبل عصره فرددها الجاحظُ فى كتاباته، وبخاصة فى "المحاسن والأضداد" وافتتح بها محمد بن سلام الجمحى كتابه : "طبقات فحول الشعراء"[(١)] ، ثم نصَّ عليها قدامة بن جعفر صراحة [(٢)] وهو يكاد يكون معاصراً للقاضى التّنوخِىُّ (توفى قدامة سنة ٣٣٧هـ) فلا نستغرب أن نجد هذا القدر من "التسامح" فى الكتاب، فهو - على أيه

(١) طبقات فحول الشعراء - المقدمة.
(٢) فى كتابه : نقد الشعر ص٦٥.

حال - مسبوق بتسامحه السلوكى، النابع من إحساس الفنان، ورجل الحاشية معاً، لقد اقتنع القاضى التَّنوخِيُّ بأن وراء كل شدَّة فرجاً: "إن الله بحكمته، أجرى أمورَ عباده، وأغْذياء نعمته، منذ خَلَقَهم، وإلى أن يقبِضَهم، على التَّقَلُّبِ بين شِدَّةٍ ورَخَاء... علماً منه تعالى بعواقب الأمور، ومصلحة الكافة والجمهور"(١) .

إن الأساسَ الغَيبى القَدَرىَّ ثابتٌ عند المؤلف، فالفَرَجُ من الله سبحانه، وهو يسبب الأسباب، ولهذا يبدأ كتابه بآيات اليُسْر الذى يُقاوِم العُسر، ومَنْ يجيب المُضطَرَّ إذا دعاه ويَكْشفُ السوء، ثم يُثنى بما ابتليَ به الأنبياء من مِحَنٍ، وكيف ذهب الكيد البَشرىُّ هباءً حين أرادت السماء أن تنصررُسُلَهَا، ومعَ هذا فإن المشاركة الإنسانية فى رفع البلاء عن المكروبين من القيمَ الدينية الثابتة، فإذا جاء الحديث الشريف بأن: "أفضلَ أعمال أُمَّتى انتظارُ الفَرَجِ من الله عَزَّ وجَلَّ" فقد نص حديث آخر على أن : "مَنْ سَتَرَأخاه المسلم سَتَرهُ الله يومَ القيامة، ومَنْ نَفسَ عن أخيه كربة من كُرَبِ الدنيا، نَفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يوم القيامة، وإنَّ الله فى عَوْنِ العبْدِ ما كان العبدُ فى عوْنِ أخيه"، وبعد إقرار هذين المبدأين: أن الفَرَجَ من الله سبحانه، وأن هذا لا يُعفى الإنسانَ من مشاركةِ الآخرين فى التغلُب على صعابهم، يسجل القاضى التَّنوخِيُّ رسالة الشاعر أبى الفرج البَبَّغَاء التى أرسلها إليه إبّانَ محنته حينَ صَرَفَهُ عَضُدُ الدولة عن جميع وظائفه واعتقله فى بيته، وفيها يكشف عن قانون كَوْنِىٍّ لا فكَاكَ منه، هو دَوْرَهُ الكَوْنِ والفساد، وتلازمهما، فلكل شىء إذا مَا تَمَّ نُقصان، لهذا من حقنا أن نغتبط عند احتكام الأزمة، واشتداد الضائقة، إذْ ليس بعد ذلك إلا الفَرَج "لأن انتهاءَ الشىءِ إلى حَدِّه، ناقلُ له عما كان عليه إلى ضدِّهِ، فتكاد المحنة بهذه القاعدة، لاقترانها من الفَرَج بفسيح الرجاء، وانتهاء الشِّدَّة منها إلى مستحد الرخاء، أن تكون أحقَّ بأسماء النِعَم".

ثم ينتقل المؤلف إلى إضافة أخرى، يعالج بها مرحلة "التوقع" للشِّدَّة، وهى عادةً تسبق مرحلة "الوقوع" فيها، وهو يرفُضُها من مُنطلق فلسفى يعتمد على مبدأ "الاحتمال" فما دام وقوع الشدائد مجرد احتمال، لا يرتفع إلى درجة المستحيل الوقوع، ولا إلى المحتم الوقوع، فإن نسبةَ الحدوث تتساوى ونسبةَ عَدَم الحدوث، ومن هنا "لاَ

(١) انظر مقدمة المؤلف.

يَغْلِبنَّ على قلبك، إذا اغْتَمَمْت ما تكره دون ما تحب، فلعل العاقبةَ تكون بمَا تحب، وَتَوَقَّى ما تكره، فتكون كمن يَسْتسلِفُ الغَم والخوفَ".

ثم تكتمل رؤية القاضى التّنوخِيُّ بربط الفعل البشرىَّ بالإرادة الإلهية، فاكتمالُ هذه الإرادة ونفاذُها لا يَعْنِى تعطيلَ الفَعلِ البَشرى أو عبثَ السَّعْىِ بحثًا عن حل لما يُعانى الإنسان، فهناكَ دائماً دَوْر أسَاسى للفكر الإنسانى، والفعل الإنسانى، والحيلة الإنسانية، وإذا بَذَلَ الإنسانُ جهَده كلّه فى البحث والمحاولة، فإنه لابد واجد وسيلَة، فإذا عجزت الوسائل، فإنه لم يعد أمامه إلا إنتظار الفَرج من الله تعالى.

هذا – إذاً – الإطارُ العام الذى تحرك فيه معنى الشّدَّة، وجَهْدُ الإنسان فى البحث عن مَخرج، أو عن "فَرَجٍ" يقاوم به معاناته، ولأنه أعطى الجُهْد الإنسانى دوراً أساسياً فإن هذا الجُهْد، من حيث يحتكم إلى فطرته الخاصة، وتجاربه السابقة وأسلوبه فى العمل ومستواه فى التفكير، وطبيعة المجتمع الذى يتحرّك بين أقطاره، يمكن لهذا الجُهْد أن ينساق إلى أعمال وأقوال، تبتعد -بدرجة أو بأخرى- عن مفهوم الفَرَج الإلهى، الذى ينتظر -عادةً- هناك، فى نهاية المطاف، عندما تعجز كلُّ الوسائل البَشرية، ومن ثَمَّ يمكن لهذا الجُهْدِ أن يقع فى مخالفات دينية واضحة، وهفواتٍ سلوكية لا خلافَ على خطئها، ومجانبة للعفة والنزاهة والصدق. والجدير بالتأمل حقاً أن القاضى التّنوخِىَّ قد سجَّل ست عشْرَةَ قصة، أو خبراً من هذا النوع، دون أن يُرْفقها بأى تعليق يظهر ما تقوم عليه من تناقض أو مخالفة، وهنا لم يكن فقيهاً يبحث فى الحلال والحرام، وما يجوز وما لا يجوز، ولم يكن قاضياً يُعْنَى بإصدار الأحكام على كل ما يُشاهد من أفعال، وما يسمع من أقوال، لقد كان فَنَاناً وحسب. وكانت الحاسةُ الفنية تؤدى واجبَها فى التقاط الحادثة النادرة، وتسجيل الحوار المُتّسِمِ بالذكاء والألمعية، واصطياد الحل المفاجىء غير المتوقع وتحليل المواقف الطريفة، دون أن يَشْغَلَ نفسَه بإصدار الأحكام الأخلاقية على هذا كله، أو على شىء منه. وجدير بالذكر أن هذا النوعَ من القصص والأخبار ينتشر على مساحة الكتاب فى جملته، وهذا يَعْنى رسوخَ الإيمان الفنى والاقتناع بالمفهوم العملى للفَرَج، هذا المفهوم الذى ينهض على التصوّر الاجتماعى لمعنى جَلاء الهَمّ، وكشف الغَمّ، بصرف النظر عن طبيعة هذا الهَمّ، والأسلوب الذى اتبع فى كشفه.

أول ما نصادف من قصص هذا النوع ما نقله عن بعض الكتب: أن رجلين أُتِيَ بهما إلى بعض الولاة، وقد ثبت على أحدهما الزَّنْدَقَةُ، وعلى الآخر شُرْبُ الخمر. فسلَّم الوالى الرجلين إلى بعض أصحابه، وقال له: اضرب عنق هذا؛ وأشار إلى الزِّنْديق، وحِدَّ هذا؛ وأشار إلى الشارب.

وقال : خذهما.

فلما ذهب بهما ليخرجا، قال شاربُ الخمر للوالى: أيها الأمير، سَلِّمْنى إلى غير هذا ليقيم علىَّ الحدّ، فلستُ آمنُ أن يَغْلَطَ فيضربَ عنقى، ويُحِدَّ صاحبى، والغلط فى هذا لا يُتلافى!!

فضحك منه الأمير وخَلّى سبيله، وضرب رقبة الزِّنْديق.

ومثل ذلك ما يروى فى خبر آخر، أن رجلاً قامت عليه البَيِّنَةُ بالسرِقة، ووقف أمام عبدالملك بن مَرْوَان، ليأمرَ بإقامة الحدّ عليه، فأمر بقطع يده. فأنشده الرجل بيتين، يتحسر على يده، ويبتهلُ إلى عبدالملك أن يعفوَ عنه، فكان ردُّ الخليفة: هذا حَد من حدود الله تعالى ولابد من إقامته عيك.

وهنا تكلمت أمُّ المحكوم عليه، وهى كبيرة السن، تستعطف أمير المؤمنين لابنها الذى يَعُولُها وأنه ابنُها الوحيد، وتسأله أن يَهَبَهُ لها. ولكن قلب الخليفة لم يَلِنْ لرجاء العجوز، ووصف ابنها بالسوء؛ وأنه لابد من إقامة حدود الله عَزَّ وجَلَّ.

وهنا قالت العجوز: يا أمير المؤمنين، أجعَلْهُ من ذنوبك التى تستغفرُ اللهَ منها!!.
وهنا أمر عبدُالملك بإطلاق الفَتَى والعفو عنه.

فى هذين الخبرين يُعطلُ حَدُّ شرعى، فى مقابل المفارقة اللاّذعة، والنكتةِ المحبوكة التى لجأ إليها السكران فى الخبر الأول، ولروعة التعبير وقُدْرته على تحريك مخاوف الإنسان، وبخاصة مَنْ يتصدى للحكم، ويعرف أنه ليس معصوماً عن الخطأ، ولعله ظَلَمَ أو أخطأ من قبل، وأنه لابد قد اقترف ذنوباً أعظم من "خطيئة العفو" عن ولد وحيدٍ يَعُولُ أُمه العجوز، فى الخبر الثانى.

أما أعشى هَمْدَان، وكان من شعراء الكوفة وفقهائها في زمن الحَجَّاج، فقد غـزا مع الجيش الإسلامي بلاد الدَّيْلَم، فوقع في أسرهم مدة، وحُبِسَ فـي بيـت المقـاتل الـذي أَسَرَهُ، وكان لهذا الدَّيْلميّ بنت، رأت الأعشى، فهويته وتسللت إليه ليلاً، فكان ما كـان بين الأسير والفتاة، وأعجبها، فعرضـت عليـه أن تعاونَـه علـى الهـرب. علـى شـريطة أن يأخذها معه، ويصطفيها لنفسه، وهكذا هرب أعشى همْدان.

أما ابن الموصول، وهو بَزَّازٌ (تاجر حرير) من حلـب، فقـد حبسـه سـيف الدولـة لضرائب كانت متأخرة عليه، وكان ابن الموصول حاذقاً فـي تفسـير الأحـلام، ومـن ثَـمَّ اخترع لنفسه حُلْماً، تفسيره أنه لابد أن يُطْلَق من حبسه هذا اليوم، وعلـى الفـور طلـب مقابلةَ سيف الدولة، وحكى له رؤياه الملفَّقة، وفسَّرها بين يديه بأنـه يجـب إخراجُـه مـن الحبس في نفس اليوم، فقال له الأمير: أحسنتَ التأويل، والأمـر علـى مـا ذكـرتَ، وقـد أطلقتُكَ، وسوغتك خَرَاجَكَ في هذه السنة، فخرج الرجل يشكره، ويدعو له!

وفي قصة طويلة نجـد منامـاً آخـر، حَلَـمَ بـه الخليفـة العباسـي المعتمـد علـى الله، ومضمونه أنه رَأىَ النبي عليه السلام في المنام، وأنه أمره بإطلاق سراح رجلين مظلومـين في سجونه، فاستيقظَ من غفوته وأمر بإطلاقهما، وسمع منهما أسباب حبسهما، وعـرف أنهما مظلومان. لاغرابة في أن يرى إنسـان مـا رسـولَ الله صلـى الله عليـه وسـلم فـي منامه، ولكنَّ الغرابةَ أن الخليفة قبل أن يَغْفُوَ كان جالساً بين ندمائه يَسْمُر، فَحَمَـلَ عليـه النبيذُ، فجعل يخفِقُ برأسه نعاساً (القسم الثاني – الفصل الأول، القصة رقم١١).

فكما نرى فإنه في حال لا يصـح معهـا أن يـرى رسـول الله فـي منامـه. والمثـير للتأمل أن القاضي التَّنوخِيَّ يورد القصة ذاتها برواية أخـرى، ويكـون هـاتفُ المنـام فيهـا رجلاً مجهولاً وليس النبيَّ عليه السلام، وفي هذه الرواية الثانيةُ يُوصَـفُ خليفـةُ المسـلمين بأنه كان كثير الشراب وأنه إذا شرب يُعْربدُ على جلسائه، وأنه في الصباح، حـين ذُكِـرَ أمامَه إطلاقُ سَرَاح الرجلين المحبوسين لم يَذْكُرْ شيئاً مما أَمَرَ بـه وهـو تحـت تأثـير الخمـر، والقاضي التَّنوخِيُّ يُسجِّل الروايتين دون أن يُشكِّكَ في صدق رؤية النبي فـي الأولى، أو بُعْدَ الاحتمال في الثانية. إن الفَرَج قد أدرك السجينَ، وهذا هو جوهر الموضوع، هكـذا تتعدد المواقف التي يُسرع فيها "الفَرَجُ" لمن لا يستحقه كجائزة على سلوك أخلاقـي، أو اعتقاد صالح، أو صبر جمل، أو بَذْلٍ طيب. إن الفَرَجَ – فيما تقدَّم– ثمـرةُ ذكـاء يَختَلق،

أو يُلفق، أو يحتال، أو يتوهم، وهـو فـى هـذا كله يصـدر عـن سـلوكٍ نَفْعِيّ، وموقـف انتهازى، وفى أحسن الأحوال، أوهام الغيبوبة.

ونجد فى قصص أخرى ما هو أشد مُنَاقَضَـة لمعنى الفَرَج مما تقـدم، ففـى أسـوأ التصورات لا نجد أحداً ممن تقدَّم قد أنْزَلَ الضرر بشخص آخر، وإن حصَّلَ لنفسه منفعةً عاجلة، أو أزال عنها خسارةً مُتوقعة. أما النماذجُ التى سنعرض لها الآن، فإنها تصـرخ بالتجنىِّ على برىء، وأختلاس حقِّ ضحية بلا جريرة، والتعدّى على حرمات تستحق أن تصـانَ، وتُصـانَ أعـراضُ أصحابهـا. فهـذا ابـنُ قُمَيْر، مُجلِّدُ الكتب بـالُموصِل، يـأخذ دفتراً لتجليده لأحد القادة الأشداء، الـذى يُسـرف فـى توصيـة ابـن قمـير بـالحرص علـى الدفتر، لكنه يسقط فى الماء عند قيامه بالوضوء من النهـر، فيُدركـه وقـد ابتـل، ولا يجـدَ مَفراً من أن يُجَلِّدَهُ ويحاولَ سَتْر ما حدث دون جدوى، ويَعْزِمُ على إعطاء الدفتر لحـارس الباب، والانصراف والهربِ قبلَ إدراكه، لكنَّ حارس البـاب يُعلمـه أن القـائد بـالداخل، والأوفقَ أن يقدّم له الدفتر بنفسه، وهكذا أسْقِطَ فى يده وتوقع شر عقوبة. ولكنـه حـين أدْخِلَ وجد القائدَ الشرسَ يجلسَ فى صحن القصـر أمـام بركـة مـاء. وأخـرج أبَنُ قُمـير الدفتر من كُمِّه وناوله لأحد الغلمان، ولكنه سقط من يد الغلام فـى البركـة أمـام عيْنَـىْ سيده، الذى أنَزل بالغلام المسكين عقوبةَ الضرب بالمقـارع، لأنـه أفسـد دفـتره العزيـز!! فأى فَرَجٍ، وأى ظلم؟

وتتكرر قصة مَنْ تسوقُه ظروف قاسية إلى مكـان موحـش، فيجـد فيـه لصوصـاً وقَتَلة، قد قتلوا نفوساً بريئة، وسرقوا مالاً حراماً، فيغافلُهم ويهربُ بمسـروقاتهم، ويظهُـر فى مكان آخر وقد صار من الأثرياء، دون أن يَطْرِفَ له رِمْش، ودون أن يُطلـقَ المؤلـفُ فى أعقابه عبارة تَعَجب، فضلاً عن استنكار، بل إن منتهب قاطع الطريـق، وقـد اسـتولى على كل ما خبَّأ يقول بلهجة نستطيع أن نجد نغمـة المباهـاة فـى تركيبهـا: "وفـزتُ بمـال عظيم أغنانى عن مقصدى وعدتُ إلى بلدى"(القسم الثانى-الفصل الأول-قصة رقم١٣).

ولا يختلف عن ذلك كثيراً ما فعله ابن عَبْدون الأنبارى الكاتب، وقـد خـرج مـن بغداد لا يجد قوتَ يومه، ثم تسوقه الظـروف إلى مصـر، إبَّـانَ ثـورة أقباطهـا فـى عصـر المأمون، فلما جاء جيش الخلافة هرب كثير من الأسـر، ثـم مُنِحـوا الأمـان، وجنـى ابـنُ عبدون من رَشَاوَى بذل الأمان "فى ليلة وَاحدة، مائة ألف دينار حلالاً طيباً".

أما سلامةُ القسّ فقد استمعت إلى نصيحة ابن أبى عتيق، وتمكنت من إلغاء قرار عثمانَ بن حَيّان المُرّىّ، وإلى المدنية، بتطهيرها من الغناء والزناء، فبقى كل شىء على حاله، وكان الفَرَج!! (القسم الثانى الفصل الأول -قصة رقم ١٤).

وحين نصل إلى قصص عُشاق العرب فإن الفَرَج سيكون أبداً ماثلاً فى خِداع الزوج، أو الضمير العام، وتمكن العاشق من بلوغ مرامه من معشوقته، فالأشْترُ يعشَق جَيْداء، وهى زوجة، ويضرب لها موعداً عند الشجيرات، "ولقيها فقبَّل بين عينيها" وقررت أن تقضِىَ ليلتها معه وتَخدعَ زوجها عن غيابها، فترسل بصديق عشيقها وقد ارتدى ثيابَها ونام فى فراشها إلى الصباح، وجازت الخُدْعَةُ على الزوج الضحية، ونَعِمَ الحبيبان بليلةٍ ليس فيها رقيب!!

أما الأسدىّ الذى هَوِىَ امرأةً من هَمْدان بالكوفة فإنه أثار قلق جيرانها، فراقبوه، حتى إذا دخَل عندها اقتحموا ليضبطوه متلبساً، ولكن هيهات، لقد جاءه الفَرَجُ بطريقة غير متوقعة، كانت المرأة بدينةً جداً، فوضعت حبيبَها - ويبدو أنه كان على العكس منها ضئيلاً جداً - خَلْفَ ظهرها "فأدخلته بينها وبين القميص، ولزمها من خلفها، وبهذا لم يُعثر عليه".

وتتكرر فعلة الأشْتَر وجَيْدَاء والزوج المخدوع، مع جميل وبُثَينة وزوجها، غير أن الحبيبين يلتقيان فى خَيْمةِ بُثينة، وراحا يتحدثان وهما مضطجعان، وذهب بهما النوم حتى أصبحا، ورآهما خادم الزوج الذى ما لبث أن أبلغ سيده بما عَايَنَ، ولكنَّ حِيَلَ العُشّاق لا تغلبُها مُعاينة ولا مُلاَينة!!.

لقد حاول القاضى التّنوخِى أن يضعَ فى سياق قصص العِشق ما يوحى إلى القارىء بأنها لم تُفْضِ إلى ارتكاب محرَّم، أو إلى الزنا على وجه التحديد، فالأشْتَرُ يقِّبل بين عَيْنَىْ جَيْدَاء، ثم يقطعان الليل فى الحديث والشكوى، وجميل لا يخلوبُثينة فى خِبائها، فمعهما أمُّ الجُسَيْرِ صديقتُها، وما دام معهما ثالث فليس باستطاعة الشيطان أن يكون رابعهما!!

هذه محاولات سقيمة، تريد أن تخفف مما يظهر فى هذه القصص من حرية السلوك العاطفى، وجُرأة العُشَّاق -رجالاً ونساءً- فى كل العصور، وعلى كل

المستويات. ومهما حاول القاضى التّنوخى أو غيرهُ ممن عنى بقصص الحب أن يحمِّل الواقع بشىء من تَوْشيَةِ الخيال فإن الصورة ستبقى نابضة بصدق ما كان، لأنه ما يكون، وما سيكون من صراع الهوى والإرادة، وتَعَاكُسِ الشرعية والتمرد، فى كل العصور. وسيبقى القاضى التّنوخى جديراً بصفة الفنّان الصادقَ، ذى الحسِّ الملهَم حتى وإن غَمَزَ ذلك فى فقْهِهِ وقضائه!! ومهما يكن من أمر، فإننا لم نذكُر ذلك لنَقْدَحَ فى نزاهة القاضى التّنوخى أو دينه، والواقع الذى وصفناه مستمَد من كتابه، وهو يُحسب له، لا عليه، حين تكون "القَصص" و"أخبار التاريخ" العام أو الفنىّ، هى الوسيلة.

ومن قَبْلُ ألف الفقهاءُ فى الحب والعِشْق بدءاً بمحمد بن داود الظاهرى، وهو قريب عهد بالقاضى التّنوخى (توفى سنة ٢٩٦هـ، أى قبل مولد التّنوخى بثلاثين عاماً)[١] ومن بعده ألفَ فقهاءُ لا يقلون شُهْرةً بالعلم والنزاهة عن ابن داود، مثل ابنِ حزم، صاحب "طوق الحمامة" (توفى سنة ٤٥٦هـ)، وابنِ قَيِّم الجَوْزية، مؤلف "رَوْضَةِ المحبين ونُزهةِ المشتاقين" (توفى سنة ٧٥١هـ) وغير هؤلاء من أكابر الفقهاء الذين لم يصرفْهم فقْهُهُم، ولا أوْقَعهم فى الحرَج، عن وَصفْ حالات الإنسان، وجموح العواطف وثورة الغرائز، إن هذه إحدى الإنجازات العظيمة للحضارة العربية الإسلامية، أنها اتسعت للبحث فى الإنسان، بما هو إنسان، وليس فى حدود إطار مُفترض، فلا غرابةَ فى أن يَتّسعَ مدلول "الفَرَج" عند القاضى التّنوخى، ليعبِّرَ عن انقشاع نازلة عن مكروب، مهما كان كَربهُ، ومهما كانت النازلَةُ، فهو إنسان أولاً، وإنسان أخيراً، وَألَمهُ ألم إنسانىٌّ يستحق أن نأسى له، وأن نفرَح بزوالِهِ، بصرف النظر عن دواعيه.

✿✿✿

٢- المصادر :

تكتسب قضية المصادر التى استمد منها القاضى التّنوخى مادته الأخبارية والقصصية أهميتها البالغة من ثلاث جهات:

الأولى: تعود إلى "التوثيق"، فمن الواضح أن الشعرَ العربىَّ قد نال النصيب الأوْفَى من اهتمام الرواة واللغويين والنُقّاد، وتعلقت بركابه الخطبُ والوصايا وما أشبهَ ذلك من

---

(١) عن هذه النزعة الإنسانية المتسامحة، راجع : "الحب فى التراث العربى" سلسلة عالم المعرفة بالكويت.

الأقوال المأثورة فى حِكَـم وأمثـال. أمّـا القصـص التـى تنوعـت مسـتوياتها واسـتخدامها للوعظ والتعليم والمسامرة، فإنها ظلت بعيدة عن اهتمام المشتغلين بالثقافة، وكـانت أهـم دعاواهم فى تعليل هذه الجفوة أن القصص تُروَى بالمعنى العام، ويزيد فيها كل راوية مـا يراه مؤثراً على جمهوره، مفيداً للغرض الذى يتوخاه من قصتـه، وحـين تنعـدم الثقـة فـى موضوعية النص الأدبى، ويتسرب الشك فى نسبته إلى صاحبـه، واكتمـال صيغتـه، فـإن الموقف النقدى يفقد مبررات الخطوة الأولى نحو الدراسة الفنية، ومِنْ ثَـمَّ يكتفـى بإشـارة هنا، وكلمة هناك، عن القُصَّاص، ونـادراً مـا يشـير إلى القصـص، فضـلاً عـن الاسـتعانة بلغتها، أو تحليلها فنياً.

كما أن حصر هذه المصادر –ما أمكن ذلك– يعتبر كشفاً عن الإطار العام الـذى تتحرك فيه ثقافة الكاتب، ومدى مـا فيهـا مـن تنـوع أو انحصـار، وعلاقـة ذلـك بثقافـة العصر، وتوجهها العام، وما يحمل هذا التوجه من دلالات على واقـع الحيـاة الاجتماعيـة والسياسية والفكرية.

أما الجهة الثالثة.. فهى ماثلة فى نـوع الصلـة بـين هـذا الكتـاب، والمصـادر التـى اعتمد عليها المؤلف فى تكوين مادته، فهل هو تَكرار لما سبق قوله، أو هو تجميع لما قِيـل فى أكثر من مجال، أو أنه تطوير لفكرة، وتنمية لمنهج، وتعميق لاتجاه قد وُجِدَ من قبل؟

لقد حَرَصَ القاضى التّنوخِيُّ على ذكر المصدر الذى أخذ عنه الخـبرأو القصـة، أو حتى تلك الحكايات الشـعبية التـى يصعـب إسـنادُ تأليفهـا إلى شـخص معيَّـن. لم يُهمـل ذلك مطلقاً.

ويمكن حصر مصادره فى نوعين أساسيين: السماع والمشافهة، والنقل عن وثـائق مكتوبة فى شكل كتبٍ وصحائفَ معلومةِ المؤلف أو مجهولته. لقد ظل التّلقى المباشرُ عن طريق السماع والمشافهة –أى الروايةَ– مصدراً أصيلاً لتَنَاقُلِ المعرفة طوال قرون، وكانت الرواية الشفهية أدعى إلى الثقة وتجنب الخطأ من الكتابة ذاتها، ومـع أن التـأليف الكتـابى قد توسع منذ بداية القرن الثالث الهجرى فإنه استبقى إحدى دعائم المشـافهة الأساسـية، وهى ذكر السند، أو "العنعنة"، محافظاً على هذا التقليد الذى بدأدينياً، هدفُهُ الحرصُ على دقةِ الحديث النبوى. وقد روى القاضى التّنوخِيُّ عن أربعة أنواع مـن الرجـال: عـن أبيـه

وجلساء أبيه من مشاهير العصر، وبخاصة فى الفترة المبكرة التى قضاها فى البصرة، وعن بعض مَنْ أخذ من كتبهم، ولكنه عاصرهم، ولعله رأى أن يختبر بعض ما كتبوه على ضوء ما يحدِّثونه به، وعن بعض محترفى القصص فى عصره، وسنرى دلائلَ تشير إلى أن بعضاً من هؤلاء كان مختصاً برواية نوع معيَّن من القصص أو الحكايات، وعن نكرات لم يحددهم، حتى وإن كانت سلسلة الرواة معلومة النهاية إلا أنها تبدأ من مجهول.

وفيما يختص برواية المحسِّن عن أبيه القاضى أبى القاسم على التَّنوخى فإن عبارة: "وحدّثنى أبى فى المُذاكرة من لفظه وحفظه" تتكرر مرات، وقد يتحدَّث الأب من وَحْيِ تجربته الخاصة، ومن ثَمَّ لا مكان لذكْرِ سَنَدٍ، مثل حكايته لحادثة بطلُها ابنُ بوابٍ كان يعمل عنده، حين كان يتقلد القضاء فى الكَرْخ، أما حين يروى عن آخرين فإنه يذكر السند وربما نقده، تحديداً لدرجة الثقة فيمن أخذ عنه أبوه، وقد يذكر أن أباه قد أسند الرواية، ولكنه نسيَها، فيقول مثلاً: "حدَّثنى أبى، أبوالقاسم التَّنوخِيُّ، بإسنادٍ ذَهَبَ عن حِفْظى"، أو يقول: "حدَّثنى أبى رضى الله عنه، فى المذاكرة بإسنادٍ لست أقومُ عليه، لأنى لم أكتُبه فى الحال" وهذا الإهمال للسَّنَدِ فيما روى عن أبيه متوقع، لثقة الابن فى صدق ما يتلقاه عن أبيه، وهذا جانبُ نفسيٌّ لايُمكن إهماله، ولأن هذا الوالدَ قد مات فى فترة مبكرة كان المحسِّن صبياً لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره حين مات أبوه، فهذه الأخبار التى رواها عنه ترجع إلى مرحلة لم يكن المنهج العلمى قد استقر فى حركة عقله أو شَغَلَ تفكيره.

أما جلساءُ هذا الأب فقد ذكرنا أسماءهم، ومن أهمهم أبوبكر الصُّولىُّ، الذى سيأخذ نقلاً عن كتابه الكثيرَ، ولكنه -فى أخبار وقصص أخرى- يستخدم صيغة "وحدَّثنى"، و"أخبرنى" و"أخبرنا"، بل إنه يستخدم عبارات تدل على أن سماعَه من الصُّولىِّ لم يكن ثمرةَ مصادفة، إنه موجودٌ بالمجلس، بل إنه يتلقى عنه، ويستوثق منه، ويجيزه أن يُحَدِّثَ الآخرين بما سَمِعَ، بل سنفهم من بعض العبارات أن الصولىَّ كان قد انتهى من تأليف كتابه الشهير "كتاب الوزراء" وأنه كان يقرأ عليه على سبيل الإجازة، أى الموافقة على النص بعد مراجعته، وأن المحسِّنَ- الفتى الناشئَ- قد حضر عملية المراجعة والإجازة، فيقول : "قُرِئَ على أبى بكر.. بالبصرة، وأنا حاضر أسمع، فى كتابه الوزراء، سنة خمسٍ وثلاثين وثلثمائة"، ويقول: "أخبرنى أبوبكر الصُّولىُّ إجازة، ونقلته

من خطه"، ويقـول : "حدَّثني... الصولى فيمـا أجـاز لى روايتـه عنـه"..وهكـذا تتعـدد وسائل الاتصال، فيما نقل القاضى التّنوخِيُّ عن الصولىّ، وهناك جلسـاء آخـرون ليسـوا على هذه الدرجة من السطوع فى كتابه.

أما أبو الفَرَجِ الأصْبَهَانيُّ -صاحبُ الأغانى - فقد ترجع علاقتـه بـه إلى مـا بعـد انتقاله إلى بغداد، وعبارات صاحبنا تُشعِر بأنه كان قد ألف كتابَه الضخم، ومع هذا فإنه على الرغم من أن القاضى التّنوخِيُّ قد نقل عن هـذا الكتـاب. فـإن موقفَـه مـن صاحبـه كموقفه من الصولىّ وكتابه، فيستخدم أخـبرنى، وحدّثنـى، وأخبرنـا، وحدّثنـا، ويقـول: "أخبرنى أبوالفرج الأصبهانى إجازة، قال..."، ويقـول: "وحدثنـى أبـو الفـرج المعـروف بالأصبهانى، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا"، بل يقول فى عبارة دالة: "حدَّثنى أبو الفرج المعروف بالأصبهانى. رحمـة الله تعـالى، إمـلاءً مـن حفظـه، وكتبتـه عنـه فـى أصول سماعاتى منه و لم يحضرنى كتابى فأنقله منه، فأثبته من حِفظى، وتَوَخَّيْـتُ ألفاظـه بجَهْدى"، ويقول فى مكان آخر : "وجـدتُ فـى كتـاب الأغـانى الكبـير، لأبـى الفـرج المعروف بالأصبهانى، الذى أجاز لى روايته، فى جُملة إجازةٍ لى..." الخ.

أما ما رواه القاضى التّنوخِيُّ نقلا عن قَصَّاصين حِرفتُهُم روايةُ القصـص ومِـنْ ثَـمَّ تجميعُها أو اختراعُها لتُرْضِيَ حاجات مستجدةً فى المجتمع الاسلامى، فإننـا سـنجد عليـه أكثر من دليل، والذى نُحـب أن نُنبِّـه إليـه ونـراه مهمـاً، دون أن يسـوقَنا إلى مزيـدٍ مـن مشكلات القصة التراثية، أن القاضى التّنوخِى لم يَنقُـلْ شـيئاً عـن أشـهر القُصّـاص فـى تاريخ القصة العربية القديمة، بَدْءاً بتميم الدارى الذى حدثَ إبان عهد عمرَ بـنِ الخطـاب فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستمراراً مع : كَعْب الأحبار، ووهب بن مُنَبِّه، وعُبيد بن شَرْيَّة الجُرْهُمىَّ فى زمن بنى أمية، وغيرهم ممن أشار إليهـم الجـاحظ فـى أكثر من مكان فى "البيان والتبيين".

وإنما آثر أن يروى عـن قُصَّـاصٍ سَـمِعَ منهـم مباشـرة، أو هـم قريبـون جـداً مـن عصره، وأغلب الظن فى تفسير ذلك أن القاضى التّنوخِى، وهو فقيه قبلَ كل شىء، قـد رفض الطابَعَ الأسطورىَّ الغالب على قصص هؤلاء، وآثر أن يقترب من الواقع، ومن هنا جاءت قصصه أقربَ ما تكون من الأخبـار التاريخيـة، فـإذا غـادر الواقـعَ فإنـه يَنْتَقِـلُ إلى

الحكاية الشعبية، أو "الحدوتة" ويفضّلها على الطّابع الأسطورى، الذى لن نجدَ من آثـاره إلا شَذَرَاتٍ قليلةً، عالقةً ببعض ما رَوَى من قصص أنبياء بنى إسرائيل.

نستطيع هنا أن نشير إلى بعض المُحَدِّثين، والطابَع العام الذى يغلب على ما حدَّثوا به ودلالة ذلك على شيوع مجالس القصِّ والرواية، واختلاف المجال أو النوع الذى يحَدِّثُ القاصُّ به، ومِنْ ثَمَّ اختلاف جمهوره.

إن القاضى التّنوخىُّ يستخدم عبارة "حدَّثَنَا" و"منها ما حَدَّثناه" علىّ بن أبى الطّيِّب الحسن بن علىّ بن مُطْرَف الرَّامَهُرْمُزى، وهذا الراوية القاضى قد تُوُفِّى سنة ٣٧٦هـ عن ثمانين عاماً تقريباً، وقد عرفنا من قبل أن أبا القاسم التّنوخى -والد المحسِّن- كان قد تولى القضاء بمدينة "رَامَهُرْمُز" كما أنها دخلت ضمنَ المناطق التى تولى مؤلفُنا فيها القضاء فيما بعد. ويلاحَظ هنا أن السلسلة التى تنتهى بعلىِّ بن أبى الطيب، يَروِى فيها -غالباً- عن أحمد بن محمد بن الجَرَّاح، عن أبى بكر عبدالله بن محمد بن أبى الدنيا القرشىِّ، ثم تتفرع بعد هذا التوحد فى اتجاهات شتّى، لكن الطابَع العام لما جاء عن طريق هؤلاء الثلاثة ينحصر فى الوعظ والأخبار التاريخية، وتحت الوعظ تندرج الأدعيةُ المأثورةُ، وبعض الأحاديث النبوية، وقِصَصُ بعض الأنبياء، وقد يجتمعُ الوعظُ والتاريخُ فى خبرٍ واحد، كما نجد فى قصة جلد الحسن بن الحسن فى عصر الوليد بن عبدالملك، وقد كُتب بذلك إلى والى المدينة، فنجَّاهُ الله، وما شاهده إبراهيم التَّيْمِىُّ الزاهد حين كان فى حبس الحَجَّاج (القسم الثانى - الفصل الخامس - القصة رقم ٥).

وقد يوجد الخبرُ التاريخىُّ متحرراً من توجيه الموعظة، فيكتسب شكلَ القصة تركيباً وتصويراً، وهذا نجده فى الأجزاء الأخرى التى لم تهتم بالوعظ، وعلى سبيل المثال، فى قصة وصفية لكيفية تخلص عمر بن هبيرة - وكان والياً على العراق - من سجن خالد بن عبدالله القسرى الذى خلفه على الولاية وسجنه، وقد جاء أتباع عمر، فاكتروا داراً بجانب الحبس، وداراً بجانب سور المدينة -مدينة وَاسِط- وحُفِرَ نَفَقَانَ، عن طريق النفق الأول خَرَجَ عُمَر من سجنه، وعن طريق الثانى خرج من المدينة.

ومثلُ ذلك ما يروى عن استسلام قَطَنِ بن معاوية الكلابىِّ للمنصور، وكان قد خرج مؤيِّداً لإبراهيم بن الحسن فى البصرة، أخى "النفس الزَّكية" الثائر العلوى بالمدينة.

ونستطيع أن نجد هذا الطابع الخاص فيما روى عن سعد بن محمد بن على الأزدى الشاعر المعروف بالوحيد، وقد توفى سنة ٣٨٥هـ، فهو معاصر للقاضى التّنوخى، وجديرٌ بالملاحظة أن مؤلفَنا يستخدم كلمة "حكى" ثلاث مرات فيما رواه عن الوحيد، و"حدَّث" مرة واحدة، ولعل هذا أن يكون بمثابة اقتراب من مصطلح "الحكاية" التى تختلف عن "الخبر" و"القصة" كما سنرى. وجدير بالملاحظة أيضاً أن هذه الحكايات الأربع التى حكاها القاضى التّنوخِيُّ عن "الوحيد"، تتعلق ثلاث منها بحوادثَ غريبةٍ، تقوم على الصراع بين الانسان والوحش المفترس، فهذا رجل شجاع ينازل الأسد ويستنقذ منه شخصاً كان على وشك الموت بين براثنه، وهذا آخر يلقى بنفسه من علو شاهق استنقاذاً لثروة ضائعة، فيسقط على أسد كامن بين البردى (القسم الثانى – الفصل الثالث – القصة رقم١).

وهذا ثالث يلجأ إلى كهف يحتمى به من القيظ فتغلقه عليه أفعى ضارية، لا يعرف كيف يتخلص منها، ثم يأتى ابنُ عُرْسٍ فيستدعى زميلاً له، ثم يحتالان فى الهجوم على الأفعى بَغْتَةً، أحدُهما عند الرأس والآخرُ عند الذَّنَب، فيقتلانها، ويبدو أن هذا الشاعر المغمور كان مختصاً برواية حكايات الحيوان وغرائبه، فإن بارَحَهَا فإلى الغرائب بشكل عام، فإن الحكاية الرابعة التى أخذَها عنه القاضى التّنوخِيُّ عن رجل فَرْد، وقع فى أسر سبعين من قُطاع الطريق، جردوه من كل ما معه، لكنه راح يستعطفهم حتى تركوا له برْذَوْنَهُ، ثم راح يستعطف مرة أخرى حتى أعطوه قوسه ونَشَّابه، لعله أن يدفع بهما شراً، ولكنه استطاع بهما أن يُقَارِعَ السبعين رجلا، وأن يهزمَهم ويسترد منهم ما اغتصبوا منه!!

وكما نجد حكايات الحيوان وغرائب الصراع معه عند الشاعر "الوحيد" فإننا نجد القصصَ التى تهتم بحِيَل اللصوص وقد آثرها عبيدُ الله بن محمد الصَّرَوِيُّ، وإن لم يقف جهده عليها، لكن الميل إلى المفاجأة والإغراب هو القاسَم المشترك فى كل ما حدَّث به تقريبا، فهذا رجل يجد هِمْيَانَهُ (حافظة نقوده) بعد أعوام من فقده، وقد صار فقيراً، وتعلق حبل نجاته بجوهرةٍ ثمينة أخفاها فى مكان سرِّى من هذا الهِمْيان المفقود، ويزداد أمر المصادفة غرابة أن يجد بعض أصدقائه هذا الهميان، وينتفع بما فيه من مال، ولا يفطن إلى الجوهرة، وتتكرر القصة على نحو آخر لا يقل غرابة، وهذا رجل يهرب من قتل محقق

عشوائى، ليقع فى مثله، فينجو مرة ثانية، وثالثة، وكأن حياته سلسلة مواقف يتعرض فى كل منها للقتل، ولكن الحقيقة تنتصر، وهذا رجل يهرب من الفقر، فى حين تعانى امرأته المخاض، ثم يعود بعد زمن طويل، ليجد ابنه شخصية ثرية مشهورة، وزوجته قابلة قصر الخلافة (القسم الثانى -الفصل الثالث- القصة رقم٥).

وهذا كاهن فى دير معزول، يتصدَّى لمعاونة المسافرين العابرين ثم يقتلهم داخل الدير ويستولى على ممتلكاتهم، وهذا عبد آبق، يسامحه سيده حين يعثر عليه فى بلاد بعيدة، ولكنه لا يسامح سيده، بل يسعى فى هلاكه واغتصاب ماله، وهذا قاطع طريق لا يكتفى بسرقة العابرين، وإنما يصر على قتل رجل وحيد، وحين يضع السيف على عنقه يظهر أسد يأخذ قاطع الطريق بين فكيه ويمضى، وهذا لص يتمكن من سرقة بضاعة دكان علانية، ولكن صاحب الدكان الذى كان لصاً فى حداثته يتمكن من استرداد بضاعته (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم١٢).

إن ما يخرج عن هذا الطابع العام: طابع الفَتْك والمغامرة والمصادفة لا يُمثل نسبة عالية فيما نقل التّنوخِىُّ عن الصَّرَوِىِّ. ويحق لنا أن نلتفت إلى ما يمكن أن يُعتبر "ظاهِرَةً" اختُصَّ بها هذا القاص، فإنه غالباً ما يَرْوِى عن نفسه دون ذكر سلسلة الرواة، فكأنه يحكى مشاهداته، غير أن الشخص الذى يمثل "بطل" القصة، يغلب أن يكون مُنَكَّراً، غير محدد الاسم، فنجد مثل هذه المداخل فى قصصه: "حدَّثنى عُبَيْدُ الله بنُ محمد الصروىُّ، قال : حدَّثنى أبى: أن رجلاً حَجَّ..."، أو: "... كان يجاورُنا ببغداد من أولاد الكُتّاب"، أو "أن رجلاً من أولاد التجار زالت نعمتُه"، أو "حدَّثنى شيخ كان يخدمنى"، أو: "حدّثنى رجل من أهل الجند"، أو: "حدَّثنى أكار (فلاح أو زارع) بنهر سَابِس يقال له سَارِخ"، أو "حدَّثنى بعض إخوانى أنه كان ببغداد رجل يطلب التلصُّص فى حَدَاثَتِهِ". فى كل هذه القصص وغيرها يختفى التوثيق الدقيق الذى يُحيط برواية الخبر التاريخى، حتى وإن تَشَكَّل بالصياغة القصصية، ونجد الحكايةَ الغريبة، ملازمة للبطل المجهول، أو المصنوع.

هؤلاء أهمُّ القُصَّاص والرواة الذين أخذ عنهم القاضى التّنوخِىُّ مباشرة، بطريق السماع والمشافهة، ولا شك أن هناك غيرَهم ، مثل محمد بن عبدالواحد المعروف بغُلام

ثعلب، فينص على لقائه، والحَمْل عنه، "وأجاز لى جميعَ ما يصح عندى من رواياته"، وعليِّ بنِ هشامٍ الكاتب، المعروف بابن أبى قِيرَاط، وقد اهتما بالأخبار التاريخية غالباً.

أما المصادرُ المكتوبة التى نَصَّ القاضى التّنوخِيُّ على أنه نقل عنها فإنها كثيرة، بعضها محدَّد بالكتاب والمؤلف، ويذكر أحياناً اسمَ الكاتب دون الكتاب، أو العكس، كما أنه قد يشير إلى النقل عن صحائف مكتوبةٍ دون تحديد.

مع توافر الحافِزِ الذاتيِّ فيما واجه القاضى التّنوخِيُّ من محنة العزل عن القضاء، وتحديد إقامته بمنزله، ومطالبته بسداد أموال جزيلة، فإن حافزاً آخر قد توافر له فى شكل تجاربَ سابقةٍ ألفَتْ تحت العنوان ذاته، أو ما يقاربه. يقول فى مقدمة كتابه: "وكنتُ وقفتُ فى بعض مِحَنى على خمس أو ست أوراق، جمعها أبوالحسن بنُ محمد المَدَائنى، وسماها "كتابُ الفرَجِ بعد الشّدةِ والضّيقَة" ويصف القاضى التّنوخِيُّ ما فى هذه الأوراق بأنه حسن، ولكنه قليل. والمدائنىُّ – وقد تُوُفِّىَ سنة ٢٢٥هـ، أى قبل مولد المحسن بقَرْن من الزمان – أديب راوية مؤرِّخ، بَصرىٌّ، سكن المدائنَ، وعاش فى بغداد، والأوراقُ المشارُ إليها لاتُذكر بين مؤلفاته، وقد نقل القاضى التّنوخِيُّأربعة عَشَرَ خبراً منسوباً إلى المدائنى: ثمانية منها يغلب عليه الطابعُ الدينى، والتاريخى، وهو يذكر اسم كتابه، أو أوراقه، غالباً، ويحدُثُ أن يأخذ عن المدائنىِّ من أكثر من طريق، فيقول مثلاً: "قال المدائنىُّ فى كتابه، وجاء به القاضى أبو الحسين فى كتابه عن المدائنى بغير إسناد"، ومرة أخرى أخذ عن شخص آخر، أسند ما أخذه إلى المدائنىِّ، ومرة واحدة يقول: "ووجدتُ فى كتاب المتيمين للمدائنىِّ"، وهذا يعنى أنّ ما نقله القاضى التّنوخِيُّ عن المدائنىِّ قد تضمن كل ما اشتمل عليه كتاب " الفرَجِ بعد الشّدةِ والضّيقَة" وتجاوزه أيضاً.

أما كتابُ عبدالله بن محمد بن أبى الدُّنْيَا "كتابُ الفرَجِ بعد الشّدَّة" فقد وصفه القاضى التّنوخِيُّ بأنه فى نحو عشرين ورقةً، وأن طَابَعه العامُ رواية الأحاديث النبوية، وأخبار الصحابة والتابعين، وما يقارب ذلك من الأدعية والأذكار، ويشعر المؤلف أن أخباراً من هذا اللون لا تتطابق مع ما يهدف إليه من وضع كتاب بنفس العنوان، لكنه يتجاوز الغاية التى تَوَخَّاها ابنُ أبى الدنيا. وابن أبى الدنيا –على أية حال– قد أفاد بدَوْرِهِ من المدائنىِّ، وهو أقرب إلى عصر المؤلف، لأنه تُوُفِّىَ سنة ٢٨١هـ، وقد ذُكر اسمُ

ابن أبى الدنيا فى كتاب التّنوخِى خمساً وخمسين مرة، دون أن يُقَرنَ إلى كتابه المشار إليه، لقد كان فى جميع هذه المرات واحداً فى سلسلة الرواة لخبر أو قصة أو أبيات من الشعر، ولا ندرى لماذا ترك القاضى التّنوخِىُّ ذِكرَ كتاب ابن أبى الدنيا فى تضاعيف كتابه برغم الإشارة إليه فى مقدمته.

أما الكتابُ الثالثُ الذى سبق هذا الكتابَ الذى نحن بصدده، إلى اسم "الفَرَج بعد الشِّدَّة" فقد ألفه القاضى أبو الحسين عمر بن القاضى محمد بن يوسف القاضى، رحمهم الله. فى مقدار خمسين ورقة، أوْدَعَهُ أكثرَ ما رواه المدائنىُّ، وأضاف إليه أخباراً أخَرَ "أكثرُها حَسَن وفيها غير ما هو مماثل عندى لما عَزَاه". والطريف أن القاضى التّنوخِى يأخذ على ابن أبى الدنيا والقاضى حسين، أنهما لم يشيرا إلى أن المدائنى قد سبقهما إلى التأليف فى موضوع كتابيهما، ويرى أن عَدَمَ معرفتِهما بكتاب المدائنىّ تُعَدُّ أمراً طريفاً، وأن معرفتهما به وتجاهلهما لذكره ترويجاً لما كتبا تُعَدُّ أطرف.. وقد نقل القاضى التّنوخِىُّ عن كتاب القاضى أبى الحسين ستاً وثلاثين مرة، انتشرت على مساحة فصول كتابه كلها تقريباً، وهذا يعنى أن القاضى أبا الحسين فى كتابه هذا كان الأكثر قُرباً من تَصَوُّر القاضى التّنوخِى لموضوع الفَرَجِ بعد الشِّدَّة، سنجد أخباراً وقصصاً تعود إلى العصر الجاهلى، بل نجد حالة فريدة روى فيها خبراً مصدرُهُ وَهْبُ بنُ مُنَبِّه، ولكنه ليس راويةً لأساطير القدماء، وإنما هو صاحب الحادثة التى لا تزيد عن رؤيا رآها فى أيام عُسْر، أما أكثر ما فى الكتاب فيرجع إلى عصر الراشدين، وبنى أميَّة، ودولة بنى العباس، التى يفوز رجالاتها بأكبر نصيب، وبخاصة المأمون والبرامكة، ثم يأتى دَوْر القصص التى نجد فى بعضها طابَعَ الحكاية الشعبية. ويهتم القاضى أبو الحسين اهتماماً واضحاً بأخبار الولاة وتقلُّبِ الزمن بهم من الفقر والضياع إلى الثروة والجاه، أو العكس، وهو موضوع قد أخذ نصيباً موفوراً من كتاب التّنوخِى كما سنرى فى هذا التحليل للمصادر، والمحتوى، وكما سنقرأ فى القسم الثانى من هذا الكتاب، الذى يقوم على الانتقاء.

وهناك كتب أخرى، أفاد القاضى التّنوخِىُّ، ونقل عنها أكثر مما فعل مع الكتب السابقة، فى مقدمتها "الأغانى" للأصفهانى، الذى تلقى عنه مشافهة أيضاً، وكان يَحْرُثُ أن يوثِّقَ ما سمع بِعَرْضهِ على ما قرأ، أو العكس، فحين يروى خبر ما كان بين عبدالله بن طَاَهر والحِصْنِىِّ، وكيف أساء الحصنى إلى القائد العباسى بمعارضة قصيدته،

ومناقضة مفاخرها الفارسية، يُسند الرواية إلى أبى الفرج المخزوميِّ، الشاعر المعروف بالبَّبغاء، وهو من أصدقاء القاضى التّنوخِى (القسم الثانى -القسم الثانى - القصة رقم١٤).

ثم يورد رواية ثانية للخبر نفسه، فيقول: "ووقع إلىّ هذا الخبر بخلاف هذا، فأخبرنى أبوالفرج الأصبهانى، قال.."، وبعد أن ينتهى من هذه الرواية يتبعها برواية ثالثة للأصبهانى أيضاً، فيقول : "وحدّثنى أبوالفرج المعروف بالأصبهانى، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا".، فهل تختلف "أخبرنى" عن "حدّثنى"؟ اختلاف القراءة عن السماع، وإن انتهى كلاهما إلى نقل المعرفة بالشيء؟ هذا احتمال قد يقويه قولُه فى صدر خبر آخر: "وجدتُ فى كتاب الأغانى الكبير، لأبى الفرج المعروف بالأصبهانى، الذى أجاز لى روايته فى جملة ما أجازه لى.." وقد أثبتنا قصة الحِصْنى المشار إليها -كما أوضحنا- ولكن دون هذه التفريعات التى تضيف شيئاً يتعلق بالجانب الفنىّ فيها.

لقد نقل القاضى التّنوخِىُّ من "الأغانى" وروى عن صاحبه تسعاً وثلاثين مرة، ومع التنوع الموضوعى، والامتداد الزمنى الذى تمثله مادة هذا الكتاب الموسوعى الضخم، نتوقع أن تمتد النُّقُولُ إلى أطراف الكتاب على ضخامته. يفوز الخلفاء العباسيون ورجال دولتهم بأكبر نصيب، وكذلك المغنون، وتظهر ملامح العصر الأموى أحياناً، كما نجد خبراً واحداً عن الإسكندر حين بلغ حدود الصين، وقرر إخضاعها لسُلطانه، ولنا هنا ملاحظة أساسية نثبتها، فعلى الرغم من أن القاضى التّنوخِى كان يعرف الفارسيَّةَ، وعمل طويلاً فى أوساط فارسية، ونَادَمَ عضدَ الدولة الفارسى وكان الكثير من أخبار الأكاسرة وغيرهم من عظماء الفُرس، بل وأخبار اليونان والهند، معروفاً لدى المثقف العربى فى القرن الرابع الهجرى، فإن النسبةَ العظمى من مادة كتاب القاضى التّنوخِى تعتمد على المجتمع العربى، وأخبار رجاله، بدرجة لا تجعلنا نُعطى أية أهمية لما يتجاوز هذا الحد، ومنه هذا القليل الذى ظهر فيه الإسكندر أو كسرى!!

ويأتى "كتاب الوزراء" لمحمد بن عَبْدوس الجَهْشيارى فى مرتبة متقدمة بين المصادر المكتوبة التى اعتمد عليها، يكاد ينافس "الأغانى" فى الأهمية، وإن كان عدد مرات النقل أقل (نقل عنه خمساً وثلاثين مرة) و لم يسمع منه مشافهة بالطبع برغم صداقة الجَهْشيارى لأبيه، لأن الجهشيارى توفى سنة ٣٣١هـ، وكان مؤلفُنا لم يتجاوز الرابعة

من عمره تقريباً، وهو فى صدر كل خبر يكـاد يكـرر عبـارة واحـدة: "ذكـر محمـد بـن عَبْدُوس فى كتابه "كتاب الوزراء" أو "فى كتاب الوزراء" ما عدا مرةً واحدة قال فيهـا: "قال محمدُ بنُ عبدوس فى كتـاب أخبـار الـوزراء والكتّـاب"، والكتـاب المذكـور محـدد العنوان محدد الموضوع. ومن الطبيعى أن يكون النقل عنه محكوماً بموضوعه.

ويكاد يلحق بالكتابين السابقين ما كتبه الصُّولِىُّ فى كتـاب "الـوزراء" وقـد نقـل عنه سَبْعَ عَشْرَةَ مرة، وعـن "الأوراق" مـرة واحـدة، ولكـن تأثير الصُّولى علـى مؤلفنـا يتجاوز ما نَقَلَ عن كتابه، إلى ما حـدَّث عنـه، فضلاًعـن التأثير الشـخصى الـذى يمكـن توقعه. وهذا الكتاب مثلُ سابقِه محكومٌ بموضوعه، ومع هذا يمكـن أن نلاحـظ أنـه أكـثر توسعاً، بمعنى أنه لم يتوقف عند حدود مـا كـان يَحْـدُثُ للـوزراء، وإنما تجـاوزه إلى مـا يَحْدُث منهـم، ولهـذا نجـد بعـض أخبـار الحسـين بـن الضحَّـاك الشـاعر، وأخبـار الغنـاء والمغنين، وقد يعارضُ روايةَ الصُّولِىّ برواية الأغانى، كما يذكر مرات أنه سمع الخبر يُقـرأ على الصُّولِىّ نفسِهِ فى مسجد البصرة.

ويمكن أن نقول مطمئنين، فى ختام حديثنا عـن المصـادر: إن كتـاب الفَـرَج بعـد الشِّدَّة للقاضى التَّنوخِى، مع أنه مسبوق فى موضوعه، ناقل عن كثير مـن السـابقين، قـد تجاوز كل أولئك شكلاً ومضموناً. ونقصد بالشكل الجانبَ الكّمىَّ الذى تفوَّق به علـى كل سابقيه، والجانبَ المنهجىَّ المتمثلَ فى توزيع مادة الكتاب على فصول متنوعة المعنى، وإن اتفقت فى الشكل العام (أزْمَةٌ يَعقُبُهَا حَـلٌّ)، والجـانبَ الـتركيبىَّ حيـث يـزاوجُ بـين الرويات للقصة الواحدة، ويديـرُ بينهـا حـواراً مثمـراً، وينميهـا بطريقـة فريـدة، ونقصـد بالمضمون أنه تجاوز بالشِّدَّة، أو الأزْمة أن تحدث لكـاتبٍ أو وزيـر أو خليفـة، إلى النـاس عامة، وشُذاذهم، فلم يتوقف عند الطبقة العُليا من المجتمع، بل غَمَرَ جميع الطبقات، وربما جميع الأجناس التى كانت تعيش تحت لواء الخلافة العَّباسية من عرب وفُرْس ودَيْلَم وتُرك وأكراد وروم، ولم يتوقف عند المعنى الأخلاقىِّ للفَرَج، وإنما عَنَى بـه انفـراج الأزمـة، أو لحظة التَّنوير فى مفهوم القصة المعاصرة، وهـذه جميعـاً إضافـات إيجابيـة ينتمـى بهـا هـذا الكتاب إلى تراث أمته العربية، ويضيفُ إليه.

✿✿✿

تحليلُ المُحتوَى

المحاور :

إن المحورالرئيسيَّ الذى يدور حوله الكتاب هو الأخبارُ والقِصص والحكايات التى تصوِّر مواقف مختلفة فى حياة أشخاص تاريخيين، أومجهولين أو مُخْتَرَعين. وهذا المحور الرئيسى يضم فى إطاره محاورَ جزئية، يمكن أن نختزل مفهوم كل محور فى "الموضوع" و"الهدف" أى المضمون الذى سيبدو بمثابة طريقة مُيَسَّرة للتعريف الموضوعى للكتاب، على أن نعود إليه على المستوى الصياغى، أو أسلوب بناء كل نوع. وقد عرضنا من قبل لطريقة المؤلف فى تقسيم أبواب كتابه، ورأينا ما فيها من خَلْط فى أُسس التقسيم، وتَدَاخُل بين الأنواع، وهذا يعنى أن المَحَاورَ التى نجمع مفرداتها الآن، ونحاول أن نستخلص لها صورة وهدفاً سنجدها متفرقة الأجزاء -أو المفردات- على مساحة الكتاب، وليست مجموعة فى باب واحد، ومن هنا جاءت أهمية ما قمنا به من إعادة الترتيب.

ويمكن أن نحصر هذه المحاور فيما يأتى:

١- الأخبار والشخصيات التاريخية.

٢- صورة الحياة الاجتماعية.

٣- الحكاية الشعبية.

٤- القصص الوعظية.

٥-قصص وأخبار آل البيت.

٦- القصص التعليمية.

وهذا الترتيب يتدرج تنازلياً مع الجانب الكَمِّى لكل موضوع، كما أن التوزيع قامْ على التغليب، فقد يكون الخبر عن رجل من آل البيت، ولكنه يُصَوِّرُ سلوكاً اجتماعياً معيَّناً، وهنا سيُحْدِسُ القارىء أين يقع مركز الاهتمام فى هذا الخبر.

أولاً - الأخبار والشخصيات التاريخية :

من المتوقع أن يفوز الخلفاء، ومَنْ يدور فى فَلَكهم من الوزراء والكُتّاب والقادة بأكبر نصيب، لأن التاريخ المدون يهتم بأخبارهم، ومع هذا لا نجد ما كُتب حول هؤلاء تَكراراً لما نجده فى كتب التاريخ، من جانبين: أن القاضى التّنوخِىَّ فى اختيار مادة كتابه، حين ينتقى من حياة شخصية شهيرة كالحَجَّاج، أو المأمون مثلاً، فإنه يختار "المواقف" التى تدل على طبيعة الشخص، وليس "الأعمال" التى يسارع المؤرِّخون إلى تدوينها، ومن هنا تكون اختياراته متوغلة فى التفاصيل التى قد لا يلتفتُ إليها المؤرخ عادة. وإنه كثيراً ما يُعْنَى بأشخاص لهم وجود تاريخى- ولمواقف حياتهم دلالات تاريخية إنسانية وحضارية، ولكنهم لم يبلغوا من الشُهْرة بحيث يهتم بهم المؤرخون، ومع هذا لا يمكننا أن نستوعب طبيعة المرحلة وظروفها دون أن نضع هذه المواقف العابرةَ تحت الضوء.

خلفاءُ بنى العباس ورجال دولتهم هم الأكثر ظهوراً، ولا يحتاج هذا إلى تعليل، فإنهم الأقرب عهداً، والأطول زمناً، والأزمات فى عصرهم أكثر، وسنجد القليل عن عصر بنى أميَّة، وما دمنا بصدد شِدَّة تَنْفَرِج، ومحنة تنزل وَتَنْقَشِع، فإن الحَجَّاج بنَ يوسف الثقفىّ يحظى وحده بنصف ما كتب عن العصر الأموى، والأخبار التى تدور حول الحَجَّاج تُصوِّر قسوته، وجوَّ الإرهاب الذى ساد عصره، حتى صار الإقبال على العبادة مَظنَّة الاتهام بقول الخوارج وسلوكهم، يقول أحد المحبوسين شارحاً تهمته: "جاء العريف، فتبرأ منى، وقال : إن هذا كثيرُ الصوم والصلاة، وأخاف أنه يرى رأى الخوارج"!! وسِجْنُ الحَجَّاج كان يسمى الديماس، ومعناه : الحفرة العميقة لا ينفذ إليها الضوء. هذا القول "الجاهز" عن الحَجَّاج، ولكن أخباراً أخرى تُدخل بعض التفاصيل التى تتحفظ نسبياً على هذه الصورة القاسية الجافية. فهذا الشعبى يخرج مع ابن الأشْعَث على الحَجَّاج، وحين تنجلى الفتنة يقف أمام الحَجَّاج مُقراً بذنبه، معتذراً، وهنا يقول لجلسائه: هذا عامر، ضرب وجوهنا بسيفه وأتانا يعتذر بالباطل، ردوا عليه عطاءه!!. وحين يُساق إليه أسرى فتنة ابن الأشْعَث يأمر بقتل طائفة منهم، وتقدَّم رجل قبل أن يُضرب عنقه فقال: يا حَجّاج، والله لئن كنّا أسأنا فى الفعل، فما أحْسَنْتَ فى العقوبة،

وإن كنا لؤُمْنا فى الجناية، فما كَرُمْتَ فى العفو. فقال: ردوه. فَرُدَّ. فقال : أخبرنى كيف قلتَ؟ فأعاد الكلام. فقال الحَجَّاج: صدقتَ والله، أفٍّ لهذه الجيَف، أما كان فيها أحد ينبهنا كما نّبهنا هذا؟ أطلقوا عنه، وعن باقى الأَسْرى!!.

ويأتى بعد الحَجَّاج عُبَيدُالله بن زياد، وخالدٌ القَسْرىُّ، وهما لا يقلان ضراوة عن الحَجَّاج، ومع هذا، مع ما سنجد للقاضى التّنوخِى من مَيْل إلى آل أبى طالب لا مجال للشك فيه، ومع ما هو معروف عن دَوْر ابن زياد فى استشهاد الحسين رضى الله تعالى عنه، ومع أن الكتاب قد سجل خبراً يؤكد هذه القسوة فى ابن زياد، فإنه يروى خبراً آخر يظهره فى صورة مَنْ يخشى الله، ولا يجسر على الاستخفاف بكلامه الشريف، فها هو ذا رجل من القراء يُساق على أنه من الخوارج، وفى حين ينكر الرجل التهمة يتوعدهُ عَبْيدُ الله بالانتقام، ويأمر بسَجْنه، فيتمتم الرجل بكلمات غير مُبينَة، فاغتاظ ابنُ زياد، وأمره بالجهر بماَ هَمَس به، فإذا هما بيتان من الشعر :

عسى فَرَجٌ يأتى به الله إنه	له كلَّ يوم فى خليقته أمْـرُ
إذا اشتدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسراً فإنه	قضى الله أن العُسْرَ يتبعُهُ يُسْرُ

فسكت ابنُ زياد ساعة، ثم قال: قد أتاك الفَرَج. خَلُّوا سبيله!!

يمكن أن نجد مثل هذه المواقف مذكورة لمعاوية، وعبدالملك، وهشام، والوليد بن يزيد. لا نجد هذا الشر المطلق فى نفوسهم بغير عقال، إنهم بَشر، يهتزون للكلمة الطيّبة، وبأسرهم المعروف، ويُقدِّسون الأعرافَ العربية، حتى يَعْفُوَ أحدُهم عن ألدِّ أعدائه حين يكتشف وجودَه على مائدته وقد أكل من طعامه.

أما خلفاءُ بنى العباس.. فإن الحديث حولهم أكثرُ تنوعاً، فأكثرهم قد اعتَقَلَ وزيرَه أو قتله، وهذا وحده مَعينٌ لاينضَب للشدائد، كما أنهم - هم أنفسهم - عانوا شدائدَ وأهوالاً حين تسلط الأتراك ثم الدَيْلَمُ على الخلافة، فهم بين مقتول، ومخلوع، ومسمول (السَّمْل هو إطفاءُ نور العينين بتعريضهما لحرارة شديدة كمسمار محمىّ)، ومَنْ ليس له من الأمر شيء، ومع ذلك فإنهم إذا ما قَدروا أنزلوا البلاء حتى بأولئك الذين أوصلوهم إلى الخلافة وأيّدوا مُلكهم. إن هذه الأخبار والقصص المدوَّنة أشهر من

أن نتوقف عندها، وسنكتفى بالإشارة إلى ما تدل عليه من قلق نظام الحكم والفساد الإدارى والمالى، أما الآن فنتعرَّف إلى ما يمكن أن يُعتبر "إضافة" لم يهتم بها المؤرخون.

من ذلك هذه القصة، التى جرت فى عهد المُعتَضد لأحد رجاله، ومنها أن الخليفة كان له جهاز استخبارات خاص، يرفع تقاريره إليه هو شخصياً، وأن هذا الجهاز كان يراقب كبارَ رجال الدولة – وليس أعداءَها– وأن العاملين فيه كانو يُنْتَقُون ممن لا يتوقع أحد منهم هذه المهمة، وأنهم كانوا يحتالون بكل وسيلة ممكنة للحصول على الأسرار. وربما دلَّ الخبر–القصة– على أن الوزيرَ كان له جهازه المضاد. فقد كان للقاسم بن عبدالله– وزير المُعْتَضد – سنة ٢٨٨هـ حياة خاصة عابثة، يشرب فيها ويلعب مع جواريه بغير تَحَرُّج، غير أنه كان يخفى ذلك كلَّه عن الخليفة حتى لا يتنقصَه، ويتهمه بالتشاغل عن الأعمال. ولكنّ الخليفَة ألقى فى طريقه جُمْلةً تدل على معرفته بما يجرى فى الخفاء. فخرج الوزير وقد كاد أن يَتْلَفَ غَمًّا. إذ كيف بلغه السر، وهل يدل هذا على معرفته بباقى الأسرار كالهبات والرَّشَاوَى؟ "وكان له فى داره صاحبُ خَبَرٍ جَلْدٍ يرفع إليه الأمور، فأحضره وعرفّه ما جرى بينه وبين المُعتَضد، وقال له: ابحث لى عمَّن أخرج هذا الخبر، فإن فعلتَ، زدْتُ فى رزقك وأجزتك بكذا وكذا، وإن لم تُخرجه نفيتُك إلى عُمَان. وحلف له على الأمرين" وهكذا وقف رجل الاستخبارات فى مواجهة رجل الاستخبارات الآخر، واستطاع أن يكشِفَه فى ثياب المكدين (الشحاذين) يتظاهر بأنه عجوز، ويحمله بثياب تخفيه إلى دار القاسم الذى يستجوبه سراً، ويأبَى إلا أن يعرف حقيقته "أوَ لا ترى ضَوْءَ الدنيا" فيُضطر إلى الاعتراف بأنه فلان الهاشميُّ، وأنه يتجسس للمُعتَضد. فيحبسه، ويتغافل عنه، إلى أن يطلب الخليفة منه بنفسه إطلاق مخبره الخاص، الذى كشف أمره (القسم الثانى – الفصل الرابع القصة رقم٨)

ونعرف من قصة أخرى أن الإدارة السياسية فى العهد العباسى عرفت منصب مَنْ يسمى فى زماننا "وزيراً بلا وزارة" أو "وزير المتابعة" وكان فى عمله يتبع الوزير –فهو بمثابة مساعد له– وليس الخليفة، فقد كان أبو جعفر بن أحمد حاجباًلأبى محمد المهلّبى قبل تولى الوزارة، فلما صار المُهلبى وزيراً "كان يُصَرِّفه فى الاستحثاث على العمال، وفى الأعمال التى يتصرف فيها العمال الصغار"، ونفهم من سياق القصة أن وزير

المتابعة يُنتدَبُ لأداء مهمة عاجلة وأنه "قـائمٌ بحضـرة الوزيـر" لمثـل هـذا الشـأن. (القسـم الثاني- الفصل الثالث- القصة رقم ١، وقد سبقت الإشارة إليها).

ونعرف أيضاً أن المأمون بعـد أن تغلّـب علـى أخيـه بسـيوف الخُرسَـانية، أراد أن يكافئهم بتوليتهم المناصب، والأعمالَ الإدارية والمالية التى يمكن أن تُعتبر بمثابـة تعويـض، ولأنهم أهل ثقته، وقد أدَّى هذا إلى تعطيل الموظفين القُدامى واضطراب معيشتهم، ومـن هذه القصة نجد شيخاً خُرَسانيًا مغفلا، أمياً، يُقبل على أكبر الكُتّاب سناً، ويطلب منه أن يختار له عملاً مناسباً ليتولاه كما أمر أمير المؤمنين.. ويسخر الكـاتب المُتَمـرِّسَ مـن هـذا الطلب الساذَج من رجل لا يعرف ماذا ينبغى عليه أن يعمل، فيقترح عليه تولى وظيفة لا وجود لها. فقال : لا أعرف لك عملاً أولى بك من بَرْبَنْدَات البحر، وصَدَقَـات الوَحْـش -أى الجسور التى تصد ماء البحر عن الشاطىء وأوقاف الوحوش- فقال له : اكتبْه لى، فكتبه، ورَفَعَ طلبَ الوظيفة إلى الخليفة الذى غضب للسخرية من زعماء أنصاره وشيعته، وأحضر الكاتب، وقال له : يا جاهل. تفرَّغْتَ لأصحابى؟ ولكن الكاتب يرد بأمَانَة على المأمون، مُفَنِّداً خطر الاعتماد على "أهل الثقة"- وإهمـال "أهـل الخـبرة" ومقترحـاً الحـل الذى يُرضى سياسة الدولة، ويحفظُ مصالحهَا فى نفس الوقت، فقال له: يا أمير المؤمنـين، أصحابُنا هؤلاء ثقَات يصلحون لحفظ ما يصل إلى أيديهـم مـن الخزائـن والأمـوال، وأمـا شروط الخَراج، وحُكمه وما يجب تعجيلُ استخراجه وما يجب تأخيرُه وما يجب إطلاقُـه، وما يجب منعُه، وما يجب إنفاقه، وما يجب الاحْتِساب به، فلا يعرفونَه، وتقليدهـم يعـود بذَهَاب الارتفاع (أى تضطرب به ميزانية الدولة ولا تصل إلى ما نحصله الآن) فإن كنتَ يا أمير المؤمنين لا تثق بنا، فضمَّ إلى كل واحد منهم رجـلاً مِنّـا، فيكـون الشـيعىُّ يحفـظ المال، ونحن نجمعه" (القسم الثانى الفصل الثانى- القصة رقم ١٨).

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه، وأمر بتقليد عُمَّال السواد وكُتّابه، وأن يُضَـمَّ إلى كل واحد منهم، واحد من الشيعة.

إننا لم نرد -فى مستوى الخلفـاء- أن نقـفَ عنـد صُـوَر تَرَفهـم، وصـراعِ أوليـاء عهودهم، وخفايا ما يجرى ليلة موت أحدهـم (انظـر مثـلاً مـا يُـروى عـن كيفيـة مـوت الهادى، وليلة أغمى على الرشيد بسبب التخمة حتى ظُنَّ أنه مات، أو ليلة مـات فعـلاً!) فهذا مما يمكن تحصيله من كتب التاريخ، أما التفاصيل الصغيرة فهى ما نُعنَى به هنا.

نذكر مثلاً أن الرشيد عرف أن العَتّابيَّ الشاعر يقول بالاعتزال، فتهدده حتى حمله على الهرب، ولكن بعض محبيه وضع شيئاً من خُطبه ورسائله في طريق الرشيد، فأعجب به، وعفا عنه، واستقدمه ليعلّم الأمين والمأمون "ويضع لهما خُطباً".

ونعرف من أخبار أخرى أن كبار أدباء العصر كانوا يضعون الخُطب لولى العهد، الذى يحفظها ثم يلقيها من الذاكرة يوم الجمعة، حين تُعْلَنُ بيعتُه لولاية العهد.

ومن الأمور الطريفة ما يُطلعنا عليه أكثر من خبر، أنه حين كان يتم القبضُ على إحدى الشخصيات العظيمة، ذات الجُرْم العام، كانت هذه الشخصيات تُقـدَّم للمساءلة فيما جنت فيما يشبه المؤتمر العام، أو المحاكمة العلنية، وكان هذا المجلس يُعقد برئاسة شخصية بارزة، الخليفة أو أحد قواده، وكان الحاضرون يشاركون فى توجيه الحكم على المتهم، كما أن شخصاً يُختَص بأمور الدعاية للخليفة كان يقف خطيباً عند افتتاح الجلسة، يُسْهِبُ فى إبراز مآثر العهد وفضائل الخليفة ووجوب طاعته، والخبران عن هذا التقليد يرجعان إلى عصر المأمون، ونرجِّح أنه لم يبتدْعهما، وفى أخبار الخلفاء ما يدل - ولو بصورة مصغرة- على وجود مثل هذه المحاكمات العلنية، ذات الطابَع السياسى، يَحْضُرُها أعضاءُ الأسرة الحاكمة، وكبراءُ الدولة. قيل إن إبراهيم بنَ المهدىِّ قُبِض عليه وهو يحاول الهرب فى ثياب امرأة، وأن المأمون طلب مثوله على الحال التى أخِذَ عليها "ثم جلس مجلساً عاماً، وقام خطيب بحضرة المأمون يخطب بفضله، وما رزقه الله، جَلّتْ عظمته، من الظَّفَرِ بإبراهيم بزيِّه.. وحين قُتِل الأمين واضطربت أوضاع الخلافة انتهز أبو السَّرَايا الفرصة، وخرج بالطالبيِّين فى البصرة غير أن الحسن بنَ سَهْل، قائد جيش المأمون، تمكن من دخول البَصرة، وهرب الطالبيون وقُبض على أحد زعمائهم: زيد بن موسى بن جعفر الصادق، فما كان من الحسن بن سهل إلا أن جلس مجلساً عاماً من أجله، ودعا به، فأنَّبه، ووَبَّخَه، وقال : قتلتَ الناسَ وسفَكْتَ دماءَ المسلمين، وفعلتَ، وفعلتَ. ثم أقبل على مَنْ حَضَرَهُ من الناس والهاشميين وغيرهم، وقال: مَا تَرونْ فيه؟ فأمسكوا جميعاً، وانبرى له قُثَمُ بن جعفر بن سليمان، فقال أرى أيها الأمير أن تضربَ عنقَه، ودَمُهُ فى عنقى" وهكذا قُدِّم زيد للقتل، ولكنّ رجلاً من أصحاب المناصب فى عهد الرشيد (قائد البحرية) يتدخل، ويمنع القتل ، لأن المأمون لم يأمر به صراحةً ، وهو هاشمى عَلَوِىٌّ من أبناء عمومته!!

وهكذا نكتشف أن المحاكمات السياسية، ونظامَ الادعـاء، ونظـامَ الدفـاع، وربمـا الأخذ بنظام المحلّفين – أو القضاة الشعبيين – كان معروفاً، ويُلْجَأ إليه فى توجيه التهمـة للشخصيات ذات المنزلة الاجتماعية والسياسية.

وحين نغادر دائرة الخلفاء إلى دائرة الـوزراء سـنجد صُـوَرَ الصـراع بـين العـرب والفُرْس، منذ تأسيس الخلافة العباسية، وعَبْرَ كل العهود، وسنجد وسائل تجنيد الأنصار، ودسَّ العملاء وتجميعَ المعارضين، والوشايةَ، واصطناعَ التهم، وإثارة الظنـون وتوجيههـا، وتوزيعَ مناصب الدولـة، وجـزءاً مـن ثروتهـا علـى المُمَـالئين والأقـارب.. كـل هـذا ممـا استشرى وكأنه وباء فى الجهاز الإدارى منذ تأسـيس الخلافـة، وأخـذ مَـدَاهُ فـى عصـور الضَّعف، فى أعقاب عصر المُتَوكِّل، إلى أن خرج الأمر برُمتِهِ من أيدى الخلفاء.

ليس بمُسْتَغْرَبٍ أن نجدَ ولىَّ العهـد يكـوِّنُ لنفسـه بطَانَـةً تنـاصره حتـى علـى أبيـه الخليفة، وتتعجلّ انتقال السُّلطة إليه، ويحدث أن يقف وزيـر الدولـة فـى صـف الخليفـة، ومِنْ ثَمَّ ينتظره سوءُ المصير حين تنتقل السُّلطة إلى ولىِّ العهدُ، فهذا الخليفة المهدى يختـار إبراهيم الحَرَّانىَّ كاتباً لابنه موسى الهادى فى مُنطلقه إلى جُرْجَان، ثم يبلغـه عـن الكـاتب ما لا يُطَمْئِنُه فيأمر ابنه بإرجاعه إليه، ولكن موسى يتهرب من إنفاذ الأمـر حتـى "كتـب إليه المهدى: إن لم تحملْه خلعتُك من العهد، واسقطتُ منزلَتَك" فيُذْعِـنُ مضطـراً ويرسـل الحَرَّانىَّ، ولكن المهدىَّ يموت يوم وصوله فى ظـروف غامضـة، (قيـل : بطعـام مسـموم، وقيل : سقط من فوق فرسه) ليصبح الحرانىُّ وزيراً للخليفة الجديد، ويُنَحَّى الربيـع عـن الوزارة، وفى مرة أخرى لا يُنَحَّى بل يقتل، فقد كان المعتضد يعتقـد أن الوزيـر إسمـاعيل بن بلبل هو السبب فى سوء رأى أبيه الخليفة المُوَفَقَّ فيه، وأنـه الـذى أغـراه بحبسـه حتـى صار يَخْشَى أن يُقتل، ومع أن الوزير أقسم وَتَرَضَّى وتنصَّلَ، وهـو لا يـزال وزيـراً، فـإن ولى العهد لم يمهله حين أفضت إليه الخلافة (القسم الثانى-الفصل الرابع-القصة رقم٦).

وهذا المتوكل يستدعى إسحقَ المُصْعَبىَّ – صاحبَ الشُّرطة فى بغداد إبـان عهـود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل – ويُسْلِمُه عُبَيْدَ الله بن سُليمان بن وَهْب، ويقول له: هذا عدوى فافصل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقانى أيام المعتصم فـلا يبدأنـى بالسـلام، فأبدأه به لحاجتى إليه، فيردُّ علىَّ كما يرد المَوْلَى على عَبْدِهِ، وكل ما دبَّـرَ إيتـاخ (القـائد التركى) فَعَنْ رأيه!!.

لا يمكننا الاستطراد فى مثل هذه الحوادث الدامية، ويكفى أن نشير إلى وزير مثل ابن الفرات، الذى أخِذَ من الوَزارة إلى السجن والعذاب، ومن السجن إلى الوَزارة ثم من الوزارة إلى السجن والعذاب مرة أخرى، وفيها قُتل (انظر القصة بهذا العنوان: القسم الثانى - الفصل الرابع - القصة رقم٢)

وقد كانت أقدارُ الكُتَّاب والعُمَّال من الولاة وأصحاب الخَراج مرتبطةً بمصائر الخلفاء والوزراء الذين يستخدمونهم، فلا عَجَبَ أن تكْثر نكباتُهم ومصادراتُهم، وأن يتفننوا فى اختراع وسائل الاختفاء، وأن يتقنوا تهريب الثَّروَات، وأن يستنزفُوا أموال الناس حين تكون فى أيديهم السُّلطة تَحَسُّباً ليوم يُعَزلُون فيه، ويُطالَبون بمبالغ خيالية يعرفون أنه ما مِنَ الوفاء بها بُدٌّ، ولابد أن يبقى لهم شيء كثير بعدها. ولأن هذه الفترةَ من العصر العباسى- ونَعنى القرنين الثالث والرابع - فترة اضطراب سياسىٍّ وفساد إدارى شنيع، نجد الأخلاق تتبعها: مضطربةً فاسدةً، يصدر قرار الخليفة بسَجْن وزيره وتعذيبه فيُسجن ويُعذَّب بإشراف كبار رجال الدولة، ولكنهم يتودَّدون إلى الوزير السجين سراً، ويعتذرون إليه تَحَسُّباً لاحتمال عودته إلى الوزارة (تأمل دلالة القصة السابقة، وأيضاً من الفصل الرابع - القصة رقم ٧ والقصة رقم ١٠).

ويقبض الوزير محمد بن عبدالملك الزيات على سلفه الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب، ويهينه ويعذبه، وفى خدمته أخوه الحسن بن وهب، فلا يجسر على أن يتشفع لأخيه عند الوزير، ولا أن يخفف عند البلاء.

ويُسلم أبو دلف العجلى - القائد البطل العربى - للأفشين بأمر المُعتصم يفعل به ما يشاء، ويتصدى القاضى أحمدُ بن أبى دُؤاد، ويحتال فى ذلك بطُرق غير مأمونة، فينقذه، ويستهدف لعداوة الأفشين (القسم الثانى- القصة رقم ١٥، واقرأ أيضا القصة رقم ١٣ من هذا الفصل).

لهذا الخطر الماحق صارت الثروة هدفاً يَسْعى إليه العَمَّال، أصبح بذل الرِّشْوة أو قبولُها أمراً عادياً للحصول على الحماية أو إسباغها على مَنْ يطلبها (القسم الثانى- الفصل الثانى- القصة رقم٦). والمتاجرة بأموال الدولة عملاً مباحاً (القسم الثانى - الفصل الرابع- القصة رقم ٩).

ومن أقوى الأخبار دلالة على الفساد الإدارى والمالى ما ذكر من أن بعض العمال تقلد الأهواز وأراد أن يبدأ عهدَه بتطهير جهاز الحكومة، ومنع الرِّشْوة، وإلزام كل موظف بموقعه لا يتخطاه، فأحسّ كبراءُ المدينة بالخطر الذى يتهدَّدُ مكاسبهم وتسلُّطهم بمنع الرشوة عن الموظفين، فاختار الكبراء واحدًا منهم يكلم الوالى الجديد. يقول: "فجئتُه، وخلوتُ به، وبذلتُ له مرْفَقاً جليلاً (رشوة ضخمة) فلم يقبله، ودخلتُ عليه بالكلام من غير وجه، فَمَا لانَ، ولا أجاب. فلما يئست منه، وكدتُ أن أقومَ عنه، قلت له : يا هذا الرجل، أنت مقيم من هذا الأمر على خطأ شديد، لأنك تظلمنا وتزيل رُسُومَنا من حيث لا يحمَدُك السلطان، ولا تنتفع أنت أيضاً، ومع هذا فأخبرنى: هل تأمنُ أن تكون قد صُرِفْتَ (طُردتَ من الوظيفة) وكتاب صرفك فى الطريق، يَردُ عليك بعد يومين أو ثلاثة؟! وما دام هذا الاحتمال وارداً، والوالى لا يطمئن فى موقعه إلا أياماً، فلماذا تُضيِّع فُرصة تعويض ما يحتمل حدوثُه؟ وبالفعل اهتز ثبات الوالى، وقبل المِرْفَق (الرِّشوة) ولم تمض أيام حتى جاء خطابُ صَرْفه عن الوظيفة، فراح يَشكر الوسيط القديم على نصيحته، وهو لا يشك فَىّ أن لهذا الوسيط عُيوناً فى بغداد تكاتبه بما سيحدث، وأنه كان عارفاً بما سيكون من إنهاء خدمته بهذه السرعة!!

✿✿✿

ثانياً – صور الحياة الاجتماعية :

لم نرد فى هذه الفقرة أن نقدِّم وصفاً للحياة الاجتماعية، أو بعض جوانبها، كما أننا لم نحاول فى الفقرة السابقة أن نحصى أو نعرِضَ الأخبار والشخصيات التاريخية التى احتفل بها الكتاب. لقد أردنا أن نشير إلى أهمية هذا المجال، وأن نضع تحت نظر القارىء نماذجَ مما يمكن أن يُعتبر إضافة فى هذا الجانب، لأن كتب التاريخ لم تحفل به، لسبب أو لآخر، وفى صُوَر الحياة الاجتماعية لن نتخلى عن هذا القصد، ولن نتوسع فيه توسعنا هناك، وبشكل عام فإن القاضى التَّنوخِىَّ لم يعمِد إلى كتابة أو جمع قصص اجتماعية، بالمعنى الذى يُقصد الآن من استخدام هذا المصطلح، أى تصويرَ العادات والتقاليدِ وأنماط السلوك، وتسليطَ الضوء على بعض المشكلات ذات الطَّابَع العام، والتى تهم الطبقات الدنيا فى المحل الأول، فلسنا نظن أن هذا المعنى الاجتماعىَّ، أو ذاك المغزى الطبقىَّ كان واضحاً عند كاتب فى القرن الرابع الهجرى بمثل وضوحه الآن، أوبما يقارب وضوحَه الآن. ومع هذا فإن القاضى التَّنوخِىَّ قد جمع قصصاً عن اللصوص،

وعن العُشَّاق، يمكن أن تُعتبر فى صميم القصة الاجتماعية، غير أن ما أردناه بـ "صور الحياة" يتجاوز إلى ما يصح اقتناصه فى سياق أية قصة، أو أى خبر.

إن علاقة التفاعل الجَدَلِىّ بين التركيب الاجتماعى فى مفرداته الطبقية لن يسمح بعَزْلِ أوضاع أخرى، إنها لا بد أن تكون سبباً ونتيجة فى الوقت نفسه، وقد رأينا كم كانت أوضاع الخلافة متردية، وكان المنصب أُلْعُوبَةً، وكانت النساء من أمهات الخلفاء وزوجاتهم وجواريهم مُتَحَكِّمات، حتى كان بعضُهن يقمن فى بيوتهن -ولابد أنها قِلاعٌ أو تشبه القلاع -سجوناً خاصة، ويمكن لإحداهُنَّ أن تحكم على موظف عندها بالقتل، دون أن يمر بأى مرحلةٍ من مراحل التقاضى!! ومن الطبيعى أن يؤثر هذا الخللُ الأمنىُّ الاجتماعى فى الطبقة المتعاملة مع طبقة القمة، فنجد الولاةَ والعمّالَ يجدون فى جمع الثروات ويتفننون فى حماية أنفسهم. كان أبو جعفر بن شيرزاد الكاتب يسكن داراً هى قَلْعَة بالفعل، كان لها أربعةَ عَشَرَ باباً، يُفضى بعضها إلى جهات وأزِّقة لا يَعرف عنها أحدٌ شيئاً. وكان يملك من الغلمان المسلحين المستعدين لافتدائه ما استطاع به أن يعطل قرارَ الوزير، ويَرْفُضَ مغادرة بيته، ويتحدى السُّلطة الرسمية، حتى تمكن من الاختفاء خارج بيته إلى أن أتاه الفرج!!، كما أنهم كانوا إذا هُدِّدَ أحدهم فى حياته وقُدِّم للقتل، هتف: وأين المصادرات؟ أين أنتم عن أموالى أفتدى بها نفسى ؟ أما إذا أُحيط به من أجل الاستيلاء على ثروته، التى لابد أن تكون تضخمت بشكل لا يُسهل احتمالُه راح ينُكر ثروته، التى تَفَنَّنَ فى إخفاء معالمها. ويَصْمُد لعمليات التعذيب على عنفها ، ويساوم ليُصالَحَ على بعض المطلوب منه، ويدّعى أنه تسلّفه من أصدقائه وكرماء عصره لينقذَ نفسه، وهذا رجل ذو خبرة، يُرشد أحدَهم إلى وسيلة يُقنع بها الوزيرَ أنه لا يملك المال الذى يُطالب به. قال : تكتب رُقْعَة إلى رجل من معامليك تَعْرِفُ شُحه وضيق نفسه، تلتمس منه لعيالك ألف درهم يُقرضُك إياها وتلتمس منه أن يجيبكَ على ظهر رُقعتِكَ، لترجعَ إليك فإنه لشُحِّه، يَرُدُّك بعذر، وتحتفظ بالرقعة، فإذا طالبك الوزير أخرجتها له على غير مَوَاطأة، وقلت له : قد أفْضَت حالى إلى هذا. (القسم الثانى - الفصل الأول- قصة رقم ٩)

وجدير بالذكر هنا أن الخلفاء كانوا -عادة- على علم بالثروات المخَبَّأة، و لم يكونوا يعترضون عليها أو يمدون إليها أيديهم، إلا إذا رأوا أنها صارت من الضخامة بحيث تهدِّد جانباً من سلطانهم، أو أن يُوَاجهَ الخليفةُ أزمة سياسية يحتاج حلُّها إلى المال بشكل غير عادى، ولا تسعفه الخزانة العامة، وتشح نفسه عن إخراج المطلوب من ماله

الخاص، فحينئذ يلجأ إلى المُصادرة والاسْتِصْفَاء، وهو سلاح مُشْرَع في أي وقت، وله مسوغاته الجاهزة. يدل خَبَر عن الرشيد أنه رَضِيَ عن فَرَج الرُّخَّجِيّ، وأعاده عاملاً على الأهواز حين اعترف أمامه بمقدار ثروته الحقيقية، ومصادر حصوله عليها في مرحلة عمله السابقة، وعرض هذه الثروةَ الضخمةَ على الرشيد ليأخذها. ودلَّ على مكانها، فقال الرشيد: بارك الله لك في مالك، ارجع إلى عملك!! (القسم الثاني- القصة رقم٩).

وخبر آخر عن المأمون، أنه دعا يوماً بأبي عَبَّاد، وأمره أن يأتيَ عَمْراً بن مَسْعدَةَ، ويدوِّنَ معه ورقة بكل ما يملك بالتفصيل، ويوقِّعان عليها معاً، ويحتفظ بها أبوعَبَّاد، وتكون المفاجأة التي يفهم سِرَّها أبوعباد أن عَمْراً بن مَسْعَدَة لديه أمر من المأمون أن يفعل الشيءَ نفسَه مع أبي عبَاد. ويوضح ابن مسعدة اللغز، فيقول: إن صاحبنا - يعني المأمون- ليس ببخيل، ولكنه رجل يكره أن يُطوى معروفه، وإنما أراد أن يُعلِمَنا أنه قد عَلِمَ بما صار إلينا، فأمْسَكَ عنه على عِلْمٍ (القسم الثاني - الفصل الرابع- القصة رقم٣).

وقد أوضح المأمون - فيما بعد - قصدَه، فهو لم يستكثر على رجال دولته ما جمعوا من ثروة، ولكنه أراد أن يُزِيلَ عنهم غمَّ المُسَاتَرةِ، وثِقْلَ المُراقبة!! أما هذه الثروة التي سامح فيها المأمون رَجلَيْه فقد كانت أربعين ألف ألف درهم لابن مَسْعَدَة، وسبعةً وعشرين ألف ألف لأبي عَبَاد!!.

هذه صورة الطبقة العليا في المجتمع، تتحرك بين قطبين متباعدين، يُمثل الثراء والسُّلطة جانباً، والمصادَرَةُ والسَّجْن جانباً آخر، وبين هذا وذاك حياةٌ متوترة بالترف وانْتِهاب اللذات، وانتهاز الفرص وتوقُّع المُداهمة وزوال السلطان، ولكنها تمارسُ جَبَرُوتَ التحكّم والعَسْف، لعل هذا يؤخِّرُ في نزول المحنة القادمة لا ريب. هذا الوضع العام، بما يُشيع من جوٍّ نفسي كان له أثره - لا ريب- على النظام الاجتماعي. لقد عرف هذا العصر انتفاضات كبرى، كثورة الزِّنج في منطقة البصرة. وثورة القَرامَطة، وقد بلغ بهم الحال أن نزعوا الحَجَرَ الأسودَ من الكعبة، وطردوا الحُجاج، ووصلوا بجيوشهم إلى بغداد العاصمَة التاريخية، وإن مناقشة هذه الحركات الانفصالية بمعْزل عن غياب العدلَ الاجتماعي، واضطراب النظام المالي للدولة الإسلامية، واعتماد الخلفاء على الجنود المرتزقة من تُرْكٍ وَدْيلَم في حماية دولتهم، يؤدي إلى نتائج قاصرة، وهذه القصص الكثيرة التي تنتشر في الكتاب. يمكن أن تجدَ فيها ملامح التداخل بين هذه الظاهرات جميعاً، وكيف كان كل منها يرتبط عضوياً بالآخر.

لقد قدَّم القاضى التَّنوخِى صوراً نادرة لحِيلَ اللصوص، ونماذج لسلوكهم وتقـاليد مهنتهم؛ سنجد للصوص نقيباً، يعرف شخصية السارق من أسلوب سَرِقَته، والمنطقة التى وَقَعتْ بها السرقة، وهو يمارس مهامَّ رئيس الطائفة حتى وهو فى السـجن، فيتشـفع فـى ردّ مال مسروق (القسم الثانى– الفصل الثانى– القصة رقم ٥)

ونجد قاطع طريق يستبيح مال التجار وينهبه معتمداً على فتوى فقهية، مؤداهـا أن المال الذى لا تُخْرَجُ زكاتُه يفقد حُرمَتـه، فيـأتى بالتجـار الذيـن أخـذ تجـارتَهم ويسـألهم كيـف يُـؤدون زكـاتهم؟ بأيـة نسـبة؟ ومتـى؟ وهـل تُخْـرَج زكـاةُ الديـون، والمدخـرات الذهبية.. الخ، ويكشف أمامنا عجزهم وتخبُّطهم بما يدل على أن حق الله فى هـذا المـال لم يصل إلى مستحقيه ومِنْ ثَمَّ لا حُرمْه له (القسم الثانى– الفصل الثانى– القصة رقم٤).

ونتعرف على "ابن حمدى" اللص البغدادى المشهور بـالفتوة والظَّـرف، وكـان لا ينهب أصحاب البضائع القليلة. وسنجد أبلغ بيـان عـن محركـات اللصوصيـة يقولهـا ابـن حمدى هذا، الذى يجد فى قطعه للطريق عملاً أقل قسوة وضرراً مما يفعل الوزراء والـولاة فى الناس، يقول لواحد ممن سلبهم أموالهم: "الله بيننا وبين هذا السلطان الـذى أحوجنـا إلى هذا، فإنه قد أسقط أرزاقنا، وأحْوَجَنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعله نرتكـب أمـراً أعظمَ مما يرتكبه السلطان. وأنت تعلم ان ابن شِيْرزَاَدَ ببغـداد يُصـادر النـاس ويُفقرِهُـم، حتى إنه يأخذ الموسر المكثر، فلا يخـرج مـن حبسـه، إلا وهـو لا يهتـدى إلى شـىء غـير الصَّدَقة، وكذلك يفعل البريدىُّ بواسطَ والبصرة، والدَّيلَمُ بالأهواز. وقـد علمـتُ أنهـم يـأخذون أصـولَ الضِّيـاع، والـدور، والعَقـار، ويتجـاوزون ذلـك إلى الُحـرُم والأولاد، فاحسب أننا مثل هؤلاء، وأن واحداً منهم صَادَرَك".

"فقلت: أعزَّك الله. وظُلْمُ الظَّلَمَة لا يكون حُجَّـة، والقبيـحُ لا يكـون سُـنَّة، وإذا وقفتُ أنا وأنت بين يدى الله عَزَّ وجَلَّ، أترضى أن يكون هذا جوابك له؟ فأطرق ملياً، و لم أشكّ فـى أنـه يقتلنـى، ثـم رفـع رأسـه، فقـال: كـم أخـذ منـك؟ فصدقتـه. فقـال : أحضروه. فأحضر، فكان كما ذكرتُ، فأعطانى نصفه".

هكذا يبدو قاطعُ الطريق صَدى لأخلاقيات العصـر وسياسـته، ويبـدو– فـى نظـر نفسه– أكثر رفْقاً وإنسانية وأرفعَ خُلُقاً من الوزراء والولاة فيما يُنزلونـه بشـعوبهم، فهـو

لا يستأصل رأس المال فى الضِّيـاع والعقـار، ولا يتطلـع إلى الحُـرُم والأولاد، إنـه يكتفـى بنهب المال المنقول، وقد رضى هذه المرَّة بالقسمة مُنَاصَفَةً.

وبصفة عامة فإن قُطَّاع الطريق واللصوص كـان لهـم نفـوذ شِبْه معتَرف بـه فـى المناطق التى يسيطرون عليها، وكان مَنْسرُ بعضهم يبلغ مائةَ نفـس، بأسلحتهم وعُدَّتهـم "كالعسكر العظيم"، ويلفتنـا أن القـاضى التَّنوخِيَّ يصـوِّر الجوانـب الإنسـانية والدوافـعَ النفسية لدى هذه الطائفة الخارجة على النظام – إن كان ثَمَّـةَ نظـام، و لم يصوِّرهـم فـى حالة منفِّرة أو قاسية إلا نادراً –وقد كان بعضهم لا يعبأ بسُّـلطة الدولـة، ويقطـع طريـق النهر على قافلة بحريـة تحمـل رسـالةً مـن الخليفـة، ولكـن الغـالبَ أنهـم كـانوا يتجنبـون الصدام مع السلطة التى كانت تتعـامل معهـم فـى حـدود، وقـد تقبـل مصالحـةَ بعضهـم ومقاسمَته مكاسبه، بشرط أن يتوب، كمـا قـد تُعْجَـبُ بشـهامة بعضهـم وفروسيَّته فـلا تُسرِعُ إلى معاقبته، وإذا جاوزنا القصص التى عقدت لقطَّـاع الطريـق والمتلصصـة، فإننـا سنجد علامات غياب الأمن، وتعرُضَ القوافل والأفراد للسـلب تكـاد تكـون جـزءاً مـن تركيب القصة، وملامح المجتمع فى تلك الفترة المضطربة.

وفى باب : "مَن نالته شدة فى هواه، فكشفها الله عنه وملَّكه مَنْ يهواه" سـنجد بعض قصص المحبِّـين العُذريّين فى نَمَطهـا التقليـدى الـذى نجـده فـى كتـاب "الأغـانى" ولكن الأكثر أهمية أننا سـنجد عـدداً مـن القصـص المحبوكـة فنيـاً، يقـوم بَـدوْر العاشـق والمعشوق فيها السيد وجاريتُه غالباً، أو شاب حر وجاريةٌ يملكها بعضُ السادة من عِلْيـة القوم أو الجيران، فى أحيان أخـرى، وهـذا النـوع مـن القصـص يضـع أمامنـا نوعـاً مـن العَلاقات الاجتماعية أهملته الدراسات التراثية علـى تنوعهـا. هنـاك بعـض الكتـب التـى اهتمت بأخبار القِيَان (الجوارى المغنِّيات) أو الجوارى بصفة عامة، ولكنها اهتمـت غالبـاً بأخبارهن فى مجال الغِناء أو اللهو والعبث، أو النفوذ السياسى على سادتهن، ونـادراً مـا نجد اهتماماً بالحياة العاطفية لأولئك الجوارى، وكأننا نفترض –أو افترض القدماء– أنهـا ما دامت مملوكةً فلابد أن تكون مُذْعِنَةً لسيدها، خاضعةً لرغباته!! وهذا التصـور سـيبدأ من افتراض خاطىء، فأول شرائط الحـب أنـه يقـوم علـى اعـتراف عميـق بحريّـة الطـرفِ الآخر وحقِّه فى أن يَمْنَعَ أو يُمنَـحَ عـن طوَاعِيَـةٍ ورغبـةٍ حقيقيـة، وهـذا بـدورِه اعـترافٌ بالمساواة بين العاشق والمعشوق، وليس مصادفةً أن أقوى قصص الحـب العُـذرى اتخـذَتْ من البادية مِهاداً لها وموطناً، حيث تستقر أسُسُ المساواة بين أفراد القبيلـة، وبـين القبـائل

المتناظرة. تتكرر فى هذه القصص "لازمة" السيد الذى لا يبقى له من الدنيا غيرُ جاريته المحبوبة، قد تقترح عليه أن يبيعَها ليعيش بثمنها، وقد تعزِّيه بأنها ستصادف سادةً أغنياءَ يتمكنون من إطعامها وكسوتها، وقد يأتى الاقتراح من جانب السيد، لنفس الدوافع، ولكنه فى كل مرة يَضْعُفُ فى اللحظة الحاسمة، ويرفُض البيع برغم الثمن الجزيل المعروض فيها، ولا يكتفى بالاحتفاظ بها فى مِلْكِهِ، بل يُعلن أمام الشهود أنه أعتقَها، وجعل عِتْقَها صَدَاقَها، ويطلب منهم أن يزوِّجوها له!!

هذا النوع من القصص يدل على المنزلة الاجتماعية التى حَظِيَتْ بها الجوارى فى العصر العباسى، وهو عصر عَرَف الخلفاءَ من أبناء الجوارى، لم يَشْغَل مكان الخليفة فى هذا العصر على طوله من أبناء الحرائر غيرُ السَّفَّاح -مؤسس الدولة، والأمين ابن زبيدة. وقد كانت الجارية فارسيةً أو رومية، مثقفة بأرقى ما يحتاج التعامل الحضارى فى ذلك الحين. وبذلك كانت صاحبةَ خطوة الفعلية، حتى على الحرّة العربية، التى تكتفى بمظهر السيادة، و لم يكن السيد الرجل يتردد فى أن يخضع لجاريته، بل يتذلل، ويسترضيَها قائلاً: يا ستى، ويسألها أن تصفحَ عنه، ويرضى بأن تشاركه عيشه الفقير، على أن يبيعها ويعيش ثرياً محروماً منها، وسنجد عندها الوفاءَ لهذا السيد العاشق، فلم يحدث أن جارية فضَّلت أن تُباع للأثرياء، على أن تبقى زوجة لسيدها الفقير، بل إنها تعاونه على اجتياز محنته، بما تُجيد من فن.

لا نريد أن نتوسع أكثر من ذلك، حتى لا يخرج هذا الفصل عن الحجم الذى ارتضيناه، ونكتفى بمجرد الإشارة إلى أوجه أخرى تظهر فيها صور المجتمع العربى فى القرن الرابع بتفاصيل أدق وأصدق مما صوَّر المؤرخون فى غيبة الرصد الاجتماعى للسلوك العام، وأنماط المعيشة، وألوان التغيُّر.

(أ) العادات والتقاليد مثل كتابة الأحْجِبة بقصد التأثير لاستجلاب الرضا أو تجنب السُّخْط، وتحصين الأطفال بوضع رغيف تحت وسادة الطفل والتصدق به صباح كل يوم، وتعليق رقع فيها شكاوى ومظالم فى محراب المسجد، أو فى قبور أئمة أهل البيت.

(ب) نظام الشُّرْطة، وسنجد للنظام الأمنى مصطلحات وتحركات طريفة: فهناك الشُّرطة والعَسَس، والطَّوَّاف أو الطائف، وقد كانت بغداد مقسَّمة إلى أربعة أقسام أمنية،

ولكل قسم مسئول، يعاونه جهاز ينتشر على مساحة الربع، ويرفع إليه تقارير، تتجمع فى تقرير واحد، يُقدَّم يومياً إلى صاحب الشُّرطة.

(جـ) وهناك السجون وأنواع العقوبات، وكانت درجات، تتدرج شدة وإذلالاً، فالمُطْبق كان كالحفرة، وكانت كل زنزانة تتّسع لسجين واحد وهو جالس، وفى ديمَاس الحَجَّاج كان المسجونون جميعاً فى سلسلة واحدة، وإلى جانب السجن الحفرة، وُجدَ السجنُ المكشوف للسماء، يَحُدُّه سورٌ عال، ولا يَقِى المساجين أىُّ شىء فى الصيف أو فى الشتاء، وكان يحدث أن يُسلم الكُبراءُ إلى نَظَائر لهم يسجنونهم فى بيوتهم، فهذا نوع من تحديد الإقامة، أو السَّجْن السياسى، ولكنه لم يكن يخلو من عذاب.

وتتدرج العقوبات من الصَّفع، إلى التجريد والجَلْد، وقد قُتِل الخليفةُ ابنُ المعتز باعْتِصَار خِصْيَتَيْهِ حتى الموت.

(د) الرُّسوم: وتُراعَى فيها منزلةُ صاحِب السلطان، فالخليفة تُقبَّلَ رِجْلُه، ويده، ويُقبِّل العُمَّالُ البساطَ بين يديه، وقد يحظى الوزيُر أو الكاتبُ بشىء يشبه هذا، وكان للخليفة كما للوزير يومٌ عام يجلس فيه لاستقبال العامة أصحاب الحاجات، ويجلس مِن حوله أركانُ دولته: الوزيرُ والكاتبُ وقاضى القضاة، كلّ على درجته. وفى الأيام الأخرىلا يُدخل عليه إلا بإذن سابق.

(هـ) أسلوب الحفاوة: وتتكرر فى القصص والأخبار طريقة الاحتفاء بعزيز قادم بعد غياب، أو إكرامِ غريب وافد، كان الأمر عادة يبدأ بإدخاله الحَمّام، وتقديم الطعام، ومؤانسته، ثم سؤاله عن حاجته، وكانت المدنُ محاطةً بأسوار ذات أبواب تُغلق عقب الغروب، فإذا وفد إلى المدينة أحدٌ بعد إغلاق الأبواب لم يُسمح له بالدخول، ونجد دائماً قريباً من باب المدينة -خارج السور- مسجداً يقضى به الغرباء ليلتهم حتى يُفتح الباب مع الصباح، ومثل هذا المسجد كان يبنيه الكبراءُ قُربَ بيوتهم ويؤمون أتباعهم فى صلاة الجماعة كل يوم. وكان من عادة رجل العِلْيَة أن يُنْهى صلاته بوقار، ويتمهلَ قليلاً لِيُتمَّ دعاءَه وتسبيحه، ثم ينظر خلفَه يستعرضُ وجوهَ المصلين، ومِنْ ثَمَّ يكتشف الوجوهَ الغريبةَ، ويعرف أنهم وفدوا لحاجةٍ فيصحبُهم -

بين رجاله- إلى جناحه الخاص، ليسأل كلاً منهم عن مَطْلَبه، ويُحسن إلى مَـنْ جـاء منهم يطلب الإحسان.

✿✿✿

ثالثاً - المحاور الأخرى :

وقد تضمن الكتاب عدداً كبيراً من الحكايات الشَّعبيّة، لا تستند إلى خبر تاريخى، ولا تحرص على الاقتراب من الواقع الاجتماعى، إن هدفَ الحكاية الشعبية هـو التّرفيـه، تسليةُ المستمع أو القارىء بإثارة دهشته ومخاوفه وإيمانه القدّرى بأن ما يريدُه الله يكـون مهما كانت رغبة الإنسان. فى هذه الحكايات تلعب المفاجآت دوْراً مهماً ولكنـه يصنـع العبرة فى النهاية، وهنا تلتقى الحكايةُ الشعبية مع القصـة الوعظيـة التـى تهـدف إلى غايـة أخلاقية، وإن لم تحرص على التسلية فإنها لا تعبـأ كثـيراً بـالواقع والمنطـق، لكنهـا تُسـاق أصلاً فى نطاق المُعجزة. ولأن القَصَّ من أجل الوعظ كان بدايةَ طريق القصـة الإسـلامية التراثية، فإن أخبار بنى إسرائيل والعرب البائدة، وجوانبَ من عصر صدر الإسلام، تظهر فى هذا المجال، تأتى مطلقة أحياناً وأحيانًـا منسـوبةً إلى نبـى، فهـذا نبـى أو صِدِّيـق ذبـح عجلاً بين يدى أمه فخَبِلَ، ومسح عن فرخ أمام أمه فثاب عقله (القسم الثانى - الفصـل الخامس - القصة رقم ٢١).

أما النبى دانيال فقد أُلقى إلى أسـود جائعـة فذلـت لـه حتـى وضـع رجليـه علـى رؤوسها (القسم الثانى - الفصل الثانى - القصة رقم ٨).

وحكاية جحا المشهورة الساخرة، عن حماره الذى قطع ذيله، وامرأته التى أسـقط حملها، تـروى عـن سـدوم، وأن الله أهلكهـم بهـا (القسـم الثـانى -الفصـل الخـامس - القصة رقم ٢٣).

أما قصص الوعظ القريبة إلى عصر المؤلف فإنها لا تختلف عن الحكاية الشعبية إلا فى غايتها الأخلاقية القدَرية. وأكثرها يقوم على مصادفة، فهـذا رجـل يُقسـم ألا يـأكل لحم فيل، فيكون ذلك سبب نجاته وثروته، وآخر يحمله الأسد إلى عرينـه ليأكلـه، فيجـد

هناك الثروة وفرصة النجاة، وهذا أسد يقطع الطريق على دائن ومَدين، وكان الدائن قاسياً متشدداً، فأكل الدائن وسلم المدين.

وتشغل قصص وأخبار آل البيت حيِّزاً مهماً، وتتسلل فى طوايا قصص أخرى كثيرة، وقد ترجم صاحب "أعيان الشيعة" لابن القاضى التّنوخِىّ ولأبيه على أنهما من الشيعة. أما القاضى أبوعلى المحسِّن، كاتبُنا، فقد ذكرت مصادر أخرى أنه مُعْتَزِلىٌّ، حَنَفِىٌّ المذهب، وليس ما يمنع من تعاطفه وتعلقه بآل البيت مع اعتزاله وَحَنِفيَّته. وقد أورد قصصاً تدل على هذا التعاطف الواضح مع أبناء عَلى كرَّم الله وجهه، فالأسد لا يأكل أبناء علىٍّ وسلالتهم، وشخصية الإمام على تتراءى فى المنام للظالمين والذين يُوشِكون أن يقعوا فى الخطأ، فتُظهِرُ لهم وجْهَ الصواب أو تَرْدَعهم، ولا يقوم معها بهذا العمل غير الرسول عليه السلام، وقد يظهر النبى فى المنام ليوصى بأحد العلويين، بل إن المعتضد لم يعرض فى خلافته للعلويين، وتفسير ذلك أنه حين كان سجيناً رأى علياً فى المنام، فبشرَّه بالخلافة، وهو الذى لقبه المعتضد، ولا يظهر بعد الرسول وعلىّ فى المنام غير الحسين وفاطمة، وتتراءى عَبْر قصص كثيرة المنزلة السامية التى يشغلها آل عَلِىٍّ فى قلوب جمهور المسلمين، فزيارة الحائر (قبر الحسين فى كَرْبَلاء) لها موسم ينطلق الناس فيه أفواجاً، وجرايتهم فى أموال أتباعهم ثابتة كالفرض، أوْ هى فَرْض، على أن أخلاقهَم ونبلَهم وترفُّعَهم عن شهوة الانتقام من خصومهم وتنزيه ألسنتهم عن هُجْرِ القول، وحرص عامة المسلمين وخاصتهم على سماعهم، والتقاط أدعيتهم ونصائحتهم، مما نجد عليه أدلة كثيرة لانتشاره فى أثناء القصص.

أما القصص التعليمية، فإنها تكون عادة واضحة التلفيق، وهى لا تعبأ بغير ما وُضِعَتْ له، وهو تفسير مناسبة أبيات، أو شرح حكمة، أو خطبة.. إلخ وتُضَحِّى القصةُ التعليمية بالجوانب الفنية إلا نادراً، وسنجد قصصاً لشرح مسائل فقهية، عن زكاة المال، وحُرْمة عروض التجارة، وحق ابن الرقيق فى وراثة أمه الحرة (القسم الثانى - الفصل الأول - القصة رقم ٤).

وقصصاً لشرح أبيات. ومن هذا النوع نجد قصة واحدة طريفه، سنتوقف عندها في الفقرة التالية وهي قصة "سبع صنايع" (القسم الثاني - الفصل الأول - القصة رقم١٦).

هذه - باختصار - مجالات الاهتمام الأساسية التي تحرك بين أقطارها القاضي التّنوخِيُّ، وهناك محاور غيرها، كالقصص التي هدفت إلى تصوير أساليب علاج الأمراض المختلفة، والقصص التي صوَّرت الأثر السيء لحالة الجنود المرتزقة - التُّرْك بخاصة- في بغداد وما أنزلوه بأهلها من مظالم واعتداء على الحُرُمات، ولن يكون هذا التعريف مغنياً عن قراءة مفصَّلة تكون أكثر وفاءً للدِّلالة على آفاق المعرفة، وأنواع الخبرات، التي استمد منها القاضي التّنوخِي مادة كتابه "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة".

✿✿✿

البناءُ الفنىُّ للقصَّةِ التُّراثيَّة

باستثناء الأدعية، وبعض أمثلة الوعظ، والاقتباسات الشعرية، تشغل حوادثُ التاريخ وشخصياتُه - على اختلافٍ فى أهمية الخبر أو منزلة الشخصية التاريخية - الحيزَ الأكبر من الكتاب، بل تكاد تكون طابعَه العام، وهذا واضح فى ترتيب المصادر التى اعتمد عليها الكاتب، ونقل عنها، وتليها حوادثُ وشخصيات ليست من التاريخ، أو لا تُحتسب عادة على التاريخ، لأنها معاصرة لحياة المؤلف، أو قريبة جداً من عصره، أو لأنها لم تشغل فى حياتها مكاناً مُهماً يرقى بها إلى مستوى الحدث التاريخى أو الشخصية التاريخية، ثم تليها أخيراً حوادثُ وشخصياتٌ مختَرعة، واضحةُ الوضع، وهذا التقسيم "الموضوعى" ليس هو التقسيم الفنى، الذى يحتكم عادة إلى الصياغة، ولهذا فإننا استخدمنا من قبل مصطلحات: الخبر، والقصة، والحكاية. وهذا التقسيم الفنى لا يتوكأ على الصلة بالتاريخ، أو الواقع، وإنما يعتمد على التشكيل الفنى للمادة.

نذكر هنا أن القصة تَروى خبراً، ولكن -كما يقول رشاد رشدى- لا يمكن أن نعتبر كلَّ خبر أو مجموعةً من الأخبار قصة. فلأجل أن يُصبحَ الخبرُ قصةً يجب أن تتوفر فيه خصائصُ معيَّنة، أولها أن يكون له أثر كُلِّى، وأن يكون للخبر بداية وَوَسَط ونهاية، أى أنه يُصوِّر ما يُسمى بالحدث ينتهى إلى لحظة كشف أو ختام يمنح الحادثة مغزاها، يسمى: لحظة التنوير[1] كما نذكر النموذج المُبسَّط الذى أوضح به القاص الناقد "فورستر" أهم خصائص البناء الفنى، وهو "الحَبْكة" فيرى أن "الحكاية" مجموعة من الحوادث مرتبة ترتيباً زمنياً، أما الحَبْكة "فهى سلسلة من الحوادث يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج، فإذا قلنا: "مات الملك ثم ماتت الملكة بعد ذلك" فهذه حكاية، أما: "مات الملك، بعدئذ ماتت الملكة حزناً" فهذه حَبْكة وقد احتفظنا بالترتيب الزمنى، ولكن الإحساس بالأسباب والنتائج يفوقه. أما: "ماتت الملكة ولم يعرف أحدٌ سبباً لموتها حتى اكُتشفَ أنها ماتت حزناً على وفاة الملك" فهذه حَبْكة بها سر غامض[2].

---

(١) فن القصة القصيرة ص١٥-٢٠.

(٢) أركان القصة ص١٠٥.

وينبغى أن ننبه هنا إلى الفَرق بين استعمالين للحكاية، فهى فى البناء القصصى تعنى التتابعَ الزمنيَّ للحوادث الجزئية، وكأنها جواب عن سؤال يتكرر: "فما الذى حدث بعد ذلك"؟ ولكن حين توصف بها حادثة بكاملها، فيقال: إنها تنتمى إلى جنس الحكاية، أو الحكاية الشعبية –ولا شك أن الوصف بالشعبية أضيف لنفى وقوع الالتباس– فإنها تَعنى الأشكالَ القصصية حين تبتعد عن الطابع الإنسانى، والسلوكيات الاجتماعية، وتتعلق بالجوانب الخرافية لأهداف وعظية وتعليمية تهذيبية، ولتُرضِيَ نزوعَ الخيال إلى المغامرة والبطولة، وغالباً ما يكون التماسك بين أجواء الحكاية غير مُتْقَن، لاعتماده على المصادفة، كما أن "الحكاية" لا تحرص على العنصر الإنسانى، إنها تتحرك فى عوالم الحيوان، والجَان، وتُصَوِّرُ فِعْلَ الخوارق والسِّحْر، وما يقترب من هذه الأجواء، بعكس القصة.

لعله قد وَضَحَ الآن كيف يمكن أن يظل الخبر التاريخى مجرد خبر، وكيف يمكن أن يغادرَ التاريخَ إلى الفنّ إذا ما تشكّل وَفْقَ أصول الفنّ القصصى، بل كيف يمكن أن يبارح الخبر التاريخىُّ دائرةَ القصة، إلى دائرة الحكاية الشعبية، إذا ما أسرف الخيالُ فى تصويره، وأضفى عليه من المبالغة وخاض به من العوالم، وعلّق عليه من الأعمال البطولية، ما يخرج به عن السَّوِيَّةِ الإنسانية.

وهذا هو المقياس الذى احتكمنا إليه.

لن نَعْرِض للخبر التاريخى، فهو خارج دائرة الصناعة الفنية، ولكننا سنتوقف طويلاً عند القصة والحكاية الشعبية، ففيهما تظهر موهبة الكاتب. وقبل أن نحاولَ اكتشافَ مجموعة الأسس الفنية التى آثرها الكاتبُ فيما أورد من قصص، سنسلم مبدئياً بأنه ليس مُؤلف هذه القصص. كيف وهو يذكر مصدرَها وسلسلةَ رُوُاتِها قبل نَصِّها؟ لنقل إذاً: إنه اختار قصصَه وَفق هذه الأُسس الفنية، أو لنقل: إن هذه الأسس تنتمى إلى القصة التراثية فى الأدب العربى بعامة. ومن جانبنا –فإننا وإن كنا لا نستطيع أن نطرحَ من معارفنا المصطلحات النقدية الخاصة بفن القصة القصيرة، وهى شكل معاصر –ينبغى أن نضع فى الاعتبار استقلال القصة القديمة بأصولها الخاصة. إن "الحَبْكة" هى أهم عناصر البناء القصصى، ونحن –على أية حال– نتجاوز بها ماحددها به "فورستر"، وهو التركيز على الأسباب والنتائج، إلى قضية أدق، وهى: كيف تَعَاوَنَتْ جُزْئِيَّاتُ العمل، أو مراحله، لتصنع فى النهاية شيئاً واحداً لا يسهل تحويلُه إلى أشْلاَء؟ وهنا تختلف مستويات

القصص التراثيـة، كمـا تختلـف مسـتويات الكُتّـاب فـى خـبرتهم، وقُدرتهـم علـى إثـارة التشويق دون مغادرة الخط الأساسى فى القصة.

ويمكـن أن نرصـدَ ثلاثـة أنـواع مـن الحَبْكـة: التقليديـة، والقصـة داخـل القصــة، والقصص المتحاورة. الحبكة التقليدية وَضَحَ معناها فى التعريـف، وهـى الأكـثر انتشـاراً، وإتقانها يحتاج إلى قوة الملاحظة، والتركيز، ونجد عليها أمثلة كثيرة نكتفـى بإشـارة إلى واحد منها، وهى من قصص اللصوص (وضعناها تحت عنوان: لصـان: تـائب وخـائب. القسم الثانى- الفصل الأول- القصة رقم ١٢). فقد نفَّـذَ أحـد اللصـوص عمليـة سـرقة لمحل بَزَّاز (تاجر أقمشــة حريريـة) معتمـداً علـى ذكائـه وثَبـات أعصابـه، فقـد جـاء إلى الدكان وقد تَزَيَّـا بـزى صاحبـه، ومعـه شمعـة ومفتـاح، وصـاح بالشـرطىِّ الـذى يحـرس الدكاكين أن يشعلَ الشمعةَ ويحملهاَ حتى يتمكنَ من فتـح الدكـان، لأن لـه فيـه شـغل، وهكذا تحت سَمْع الحارس وبصره جلس اللص وسط البضائع يكتب ويحسب، ثم نـادى الحارسَ من جديد أن يطلب له حَمَّالاً، فذهب فـأحضر الحمَّـال. الـذى حمـل أربـع رُزَمٍ ثمينةً، ومضى مع اللص الذى لم يَنْسَ أن يَنْفَحَ الحارس بدِرْهمَيْن . واستيقظ سوق بغداد، وجاء التاجرُ صاحبُ الدكان ليفتح الأبواب، فأقبل عليه الحارس يشكره على مـا أكرمـه به ليلة أمس، فاسْتَرابَ الرجل، ثم تأكد حين فتح البـاب، ووجـد أثـرَ الشـمعة، ومكـان الرُّزَم المسروقة، وهنا -دون ضجيج- استدعى الحارسَ وسأله: مَنْ الذى حمل معى الرُّزَمَ البارحةَ؟ فلما عرف أنه حمّال، طلب منه إحضاره هو بنفسه، فأحضره الحارس، فـاعتذر التاجر للحمّال بأنه كان البارحـة مُتَنَبِّذاً (شـاربَ نبيـذ) و لم يـدرك أيـن ذهـب بـالرّزم. فأخبره الحمّال أنه ذهب معه إلى شاطىء النهر، وأنزل بالرُّزم معه فى زورق مَلاّح معيّن. فذهب التاجر إلى الملاّح وسأله: أين حملتنى أمس مع أقمشتى؟ فحـدَّد لـه المكـان، كمـا حدَّد له الحمَّال الذى ساعده فى مغادرة الزورق ومضـى معـه. فدعـا بالحمَّـال ولاطَفـه، وأعطاه شيئاً، وسأله عن الموضع الذى انتهى إليه، فدلَّه على غرفةٍ خـارجَ البلـد، مشـرفةٍ على الصحراء، على بابها قُفْل، ما لبث أن كسره التاجر، فوجد رُزَمَهُ الأربع كما هـى، ووجد قريباً منها مِئْزراً، لفَّها فيه، وحَمَلهـا الحمَّـال، وانصرفـا. حـين خـرج مـن الغرفـة استقبله اللص، وفَهِم الأمرَ، فاتّبعه إلى الشـط، ونـزل التـاجر والحمـال إلى السـفينة، دعـا الحمّالُ مَنْ يحط عنه، فتقدَّم اللصُّ يساعدهُ كأنه متطوع، وأنــزل الـرزم إلى السـفينة، ثـم

وضع المئزر على كَتِفِه، وقال للتاجر: يا أخى، استودعتك الله، فقد استرجعتَ رزمك، فَدَعْ كسَائى!!

هذه قصة تبدو عادّية، من السهل تأليفُ مثلها، ومع هذا فقد روعيت فيها أصول صناعة القصة، ركبت تركيباً جيداً. فقد كان التاجر "يطلب التلصُّصَ فى حداثته ثم تابَ وصارَ بَّزازاً" وهذا يفسر سيطرتَه على أعصابه حين فوجىء بالسرقة، ويُفَسِّر قُدَرَته على تَصَوُّرِ ما حدث، والطريقةَ الُمُثْلى لتتبع الخَيْط، حتى يقودَه إلى مكان المسروقات، وهذا يفسر نداءَ اللص له فى آخر القصة: "يا أخى" فقد أدرك هو أيضاً أن هذا الدهاء ليس دهاءَ التجار، الذين تتجلى مواهبُهم فى إقناع المشترين، وإنما هو دهاء مجرِّبٍ يعتمد على الحيلة، وشخصية اللص مبنية بناءً سليماً من الناحية السيكولوجية، فهو يعرف أن من دَأب الحارس فى الأسواق أن يسأل المتردِّدَ المتلفت، وينصرف عن الوَاثِق التّلقائى، وقد سَأَلَ الحارسَ، قبل أن يسأله ليشغله بالجواب، و لم يكتف بسؤاله، بل صاح به، وطلب معونته فى فَتْح الدكان، وهكذا نَفَى عن خاطره تماماً أنه ليس صاحبَ الدكان. وبمثل هذه الثقة عَمِل الآخر أيضاً، فلم يَفْجأ أىَّ واحد ممن عاونوا اللص أنّ سَرِقَةً قد حدثت، وأنه قد ساعد اللص فى إتمامها، ولعل هذا لو حدث لأنكر الجميع أنهم شاهدوا أحداً أو عرفوا شيئاً، بدءاً من الحارس، الذى لابد أن يَدْرَأ تُهمةَ الُمواطأة أو الإهمال عن نفسه، وقد استعمل التاجرُ لغةَ الرِّفق والحيلة مع الحارس، والحمال، والملاّح، ولكنه مع الحمّال الأخير جاوز الملاطَفَةَ إلى الرِّشوة " أعطاه شيئاً" فهذا الحمَّال الأخيرُ هو عقدة الموقف. لقد انتهت كلُّ الخيوط عنده، وفى استطاعته أن يُفسدكلَّ المراحل السابقة لو أنكر أو ضَلَّل، وأيضاً فإنه إذا كان للسابقين عُذْرٌ فى عدم معرفتهم بأن الرجلَ لِصٌّ، فإن هذا الأخير كان ينبغى أن يعرف، ويغلب على الظن أنه يعرف، فليس من اليسير إيجاد مبرر مقبول لوضع رُزَمِ الحرير فى غُرفةٍ خارجَ المدينة، قريبة من الصحراء. من هنا كان المال بمثابة إغراء و"تطمين" ومصالحة، على إفشاء سرَّ الخطوة الأخيرة.

أما القصةُ داخلَ القصة فقد تكرر استخدامها، وهى تحتاج إلى مهارة فى الربط بين القصتين بحيث لا يبدو الانتقال مُفْتَعَلاً، أوْ لا مُسَوغَ له، فضلاً عن ضرورة توحيد المعنى العام، والمغزى، لأن القصة الثانية هى بمثابة جواب عن السؤال المطروح فى القصة الأولى، وقد وُفِّقَتْ بعض المحاولات، كما أخْفَقَتْ محاولات أخرى.

يمكن أن نجد نموذجاً مقبولاً في قصة محمد بن زيد العلوى، صاحِبَ طَبْرِسْتَان، وكان من عادته أن يُفرِّق ما يبقى فى بيت المال، آخرَ كل عام، بحيث يأتى خَرَاج السنة الجديدة وليس فى بيت المال شىء. وكان يوزِّع على قبائل قريش، والأنصار، والفقهاء، ثم عامةِ الناس. وحدث أنه كان يُفرِّق المال، فلما انتهى من بنى هاشم، دعا بسَائِر بنى عبد مَناف فقام شاب وانتسب، فإذا به من أحفاد يَزِيد بن مُعاوية، وقد قُتِل الحسينُ رضى الله عنه فى خلافته. "فنظر إليه العلويون نَظَراً شديداً، فصاح بهم محمد وقال: كُفُّوا عافاكم الله، كأنكم تظنون أن فى قَتْلِ هذا دَركاً أو ثأراً بالحسين .. والله، لا يَعْرِضُ له أحد إلا أقْدتُهُ به، واسمعوا حديثاً أحدِّثكم به، يكون قدوةً لكم فيما تستأنفون من أموركم".

وهكذا تبدأ القصة الثانية، وتستمر فى إطار الأولى، ولتأكيد الغاية منها، وقد جرت فى زمان آخر، لشخصيات أخرى، لكنها لم تنفصل عن الجو الذى رسمْته القصةُ الأولى: فقد كان المنصورُ فى مكة، وَعَرَفَ أن محمدَ بنَ هِشام بن عبدالملك فيها، فدعا إلى صلاةٍ جامعة فى الحَرَم، ليتمكنَ الحراس من اكتشافه والقبْض عليه، وعرف الفتى الأمويُّ أنه مقتول لا محالة، و لم يُنقذْه بتضليل الحراس إلا محمد بنُ زيد بن علىّ بن الحسين، رضى الله عنه، إذ طرح رداءه على رأسه ووجهه، وأخذ يجرُّهُ على أنه حَمَّالٌ من الكوفة خدعه فيما حَمَلَ له، حتى أخرجَه من بين الحرس، و لم يقبل منه هديةَ عِرْفَان وقال: "يا ابنَ عمٍّ، إنَّا أهلُ بَيْتٍ، لاَ نَقْبَل على المعروف مكافأة" -فهذا هو الوجه الآخر للقصة الأولى-، ولا ننزل عقوبة بغير مستحقها -وهو مغزى مستفاد من القصتين كل على حدة.

إن ضعف الرابطة هو الغالب على هذا النوع من القصص، ونعنى الذى يقوم على الاستطراد من قصة إلى أخرى. وقد يُعاب هذا من منظور عصرى، ولكنه كان طريقة عربية راسخة، يمكن أن نزعم أن هذا الكتاب -وما يشبهه- كان بداية بها توَّسَعْت فى الحكايات الشعبية، التى بلغت قمتها فى "ألف ليلة وليلة" وهذه الطريقة تقوم على التوازى بين الاستقلال والإدماج، فالقصتان يمكن أن تُقرأ كلٌّ منهما على أنها مستقلة، وتؤدى وظيفتَها الخُلُقية أو التعليمية، أو الترفيهية بنوع من الاكتفاء، ولكنها لا تَنْبَتُّ تماماً عن القصة التى استُدْرِجْنَا إليها، فالربطُ بين القصتين، واكتشافُ

تكاملهما، وليس اندماجهُمَا تماماً، أمر ممكن، وهذه الطريقة وَجَدَت أقصى امتدادٍ لها فى "ألف ليلة" التى يمكن اعتبارُها حكايةً واحدة ممتدة، واعتبارُها حكاياتٍ متعددة.

أما القصص المُتحاوِرَة فهو مصطلح وضعناه لندلَّ به على القصة الواحدة حين تُرْوَى من طُرُق متعددة، وهذا يحدث كثيراً فى كتاب "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" وقد يحدث أحياناً ليست قليلة أن تكون الروايةُ الثانيةُ أكثرَ تَوَسُّعاً فى وصف الحَدَث من الرواية الأولى، وتكون الثالثةُ أكثرَ تَوَسُّعاً من الثانية، وكأن مؤلف الكتاب قد أراد شيئاً من وضْع الروايات الثلاث على هذا الترتيب، فمن المسلَّم أن القصة وصلَتْه بأكثرَ من رواية، وكان يمكن أن يَضعَها بأى ترتيب أو بلا ترتيب، ولكنْ يُلاحَظ أن خَطًّا يَنْمُو، وأن التفاصيل تزيد، وأن الغموضَ ينجلى ، مع التقدم إلى الرواية الثانية، فالثالثة، وكأنَّ القاضى التَّنوخِيَّ يَضَعُ الروايات المختلفة فى عَلاقة جَدَلِيَّة، نرى من خلالها "الحادثة" وهى تتكوَّن، بمشاركة الرواة وصناعتهم، أو بالكشف عما كان خافياً من أسرارها، أو بتحديد وُجُهات النظر المختلفة حول حقيقة موضوعية واحدة، على النحو الذى نجده فى بعض المحاولات القصصية المعاصرة ومن أشهرها "ميرامار" لنجيب محفوظ، وقد رُوِيَتْ حوادثها من خلال أبطالها جميعاً، يرويها كل شخص كما تراءَتْ، من خلال مشاركته، وفى حدود اطِّلاعِهِ وتفسيره.

نُشير إلى محاولة ناضجة فى هذا المجال، تجرى القصة بين كاتب ووزير، الكاتب هو سليمان بن وهب، والوزير هو محمد بن عبدالملك الزيات، وتستمر ليكتملَ معناها بين ولديهما عُبَيْد الله بن سليمان، الذى صار وزيراً، وعمرَ بنِ محمد الذى صار من أتباع عبيد الله. تبدأ القصة من نهايتها أو قُرْبَ نهايتها، وقد أقبل عمر يطلب أن يُعينَه عبيدُ الله بِمَنْحِهِ وظيفةً أو معونة، فيفعل، ويصرفه، ثم يبدأ فى قصِّ ما كان من صراع بين والديهما: سليمان، ومحمد بن عبدالملك، وقد صور هذا الصراع فى ثلاث روايات متعاقبة.

حدثت الرواية الأولى زمنَ الصراع، فى أيام الواثق، وسَبَبه بطريقة إجمالية، فقد كان سليمانُ مغضوباً عليه، فحُمِلَ إلى ابن الزيات ليحاسبَه، ويُشرفَ على حبسه، ولم يترفق ابنُ الزيات بسليمانَ على الرغم من أنه كان يَسْتَخْدِمُ أخاه الحسنَ بنَ وهب كاتباً له، وفى لحظة المواجهة يأتى أحد الخدم حاملاً الطِفلَ عُمَرَ ومظاهرُ الترف بادية عليه،

فلما رآه سليمانُ بَكَى، فَأبى ابنُ الزيات إلاّ أن يعرفَ سبب بكائه، ولكـن سـليمان لَـزِمَ الصمت، فلما ألح الوزير مصمماً على معرفة سر البكاء، تدخّل أخـو سـليمان، الحسـنُ، وراح يُرَقِّقُ قلبَ الوزير قائلاً: إن سليمانَ له وَلَد فى مثل سنِّ عمـر، وقـد تذكّره حـين رأى ولدَك، فبكى. وهنا سَخِر الوزيرُ من أن يكون لسليمان ابنٌ مثلُ ابنـه، أو أن يتطلـع إلى أن يكون ابنُه وزيراً!! لقد تألم سليمانُ بشدة من قسوة ابـن الزيـات، وثقتـه المُتطرِّفـة التى تُصادرُ القَدَرَ، وتَغْفَلُ عن إرادة الله سبحانه. وهنا ضَرَعَ سـليمانُ إلى الله أن يصـيرَ ابنُه عبيدُ الله وزيراً وأن يتقدمَ إليه عمر متظلِّماً. وقد كان!! وقد أكرمه عبيـدُ الله وفـاء لذكرى أبيه، وأمنيته التى تحققت.

تبدأ الرواية الثانية من حيث بدأت الأولى أيضاً، أى من النهايـة، فعمـرُ يتقـدم إلى عُبَيْد الله وهو وزير، يطلب عونه، فأكرمه، وصَرَفَه، ثم راح يقصُّ ما كان بين والديهما من صراع. فى هذه الرواية يصف سليمانُ أيامَ المواجهة بأنه كـان "مَنْكُوبـاً" وأنـه كـان "فى يد محمد بن عبدالملك الزيات"، "وأنـه كـان يُحضِرُهُ كـلَّ يـوم"، "بغـير سـبب ولا مطالبة"، "إلا لِيَكيدَنى" و"أنا فـى قيـودى" و"وعلـىَّ جُبَّـةُ صُـوف" لابـد أن يَلْفِتَنَـا هـذا التأكيدُ لغطرسة ابن الزيات، وغرامِه بالتَّشَـفِّى، وإذلال سـليمان، حتـى إن الوزيـر كـان يجعل الحسنَ بنَ وهب، يحضُرُ هذا الموقَف الضَّنْك الذى يلاقى فيه أخوه الهوان. وحـدث فى إحدى المواجهات أن حُمِل الطفلُ عمرُ إلى مجلس أبيـه، وأخـذ الجلسـاء يدعـون لـه، ويَثِبون لتقبيله، فيما عدا سليمان، الذى كان فى شُغْلٍ بما ينزل به من عذاب، وأراد ابـنُ الزيات أن يَزيدَ فى عذابه النَفسى، فسأله لماذا لا يدعو لولده ويُقَبِّلُه مثلَ سائر الجالسـين، فلما اعتذر بما يعانى، قال ابنُ الزيـات: "لا، ولكنـك لم تُطِـقْ ذلـك، عـداوةً لأبيـه ولـه، وكأنى بك، وقد ذَكَرْتَ عُبَيْدَ الله، وأمَّلْتَ فيه الآمال، والله، لا رأيـتَ شـيئاً مما تُؤَمِّلـهُ فيه" وكأن هذا البَغْىَ المسرفَ كان بمثابة بُشرَى أن يخلـفَ اللهُ ظـنَّ الظـالم. وبـالفعل لم تمض مدة، حتى غضب المتوكِّل على وزيره ابنِ الزيـات، وأسـند محاسبتَه إلى سـليمانَ، فدخل دارَ خَصْمِه ليُحصِىَ متاعَه، وهنا رأى الطفل عمرَ فى حال أخرى وقد دَالَتْ دَوْلَةُ أبيه، كان يبكى لأن أشياءه الخاصة قد صُودرت أيضاً، فَرَقَّ له سليمان، وأعـاد إليـه مـا يملك، وأوصى ابنَه به إذا ما أوْقَفَهُ القَدَرُ بين يديه.

لقد أضافت الرواية الثانية هذه تفصيلاً فى وصف المشاعر، ووسائل التعذيب النفسّى، كما أضافت مشهداً بَكَى فيه الطفلُ المدلل، حين اختلف الحال، كما أشارت بإجْمَال إلى أن عبيدَ الله قد استخدمَ عُمَرَ فى بعض أعماله الخاصة.

ثم تأتى الروايةُ الثالثة والأخيرة، فتبدأ من النهاية أيضاً، ولكنها لا تكتفى بأن تقول إن عمر أقبل متظلّما يطلب العونَ من عبيد الله، وإنماتُنَكِّرُهُ وتصفُه وصفاً قاسياً، ويقول الراوى: "كنا بحضرة عُبَيْدِالله بن سليمان، أوَّلَ وَزارته للمُعتضد، وقد حضر رجلٌ رَثُّ الهيئة بثياب غلاظ، فَعَرَضَ عليه رُقْعَةً، وكان جالساً للمظالم، فقرأها قراءَة متأمِّل لها، مفكراً، متعجباً، ثم قال: نَعَم وكَرامةً! ثلاث مرات- أفْعَلُ ما قالَ أبى، لا ما قال أبوك، وكرر هذا القولَ ثلاثَ مرات" هذه البدايةُ هى التى تناسب الصياغة القصصية. لاحِظْ حالةَ التّضَادّ بين موقفيْن: وزير فى أبَّهَة السلطة يجلس للمظالم، ويوصَف مجلسه بأنه "حَضْرة"، وإنسانٌ نَكِرَةَ، لم نعرف هويته أو طَوِيتَه، يتقدم شاكياً يلتمس الإنصاف، وحالُهُ من البؤس والخُشونة بمكان، وهنا لا يكتفى الوزير بإصدار أوامره بإنصافه، بل يُعَلّق على الظُّلامة، ويَظهر أن له موقفاً من هذا المتظلّم، وهو موقف له جذور ضاربة فى الزمن ترجع إلى عصر أبٍ كلٌّ مهما... وهذا الغموض يثير التشويق ويحرّكُهُ، ويجعلُ القارئَ يتلهف إلى اكتشاف الصفحة المطويّة من الصراع بين الأبوين، وعلاقة هذا الصراع بالموقف الحالى، وقد تبادل الولدان موقعيْهما.

وتضيف هذه الرواية الثالثة تفصيلاً تحتاجه القصة أحيانا، ولانشعر بأهميته أحياناً أخرى لكنه يبقى فى صالح إضفاء جَوِّ الواقعية، وتَوثْيقِ القصة، وكأنها تاريخ، فنعرف أن سليمان كان كاتبا لإيتاخ القائد التركى – وأنه صُوُدِرَ على أربعمائة ألف دينار، وأنه استطاع أن يُؤدِّىَ أكثر من نصفها وعجز عن الباقى، فحُبس، وأهين بفعل ابن الزيات، ثم تأتى لحظة المواجهة، ويضطر ابنُ الزيات أن يغادر المجلس قليلاً، وهنا يُنْهِى الحسنُ بنُ وَهْب، إلى أخيه همساً، أنه وُلِدَ له غلام، ويطلب منه أن يُسمِّيَه ويُكَنِّيه، فترتفع معنويات هذا الأبِ السجين المُرْتَهَنَ بمال لا يستطيع أداءَه، وحين يعودُ ابنُ الزيات، ويلاحظُ وجْهَ سليمان وقد ذَهَبَ عنه شعورُ الذل، وارتفعت مقدرته الروحية لهذا الغلام الذى بُشِّرَ به، يلح عليه أن يعرفَ سر هذا التبدل، فيصمُت ويتكلم أخوه الحسن، فيعلن ابنُ الزيات أنه حين قام من المجلس تلقى بُشرَى مولد غلام له أيضاً. وهنا يقوم سليمان، ويقبل يَدَىْ ابن الزيات ورِجليه، ويتوسل بالغلام الوليد، الذى رأى النور مع ابنه فى

نفس اليوم، راجياً أن يرحمَه الوزير، معلناً عن أمله أن يكون ابنُه كاتباً عند ابن الوزير فى المستقبل. ولكنَّ ابنَ الزيات الذى جُبلَتْ نفسهُ على الشكِّ والقسوة، يُخمِّنُ أن هذه ليست أمنيةً حقيقية يُضمَرهُا سليمان للطفلين اللذْين وُلدا فى يوم واحد، وأنه – فى رأى ابن الزيَات– يُضْمِرُ العكس، أن يكوَن ابنُه وزيراً، وأن يُقْبلَ عليه الآخر متظلماً، ثم يبلغ به أقصى درجات العمى والاطمئنان إلى الزمن، فيقول : إننى أستحلفك با لله، إذا صارَ ابنُك وزيراً، وجاءه ابنى يطلب إحسانَه، أن توصى ابنَك ألا يُحسينَ إليه!!

ولكن سليمان أوصى ابنه أن يُحسن إليه، وقد عمل الولد بوصية أبيه حين صار وزيراً، وهذا سر عبارته: "نعم وكرامة، أفْعَلُ ما قال أبى، لا ما قال أبوك". وتضيف هذه الرواية الثالثة أن عبيد الله استخدم عمرَ كاتباً عنده، وقلدَّه ديوان البريد والخرائط، وأن عمرَ كان إذا كتب لعبيدالله صدر رسالته بعبارة: عبدالوزير وخادمه، وأن عبيدالله أراد أن يتكرَّم عليه، فمنعه من كتابة ذلك، وعدَّل الصيغة إلى: خادم الوزير.

هذه القصة فى رواياتها الثلاث نموذج للنوع الثالث من أنواع الحَبْكة، نجد لها أشباهاً، مع التفاوت فى درجة التماسك، أو تدرج الأسلوب نحو التفصيل وتصعيد الحوادث وتنمية الخط الأساسى (انظر مثلاً قصة القاضى أحمد بن أبى دؤاد فى محاولته إنقاذ البطل العربى أبى دُلف من يد القائد التركى الإفشين –القسم الثانى–الفصل الثانى– القصة رقم١٥).

وفى نهاية الحديث عن أنواع الحَبْكة، نُذكر بأن طريقة التقديم ظلت واحدة فى مظهرها الخارجى، فما دامت القصص جميعاً تبدأ بسلسلة من الرواة، فى أولها مَنْ رأى موضوع القصة أو شارك فيه، أو سمع به، فإن القصص ستظل محكومة بهذه البداية، ومع هذا فإنه لم يكن من الضرورى أن يكون الراوية هو نفسه البطل، إنه مجرد مشارك، أو مشاهد، أو ناقل أحياناً، ولهذا استعمل ضمير المتكلم، كما استعمل ضمير الغائب، بل قامت بعض القصص على ما يمكن أن يكون مشهداً حوارياً، لايقوم فيه الوصف أو السرد بدوْر ذى بَال.

وما دامت هذه القصص جميعاً –الفنية منها والشعبية – قد انتُخبَت على أساس فنى، أجْمَلَهُ الكاتب فى عنوان كتابه: شدَّة يعقبها فَرَج، ويُجْمِلُها النقد منذ العصر الكلاسيكى فى أزْمَة يَعْقُبُهَا حَل، فإن "التَّحَوُّل يقوم بدْور أساسىّ فى كل هذه القصص، لأن التحولَ يعنى اختلافَ مصير البطل، إلى الضدِّ تماماً، فيصير سعيداً بعدَ

شقاء، أو شقياً بعد سعادة.. وهذا النوع الأخير تحدث عنه "أرسطو" بالنسبة للبطل التراجيدى، وربط به نظريته فى الفن الشعرى من حيث الغايةُ والهدفُ، وهو "التّطْهير"، ولكن كاتِبَنا العربيَّ اختار قِصصه على أساس الانتقال من الشّقاء إلى السعادة، لأنه لم يفكرْ بالطريقة التى فكّر بها "أرسطو"، وهى ممارسة الإحساس بالألم، باستثارة مشاعر الخوف والرحمة، بُغْيَةَ التخلص من القدْرِ الزائد المُفْسدِ للنفس من هاتين العاطفتين، أو تطهير هاتين العاطفتين مما عَلِق بهما من خَبَث، "فإن هذا لا يزال مَثارَ جدل"[1] وإنما فكَّرَ القاضى التّنوخِى من زاوية أخرى هى أقرب إلى الطبيعة الشرقية، والإسلامية، وهى زاويةُ الإيمان القَدَرىِّ، وعدالة السماء، وفى هذا يختلف أبطالُه عن طابع البطل التراجيدى -بالمعنى الكلاسيكى- لأنهم لم يشعروا بالتعارض مع إرادة الله، و لم يَسْعَوْا إلى مقاومتها، وإنما كانوا بعكس ذلك، يقومون بأدوارهم الإنسانية، ويسعَوْنَ فى الدنيا بقوانين هذه الدنيا وأعرافها، التى قد يكون فيها أحياناً ما يُضَاد الخيرَ والعدلَ والبراءةَ، ومع هذا فإن هؤلاء الأبطالَ يحتفظون بهذا الإيمان القَدرىِّ فى مكان خَفى لا يُؤثِّرُ فى تصرفاتهم اليومية، أو لا يكاد يؤثر، لكنهم يستخرجونه بحركة بارعة، ويحتمون به إذا ما نزلت بهم مِحْنَة، ولأن الإيمان القدرىّ يَغْمُرُ نفوسَ العامة، كما يستقرُّ فى نفوس الخاصة إبَّانَ تعرضهم للمصائب، بعكس التمرد على القَدَر، الذى لا يُجاهرِ به إلاّ الأقوياء، فإن أبطالَ قصص القاضى التّنوخِى انتموا إلى جميع الطبقات الاجتماعية، وليسوا من عِلْيَة القوم دائماً، وإن غَلَبَ على بعضهم ذلك، وبهذا تحقق الشرط التراجيدى فى مجابهة المحن، وتخلّف الشرط الآخر. وهو أن تكون الشخصيةُ بطوليةً مرموقة، تَهْوى من مقامِها العالى.

لقد تحدَّث "أرسطو" أيضاً عن "التّعَرُّف" وهو يعنى اكتشاف السر المجهول الذى يتمُّ به الفعل الدرامى، ويتحوَّل على أثره مصيرُ البطل، ولهذا أشاد بالأعمال الفنية التى اقترن فيها التّحَوُّلُ بالتّعَرُّف، أو يمكن أن نُعَدلَ هذه العبارة إلى أن المعرفة هى التى أدَّت إلى تغيير المصائر.

حين نقوم بمراجعة قصص التّنوخِىِّ فى ضوء هذه القاعدة (ولسنا نجد حَرَجاً فى ذلك، فالقصة التراثية أقربُ ما تكون إلى القصة القصيرة المعاصرة، التى أخذت من

(١) الكوميديا والتراجيديا ص٢١٣.

المسرحية الكلاسيكية وَحْدَةَ الحَدَث، وربما الوَحَدَات الثلاث، فضلاً عن التركيز، ولحظة التنوير التى تعتبر بديلاً للتّعرُّف والتّحوُّل) سنجد التحوّل جزءاً من بناء القصة – للأسباب التى قدّمنا – ولكنه أحياناً، بل ربما غالباً لا يقترن بتعرف، أو لا يوجد فى القصة تعرُّفٌ بالمرّة، ولعل هذا أن يكون تأكيدًا لعمق الإيمان القدرى، وقديماً عبَّر شاعرٌ شعبى عن هذا المعنى الذى لا يجد أهمية للأسباب، ما دامت الثمرة قد تحققت:

مَلِك المُلـوكِ إذا وَهَـبْ لا تَسْـألَنَّ عـن السـببْ

ولا شك أن القفز إلى النتيجة، وتجهيل الأسباب أو تجاهلها، يقلّل من منطقية العمل الفنى، ومِن ثَمَّ مشابهته لواقع الحياة، ودرجة إقناعة، هناك قصص جيدة، اقترن فيها التحوّل، بالتعرّف، فوصلت إلى ختامها بتدرج مريح، مثل قصة صاحب الشُّرطة إسحاق المصعبى (القسم الثانى– الفصل الأول– القصة رقم ١) وقد عزم على قتل بناته، فَأخَذْن فى البكاء دون أن يَمْلِكْنَ مراجعتَه، ونعرف السبب حين يبعث إلى أحد أصدقائه – هو أقرب إلى التابع –لِيُفضىَ له برغبته فى قتل نسائه، وسبب هذه الرغبة، أما السبب فقد كان ماثلاً فى التقارير الأمْنية التى رُفِعتْ إليه فى هذا اليوم. لقد داهَمتْ شرطةُ بغداد بعض البيوت المشبوهة. ذات السمعة السيئة، فوجدت بداخلها نساءً كُنَّ بناتٍ وزوجات لكبراءَ فى الدولة، مضى زمانُهمُ، ومن هنا فكّر قائد الشرطة فى أن مستقبلَ بناته وزوجته لن يكون خيراً من أولئك ، وبعد حين يزول سُلْطانه، ويموت ، لتَضبَطَ بناتُه فى بيوت مشبوهة، لقد أصبحَ مقتنعاً أن هذا الاحتمال واقعٌ فى المستقبل لا محالة، فإنه – المصعبى– ليس خيراً ولا أهمّ من آباء وأزواج أولئك النسوة، لقد وصل الفَرَجُ عن طريق هذا الصديق الذى استُدْعِىَ لمجرد الإفضاء بالحزن إليه، ومن حقنا أن نفسِّرَ هذا الاستدعاء ذاتَه بأن المُصْعَبِىَّ لم يكن مقتنعاً بأن ذَبْحَ نساء أسرته هو الحلُّ الأمثل لصيانتهن من مَعَرَّةٍ ستحدث فى مستقبل مغيب، ولهذا أراد أن ينفِّسَ عن كَرْبه بالإفضاء إلى صديق مأمون أولاً، وأن يفكرَ معه بصوتٍ عالٍ ثانياً، علَّهُ يجد تفسيراً آخرَ لانحراف نِسْوَة كبراء العصر السابق يُبعد عن أسرته شبحَ الموت. وبالفعل، يُعلّل هذا الصديق ما حدث من انحراف بأن آباء هاته الفتيات المنحرفات لم يحفظوهن بالأزواج، كانوا يتكبرون على الناس إبان سَطْوَتِهم، فتركوا بناتهم دون أزواج، والرجل هو الذى يحفظ المرأة، ومِنْ ثَمَّ فإن الخُطوةَ المطلوبة ليست أن يذبح قائدُ الشرطة بناتهِ، بل يزوِّجَهُن. وقد كان.

هناك أشباه لهذه القصة المحبوكة، التى لا نتحفظ فى إبـداء الإعجـاب بهـا، هدفـاً وصياغةً، ولكن حين يتخلف التعرّف، وبخاصة فى القصـص الوعظيـة التـى يـأتى الفـرج فيها، أو التحوّل عقِبَ دعاء أو دونَ أسبابٍ معروفة، فإن جـزءاً مـن أسـباب الإعجـاب يظل يعانى من ثغرة، وفى قصة سابقة قامت على تحوّل فى مصائر الأبويـن، أنتـج تحـوّلاً فى مصائر ومواقف الوَلَدَين: عبيدالله وعمرَ لم نعرف إلى الآن، لماذا خـرج سـليمانُ بـنُ وَهْب من سجن الواثق، وكيف صـار ابنُـه وزيـراً فـى عصـر المُعتضـدِ، ولمـاذا سـيق ابـنُ الزيات إلى السجن وأسنِدَتْ محاسبتُه -أو مناظرتـه حسـب التعبير القديـم- إلى سـليمان بالذات؟ وكيف طاح حظ ولده بعد نكبته، مع انتشـار النَّكَبَـات واسـترداد المواقـع مـرة أخرى بل مرات، فى تلك العصور؟ إن تلك التعليلات كلّها لابد أن تكون موجودة فـى الموسوعات التاريخية، أو فى قصص وأخبار أخرى، لكن هـذه القصـة، كبنـاء فنـى قـائم بذاته تفتقد هذا المبرر الضرورى. ولقد ألهاها عن رعايته، رغبتها فى إقرار العظـة، وهـى أن الله غالبٌ على أمره، وقـد شـقَّ هـذا الهـدفُ طريقَـه بسـرعه خاطفـة، مسـتبعداً أيـة تفصيلات، و لم يَرَ راوى القصة أنها ضرورية لإقرار هذه الغاية القَدَرِيَّة.

وإذا كنا نلاحظ أن قصص "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" تميل إلى وَحْدَة الحَدَث دائماً، و لم تخرج عن ذلك إلا فـى حـالات نـادرة، فإنهـا لم تهمـل عنـاصر التشـويق، التـى تحـرِّضُ القارىء على طَلَب المزيد، لمعرفـة إلى أيـة غايـة انتهـت الأمـور. يعتـبر بـدء القصـة مـن نهايتها عاملاً من عوامل التشويق، وهـو أرقـى فنيـاً مـن صياغتهـا وَفْـقَ التتـابع الزمنـى، وكذلك خلق أزمات أو صدمات سببها خطأ التوقـع، أو سـوء التصـرف، وقـد حـدث أكثر من مرة أن يواجهَ شخصٌ مشهور - كان له نفوذ وثروة- الإفلاسَ والتعطل، وقـد يصلُ إلى بيع منديلـه ليحصـل علـى عَلَـفٍ للدابـة، فيغـالب كبريـاءه ويذهـب مسـتنجداً بصاحب ثروةوجاه ومنصب، ويبسط حاله المتردِّيـة بـين يديـه، ولكـن الآخـر لا يُعَقِّـبُ بكلمةٍ واحدة، مما يدفع بالمستنجد إلى النـدم والألم، فإنـه لم يفعـل أكـثرَ مـن أن كَشَـفَ ستره، وأشْمَتَ خَصْمَه، وتصاغَر أمام مَنْ لا يُقَدِّر هَمَّهُ، ويعود إلى بيته حزيناً أسفاً، وقد تلومه امرأتُه على ما فعل، وتذكِّرة بأنها توقعت هذه النهاية، وأن الصبر كان بهم أجدر، ويحتمل الرجل اللَّوْمَ الذى يستحقه، ولكن لا يمضى طويلُ وقت حتـى يجدَ ثـروة هائلـة تطرق بابه، فى صورةِ مالٍ نقدى، أو جمال محمَّلة بكل شىء، يقودها عبيد، هم جزء من المعونة أيضاً، ومع هذا كلّه كلماتُ اعتذار عن الصمتُ، وتفسيرٌ له، فقد كان الوضع لا

يعالج بالكلام. ولابد من العمل (انظر مثلاً قصة "خصم شريف" -القسم الثانى- الفصل الرابع -القصة رقم٥).

وإذا كان إخلاف التوقع، بلجوء الإنسان إلى طلب المعونة من خصمه، ثم نُكُولُ هذا الخصم عن المساعدة، ثم إخلاف التوقع مرة أخرى بأن تكون المعونة سخية جداً، يمثّل عاملَ تشويق، فان المصادفة تمثل عنصراً آخر من عناصر التشويق، وإذا كان الفن القصصى الحديث ينفر من المصادفة فإنه لا يلغيها، وإن كان لا يمنحها الأهمية القصوى فى تنمية الحَبْكَة أو بلوغ الحل، ويمكن أن نقولَ إن المصادفَة من العناصر الأساسية فى الحكايات الشعبية، ووجودَها فيما لدينا من قصص هو بمثابة تسلل لملامح الحكاية الشعبية فى القصة الفنية، ولا نتردد فى أن نقررَ أن الطّابَع العام للكتاب شعبى، وإن لم يَنْتَمِ فى جملته إلى الحكايات الشعبية. هناك مصادفات اختيرت بذكاء، وقام عليها البناء الفنى بأكمله، و لم نشعر بأنها مصنوعة أو زائفة، مثل هذه القصة المحبوكة المثيرة ذات الألوان والإثارات (وقد اخترنا لها عنوان "منتهى الثقة: الأمير والوزير"- القسم الثانى - الفصل الأول- القصة رقم ٣). لقد كان لجعفرَ البرمكّى فُتُوَّة وظَرف وأدب، وكان يُحسن الغناء ويَضْرِبُ بالطبل، وهو يمارس حريته فى خِفْيَة فى يوم يُغلق فيه بيتَه، فلا يجالسَه إلا خاصةُ أصحابه، فى هذا اليوم بدأ برنامجه فلبس الحرير وتعطَّر وشربَ وأكل، وشاركه جميع أصحابه فى كل ما فعل، وكان قد أمر حاجَبه وخدمه بألا يأذنوا لأحد بالدخول، حتى وإن كان رسولَ أمير المؤمنين "فأَعْلِمه أنى مشغول". غير أنه ترك الإذن مفتوحاً لواحد من ندمائه تصادفَ أنْ تأخر، وكان اسمُه عبدَ الملك، وبينما كان جعفر وندماؤه فى لَعِبهم وصَخَبهم، إذ رُفع السِّتْر، فإذا عبدُالملك بنُ صالح الهاشمىُّ قد أقبل، وغَلِطَ الحاجب... وكان عبدالملك هذا من جلالة القَدْر والتقشّف، على حالةٍ معروفة حتى إنه كان يمتنع من مُنادمة الخليفة، على اجتهاد من الخليفة أن يَشْرَب معه قَدَحاً واحداً، فلم يَفْعَلْ تَرَفُّعاً".

كيف تطوَّر المشهدُ المثير؟

لقد تجمَّد القومُ وسكنوا كأنما أصيبوا جميعاً بسَكتةٍ قلبيةٍ مفاجئة، و لم يَدْرِ جعفر ماذا يفعل، وقد انكشفَ هذا القدر المُهين من حياته الخاصة، أمام رجل متزمِّت متحرِّج، وهو من أقارب الخليفة أيضاً!! وطال الصمت، ولكن الحركة جاءت من حيث لانتوقع، لقد تقدَّم عَبدُالملك الهاشمى، ونزع قَلَنْسُوتَهَ وجلس بين القوم، وتصرَّف كصديق قائلاً: أطعِمُونا شيئاً، وأمر جعفرُ بالطعام ولا يدرى كيف تكون الخطوةُ التالية،

ولكن الرجلَ لم يتحرك حتى شارَكَ فى كل ما يفعلُ جعفرُ وندماؤه، شرب رِطْلاً ولبِس ثوباً حريرياً مُعَداً لهذه المجالس، وتعطَّر "ثم دعا برُطلٍ ورطـل (مـن النبيـذ بـالطبع) حتـى شرِب ثلاثةَ أرطال، ثم اندفع يُغنِّينا، فكان – واللهِ- أحسَنَنا غِناءً".

لقد انبهر جعفرُ بحجم المجاملة التى لَقيهَا من عبدالملك، وجديرٌ به أن ينبهر، وكان ردُّ الفعل عنده عجيباً، فقد صمم على أن يعرف سببَ قـدوم الرجـل إلى بيتـه، وحـاول عبدُالملك أن يتجنب ذلك، لِيَبْقَى اللقاءُ خالصاً لوجه المتعة والطرب، ولكن جعفـرَ ألَـحَّ، حتى ذكر الرجلُ أنه مدين بمبالغ هائلة، وأنه يرغب فى أن يَرْضَى عنه أميرُ المؤمنين، وأن يُعْلِيَ من شأن ابنه. وجعفر لا يَعِدُ بمخاطبة الرشيد فيما يشكو منه عبدُ الملكَ، بـل يقـرر أن الدَّيْنَ قد قُضِيَ، وأن أمير المؤمنين قد رَضِيَ عنه، وأنه – أى الخليفـة – قـد وَلَّـى ابنَـه مصر، وزوَّجَه ابنته الغالية، ومَهَرَها عنه ألفَيْ ألف دِرهم، لقد ظن سائر الندماء أن جعفر قد سَكِر، وأنه يَهْذِى، ولا شك أن هذه الوعودَ المبذولةَ فى صورة قرارات أُمْضِيتْ، يثير الخوْفَ على جعفر الذى ضَمنَ الرضا، وسداد الدَّيْن، وتولية حاكم جديد، ثم زَوَّجَ ابنـةَ الخليفة وحدَّدَ مهرها.

لقد واجه جعفـرُ شِـدَّة، جـاء فَرَجُهـا حـين شـارك عبدُالملـك فـى اللهـو وطلـب الشراب، وكان عبدالملك فى شدّة، صَوَّرَتْها مطالِبُهُ من الخليفة، فجاء فَرَجُها فـى وعـود جعفر، ولكن: كيف الخروج من هذه الشدة، وحلُّها بيد الرشيد دونَ غيره؟

لقد تولى أحدُ الندماء رواية الجزء الماضى مـن القصـة، أمـا الفَـرَجُ الأخـيرُ فيتـولى روايته جعفر بنفسه، وهذه المُغَايَرَةُ ، وإن تكنْ من وسائل التشويق، والتفنن فـى تشـكيل طريقة التقديم، فإنهـا ضروريـة، لأن حـل المشـكلة لـن يكـون إلاّ فـى لقـاء بـين جعفـر والرشيد، على انفراد. وهذا ما حدث. فقد بكَّر جعفر إلى قصـر الخليفـة فحكـى لـه مـا حدث لم يَنْقُصْه حرفاً، وقد أعجبَ الرشيد بسلوك عبدالملك حين تخلى عن تزمته، ورأى أن يُزيلَ الحَرَج والوَحْشَةَ عن القوم، ولا يفسدَ عليهم خَلْوَتَهـم، فرضـىَ عنـه، ثـم قضـى دينه، ثم زوج ابنه، وولاّه، على نحو ما قرّر جعفر.

مع أهمية المصادفة فى القصة السابقة، لأن كل ما جاء بعدها مترتب عليها، فإننـا لم نشعر بأنها ملَفَّقة، ولا أن المشهدَ مفتعل،ولا أن الخاتمةَ مصنوعـة، إنهـا قصـة سـلوكية محبوكة، ومعبرة عن قوة اقتناع الرأى العام بحَمِيمِيَّة العَلاقة بين جعفر والرشيد، وحجـم دَالَّته عليه.

وأخيراً.. فإنه لابد أن تستوقفَنا لغةُ هذه القصص، مـا دمنـا بصـدد الحديـث عـن البناء الفني، فالقصة -مثل أى عمل أدبى آخر- هى فى النهاية تركيبٌ لغوى، وقد كانت قضية اللغة من العوامل التى دفعت الدارسين والرواةَ قديماً عن العناية بما أُثِرَ عن أجدادنا من قصص، فقد لاحظوا -بشكل عام- أن لغة بعض القصص لا تُصوِّر العصر- فى واقعه اللغوى -كما ينعكس فى لغة الشعر المعاصر لتلك القصص، فالقصص المنسوبة إلى العصر الجاهليِّ، لا نجد فيها لغةَ العصـر الجـاهلى التـى نجدهـا فـى شـعر شـعرائه مـن أمرىء القيس إلى الأعشى، أعنى : من أقدم شعرائه الكبار إلى آخر الجاهليين ممن لامـس الإسلام، ويمكن أن يُقالَ الشيءُ نفسهُ عن القصص العذرية التى حُمِلتْ إلينا مـن العصـر الأموى، وقد اسـتنتج هـؤلاء أن هـذه القصـص رويَـتْ بـالمعنى الإجمـالى، وأن صياغَتهـا اللغويةَ من صُنْعِ راويتها، وليست من صنع الأشخاص الذين تزعم أنها تُصَوِّرُ جانبـاً مـن حياتهم وتفكيرهم، ولغتهم.

إن ملاحظةَ وجود فروق - وليس فَرْقاً واحداً - بـين لغـة القصـص ولغـة الشِعر المعاصر لتلك القصص ملاحظـةٌ صحيحـة، ولكـن الحُكْـمَ بوضـع القصـص انتحـالاً مـن الأساس، أو أنها رويت بـالمعنى، فيـه تَعَجُّـلٌ ومغالطـة. لـن نسـتند إلى سلاسـل الـرواة، ومقارنة أكثر من رواية للخبر أو القصة الواحدة، وما يدل عليه من دقـة وحـرص علـى التوثيق، فهذا قد ناقشناه من قبل، ونحن نرى -على أية حال- أن تسـجيل أسمـاء الرُّواة جيلاً بعد جيل لايُعتَبَر دليلاً قاطعاً بنَفْى التحريـف أو التَّزيُّد أو الاختـلاق، وقـد لاحـظ القدماء ذلك وقرروه: إننا سنحيل على واقع نعايشه، وقد قرأنا قصـص المنفلوطـى أوائـلَ هذا القرن، وأشعارَ شوقى وحافظٍ ومطران، فهل نجد تشـابهاً بـين لغـة الفريقـين، برغـم أنهما يعيشان فى بلد واحد، وثقافتهما متقاربة، ويخاطبان نفس الجمهور ويلتقيان ويقـرأ كل منهم ما كتبَ الآخر؟ أو هل تتشابه لغة أى شاعر ممنْ ذكرْنا مع لغة محمـود تيمـور أو العقـاد -فـى كتاباتـه النثريـة؟ وهـل نجـد أى تشـابه بـين أشـعار صـلاح عبدالصبـور وروايات نجيب محفوظ، مع أن الشاعر والروائى تخرَّج كلاهمـا فـى كليـة الآداب، ولمـع نجمه أوائل الخمسينيات، وتطلَّع إلى التجديـد؟ إن الفَـرْق هنـا، كمـا يرجـع بـين شـخص وآخر، لأسباب من الوراثة والقدوة الفنية، والعقيدة الفكريـة والدينيـة... الخ، يرجـع إلى فرق أساسى هو اختلافُ لغة الشعر عن لغة القصة، وليس لغةَ النثر بشـكل عـام، وهـذا الفرق موجود فى كل العصور، فى كل الآداب، لأن لغةَ الشِعر لغةٌ استثنائية، تقوم علـى التَّكْثِيف والتركيب والإضمار والتَّخْييل، وتَلجَأ من أجل هذا إلى الاستعارة وغيرها من

وسائل التصوير المجازى وغير المجازى، وتوِّظفُ الإيقاع وتقدِّمُ وتؤخـر فـى نظـام الجملـة بحيث يتشكل المعنى فى صورة مُمَوْسَقَة قادرة على النَفَاذ إلى مَكَامِن الشعور فـى النفـس الإنسانية، وليست هذه وسـائلَ الكـاتب القصصـىَّ لأنـه لا يتوجـه إلى هـذه الغايـة؛ إنـه يحاول الاقتراب من الواقع، يُحاكيه، ويصوِّرُ جوانبَـه، ويلجـأُ إلى التبسـيط فـى جوانـب، والتركيب فى أخرى، ويهدِف إلى محاورة الخبرة الحياتية للقارىء، ومِنْ ثَمَّ يظل فى حالة من الحضور الذّهنى، وعينُهُ على القصة، وعينه الأخرى على الواقع، وليس هكذا الشـاعر فى لحظة إبداعه.

وهناك مغالطةٌ أخرى قائمة على تصور مبالغ فيه، هو أن القدماء كانوا يتكلمـون لغةَ الشعر أو فى حدود معجمها، فهذا غير ممكن؛ لأن لغةَ الشِعر لا تصلح أن تكون لغةَ حديثٍ يومى، ولأن معجمها يظل خاصاً بالمستوى الشِعرى رُؤْيَةً وفكـراً وعاطفـةً، وإن الاعتزازَ العربىّ بالشعِر، والقولَ بنقاء العِرْق، وإسباغ المواهبِ الفطريـة علـى هـذا النقـاء وجعلَها صادرةً عنه بالطبيعة، هو الذى سَوَّلَ للقدماء من الباحثين فى اللغة أن يَزْعُموا أن العربى لا يَلْحَنُ، وأنه يتكلم بالتراكيب الفصيحة وحدَها، ولا يَتَرَخَّصُ فيها، وهذا مُنَـافِر لطبيعة المجتمعات، وطبيعة اللغات معاً، فهذه مبادىء مقـرَّرة، حتـى وإن اختلَفـتْ درجـةُ الافتراق أو ألوان الترخص، تبعاً لطبيعةِ المجتمع فى موقعه ونشاطه العلمى، ونظامِ طبقاته، ودرجةِ ثقافته.

إنَّ لغةَ السرد فى "الفَرَج بعد الشِّدَّة" تتفاوت أحياناً، لكنَّ الفرقَ الحاسمَ بين لغـةِ قصةٍ ولغة قصة أخرى يبدو إذا ما وزَّعْنا القصـص علـى أسـاسٍ تـاريخى، سـنجدُ أخبـاراً جاهليةً وقصصاً، وكذلك أخباراً وقصصاً تنتمى إلى العصر الإسلامىِّ، أو العباسى، علـى مراحله، وسنجد التماسكَ والإيجاز، واستخدامَ بعض الكلمات أو التعابـير الجزْلَـةِ قليلـةِ الانتشار، لكنها لا تبلغ حَدَّ النُدْرَةِ أو الاستغلاق -مما يميِّز القصص القديمة -ويصل الأمر إلى العامية واستعارةِ الألفاظِ من الفارسية فى قصص العصر العباسى.

لقد قمنا بما يوشك أن يكون حصراً للمفردات العاميَّةِ أو المستعارة مـن لغـة غـير عربية، ودون أن نُثْقِلَ كاهلَ هذه الصفحات بالقوائم والأرقام، نشير إلى بعضهـا، مثـل: وجاء بدَانْيال فألقاه عليهما – فإذا الرسل يطلبونى – إيش تعمل ها هنا -عيلتـى- سـتى (وقد تكررت كثيراً ينادى بها الخادم سيدته، وينادى بها السيد جاريته المللّة، مع وجـود لفظ: سيدتى، التى تُختَـصُّ بهـا سـيدات الطبقـة العليـا، مثـل أم الخليفـة أو مَـنْ تقـارب منزلتها) أتذكر أيامنا الأوَّلة؟ تجينى برأسه – فوطة -يُبَوِّقُون: بمعنى يضربون فى البوق –

زَلِّيـه: بمعنى بسـاط – هـا أنـذا أجـي : أى سـأحضر – هـاتم شـخصاً أوَّلـه مصَـر: أى أحضروا –فَرَّاشَة: وهى التى تقوم بالخدمة – نِيِّموه – ضَرَب درابْزين السرير– أتَصَـدَّقُ: وتعنى هنا أطلب الصَّدَقَة وليس أبذل الصدقة –سـارى: بمعنى نَخْب، أو نشـرب علـى شـرف فَـلان– فـشَّ القُفْـل– مزِّيـن: أى حـلاَّق– بَطَّلْـتُ مـن الكُتّـاب: أى أنقطعـت عن الدراسة.

وهناك آثار لِهَجِيَّة محدودة، نبَّه القاضى التّنوخِى إلى بعضها، مثـل قـول أحدهـم: كُنْ على الظّلامة، يكررها دفعات، ويكسر الميم بلسان أهل الكوفة (قصة "ظـالم قصمـه الله" – الفصل الثانى – القصة رقم ٣). كما يلجأ إلى المصطلحـات المِهْنِيَّـة، والكنايـاتِ الشائعة لتجنب ما يُتَحَرَّجُ من ذِكْرِه، فيعـبِّرُ أحـدُ المَغَنِّـينَ عـن ضياعـه وفقـره بأنـه صـار "أفْلَسَ من طَمْبور مُقَطَّعِ الأوتْـار"، أو يسـأل أحدهـم هـل يوجـد نبيـد، فيقـول الآخـر: "عندك شيء من ذلك الفن"؟

هذه التعبيرات وأمثالُها أكدت المنزعَ الشعبيَّ لقصص الكتاب بعامة، فهى ليسـت وقفاً على الحكايات الشعبية، وبعضها نطق به خلفاء على قدرٍ عالٍ من الثقافة، وعبـارة: "هَاتُمْ شخصاً أوَّلُه مِصرَ"، قالها المأمون فى إحـدى القصـص، وليـس مـا يمنـع أن يتكلـم المأمون لغة عصره، فيقول "هَاتُمْ" غير أن الوظيفة الفنية لهذا اللجـوء إلى العاميـة تتجـاوز الواقع الحَرْفِيَّ، إلى الواقع الفنى، فلغة القصص فى هذا الكتاب لغة مألوفـة، قريبـة، نـادراً ما نجد فيها شيئاً من الحُزُونَة أو الصعوبة، ونعود فنذكر أن المفردات العامية التى أحصينا، ومثّلْنا لها، تنتمى جميعاً إلى قصص تتعلق بالعصر العباسى، وغالبـاً مـا تكـون شـخصياتُها من عامة الناس وإن لم يكن دائماً.

ويدخل فى البناء اللغوى للقصة استخدامُ الحوار، وما مـن قصـة فـى الكتـاب إلا وقد أخذ الحوارُ فيها جانباً، وقد وظف الحوار توظيفاً فنياً راقياً، لم يكـن مجـرد عبـارات مُتَبَادلة تُفْضِى إلى الكشف عـن معلومـات كـان السَّرْدُ يسـتطيع الوفـاءَ بهـا، إن الحـوار يكشف أصلاً عن طوايا المتحاورين، وخفايا نفوسهم، ويعبِّر فى لغتـه وتركيبـه، وعلاقـة العبارات المتبادلة بين المتحاورين عن المستوى العقلـى وطاقـة الذكـاء التـى يملكهـا كـل منهما. إننا نجد قصصاً أعظم ما فيها هو ما انطوت عليه من حوار حيث تتجلـى الموهبـة الحقيقية للعقل العربى، فى سرعة استجابته، وتلقائيتـه، وقُدرتـه علـى إصابـة المرمـى فـى

كلمات قليلة، وإفْحَامِ المُكَابِرِ أو المُخالف، من خلال الصدمة، أو سَقْطَةِ اللسان، أو الاستدراج إلى حديثٍ بعيد عن الموضع.

كان أحد الكبراء معجباً بمقدرته الحكائيَّة، ويُسرف في قوله لمحدِّثه: "أفهمت"؟ فكان هذا مفتاحَ الفَرَجِ حين طلب بعض عُماله لمحاسبتهم، فقد فطن أحدُهم إلى هذه "اللاّزمة" في كلام الوزير، فكان يقول: لا. لم أفهم " فيستطرد الوزير ويُفيض ويَزيد إلى أن انتهى وقْتُ المحاسَبة، وتم تأجيل القرار إلى وقت آخر!

ويقف عُمَرُ بنُ فَرَج الرُّخَّجيُّ أمام المعتصم، وقد اعتقله ودعا بالسيف ووجَّه إليه تهمة مُهْلكة، وعمر يرد على الخليفة ويعبَثُ بالبساط الذى كان تحت المعتصم. وكأنَّه يلمَسُه ليختبرَ مادتَه وصناعتَه، ويستفزُّ الأمرُ المعتصمَ فينهره. " وقال : يا ابنَ الفاعلة، ما شَغَلَك ما أنت فيه عن لَمْس البساط، كأنك غيرُ مكترث بما أريده بك؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين، ولكنَّ العَبْدَ يُعْنَى من أمر سيده بكلِّ شيء، على جميع الأحوال، فإني استخشَنْتُ هذا البساط، وليس هو من بُسُطِ الخلافة، فقال له: وَيْلُكَ، هذا البساط ذكر محمد بن عبدالملك أنه قام علينا بخمسين ألف درهم. فقال : يا سيدى عندى خير منه قيمتُهُ سبعمائه دينار" (عن سيكولوجية المواجهة: اقرأ القصة رقم ١٩ من الفصل الثانى).

وينتهي الحوار لتظهرَ ثمرتُهُ، قال أحمد بن أبى داود شاهدُ القصة وراويتُها: "فذهب والله عن المعتصم ذلك الفَوْرُ الذى كان به، وسَكَنَ غضبُه، وقال : وجِّه الساعة مَنْ يُحضره. فجاء ببساط قد قام عليه -فيما أظن- بأكثرَ من خمسة آلاف دينار، واستحسنه المعتصم، واسْتَلانَه، وقال : هذا -والله- أحسن من بساطِنا. وأرخصُ، وقد أخذناه منك بما قام عليك.

ووالله ما بِرِحَ ذلك اليوم، حتى نادمة، وخَلَعَ عليه".

وهكذا افتدى الرخجى حياتَه بثمنٍ بَخْسٍ، واستعاد نفوذَه القديم وزاد عليه، بلمسة الذكاء السيكولوجى التى أجاب بها معلِّلاً حركةَ يده العابثة ببساط الخليفة.

وفى قصص كثيرة تتجلى قوةُ الشخصية، وبراعةُ التخلص فى الحوار بصفة خاصة، حيث تَتَقَادحُ الأفكار، وتكون مباراة الذكاء مُعْلَنَةً أمام الأشهاد.

من ذلك أن الفضلَ بنَ سهل وزير المأمون، زعم أن عبدالله بن مالك الخُزاعى أذاعَ أن الرشيد كان يدخل بيوت القِيَان، وكذَّب الفضلُ ذلك وألصق بالخُزاعيِّ ما ادّعاه على الخليفة الأسبق، فهو الذى يتردد على بيوت القِيان والمواخير أيضاً. كان ذلك

فى مجلس عام. وبعد أن أنتهى الفَضْلُ من حديثه أقبل على ثُمامَةَ بن أشرَسَ، وقال : "وإن أبا مَعْن- أى ثُمامة- لَيَعلمُ ذلك، ويعرف صحة ما أقول" وتكررت مهاجمة الفضل وتوجيه التُهم المخِلّةِ بالشرف إلى عبدالله بن مالك الخُزاعى، وفى كل مرة يلتفت إلى ثُمامةَ ينتظر أن يؤيِّدَ كلامَه، لكنه فى كل مرة يلتزم الصمت.

انتهى المجلس العام، وأرسل الفضل عتاباً إلى ثُمَامة عن هذا النُكُول عن تأييده أمام الناس، وإعراضه عن موافقته. فقال ثمامه لمعاتبه: "أنا والله بالمَوْجَدَة عليه – أعزَّه الله – أحقُّ، لأنه قام فى ذلك الجمْع، وقد حضر كلُّ شريف ومَشرْوف، فلم يستشهد بى فى خُطبته، وما أجراه فى كلامه، إلا فى موضع ريبَة، أو ذكْر نَبْوَة، ودار مُقَيَّن ومغنية وما أقدر أن أشهد إلا أن أكون مع القوم ثالثاً"، فوافق الرسولُ المعاتبُ على هذا التفسير المنطقى، بل وافق عليه الفضْلُ بنُ سَهْل، واعتذر لثُمامة، ولكن الطريفَ حقاً أن دَافع ثُمامة حين لَزِم الصمتَ كان "عَصبيَّةً لابنَ مالك" فلم يقبل الطعنَ فيه من فَارسى، وهذا سبب لا يمكن إعلانُه، فَأسعفه ذكاؤه بهذا الاحتجاج المقبول (القسم الثانى – الفصل الثانى– القصة رقم ١٣).

هناك قضايا أخرى يمكن طرحها فى إطار البناء الفنى، مثل الشخصية، والصراع، والامتداد الزمانى والمكانى، و لم نهمل هذه العناصر استهانةً بقيمتها فى الصناعه الفنية، ولكن لأننا أشرنا – فى فصول سابقة – إلى ما يخصها، وما يمكن على ضوئه تَصوُّر كيف تشكلت المادة الفنية بهذه العناصر المختلفة، فى بناء، لا نزعم أنه حقق جَمَالِيَّة القصة القصيرة، بمفهومها الحديث، لكنه ينبع من إدراك بالتكامل، ووعى بوظيفة اللغة الفنية، والأسلوب التصويرى، وهذه إضافة تستحق ما نبذل من جهد فى إبرازها.

✿✿✿

رؤية ختامية

إذا لم يكن كتــاب "الفَـرَجُ بعـد الشِّـدَّة" رائـداً فـى مجالـه، وهـو تجميـع الأخبـار والقصص والحكايات الشعبية، تحت عنوان واحد وتبويبُها، فإنه رائـد فـى الاحتكـام إلى الشكل الفنى، ومراحله التقليدية: العـرض، الأزمـة، الحـل، أو لحظـة التنويـر. لقـد سـبق الجاحظ فجمع نوادرَ البخلاء وأقاصيصَهم وطرائفَ سلوكهم، ولكن الجاحظ جمع مادتـه فى إطار المضمون أو المعنى المجرَّد، وهو البُخْل، ولم يلتفت إلى الشكل، كما أنه لم يقسِّم مادة كتابه وَفْـقَ أى تصـور، بـل قـاده الاسـتطراد مـن البدايـة إلى النهايـة، وهنـا يتفـوق القاضى التَّنوخِى.

وإذا كان الكتاب قد وجد دافعه الأول فى ظروف نفسية عاناها المؤلف، فإنـه لم يكن صدى لهذا الظَرْف المؤقَّت، لقد اتسعت المادة جداً، فعبَّرت بحق عـن حريـة الثقافـة العربية، ومرونتِها وقدرتها على الاتساع لكافة التجارب، والكتابُ صورة لثَقَافة القـرن الرابع الهجرى، بما فيها مـن امـتزاج بـين المـادىِّ والروحـىِّ، وعمـق حضـارى يدفـع إلى التسامح، والبُعْد عن الجفَاف والتزمت، وتفضيل التِّلقائية على التصنع والتنطّع. كما عـبَّر الكتاب عن الإيمان العميق بالقَدَر، وهو إيمان ينبع من يقين بأن الحيـاة ليسـت عَبَثـاً، وأن للكون قوانين تُنظمه، وهى قوانينٌ عادلة، قد تهتز تحت ظرف طـارىء، ولكنهـا لا تميـل ولا تَحيف.

لقد جرى عُرْفُ الدارسين أن يخصصوا فقرة عن الأثر الذى تركه الكتاب المُعْنَـى فى دراسات لاحقه. وهذا أمر مشروع بل مطلوب، ولكنه فى مجال الأخبـار والقصـص سيكون قليلَ الجدوى، ذلـك لأن القَصـص النـثرىَّ لم يُشَـكِّل قطاعـاً مهمـاً فـى تكويـن الثقافة العربية، فى نظر التقليديين. إن عملاً مُهما مثل "رسالة الغفـران" لم يلفـت أنظـارَ القدمـاء، وحَظِـى "سَـقْطُ الزَّنْـد" و"اللزوميـات" بالشـهرة والشـروح وانتظـرت "رسـالةُ الغفران" إلى عصرنا الحديث لكى يُرَدَّ لها اعتبارها. وقد لقيت "المقامـات" إهمـالاً أشـد، وكان وقوعُها فى المماحكات اللفظية، وإغراقُها فى السجع، نتيجة لإهمالها مـن النقـاد، وعدم تسليط الضوء على الجوانب الإيجابية فيها.

إن قصص "الفَرَجُ بعد الشِّدَّة" أسبقُ زمناً، وأكثرُ نضجاً من المقامات. فقد تُوُفِّـىَ بديع الزمـان الهَمَذَانـى سـنة ٣٩٨هـ، أى بعـد التَّنوخِـىِّ بأربعَـةَ عَشَـرَ عامـاً، وقصـص القاضى التَّنوخِى وإن لم تكن من تأليفه، ولا تُناظَرُ بالمقامات التى ألفها الهمذانى – أكـثرُ

نضجاً فى مراميها الاجتماعية ووسائل صياغتها الفنية، ولغتها. وإذا كانت "المقامات" قد اهتمت بإنسان الطبقة الدنيا، فإن هذه الطبقة -بمراتبها، وأنشطتها المشروعة وغير المشروعة -موجودةٌ بوضوح فى الكتاب.

نستطيع أن نجد آثاراً لكتاب "الفَرَج بعد الشِّدَّة" فى بعض الكتب القديمة اللاحقة التى تيسَّرَ لنا الاطلاع عليها، ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نجزمَ بأنه المصدَرُ الأساسيُّ لهذا التأثير، حيث كانت هذه القصص - فى مجموعها - مفرَّقةً فى مصادر أخرى.

وعلى سبيل المثال، نجد قصصاً فى "الفَرَج بعد الشِّدَّةِ" تتعلق بمعاناة أمراضُ مزمنة، أو غريبة الأعراض، يفشَلُ الأطباء فى الاهتداء إلى علاجها، ثم يعالجها طبيبٌ بشىء غير مُتَوَقَّع، فأحدُهم أطْعَمَ المريض لحمَ جَرْوٍ صغير، والآخر أوْجَع الميِّت ضَرْباً حتى تحرك من جديد، وظهرت عليه علامات الحياة، وأسرف مريض مُزمِنٌ فى وجبة جَرَادٍ، فكانت سَبَبَ شِفائه، هذه الأخبارُ القصصيةُ نجدها كوقائع، وليس فى شكلها القصصى، فى كتاب "طبقات الأطباء" لابن أبى أصَيْبِعَة، المتوفى سنة ٦٦٨هـ، لكن: هل نستطيع أن نجزمَ أن كتاب القاضى التّنوخِى هو مَصدر هذه الاقوال، وليس كتابات أطباء العرب؟

يمكن أن تكون المقارنة طريفةً حقاً، وتؤدى إلى نتائجَ إيجابيةٍ فى اكتشاف جُهْدِ الصياغة الفنية، فاقرأ مثلاً ما نُسِبَ إلى القَطِيعى الطبيب، الذى ضرب "الميت" بالمقارع، وهو ما يؤدى إلى الصدمة العصبية التى تُستخدم لها دَفعة الكهرباء فى زماننا، وضَعْهُ بإزاء ما نُسِبَ إلى ثابت بن قُرَّه الحرَّانى حين عَالَجَ بالضرب، (طبقات الأطباء ص٢٦٩)، واقرأ ما ذكره التّنوخِى عن مريض بالاستسقاء شفته أكلة جراد، وما ذكره صاحب (طبقات الأطباء ص٢٤٥) - أما قصص العُشَّاق فإنها موجودة بكل تفاصيلها فى كتاب "مصارع العُشَّاق" للسَّرَّاج المتوفى سنة ٥٠٠هـ، وكتاب "أخبار العُشاق" لداود الأنطاكى المتوفى سنة ١٠٠٨هـ، ونعود فنذكِّرُ بأن هذه القصص موجودة أيضاً قبل كتاب التّنوخِى، وهذا ما يجعلنا ننظر إلى مُجْمَلِ التأليف فى هذا الحقل من زاوية أنه مجموعة من النصوص، تحيط بها مجموعة من التقاليد والأعراف، تنتقل من كتاب إلى آخر، ولا يُلْغِى هذا شخصيةَ أىِّ كاتب، أو جهده الخاص، وذوقه فى الاختيار والتبويب، والصياغة أحياناً، ولعل هذا قد وَضُحَ فى مراحل هذه الدراسة.

✪✪✪

المصادر والمراجع

١- أحمد أمين : ظهر الإسلام -دار الكتاب العربى- لبنان ١٩٦٩.

٢- ابن الأثير (على بن أبى الكرم الشيبانى): الكامل فى التاريخ -دار صادر- بيروت ١٩٧٩.

٣- ابن أبى أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدى): عيون الأنباء فى طبقات الأطباء- تحقيق نزار رضا- مكتبة دار الحياة- بيروت ١٩٦٥.

٤- ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة- مصوَّر عن طبعة دار الكتب المصرية.

٥- التَّنوخِيُّ (القاضى أبوعلى المحسِّن بن على): كتاب الفَرَجُ بعد الشِّدَّة- مكتبة الخانجى بالقاهرة، كتاب الفَرَجُ بعد الشِّدَّة - تحقيق عبود الشالجى - دار صادر - بيروت ١٩٧٨.

٦- الثعالبى (عبدالملك بن محمد) يتيمة الدهر- تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد - مكتبة السعادة بمصر ١٣٧٧هـ.

٧- الجهشيارى (محمد بن عبدوس): كتاب الوزراء والكتَّاب، تحقيق السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبى- القاهرة ١٩٣٨.

٨- الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد -دار الكتاب العربى - بيروت.

٩- ابن خلكان: وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس- دار صادر - بيروت.

١٠- داود الأنطاكى: تزيين الأسواق فى أخبار العُشَّاق - دار حمد ومحيو - بيروت ١٩٧٢.

١١- رشاد رشدى : فن القصة القصيرة- دار العودة- بيروت ١٩٧٥.

١٢- الزركلى (خير الدين) : الأعلام- دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩.

١٣- السراج (جعفر بن أحمد القارىء) : مصارع العشاق - دار صادر - بيروت.

١٤- طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة - دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٨.

١٥- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب.

١٦- فاروق خورشيد: في الرواية العربية - الدار المصرية للطباعة والنشر.

١٧- فورستر (أ.م.) : أركان القصة - ترجمة كمال عياد - دار الكرنك - القاهرة ١٩٦٠.

١٨- ليتس . ك. : الكوميديا والتراجيديا - سلسلة عالم المعرفة- الكويت ١٩٧٩.

١٩- متز (آدم) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - تعريب "أبو ريدة" - دار الكتاب العربي- بيروت ١٩٦٧.

٢٠- محسن الأمين (السيد): أعيان الشيعة - مطبعة الإنصاف - بيروت ١٩٥٨.

٢١- محمد حسن عبدالله: الحب في التراث العربي- سلسلة عالم المعرفة- الكويت ١٩٨٠.

٢٢- محمد الخضرى بك (الشيخ) : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - المكتبة التجارية الكبرى -القاهرة ١٩٥٣.

٢٣- ياقوت (الحموى) : معجم الأدباء - دار المستشرق - بيروت (بدون تاريخ).

✿✿✿

القسم الثاني

النمـاذج

"المختـار مـن قصـص "الفَـرَجُ بعـد الشّـدَّة" وأخبـاره ونـوادره، بعـد حـذف الأسـانيد، وشـرح مـا غمـض مـن ألفاظهـا، وتقسـيمها على أساس الموضوع".



القصص الفنية

١- ليلة صعبة

حدّثني عبدُالله بن محمّد بن دَاسَةَ البَصري رحمه الله، قال: حدّثني أبويحيى بن مُكرَم، القاضي البغدادي، قال: حدّثني أبي، قال:

كان في جواري، رجلٌ يُعرف بأبي عبيدة، حَسَنُ الأدب، كثيرُ الرواية للأخبار، وكان قديماً ينادم إسحاقَ بنَ إبراهيم المُصْعَبيَّ [1]، فحدثني: أنّ إسحاق استدعاه ذاتَ ليلة، في نصف الليل.

قال : فهالني ذلك، وأفزعني، لِمَا كنت أعرفه منه، من زَعَارة الأخلاق، وشدّة الإسراع إلى القتل، وخفت أن يكون قد نقم عليَّ شيئاً في العِشْرَة، أو بُلّغَ باطلاً، فأحفَظَهُ، فيسرع إلى قتلي، قبل كشْفِ حالي.

فخرجتُ طائر العقل، حتى أتيتُ داره، فأُدخِلْت إلى بعض دُورِ الحُرُم، فاشتدّ جَزَعي، وذهب عَلَيَّ أمري.

فانتُهِيَ بي إليه، وهو في حُجرة لطيفة، فسمعتُ في دَهْلِيزها بكاءَ امرأة ونحيبها، ودخلْت، فإذا هو جالسٌ على كرسي، وبيده سيف مسلول، وهو مُطْرِق، فأيقنْتُ بالقتل.

فسلّمتُ، ووقفتُ، فرفع رأسه وقال: اجلس أبا عبيدة، فَسَكَنَ رَوْعِي، وجلست.

فرمى إليّ رقاعاً [2] كانت بين يديه، وقال : اقرأ هذه، فقرأتُ جميعَها، فإذا رقاعُ أصحاب الشُرَط في الأرْبَاع [3]، يخبره كلُّ واحد منهم بخبر يومه، وما جرى في عمله، وفي جميعها ذِكْرُ كَبَسَاتٍ وقعت على نساء وُجِدْنَ على فساد، من بنات الوزراء، والأمراء، والأجلاّء، الذي بَادُوا، أو ذَهَبَتْ مراتُبهم، ويستأذنون في أمرهنّ.

فقلت: قد وَقَفتُ على هذه الرِّقاع، فما يأمرني به الأميرُ أعزَّه الله؟

---

(١) إسحاق المصعبي قائد شرطة بغداد.

(٢) قصاصات ورق، أو هي في الحقيقة تقارير وبلاغات الشرطة.

(٣) كانت بغداد مقسمة إلى أربعة أقسام، وفي القاهرة إلى الآن مَن يعبر عن قسم الشرطة بـ "التمن" لأن القاهرة كانت مقسمة ثمانية أقسام أمنية.

فقال: ويحُك يا أبا عبيدة، هـؤلاء النـاس الذيـن وَرَدَ ذكْـرُ حـال بنـاتهم، كلّهـم كانوا أجلَّ منّى، أو مثلى، وقد أفضى بهم الدهرُ فى حُرُمِهم إلى ما قد سمعتَ، وقد وقـع لى أنّ بناتى بعدِى، سيبلغْنَ هذا المبلغ، وقد جمعتهنّ - وهنّ خَمْسٌ - فى هـذه الحجـرة، لأقتلهنّ الساعةَ، وأستريح، ثم أدركتنى رِقّةُ البَشريّة، والخوفُ من الله تعالى، فـأردتُ ان أشاورَك فى إمضاء الرأى، أو شيء تشير به علىّ فيهن.

فقلت: أصلحَ الله الأمير، إنّ آباء هـؤلاء النسـاء اللواتـى قـرأتُ رِقـاع أصحـابِ الأخبار بما جرى عليهنّ، أخطأوا فى تدبيرهِنّ، لأنهم خلّفوا عليهنَّ النِعَم، و لم يحفظوهـنّ بالأزواج، فخلوْنَ بأنفسهنّ، ونعمهنّ، ففسَدْنَ، ولو كانوا جعلوهنّ فى أعناق الأكفَـاء، ما جرى منهنّ هذا.

والذى أرى أن تستدعِىَ فلاناً القائدَ، فله خمسةُ بنين، كلّهم جميلُ الوجه، حسـن اللّبس والنشوة، فتزوّجَ كلَّ واحدة من بناتك واحداً منهم، فتُكفَى العارَ والنارَ، وتكـونُ قد أخذت بأمر الله عَزَّ وجَلَّ، والحزم، ويراك الله تعالى قد أردتَ طاعتَـه فـى حفظهـنّ، فيحفظُكَ فيهنّ.

فقال : امْض الساعةَ إليه، فقرر معه ما يكون لنا فيه المصلحة، وافْرغ لى معه مـن هذا الأمر.

قال : فمضيتُ إلى الرجل، وقررتُ الأمرَ معه، وأخذتُ الفتيان، وأباهم، وجئـتُ إلى دار إسحاق بن إبراهيـم، وعقـدتُ النكـاحَ لهـم، علـى بنـات إسـحاق، فـى خُطبـة واحدة، وجعل إسحاق بين يدىْ كلٍّ واحد منهم خمسةَ آلاف درهم عَيْناً، وشـيئاً كثـيراً من الطِّيب، والثياب، وحَمَلَ كلاً منهم على فرس بمَرْكَبِ ذَهب، وأعطـانى كـلٌّ واحـد من الأزواج مالاً مما دُفِعَ إليه، وأمر لى إسحاق بخمسمائةِ دينار، وخِلْعةٍ، وطيب.

وأنفَذَ إلىّ أمّهات البنات هدايا وأموالاً جليلة، وشكرْنَنى على تخليص بنـاتِهنّ مـن القتل، وانقلبت تلك الغُمّةُ فرحاً.

فعدتُ إلى دارى، ومعى ما قيمته ثلاثةُ آلاف دينار وأكثر.[1]

✿✿✿

---

(١) كان المصعبى فظاً دموياً، وهذا واضح فى خوف نديمه منه، ومع هذا لجأ إليه ليجد له حـلاً فـى المشـكلة. والوجه الاجتماعى ظاهر فى مواقع المرأة، وضياعها فى غياب الولى، وسلوك أجهـزة الأمـن تجـاه خطايـا الكبراء... إلخ.

٢ – ليلةٌ يشيبُ لها الغُرابُ

حكى دَلويه، وكان كاتباً لِصَافى الحرمى، قال:

كان فى دار المُقتدر بالله، عَرِيفٌ على بعض الفرّاشين، يخدمنى وَصَافيا إذا أقمنا فى دار الخليفة، ففقدته فى الدار، وظننتُه عليلاً، فلمّا كان بعد شهور، رأيته فى بعض الطرق، بزىٍّ التجّار، وقد شاب.

فقلت : فلان؟

قال : نعم، عبدك يا سيّدى.

فقلت: ما هذا الشّيْب فى هذه الشهور اليسيرة، وما هذا الزى؟ وأين كنت؟ فَلَجْلَج؟

فقلت لِغلمانى : احملوه إلى دارى، وقلت: حدثنى حديثَك.

فقال : على أنّ لى الأمان والكِتمان؟!

فقلت : نعم.

فقال : كان الرّسمُ الذى تعرفه على كلّ عَرِيف فى الدّار من الفرّاشين، أن يدخلَ يوماً من الأيام، هو ومنَ معه فى عَرَافته، إلى دور الحُرُم، لرشّ الخيوش التى فيها[1].

فبلغت النّوْبةُ إلىّ، فى يوم كنت فيه مخموراً، فدخلتُ، ومعى رجالى، إلى دار فلانة – وذكر حَظِيَّة جليلةً من حظايا المقتدرِ بالله – لرشّ الخيش.

فَلِعِظَم ما كنت فيه من الخُمار، ما رشَشْتُ قربتى، ولم أخرج بخروج الرّجالَ، وقلت لهم : امضوا، فهاتوا قِرَبَكم لإتمام الرشّ، فإذا رششتموها فأنبهونى، فإنّى نائم هنا.

ودخلتُ خلف الخيش، إلى باب باذْهَنْج[2] تخرج منه ريحّ طيّبة، فنمت، وغلب علىَّ النّوم، إلى أن جاء الفرّاشون، وفرغوا من رشِّ الخيش، وخرجوا، ولم يُنَبِّهونى.

---

(١) دار الحرم : جناح النساء فى قصر الخلافة. ورش الخيوش أو الخيش لتبريد الجو، فكانت تعلق ستائر ترش بالماء كنوع من ترطيب الصيف الحار.

(٢) البادهنج – فارسية : الممر الذى يسلكه الهواء بعد ترطيب الخيش، لتلطيف الجو.

وتمادى بى النّومُ، فما انتبهتُ إلاّ بحركةٍ فى الخيش، فقمتُ، فإذا أنا قد أمسْيتُ، وإذا صوتُ نساء فى الخيش، فعلمتُ أنى مقتولٌ إن أحِسَّ بى، وتحيّرتُ فلم أدْرِ ما أعمل، فدخلتُ البادْهَنجْ، وكان صيْفاً، فجعلتُ رجلىَّ على حائطىْ البادهنج وتسلّقتُ فيه، ووقفت معلّقاً، أترقّب أن يُفطن لى، فأُقْتل.

وإذا بنسوة فرّاشاتٍ يكنسْنَ الخيش، فلمّا فَرَغْنَ من ذلك فرشنه، وعُبّى فيه مجلسُ الشّراب.

ولم يكن بأسرعَ من أن جاء المقدر بالله، وعدّةُ جوارى، فجلس وجلسْنَ، وأخذ الجوارى فى الغناء، وأنا أسمع ذلك كلّه، وروحى تكاد تخرج، فإذا أعْييتُ، نَزَلْتُ فجلستُ فى أرض البادْهنَجْ، فإذا استرحتُ وخِفْتُ أن يُفْطَنَ بى، عدتُ فتسلّقت، إلى أن مضت قطعةٌ من اللّيل، ثمّ عنَّ للمقتدر أن جَذَبَ إليه حظيّتَهُ الّتى هى صاحبةُ تلك الدّار، فانصرفَ باقى الجوارى، وخلا الموضع، فَوَاقَعَ المقتدرُ با لله الجاريةَ، وأنا أسمع حركتَهما وكلاَمهما، ثمّ ناما فى مكانهما، ولا سبيل لى إلى النّوم لحظة واحدة لما أقاسى من الخوف.

ففكّرت فى أن أخرج وأصعَد إلى بعض السطوح، ثمّ علمت أنّى إن فعلتُ ذلك، تعجّلتُ القتْلَ، ولَمْ يَجُزْ أن أنجوَ.

فلم تزل حالى تلك إلى أن أنتبه المقتدُر بالله فى السَّحَر، وخرج من الموضع.

فلمّا كان من غد نصفَ النّهار، جاء عريفٌ آخرُ من الفرّاشين، ومعه رجاله، فرشُّوا الخيش، فخرجتُ فاختلطت بهم.

فقالوا : أيش تعمل ههنا؟

فأوْماتُ إليهم بالسّكوت، وقلت : الله، فى دمى، فإنّ حديثى طويلٌ، فتذمّموا أن يفضحونى.

وقال بعضهم : ما بال لحيتك قد شابَتْ؟

فقلت : لا أعلم، وأخذت ماءً من قِرْبَةِ بعضهم، فرطّبتُ به قربتى، وخرجتُ بخروجهم.

فلمّا صرتُ في موضع من دار الخليفة، وقعتُ مَغْشياً عليَّ، وركبتني حُمَّى عظيمةٌ، وذهب عقلي، فحملني الفراشون إلى منزلي، وأنا لا أعقِل، فأقمتُ ميرسماً[1] مدّة طويلة.

وقد كنتُ عاهدتُ الله تعالى، وأنا في البَاذْهَنْج، إنْ هو خلّصني، أن لا أخدُمَ أحداً أبداً، ولا أشربَ النّبيذ، وأقلَعْتُ عن أشياء تُبْتُ منها.

فلمّا تفضل الله تعالى بالعافية، وَفَيْتُ بالنّذر، وبعتُ أشياءً كانت لي، وضممتها إلى دراهم كانت عندي، ولزمتُ دكّاناً لحمِّي[2] أتعلّمَ فيه التّجارة معه، وأتّجر، وتركتُ الدّارَ، فما عدتُ إليها إلى الآن، ولا أعود أبداً إلى خدمة الناس، ولا أنقض ما تُبتُ منه.

قال : ورأيتُ لحيتَه وقد كثُر فيها الشّيْب.

✿✿✿

(١) ميرسم : تحريف لكلمة معناها : مريض.
(٢) الحمى : والد الزوجة.

٣- مُنتهى الثقة .. الأميرُ والوزيرُ

أخبرني أبو الفَرجَ الأصبهانيُّ، قال حدّثني يَحيى بن عليّ المُنَجِّم، قال: حدّثني أبي عن إسحق بن إبراهيم المَوْصِليِّ، قال : لم أر قطُّ مثلَ جعفرَ بن يحيى بن خالد البرمكي، كانت له فُتُوَّة، وظَرفٌ، وأدب، وحسْنُ غناء، وضربٌ بالطبل، وكان يأخذ بأجزلِ حَظٍّ، من كلّ فنّ.

فحضرتُ بابَ الرشيد يوماً، وكان الرشيدُ نائماً، فوافى جعفرُ، فقلت له: إنّه نائم، فرجع، وقال : سِرْ بنا إلى المنزل، حتّى نخلوَ جميعاً بقيَّة يومنا، فأغنّيك، وتغنّيني، ونأخذَ في شأننا، من وقتنا هذا.

فقلت: نعم.

فَسِرْنا إلى مجلسه، فَطَرَحْنَا ثيابَنا، ودعا بالطعام، فأكلنا، وأمر بإخراج الجواري، وقال : لِيَبْرُزْنَ، فليس عندنا مَن نَحْتَشِمُهُ.

فلمّا رفِعَ الطعام، وجيءَ بالشراب، دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا لي بمثله، ودعا بخَلُوق [١]، فتخلّق، وخلّقني، وجعل يُغنيني، وأغنّيه.

وكان قد دعا بالحاجب، فتقدّم إليه أن لا يأذن لأحدٍ من الناس كلّهم، وإن جاء رسولُ أمير المؤمنين، فأعلِمْه أنّي مشغول، واحتاط في ذلك، وتقدم فيه إلى جميع الحُجَّاب والخدم.

ثمّ قال : إن جاء عبدُالملك، فأذنوا له، يَعني رجلاً كان يَأنَسُ به، ويُمازحُه، ويُحضرُهُ خِلْواته [٢]، ثمّ أخذْنا في شأننا.

فبينما نحن على حالةٍ سارّة، إذ رَفِعَ السِّتْرُ، فإذا عبدُالملك بن صالح الهاشميّ قد أقبل، وغَلِطَ الحاجب، لم يُفرّق بينه وبين عبدالملك الذي يأنس به جعفر.

وكان عبدُالملك هذا من جلالة القدْر والتقشّف، على حالةٍ معروفة، حتّى إنّه كان يمتنع من مُنادمة الخليفة، على اجتهادٍ من الخليفة أن يشربَ معه قَدَحاً واحداً، فلم يفعل، ترفعاً.

(١) الخلوق : الطيب والبخور.
(٢) فهذا من تقاليد كبراء القوم، لهم خلوات مع خاصة الأصدقاء في وقت معلوم.

فلمّا رأيناه مقبلاً، أقبل كلّ واحد منّا ينظر إلى صاحبه، وكاد جعفر أن تنشقّ مرارتُهُ غيظاً.

وفهم الرّجل حالَنا، فأقبل نحوَنا، حتّى صار إلى الرُّواق الّذى نحن فيه، فنزع قَلَنْسُوَتَهُ، فرمى بها مع طَيْلُسانِهِ جانباً، ثمّ قال: أطعمونا شيئاً. فدعا له جعفرُ بطعام، وهو مُنتفخٌ غَيْظاً وغضباً، فأكل، ثمّ دعا بِرِطْلٍ [1] فَشَرِبَهُ.

ثمّ أقبل إلى المجلس الّذى كنّا فيه، فأخذَ بِعُضَادَتَىْ الباب، ثمّ قال: أشْرِكونا فيما أنتم فيه.

فقال جعفر: ادخل، فدخل، فدعا له بقميص حرير وخَلُوق، فَلَبِسَ، وتخلَّق، ثمّ دعابِرِطلٍ، ورِطلٍ حتّى شربَ ثلاثة أرطَالَ، ثمَّ اندفع يُغَنّينا، فكان –والله– أحسنَنَا غنَاءً.

فلمّا طابتْ نفسُ جعفر، وسُرِّىَ عنه ما كان به، التفت إليه، وقال ارفع حوائجَك.

فقال : ليس هذا موضعَ حوائج.

فال : أقسمُ عليك، لتفعَلنَّ.

و لم يزل يُلحّ عليه حتّى قال له: أمير المؤمنين واجدٌ [2] علىَّ كما قد علمتَ، فأحبُّ أن تترضّاه.

قال : فإن أميرَ المؤمنين قد رَضِىَ عنك، فهاتِ حوائجَك، كما أقول لك.

قال : علىَّ دَيْنٌ فادحٌ.

قال : كم مبلغه؟

قال : أربعةُ آلاف ألفِ دِرْهم.

قال : هذه أربعة آلاف ألفِ درهم، فإن أحببتَ قبضهَا، قبضتَها الساعةَ– فإنّه لا يمنعنى من إعطائك إلاّ أنّ قَدْرَكَ يجل عندى أن يصلك مِثْلى، ولكنّى ضامنٌ لها، حتّى تُحمل لك فى غد، من مال أمير المؤمنين، فسَلْ أيضاً.

---

(١) أى : رطل من النبيذ.

(٢) أى فى نفسه شىء منى ، متغير علىّ .

قال: تُكَلِّمُ أميرَ المؤمنين حتّى يُنَوّه باسم ابنى.

قال : ولاه أميرُ المؤمنين مصرَ، وزوَّجَه ابنته الغالية، ومَهَرَهَا عنه ألفىْ ألفِ درهم.

قال إسحاق : فقلتُ فى نفسى، قد سَكِرِ الرّجلُ - يعنى جعفر-.

فلمّا أصبْحنا، حضرتُ دارَ الرّشيد، فإذا بجعفرَ بين يديه، ووجدتُ فى الدار جَلَبَةً، فإذا بأبى يوسف القاضى ونظرائه، وقد دُعىِ بهم، ثم دُعِىَ بعبد الملك وابنهِ، فدخلا على الرّشيد.

فقال الرّشيدُ لعبدالملك: إنّ اميرَ المؤمنين كان واجداً عليك، وقد رَضِىَ عنك، وأمر لك بأربعة آلاف ألف دِرهم، فخذها من جعفرَ السّاعةَ. ثمّ دعا بابنه، وقال : اشهدوا علىَّ أنّنى قد زوّجتُه ابنتى الغالية، ومَهَرْتُها عنه ألفَىْ ألفِ دِرهم، وولّيته مصر.

فلمّا خرج جعفر سألتُه عن الخبر، فقال : بَكَّرت إلى دار الرّشيد، فحكيْتُ له جميع ما جرى حرفاً حرفاً، ووصفتُ له دخولَ عبدالملك وما صَنَعَ، فعجِبَ منه، وسُرَّ به.

فقلت له : وقد ضَمِنْتُ له عن أمير المؤمنين ضماناً.

فقال : ما هو؟ فأعلمتُهُ.

فقال : نفى له بضمانك، وأمر بإحضاره، فكان ما رأيتَ.

✿✿✿

٤ - ثَمَنُ العِناد

حدَّثني شيخٌ من البَصرِّيين، أثقُ به، قال : عادَلْتُ [١] فلاناً القاضي - إلى الحَج.

قال : وتشاجر رجلان، في الرُّقعة الّتي كنت فيها من القافلة.

قال : وجذبهما ذلك القاضي إليه، و لم يزل يتوسَّط بينهما ويترفَّقُ بهما، وقد استعمل كلُّ واحد منهما اللَّجاج والمُشاحَنَة، وأقاما عليها، وهو يَصْبِرُ، ويقول: اللَّجَاجُ شُؤْم، فلا تَستعمِلاه. ويكرّر هذه اللّفظة، إلى أن فَصَل بينهما.

فقال لي : أذْكرني حديثاً في اللَّجاج، جرى على يدى، لك فيه، ولكلّ مَنْ سَمِعَهُ، أدَبٌ.

قال : فأذكرته بعد وقت.

فقال : كنتُ أتولّى القضاء، في البلد الفلاني، فتقدّم إليَّ رجلان، فادّعى أحدُهما على الآخر عشرين ديناراً.

فقلت للمدّعى عليه: ما تقول؟

فقال : له عليَّ ذلك، إلاّ أنّني عَبْد لآل فلان، مُكَاتبٌ [٢]، مأذونٌ لى في التّصرّف، واتّجرتُ فَخَسرتُ، وليس معى ما أعطيه، وقد عاملنى هذا الرّجل سنينَ كثيرةً، وَربحَ عليَّ أضعافَ هذه الدنانير مراراً، فإن رأى القاضى أن يسأله الرّفق بى، فإنى عبد، وضعيف، ولا حيلَة لى. فسألته أن يَرْفُقَ به، ويُؤَخّرَهُ، فامتنع.

فقلتُ: قد سمعتَ.

فقال : ما لى حِيلة.

فقال الرّجلُ: احبسْه لى.

فعاد العبدُ يسألنى، فسألتُهُ أن لا يفعلَ، وبكى العبدُ، فرققت له، وسألتُ خَصمه أن لا يحبِسَهُ، وأن يُنْظِرَهُ [٣].

---

(١) عادله : أى جلس فى مقابله ليوازنه، فوق الجمل.
(٢) العبد المكاتب هو الذى فرض عليه سيده قدراً من المال، إذا أداه إليه نال حريته، وعُتق.
(٣) ينظره: يؤجله، أى يؤجل سداد الدّيْن.

فقال : لا أفعل.

فقال العبد : إنْ حَبَسَنى أهلكنى، ووالله ما أرجعُ إلى شىء، وإنّه ليضايقُنى، ويلج فى أمرى، وقد انتفع منّى بأضعافِ هذه الدنانير، وورث منذ أيام من أخى ألوف الدنانير فأشير علىّ بمنازعته إلى القاضى فى الميراث، فلم أفعل.

قال : فحين قال ذلك، توجَّه لى وَجْهُ طَمَعٍ فى خلاصه من لَجاج ذلك الغريم، وقد كان غاظنى بلَجاجِهِ ومَحْكِهِ [(١)].

فقلت : كيف وَرِثَ أخاك، وأردتَ منازعَتَهُ؟

فقال : إنّ اخى كان عبْداً، مأذوناً له فى التصرُّف، وكان يتّجر ويتصرَّفُ، ويؤدِّى إليه ضريبَتَه، وجمع مالاً وأمتعة، بأكثر من ثلاثة آلاف دينار، ثمّ مات، ولم يُخلِّف أحداً غيرى، وأنا رجل ضعيف، مملوكٌ. ولى ابنان طفلان من امرأةٍ حُرّة، وهما حُرّان، فأنا أعولهما، وأعول نفسي، وزوجتى، وأؤدّى إلى مولاى ضريبته، فطمِعْتُ فى أن أنازعه فى الميراث، وآخذ شيئاً أعودُ به على نفسى، وأولادى، وعيالى، فقيل لى: إنّك لا ترث، فلم أحبّ منازعته، صيانة له، وهو الآن يضايقنى.

قال : فقلتُ للرّجل: هو كما قال، إنّ أخاه كان عبدَكَ، ومات، وخلفَ عليك تَرِكةً قيمتُها ثلاثةُ آلافِ دينار؟

قال : نعم.

فقلت له : ولهذا العبد طفلان حُرَّان؟

قال : نعم.

فقلت: قم، فأخّرْه بالدنانير ولا تُطالبْه بها.

فقال: ما أبرَحُ إلاّ بالدّنانير، أو بحبسه.

فقلت : اقبَلْ رأيى، ولا تَلِجّ [(٢)].

فقال: لا أفعلُ.

---

(١) المحك، والمماحكة : المضايقة.

(٢) لج : يلج : يعاند ويبالغ فى الخصومة.

فقلت : إنّك متى لم تفعل، خرج من يدك مالٌ جليل.

فقال : لا أفعل.

قال : فقلت للعبد، قد أذِنْتُ لك أن تتكلّمَ عن أبنيْك الطفلين، وهما - على مذهب عبدِالله بن مسعود، وهو مذهبي- أحقُّ بالميراث من مولاه، وإن كنتَ أنت حيّاً، فإنّك بمنزلةِ الميت للعبوديّة، فطالِبْهُ عن ابنيْك الحُرَّيْن الطفليْن بالتِركة.

قال : فَطَالَبَهُ بها.

فأحضرَتْ الشهودُ، فأعادَ الخصومةَ، والدعوى، ولم أزل بالمولى، حتّى أسمعْتُ الشهودَ إقراره بما كان أقرَّ به عندى، ثمَّ حكمتُ للابنين الطفلين بالتركة، وانتزعت جميعَها من يده، وسلّمْتُ إليه منها عشرين ديناراً، لِما أقرّ له العبد به، وجعلتُ ذلك ديْناً عليه لابنيْهِ.

وسلّمْتُ مقدارَ ثَمَنِ العبد، من مال الطفلين، إلى أمينٍ من أمنائى، وقلت: اشتَرِ أباهما من مولاه بهذه الدنانير، واعتِقْهُ عليهما، فَفَعَلَ.

وجعلتُ باقي مال الطفلين في يد أبيهما، وأمين جعلته عليه مُشرِفاً، وأمرتُ الأبَ أن يتّجَر لهما بالمال، ويأخذَ ثلثَ الرّبح، بَحَق قيامه، وحكمتُ بالجميع، وأشهدتُ على إنفاذى الحكمَ له الشهودَ.

فقام العبْدُ، وهو فرحان، وقد فرَّج الله عنه، وآمنه أن يُحْبَسَ، وعُتِقَتْ رقبتُه، وصار موسراً.

وقام اللّجوج خاسراً حائراً، وقد أخذ عشرين ديناراً، وأعَطْىَ ثلاثةَ آلاف دينار[1].

✿✿✿

(١) ركبت هذه القصة بذكاء ليحصل الطيب على الفرح والفرج، ويعود الفظ بالخسران، وفيها مصادفات وتعسف نسبى، كزواج العبد من امرأة حرة، وأن يأخذ القاضى بقول عبدالله بن مسعود فى ميراث المتوفى.

٥- يحلم لغيره

كان في جوار القاضي قديماً، رجلٌ انتشرتْ عنه حكاية، وظهر في يده مال جليل، بعد فَقْر طويل، وكنتُ أسمع أنّ أبا عُمَرَ حَمَاهُ من السلطان، فسألتُ عن الحكاية، فدافعني طويلاً، ثمّ حدّثني، قال:

وَرِثْتُ عن أبي مالاً جليلاً، فأسرْعتُ فيه[1]، وأتلفته، حتى أفضيْتُ إلى بيْع داري وسقوفها، ولم يَبْقَ لي من الدنيا حيلة، وبقيتُ مدّة بلا قُوتٍ إلا من غَزْل أمّي، فتمنّيتُ الموت.

فرأيتُ ليلةً في النّوم، كأن قائلاً يقول لي: غناك بمصر، فاخرجْ إليها، فَبَكّرْتُ إلى أبي عمر القاضي، وتوسّلت إليه بالجوار، وبخدْمَةٍ كانتْ من أبي لأبيه، وسألتُه أن يزَودني كتاباً إلى مصر، لأتصرف[2] بها، ففعل، وخرجتُ.

فلمّا حَصَلْتُ بمصر، أوصلتُ الكتابَ، وسألتُ التصرّف، فسدَّ الله عليَّ الوُجوهَ حتّى لم أظفرْ بتصرّف، ولا لاَحَ لي شُغْلٌ.

ونَفَدَتْ نفقتي، فبقيتُ محيّراً، وفكّرتُ في أن أسأل النّاسَ، وأمدَّ يدي على الطريق، فلَم تسمح نفسي، فقلت: أخرجُ ليلاً، وأسأل، فخرجتُ بين العِشاءَيْن، فما زلتُ أمشي في الطّريق، وتأبَى نفسي المسألةَ، ويحملُني الجوعُ عليها، وأنا مُمتنع، إلى أن مضى صدْر من اللّيلِ.

فلقيني الطّائفُ[3]،فَقَبضَ عليَّ، ووجدني غريباً، فأنكر حالي، فسألني عن خَبَري، فقلت: رجل ضعيف، فلم يصدقْني، وبَطَحَني، وضربني مَقَارِعَ.

فصحتُ، أنا أصدُقُكَ.

فقال: هاتِ.

فقصصتُ عليه قِصّتي من أوّلها إلى آخرها، وحديثَ المنام.

---

(١) أسرعت فيه: أسرعت في إنفاقه، أسرفت.

(٢) أتصرف: أوظف.

(٣) الطائف: الحرس الليلي المتحرك، الذي يطوف بالمدينة.

فقال لى: أنت رجلٌ ما رأيت أحمقَ منك، والله لقد رأيتُ منذ كذا وكـذا سنة، فى النّوم، كأنّ رجلاً يقول لى: ببغدادَ فى الشّارع الفلانى، فى المَحَلّةِ الفلانية - فذكر شارعى، ومَحَلّتى، فسكتُّ، وأصغيْتُ إليه - وأتمّ الشّرطىُّ الحديث فقال: دارٌ يُقال لها: دارُ فلان -فذكر دارى، واسمى -فيها بُستانٌ، وفيه سِدْرَةٌ [1]، وكان فى بُستان دارى سِدْرَةٌ، وتحت السدرة مدفونٌ ثلاثون ألف دينار، فأمضِ، فَخُذْها، فما فكّرت فى هذا الحديث، ولا التفتُّ إليه، وأنت يا أحمق، فارقتَ وطنكَ، وجئتَ إلى مصرَ بسبب مَنَام.

قال : فَقَوِىَ بذلك قلبى، وأطلقنى الطائفُ، فبتُّ فى بعض المساجد، وخرجتُ مع السَّحَر من مصر، فقدمْتُ بغداد، فقطعتُ السِّدْرَةَ، وأثَرْتُ تحتَها، فوجدتُ قُمْقَماً فيه ثلاثون ألفَ دينار، فأخذتُهُ، وأمسكتُ يدى، ودبّرت أمرى، فأنا أعيش من تلك الدنانير، مِن فَضْلِ ما ابتعتُ منها من ضيْعة وعَقارٍ إلى اليوم.

✿✿✿

(١) السدرة: شجرة النبق.

٦- تَوْبَةُ فنَّان

حدّثني عبيدُ الله بن محمّد الصَّرَوِيّ، عن أبيه، قال : كان يجاورنا ببغداد فتًى من أولاد الكتّاب، وَرِثَ مالاً جليلاً،فأتلفه في القيان [١] ، وأكله إسرافاً، حتّى لم يَبْقَ منه شيءٌ،واحتاج إلى نَقْضِ داره، فلم يبقَ منها غيرُ بيت[٢] يُكِنّه.

فحدّثني بعضُ مَن كان يعاشره وانقطع عنه لمّا افتقر، قال:

قصدتُه يوماً بعد انقطاعي عنه نحو سنة، لأعرفَ خبرَه، فدخلتُ إليه، فوجدتُه نائماً في ذلك البيت، في يوم بارد، على حصير خَلَقٍ، قد توطأ قُطناً كأنّه حَشْوُ فراش، وتغطّى بقُطن كان في لِحافٍ، فهو بين ذلك القطن كأنه السَّفَرْجَلُ.

فقلتُ له: ويحُك، بَلغْتَ إلى هذا الحدّ.

فقال : هو ما ترى.

فقلت: فهل لك حاجةٌ؟

قال : أوَ تقضيها؟

فظننتُ أنّه يطلب مني شيئاً أسْعِفُهُ به، فقلت: إي واللهِ.

فقال : أشتهي أن تحملَني إلى بيت فلانة المُغنّية، حتّى أراها، وهي الّتي كان يتعشّقها، وأتلف ماله عليها.

وبكى، فَرَحِمْتُهُ فمضيت إلى منزلي، فأتيتُه من ثيابي بما لَبِسَهُ، وأدخلتُهُ الحمَّام، وحملته إلى بيتي، فأطعمتُه، وبخّرتُه، وذهبنا إلى دار المغنّية.

فلمّا رأتنا، لم تشكّ أنّ حالهُ قد صَلُحَتْ، وأنّه قد جاءها بدراهمَ، فَبَشَّتْ في وجهه، وسألته عن حاله، فَصَدَقَهَا عن حاله، حتّى انتهى إلى ذِكْر الثياب، وأنّها لي.

فقالت له في الحال : قُمْ، قُمْ.

فقال : لِمَ؟

---

(١) القيان : جمع قينة، وهي الجارية المغنية.

(٢) بيت هنا بمعنى : حجرة.

فقالت : لئلاّ تجيءَ ستّى، فتراك، وليس معك شيءٌ، فَتَحْرَدَ [1] علىَّ، لِم أدخلتُكَ، فاخرج بَـرّا، حتّـى أصعـدَ فـأكلّمَكَ مـن فـوق، فخـرج، وجلـس ينتظـر أن تخاطبـه مـنْ رَوزَنة[2] فى الدار، إلى الطريق، فأقلبت عليه مَرَقَةَ سِكْبَاج [3]، فصيرته آية ونكالاً.

فبكى، وقال لى : بَلَغَ أمرى إلى هذا ؟ أشهِدُ الله، وأشهِدُكَ، أنّى تائب.

فضحِكتُ منه، وقلت: أىَّ شىء تنفعُكَ التوبةُ الآن وقد افتقرتَ؟

فرددتُه إلى بيته، ونزعْتُ ثيابى عنه، وتركتُه بين القطن، كما كـان أوّلاً، وحملـتُ ثيابى فغسلتُها وانقطعت عنه، فما عَرَفْتُ له خبراً.

وبعد نحو ثلاثِ سنين، بينما أنا ذاتَ يوم ببـاب الطّـاق، إذا أنـا بغـلام يُطـرِّقُ [4] لرجلٍ راكب، فرفعتُ رأسى، فإذا به على بِرْذَوْنٍ فَارِهٍ [5] بمَرْكبٍ فِضّـة، خفيـفٍ مليـحٍ، وثيابٍ حسنة، وكان أوّلاً يركب من الدواب أفخرَها، ومن المراكب أثقلها.

فلمّا رآنى ، قال لى : يا فلان، فعلمت أنّ حَالَهُ قد صَلَحتْ، فقبّلتُ فَخِذَهُ.

وقلت : سيّدى أبو فلان.

قال : نعم ، قد صَنَعَ الله تعالى، وله الحمد، البيتَ، البيتَ. فتبْعُتهُ إلى منزله، فـإذا بالدار الأوّلة، قد رمّها، وجصَّصَها، من غير بيـاض، وطَبّقهـا [6]، وبنـى فيهـا مَجلِسـيْن متقابلين، وخزائنَ، ومستراح، وجعـل بـاقى مـا كـان فيهـا صَحْنـاً كبـيراً، وقـد صـارت حسنة، غير أنّها ليست بذلك الأمرِ الأوّل.

فأدخلنى إلى حجرة منها، كان يخلو فيها قديماً، قد أعادَهـا كأحسـنَ مـا كـانت، وفيها فُرشٌ حسنة، وفى داره ثلاثةُ غلمان، قد جعل كلَّ خِدْمتين إلى واحدٍ منهـم، وقـد

---

(١) تحرد : تغضب وتعاند.

(٢) الروزنة : فتحة فى الجدار، وفى ريف مصر: الناروزة.

(٣) السبكاج: اللحم إذا طبخ فى الخل.

(٤) يطرّق (بتشديد الراء) : يفسح الطريق. وكان هذا شأن الكبراء والأعيان.

(٥) البرذون: نوع من الحمير، وفاره: مرتفع.

(٦) جصصها : دهنها بالجص وهو الجبس، وطبقها: فرش أرضها بالطابوق، وهو الحجر العريض.

أقام على حَرَمِهِ خادماً كان لأبيه، وله سائِسٌ هو شاكِرِيُّهُ[1]، وشيخٌ بوّابٌ كان يَصحبُه قديماً، ووكيلٌ يتسوَّق له.

فجلس، وأجلسنى، وأحضر فاكهةً قليلة، فى آلةٍ مقتصِدة مليحة، وجاءوا بعدَها بطعامٍ نظيف، كافٍ، غير مُسرفٍ ولا مقصِّر، فأكلنا، ثمّ نام، ولم تكن تلك عادتُهُ، ومُدَّتْ ستارة، وأحضِرت مَشامُّ ورياحين، فى صَوَانى وزِبْلِيّات، والجميع متوسّطٌ مليح، غيرُ مُسرف، فانْتبه، فصلّى، وتبخّر بقطعة نَدّ، وبخّرنى بقطعة عُودٍ مطرّى، وقدّم بين يدي صينيّة فيها من مطبوخ العِنب شيءٌ حسن، وقدّم بين يدىّ صينية فيها نبيذ التمر، جيّد.

فقلت : يا سيّدى، ما هذه الترتيبات الّتى لستُ أعرِفُها.

فقال : دَعْ ما مضى، فإنّ الحال لا تَحتمِلُ الإسراف، فأقْبَلَ يشرب، وأنا أساعدهُ، فتغنّى من وراء الستارة، ثلاثُ جوارى فى نهاية طيب الغناء، كلُّ واحدةٍ منهنّ أطيبُ من الّتى أنفَقَ عليها مالَه.

فلمّا طابتْ أنفسُنا، قال لى :تَذْكُرُ أيّامَنا الأوَّلة؟

قلت : نعم.

قال : أنا الآن فى نعمة متوسِّطة، وما قد أفدته من العقل، والعلم بأمر الدنيا وأهلها، يُسلّينى عمّا ذهب منّى، وهو ذا ترى فُرُشى، وآلتى ومَرْكوبى، وإن لم يكن ذلك بالعظيم المُفرِط، ففيه جمال وبلاغ، وتنعّم وكِفاية، وهو مُغْنٍ عن الإسراف والتخرّق والتبذير، وقد تخلّصْتُ من تلك الشدّة، تذكر يوم عاملتْنى فلانةُ المغنّية، بما عاملتْنى؟

قلت : نعم والحمد لله الّذى كشف ذلك عنك، فمن أين هذه النعمةُ؟

قال : مات مولى[2] لأبى، وابنُ عمّ لى، فى يومٍ واحد بمصر، فحصل لى من تركتهما أربعون ألفَ دينار، فوصل أكثُرها إلىّ، وأنا بين القُطن كما رأيتنى، فَحَمَدْتُ

(١) الشاكرى: الذى يقوم على رعاية حيوانات الركوب.
(٢) المولى : العبد.

الله، واعتقدتُ التوبةَ من التبذير، وأن أدبّر ما رُزِقْتُهُ، فعَمّـرْتُ هـذه الـدارَ بـألفِ دينـار، واشـتريت الفُـرُش، والآلـةَ، والجـوارى بتسـعة آلاف دينـار، وسـلّمت إلى بعـض التجّـار الثّقات، ألفىْ دينار، يتجرُ لى بها، وأودعْتُ بطنَ الأرض عشْرَةَ آلاف دينار، للحـوادث، وابتعْتُ بالباقى ضَيْعةً تغل لى فى كلِّ سنة نفقتـى هـذه الّتـى شـاهدتها، فمـا أحتـاج إلى قرض، ولا استزادة، ولا تُقبل غلّةٌ إلاّ وعندى بقيةٌ من الغلّة الأوّلة، فأنا أتقلبُ فـى نعمـة الله، عز وجَلَّ، كما ترى، ومن تمام النعمة، أنى لا أعاشِرُكَ، ولا أحداً ممّن كان يُحسِّـن لى السَّرَفَ. يا غِلمان، أخْرِجوه.

قال : فأخرِجْتُ، فوالله ما أذِنَ لى بعدَها فى الدخول عليه.

✿✿✿

٧- حظ أو تدبير ؟

حدّثني أبوعليٍّ بن أبي عبدالله الحسين بن عبدالله المعروف بابن الجَصّاص الجوهري، قال: سمعتُ أبي يحدّث، قال:

لما نكبني المُقتدر، وأخذ منّي تلك الأموال العظيمة، أصبحتُ يوماً في الحبس آيسَ ما كنتُ من الفَرَج.

فأتاني خادم، فقال : البُشْرَى.

فقلت : ما الخبر؟

قال : قم، فقد أُطْلِقْتَ.

فقمتُ معه، فاجتاز بي في بعض الطُرق في دار الخلافة، يريد إخراجي إلى دار السيّدة [1] ، لتكون هي الّتي تطلقني، لأنّها هي الّتي شفعت فيّ، فوقعتْ عيني في جَوازي على أعْدَالِ [2] خيش لي أعرفها، وكان مبلغها مائةَ عِدْل.

فقلت للخادم : أليس هذا من الخَيْش الّذي حُمِلَ من داري؟

قال : بلى.

فتأملتُه، فإذا هو بشَدِّهِ وعلاماته، وكانت هذه الأعْدَال قد حُمِلَت إليّ من مصر، وفي كلّ عِدْل منها ألفُ دينار، من مالٍ لي بمصرَ، كتبتُ بحَمْلِه، فخافوا عليه من الطريق، فجعلوه في أعدال الخَيْش، لأنّها مما لا يكاد يحمله اللصوص، لو وقعوا عليه، فلا يفطنون لما فيه، فوصلَتْ سالمةً، ولاستغنائي عن المال، لم أخرجْهُ من الأعْدَال، وتركتُهُ بحاله في بيت من داري، وأقفلتُ عليه، توخيت أيضاً بذلك سَتْرَ حديثه، فتركته شهوراً على حاله لأنقله في وقتٍ آخر كما أريد.

وكُبِسْتُ [3] ، فأخِذَ الخيشُ في جملة ما أخِذَ من داري، ولخسته عندهم تهاوَنُوا به، و لم يعرف أحد ما فيه، فطُرِحَ في تلك الدار.

---

(١) السيدة : يعني أم الخليفة.

(٢) العدل : حمل البعير.

(٣) الكبس : المصادرة والحبس، وكان السبب هو مساعدة الجصاص لابن المعتز في ثورته.

فلمّا رأيته بِشَدِّهِ، طَمِعْتُ فى خلاصه، والحيلة فى ارتجاعه فسكت.

فلمّا كان بعد أيّام من خروجى، راسلْتُ السيّدةَ، ورقّقْتُها، وشكَوْتُ حالى إليها، وسألْتُها أن تدفعَ إليَّ ذلك الخيْش، لأنّه لا قدْر له عندهم، وأنا أنتفع بثمنه.

قال : فاستَحْمَقَتْنى، وقالت : أىُّ شىء قَدْرُ الخيْش؟ ردّوه عليه، فسُلّمَ إليَّ بأسرِهِ.

ففتحتُه، وأخذتُ منه المائة ألفِ دينار، ما ضاع لى منها دينارٌ واحد، وأخذتُ من الخيْش ما أحتاج إليه، وبعتُ باقيه بجُمْلةٍ وافرة.

فقلت فى نفسى : قد بَقِيَتْ لى بقيّةُ إقبالٍ جيّدة.

✿✿✿

٨- لُعبةُ المُصادَفَة

وبلغني عن رجل من أهل كَوْثى[1]، قال :

كان يتقلّد بلدنا رجلٌ من قِبَلِ أبي الحسن بن الفُرات، في بعض وزاراتـه، فـافتتح الخَراج واشتدَّ في المُطالبة.

وكان في أطراف البلد قومٌ من العرب قد زرعوا من الأرض ما لا يتجاسر الأكَرَةُ[2] على زراعته، وكان العمَّالُ يُسامحونهم ببعض ما يجب عليهم من الخَراج.

فطالبهم هذا العاملُ بالخَراج على التمام أُسْوَةً بالاكرة، وأحْضَرَ أحدَهم فحقّق عليه المطالبة، وهو مُمتنع، فأمر بصفْعِهِ، فصُفِعَ حتّى أدّى الخَراج، وانصرف، فشكا إلى بني عمّه، فتوافقوا على كَبْسِ العامل ليلاً، وقتلِهِ، وراسلوا في ذلك غيرَهم من العرب، واتّعدُوا لليلةٍ بعينها.

فلمّا كان اليومُ الّذي تليه تلك اللّيلة، وَرَدَ إلى النّاحية عاملٌ آخر، صارفاً للأوّل، فَقَبَضَ عليه، وصفَعَه، وضربَه بالمقارع، وأخذ خطَّه بمال، وقيَّده، وأمرَ بأن يُحمَل إلى قرية أخرى على فراسخَ من البلد، فحُبِسَ فيها، ووُكِّلَ به عَشَرَةٌ من الرَّجَّالة، وسيَّرَهُ مرّةً ماشياً، ومرّةً على حمار من حمير الشَّوْك، فكاد مّما لحِقه أن يَتْلف، وحَصَلَ في تلك القرية[3].

وكان له غلامٌ قد ربّاه، وهو خَصيصٌ به، عارفٌ بجميع أموره، فهرب عند ورودِ الصَّارف، فلمّا كان من الغد، لم يشعر المَصروف المحبوسُ إلاّ بغلامه الّذي ربّاه قد دخل عليه، وكان مجيئُهُ إليه أشدَّ عليه من جميع ما لحقه إشفاقاً على الغلام، وعلى نفسه مما يعرفُهُ الغلامُ، أن يكونَ قد دلَّ عليه

فقال له : ويحُك، وقعت في أيديهم؟

فقال له الغلام : مَنْ هُم؟ هاتِ رجلَك حتّى أكسرَ قيودَك، وتقومَ فتدخلَ بغداد.

فقال له : وأين الرَّجَّالةُ الموكّلون بي؟

---

(١) منطقة بجنوب العراق.

(٢) الأكرة: الزرّاع المستأجرون، والعرب هنا يقصد بهم البدو (الأعراب) يزرعون ولا يدفعون.

(٣) العامل الجديد أسرف في معاقبة العامل المعزول، فكانت في انتظاره مفاجأة.

فقال : يا مولاي قد فرّج الله عزَّ وجَلَّ عنك، وهربت الرجّالة.

قال : فما السبّب؟

قال : إنّ الأعراب الذين كنتَ صفعتَ منهم واحداً، وطالْبتهَم بـالخَراج، كبسـوا البارحةَ دارَ العَمَالة، وعندهم أنّك أنت العامل، وكانوا قد عملوا علـى قتلـك، و لم يكـن عندهم خبرُ صَرْفِك، ولا خـبرُ ورودِ هـذا العـامل، فقتلـوه علـى أنّـه أنـت، وقـد هـرب أصحابُه، وأهلُ البلد كافّـة، فقـم حتّـى نمشـيَ إلى بغـداد، لا يبلغهـم خـبرُ كونـك هنـا، فيقصدِوك، ويقتلوك.

فكسر القيد، وقام وغلامـه، يمشـيان علـى غـير جَـادَّة [1]، إلى أن بَعُـدا، ودخـلا قريةً، واستأجرا منها ما ركبا إلى بغداد.

ولقى المصروفُ الوزير، وشنَّعَ على المقتول، وقال : قد أفسد الناحية، وأثـار فتنـةً مع العرب، فأقرّه الوزير على النّاحية، وضمّ إليه جيشاً.

فعاد إلى كوثى، وتحصّن بالجيش، وساس أمرَه مع العرب، إلى أن صالحهم، وحطّ لهم من الخَراج عمّا كان طالبَهم به، وأجرى أمرهم على رُسُومِهم، وسكنوا إليه وسـكَنَ إليهم، وزال خوفُه واستقام له أمرُ عملِه.

✿✿✿

(١) الجادة : الطريق، أى يتجنبان الطُرق حتى لا يراهما أحد.

٩- الفأر والأسد

حدّثني عليُّ بنُ هشام، قال : سمعتُ حامد بن العبّاس [١]، يقول: ربّما انتفع الإنسان في نَكْبته بالرجلِ الصغير، أكثرَ من منفعته بالكبير، فمن ذلك: أنّ إسماعيل بنَ بُلبل، لّما حَبَسني، جعلني في يد بوّاب كان يَخدِمُه قديماً.

قال : وكان رجلاً حرّاً، فأحسنْتُ إليه، وبَرَرْتُهُ، وكنت أعتمد على عناية أبي العباس بن الفُرات [٢] بي، وكان ذلك البوّاب، لقديمِ خدمته لإسماعيل، يدخل مجالسه الخاصّة، ويقفُ بين يديه، ولا يُنْكَرِ عليه ذلك، لِسالِفِ خدمته.

فصار إليّ في بعض الليالي، فقال: قد حَرَدَ الوزيرُ على ابن الفرات بسببك، وقال له: ما يكسِرُ المالَ على حامدٍ غيرُك، ولابدّ من الجِدّ في مطالبته بباقي مُصادرته، وسيدعوك الوزير في غدٍ إلى حضرته ويهدّدُك.

فَشَغَلَ قلبي، فقلت له : هل عندك من رأي؟

قال: نعم، تكتب رُقْعَةً إلى رجل من معامليك تعرف شُحَّه وضيقَ نَفْسِهِ، تلتمسُ منه لعيالك ألفَ دِرهم، يُقرضُك آيّاها، وتلتمسُ منه أن يجيبَك على ظهْر رُقعتِك، لترجعَ إليك، فإنّه لِشُحِّهِ، يردُّك بعُذْر، وتحتفظ بالرُّقعة، فإذا طالبك الوزير أخرجتَها له على غير مُوَاطأة [٣]، وقلت له : قد أفْضَتْ حالي إلى هذا، فلعلّ ذلك ينفعُك.

قال : ففعلتُ ما قاله، وجاءني الجوابُ بالرّد كما خمَّنا، فشدَدْتُ الرقعةَ معي. فلمّا كان من الغد، أخرجني الوزير، وطالبني، فأخرجْتُ الرُّقعة، وأقرأْتُهُ إيّاها، وَرَقَّقْتُهُ، وتكلّمتُ بما أمكن، فاستحيا، وكان ذلك سبب خِفّةِ أمري، وزوالِ محنتي.

فلمّا تقلّدْتُ في أيّام عبيدالله بن سُليمان ما تقلّدت، سألتُ عن البوّاب، فاجتذبْتُه إلى خدمتي، وكنت أجْرِي عليه خمسين ديناراً في كلّ شهر، وهو باقٍ إلى الآن.

✿✿✿

---

(١) حامد بن العباس بلغ منصب الوزارة. وابن بلبل وزير أيضاً.
(٢) هنا تظهر محاور السُّلطة أو مراكز القوى، وكيف يتآلفون، وأيضاً يؤلف قلب خادم عند خصمه العنيد.
(٣) وكأن الأمر حدث بالمصادفة لا المواطأة (التواطؤ).

١٠- سيكولوجية المواجهة

أخبرني محمّدُ بن الحسن بن المظفّر، قال: أنبانا أبوعمر محمّد بن عبدالواحد، قال: أخبرني النوريُّ الصوفي[1]، قال:

لما كانت المحنة، ورُميتُ أنا وجماعةٌ من الصوفيّة بالكفر، أخِذْنا، فأودِعْنا المُطبقَ أيّاماً، ثمّ عرضنا على ابن الشّاه[2]، وكان الوالي، وأغْرىَ بسفْكَ دمائِنا، فعمل على ذلك، وأخرجَنا للمساءلة، وترديد العذاب، وإمراره علينا قبْل القتل، وكنّا تعاقدْنا أن لا نتكلّمَ حتّى يكفينَا صاحبُ الأمر.

فقال للرّقام: أنت القائل: إنّ قولى بِسْمِ اللهِ، لُجة من نور؟

قال : فسَكَتَ، على العَقْد.

وحضر من ذوى الأقدار والمنزلة مَنِ استعطف ابنَ الشّاه علينا، وأشار عليه بالتوقّف فى أمرنا، والزيادة فى استيضاح ما قُرِفْنا به.

فقال ابنُ الشّاه للرّقام : أنت صوفيٌّ، ولعلك تأوّلت قولَك "بِسْمِ اللهِ" نوراً، وقولَك "الحمد لله"، بعد فراغك، نوراً.

فصاح الرّقام صيحة عظيمة: لَحَنْتَ[3] أيّها الأمير.

قال النّورى: فوالله لقد أضْحَكَنِي على ما بى.

فقال له الأمير : قد صِرْتَ تنظرُ فى النحو بعدى، حتّى صرتَ تعرف اللّحْنَ من الصواب.

فقال له : حاشاك أيّها الأمير من اللّحْنِ الّذى هو الخطأ، وإنّما عَنَيْتُ بقولى لَحَنْتَ"، أى فَطَنْتَ، بمعنى الصوفيّة.

فقال ابنُ الشّاه: فى الدنيا أحدٌ يَرْمِى مثلَ هذا وأضرابَه بالزّندقَةِ؟ وأمر بِتَخْلِيَةِ سبيلِنا.

فتخلّصْنا مَما كنّا فيه، ومّما نُحاذره، وكُفِينا بأضعفِ الأسباب وأيسرها.

✿✿✿

(١) سمى النورى لما فى وجهه من إشراق ونور.

(٢) ابن الشاه قائد قطاع من شرطة بغداد.

(٣) اللحن فى اللغة هو الخطأ، وهكذا فهمها أمير الشرطة، ولكن الرقام الصوفى عبث به حين أدعى أن لها معنى آخر عند الصوفية.

١١- الوهم والحقيقةُ

حدثني أبو محمد : عبدالله بن حَمْدون النَّديم، قال :

كان المعتمدُ مع سماحة أخلاقــه، وكـثرةِ جـوده، وسـخائه، شـديد العرْبَـدَة علـى نُدمائِه إذا سَكر، لا يكاد يسلم له مــن العرْبَـدَة مجلسٌ إلاّ فـى الأقـل، فاشـتهى يومـاً أن يَصْطَبِحَ على أتْرُجّ، فـأُتُخِذَ لـه منـه شـيء كثـير، مُفْـرطُ العـدد، وعُبّى، وحُـزِم بعضُـه، فاصطبح عليه، ولم يدعْ شيئاً من الخلع والصّلات والحِمْلان[1]، إلاّ وعمِله مع ندمائه فى ذلك اليوم، وخصّنى منه بالكثير، وكان كثير الشرب، وكانت علامته إذا أراد أن ينهضَ جلساؤُه، أن يلتفتَ إلى سرير لطيف، كان إذا جلس يستند إليـه، ويَشـيلُ رجليـه، كأنّـه يريد أن يصعَدَ، فيقومُ جلساؤه، فإذا كان يريد النّوم صَعِده، فنام، وإن لم يُرِد، ردَّ رِجْله، إذا قمنا، وأتمّ شُربه مع بعض خدمه، أو حَرَمه.

فلمّا كان ذلك اليوم، جلسنا بحضرته نهارَنا أجمع، وقطعةً من اللّيل، ثمّ ردَّ رجلَـه إلى السّرير فى أوّل اللّيل، فقمنا، وانصرف الجلساءُ إلى حجرة مرسومةٍ بهـم، وانصرفْـتُ إلى حجرة مرسومةٍ بى من بينهم.

فلمّا انتصف اللّيل، إذا بالخدم يدقّون باب حجرتى، فـانتبهْتُ مرعوبـاً، فقـالوا : أجب أميرَ المؤمنين.

فقمتُ : وقلتُ : إنّا للهِ وإنّا إليه راجعـون، مضـى يوْمنـا وبعـضُ ليلتنـا، أحسـنَ مُضِيّ، وقدَّرْتُ أنّى أفلَـتُّ مـن عَرْبَدَتِهِ، فقـد عَـنَّ لـه أن يُعَرْبِـدَ علـيَّ، فاسـتدعانى فـى هذا الوقت.

فأتيتُـه وأنـا فـــى نهايــة الجَــزَع، أفكّــرُ كيــف أشــاغلُهُ عــن العربــدة، إلى أن صِرْتُ بحضرته.

فلمّا رآنى قائماً لم يَسْتَجْلِسْنى، وقال لخادمه: علىَّ بصاحِب الشُّرطة السّاعةَ.

فمتُّ جَزَعاً، وقلتُ فى نفسى وأنا واقفٌ بين يديـه: لم تَجْـرِ عادتُـه فـى العربـدة باستدعاء صاحِب الشُّرطة، وما هذا إلاّ لبِليّة قد احتيل بها علىَّ عنده.

---

(١) الحملان الدواب ومنها الخيل، وكل ما يحمل.

فأقبلتُ أنظرُ إليه طمعاً فى أن يفاتَحنى بكلمة، فأداريه فى الجواب، وهو لا يرفع رأسَه عن الأرض، إلى أن جاء صاحبُ الشُرطة، فرفع رأسه إليه، وقال له : فى حَبْسكَ رجلٌ يُعرف بفلان بن فلان الجَمّال؟ (وفى رواية: يُعرف بمنصور الجمّال)؟

قال : نعم.

قال : أحْضِرْنيه الساعة.

فمضى ليُحضرَه، فسَهُلَ عليَّ الأمرُ قليلاً، ووقفتُ، وهو لا يخاطبنى بشىء، إلى أن أحضرِ الرّجل.

فقال له المعتمدِ: مَن أنت؟

قال : أنا منصور بن فلان الجمّال.

قال : وما قصتُك؟

قال : أنا مظلوم، حبست منذ كذا وكذا سنة، وأنا رجل من أهل الجبال، وكان لى جمال أعيش من فَضْل أجرتها.

وكان يتقلّد بلدَنا فلان العامل، فاستدْعِيَ إلى الحَضْرَة، فأخذ جمالى غصباً يستعين بها فى حَمْلِ متاعه.

فتظلّمت إليه وصحتُ، فلم ينفعْنى ذلك، وقال : إذا صرتُ بالحضرة رَدَدْتُها عليك.

فخرجتُ معه لئلا تذهبَ الجمال أصلاً، فكنت مع جمالى أخدُمُها فى الطّريق.

فلمّا قرّبْنا من حلوان [1] سلَّ الأكرادُ منها جملاً محمَّلاً، فبلغه الخبر، فأحضرنى، وقال : أنت سرقتَ الجمل بما عليه، فقلتُ، غلمانُك يعلمون أنّ الأكرادَ سلُّوهُ.

فقال : الأكراد إنّما جاءوا بمُوَاطأةٍ منك، ثمّ أمر بضربى، وتقييدى، وطَرْحى على بعض جمالى.

فلمّا وَرَدْنا الحضرة، أنفذتُ إلى الحبس، وأخَذَ الجمال، ولم يكن لى متظلم، ولا مذكر ولا متكلّم، فطال حبسى، وطالت بى المحنةُ إلى الآن.

(١) حلوان فى بلاد فارس.

فقال لبعض الخدم: امْضِ السّاعةَ إلى فلان العامل، واقعد على دماغه، ولا تَـبْرَحْ، أو يَرُدُّ عليه جماله أو قيمتَها على ما يريد، فإذا قبض ذلـك، فاحمله إلى الخزانـة، واكْسُهُ كُسْوَةً حسنةً، وادفع إليه كذا وكذا ديناراً، واصرفه مصاحَباً.

ثمّ قال لصاحب الشُّرطة: فى حبسك رجل يُعرف بفلان بن فلان الحدّاد؟

قال : نعم، قال : أحضرنيه الساعة، فأحْضَرَه.

فقال له : ما قصتُّك؟

قال : أنا رجل حُبِسْتُ بظلم، أنا رجل من أهل الشّام، وكانت لى نِعمة فزالـت، فهربتُ من بلدى، واتصلَتْ محنتى إلى أن وافيت الحضرة طلباً للتصـرّف[1]، فتعـذّر علـىّ حتّى كدت أتلفُ جوعاً.

فسألتُ عن عملٍ ليلاً لأتوفّر نهاراً علـى طلـب التصرّف، وأنفـقَ فـى النّهـار مـا أكسبه ليلاً، فأرشِدْتُ إلى حدّاد يعمل ليلاً، فقصدتُه فاستأجرنى بِدِرْهَـم فـى كـلّ ليلـة، وكنت أعمل معه، وكان معه غلامٌ آخر يضرب بالمطرقة، فأفسد ذلك الغلام على الحدّاد نعلاً كان يَضْرُبها، فاغتاظ عليه، ورماه بالنعل الحديد على قلته[2]، فَتَلِفَ للوقت، فهرب الحدّاد، وبَقِيتُ أنا فى الموضع متحيّراً لا أدرى إلى أين أمضى، وأحسَّ الحارس فى الحـال بمارابه فى الدُّكّان، فهجم علىَّ فوجدنى قائماً، والغلامَ ميّتاً فلم يشكّ أنّى القاتل، فقبض علىَّ ورفعنى، فحُبِسْتُ إلى الآن، فقال لصاحب الشرطة: خلِّ عنه.

وقـال لخـادم آخـر: خُـذْهُ فغـيِّرْ حالـه، وادفـع إليـه خمســمائة دينـار، ودَعْـهُ ينصرف مصاحباً.

ثمّ رفع رأسه إلىّ، وقال: يا ابن حَمْدون، الحمد للهِ الّذى وفّقنى لهذا الفعل.

ففرّج عنى، فقلت: كيف تكلّف أميرُ المؤمنـين النّظـر فـى هـذا بنفسـه، فـى مثـل هذا الوقت؟

فقال: ويحُك إنى رأيت فى منامى رجلاً يقول لى: فى حبسك رجلان مظلومان، يقال لأحدهما : منصور الجمّـال، والآخر: فـلان بـن فـلان الحـدّاد، فأطلقْهمـا السّـاعةَ وأحسنْ إليهما وأنصفْهما، فانتبهتُ مذعوراً، ثمّ نِمْت.

---

(١) طلباً للتصرف : بحثاً عن عمل.
(٢) القلة : القمة، وهنا : ضربه على قمة رأسه.

فما استثقلتُ حتّى رأيتُ الشّخص بعينه، يقول لى: ويلُك، آمرك أن تُطلقَ رجلين مظلومَيْن فى حبسك، قد طال مُكثُهُما، وأن تنصفهما وتحسن إليهما، فلا تفعل، وترجع تنام؟ لقد هممتُ أن أوجعك، فكاد يمدّ يدَه إلىّ.

فقلت له : يا هذا مَن أنت؟

فقال : أنا محمّدٌ رسول الله، فكأنّى قبّلْتُ يده، وقلت : يا رسول الله، ما عرفتك، ولو عرفتك ما تجاسرتُ على تأخير أمرك.

قال : قم، فاعمل فى أمرهما السّاعةَ، بما أمرتُك به، فانتبهتُ مذعوراً، فاستدعيتُك لتشاهد ما يجرى.

فقلت : هذه عناية من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمير المؤمنين، واهتمامٌ بما يُصْلِحُ دينَه، ويثبّتُ مُلكه، ومِنّة عظيمة عليه، لله عز وجَلَّ ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

فقال : امض فقد أزعجناك، فعدتُ إلى حجرتى.[1]

فلمّا كان من الغد عشيّاً، ودخلتُ إليه وهو جالس للشّرب على الرّسم، فأحببْتُ أن أعرِّفَ الجلساءَ ما جرى البارحةَ، ليُسَرَّ هو بذلك، وكنتُ أعرف من طبعه أنّه يحب الإطراءَ والمدح، ونَشْرَ ما هذا سبيله، فإنّه إذا عمل جميلاً أكثر من ذِكْره، وتبجّح به، وإن كان صغيراً.

فقلت له : إن رأى أميرُ المؤمنين أن يخبر خَدَمَهُ، بما كان من المُعجزة البارحة، وعنايةِ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بخلافته.

فقال : وما ذاك؟

فقلت : إحضارى البارحة، وإحضار صاحب الشُّرطة، والجمّال، والحداد، ورؤياه النّبى صلى الله عليه وسلم، وما أمره به فيهما، وما تقدّم به إلى أمير المؤمنين من انصافهما.

فقال : والله ما أذكر من هذا شيئاً، وما كنتُ إلاّ سكران، نائماً طول ليلتى، وما انتبهتُ.

---

(١) ولم يتعجب النديم من أمر خليفته الذى نام سكران، كيف رأى رسول الله فى المنام؟!

فقلت: بلى يا سيّدى.

فتنكّر، وقال : يا ابن حَمْدون قد صرتَ تغالطُنى وتخادعِنى بالكَذِب؟

فقلت: أعيذُ أمير المؤمنين بالله، هذا أمر مشهور فى الدّار عند الخدم الخاصّة وصاحبِ الشُّرطةَ نفسِه، وقصصتُ عليه القصّة وشرحتها.

فاستدعى الخدم، فتحدّثوا بمثل ما ذكرتُه، فأظهر تعجّباً شديداً، وحلف بالله العظيم، وبالبراءة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالنّفى من العبّاس، إنه لا يذكر شيئا من ذلك ولا انتبه، ولا جلس، ولا استدعى أحداً، ولا أمر بأمْر.

فما رأيتُ أعجبَ من هذا المنام والحال، ولا أطرفَ من هذا الاتّفاق فى نسيانه بعد ذلك.[1]

✿✿✿

(١) وهنا لا نعرف يقيناً منَ الذى كان يحلم: الخليفة، أم النديم؟! وما حدود الوهم مع الحقيقة؟!

١٢- لِصَّان : تائب .. وخائِبٌ

حدّثنى عبَيْدُ الله بن محمد الصَّرَوى، قال : حدّثنى بعض إخوانى: أنّه كان ببغداد رجلٌ يطلب التلصّصَ فى حَدَاثَتِه، ثم تاب وصار بَزّازاً[1].

قال : فانصرف ليلةً من دكانه، وقد أغلقه، فجاء لص متزىّ بزىّ صاحب الدكّان، فى كُمِّهِ شمعةٌ صغيرة، ومفتاحٌ، فصاح بالحارس، وأعطاه الشمعةَ فى الظُلْمَة، وقال : اشعِلْها وجئْنى بها، فإنّ لى فى هذه الليلةِ فى دكانى شُغْلاً.

فحضر الحارسُ وأشعلَ الشمعة، وركّب اللصُّ المفاتيح على الأقفال ففتحها، ودخل الدكّان.

فجاء الحارس بالشمعة مشعلةً، فأخذها منه وهو لا يَتبيّن وجهَه، وجعلها بين يديه، وفتح سَفَطَ[2] الحساب،وأخرج ما فيه، وجعل ينظر فى الدفاتر، ويورّى بيده أنّه يحسِب، والحارس يطالعه فى تردّده، ولا يشكّ فى أنّه صاحبُ الدكّان.

إلى أن قارب السَحَر، فاستدعى اللصُّ الحارسَ، وكلّمه من بعيد، وقال له: أطلب لى حمّالاً.

فجاء بحمّال، فحمل عليه من مَتَاع الدكّان أربَع رزَم مُثمَّنَة[3]، وأقفل الدكّانَ، وانصرف ومعه الحمَّال، وأعطى الحارس دِرهمين، فلمَّا أصبح الناس، جاء صاحب الدكّان ليفتحَه، فقام إليه الحارس يدعو له، ويقول: فَعَلَ اللهُ بك وصَنَعَ، كما أعطيتنى البارحةَ الدرهمين.

فأنكر الرجل ما سمعه، ولم يَرُدّ جواباً، وفتح دكّانه، فوجد سَيَلانَ الشمعة، وحسابَه مطروحاً، وفقد الرُّزَمَ الأربع، فاستدعى الحارَس، وقال له: مَن كان الذى حمل معى الرزمَ البارحة من دكّانى؟

فقال له الحارس: ألَيْسَ استدعيْتَ منّى حمالاً، فجئتكَ به، فحملها معك؟

قال : بلى، ولكنّى كنت ناعساً مُتَنَبِّذاً[4]، وأريد الحمّال، فجئنى به.

---

(١) البزاز : تاجر الحرير.

(٢) السفط : الوعاء أو الكيس أو "الدرج".

(٣) مثمنة : غالية الثمن، قيّمة.

(٤) متنبذًا : شارب نبيذ.

فمضى الحارسُ فجاءه بالحمّال، فأغلق الرجلُ الدكّانَ، وأخذ الحمّال معه، ومشى، وقال: إلى أينَ حملتَ الرُّزَمَ البارحةَ، فإنى كنتُ متنبّذاً.

قال : إلى المشرْعَة الفلانية، واستدعيتَ فلاناً الملاّح، فركبتَ معه.

فَصَعَدَ الرجلُ المشرعةَ، فسأل عن الملاّح فَدُلَّ عليه وركب معه. وقال: أين أوصلتَ اليوم أخى الذى كان معه الأربعُ رزم؟

قال : إلى المَشْرعة الفلانيّة.

قال أطرحنى إليها، فطرحه.

قال : مَنْ حَمَلَها معه؟

قال : فلان الحَمّال.

فدعا به، ولطّفه، وقال : أين حملتَ الرزم الأربعَ البارحة؟ واستدلّه برفق وأعطاه شيئاً، فجاء به إلى باب غرفة، فى موضعٍ بعيدٍ عن البلد، قريبٍ من الصحراء، فوجد الباب مُقفلاً.

واستوقف الحمّالَ إلى أن فَشَّ القُفْل وفَتَحَ الباب، ودخل، فوجد الأربعَ رُزَمٍ بحالها، وإذا فى البيت بَرْكَان [1] مُعلّق على حبْل، فلفَّ الرُّزَمَ فيه، ودعا الحمّالَ فحملها.

فحين خرج من الغرفة، استقبله اللصّ، وفهِمَ الأمر، فاتّبعه إلى الشطّ، فجاء إلى المَشْرعة، ودعا الملاّحَ ليعبُر.

فدعا الحمّالُ من يَحُط عنه، فجاء اللصُّ، فحطّ عنه، كأنّه مجتازٌ متطوع، فأدْخَلَ الرّزمَ إلى السفينة مع صاحبها، ثم جعل البَرْكان على كتفه، وقال للتاجر: يا أخى، أستودعُكَ الله، فقد استرجعتَ رُزَمَكَ، فدعْ كِسائى.

فضحِكَ منه وقال : انزل ولا خوف عليك.

فنزل معه، فاستتابه، وَوَهَبَ له شيئاً، وصَرَفَهُ.

✿✿✿

(١) الركان : رداء يشبه العباءة أو المعطف.

١٣- فَرَجٌ أمْ جَرِيمَة ؟!

حدّثني عبيدُالله بن محمّد الصَّرَوي، قال : حدّثني أبي، قال :

كان في جوارنا بوَاسطَ، شابٌ أتلف ماله في اللّعب، فافتقر فقرا شديداً، ثمّ رأيتُه بعد ذلك بمدة، وقد أثرى، وَصَلُحَتْ حاله، وأقبل على شأنه.

فقلت له : ما سبب هذا؟

فدافعني، ثم قال : أحدثك، وتَكْتُمُ عليَّ؟

فقلت : نعم.

فقال : إنّ الفقر بلغ بي إلى حال تمنّيْتُ معها الموت، وولَدَت امرأتي ذاتَ ليلة، وكانت ليلةَ العيد، فلم يكن معي ما أشتري لها ما يمسك رَمَقَهَا، فخرجتُ على وجهي، أطلب مَنْ أتصدّقُ منه شيئاً أعودُ به إلى امرأتي.

فأمضيتُ إلى زُقاقٍ طويل لا أعرفه، فدخلتُ، فإذا هو لا يَنفُذ، وإذا فيه بابُ دارٍ مفتوحٌ، ومستراح.

فدخلتُ الدار بغير إذن، فإذا برجلٍ يطبُخ قِدْراً، فصاح عليَّ، وقال: مَنْ أنت، ويلُكَ؟ فقصصتُ عليه خبَرى.

فقال : إمضِ إلى ذلك البيت [1]، واجلس إلى أن أفْرُغَ من القِدْر، فأعطيك منها مع الخبز شيئاً تحمله إلى امرأتك، ونفقة تكفيك أيّاماً.

فدخلتُ البيت، فرمى إليّ كِساءً، وقال : تغطَّ به، ونَمْ ساعة.

وكانت ليلةً باردة، وكنتُ بقميص واحد، فتغطّيتُ بالكِساء، وانْضَجَعْتُ، و لم يدخل عينيَّ النّومُ، لما بي من الجوع والغمّ.

فما لبثتُ أن جاء رجل عُريان، فدخل وعلى رأسه شيءٌ ثقيل، فقام الّذي يطبخ، فأغلق الباب، وأنزل ما كان على رأسه.

وقال له: ويلك، غبتَ، حتى أيِسْتُ منك.

(١) البيت هنا بمعنى الحجرة، أما بمجموع الحجرات فهي الدار.

فقال : كنت يومى وليلتى، مختبئاً خلفَ حَطَبٍ لهم، حتّى تمكّنتُ مـن أخـذ هـذه البِدرة [1]، وما أدرى أدنانيرُ هى أم دراهم؟ وأنا ميتٌ جوعاً، فأطْعِمْنى شيئاً.

قال : فأخذ الرّجل يغـرف مـن القـدر، ومضـى العُريـان فلبِسَ شـيئاً، وجـاء إلى الآخرَ، وقد غَرَف، فجعلا يأكلان، وقد خرجتْ نفسى فزعاً.

فلمّا أكلا، أخرجا شراباً، وجعلا يشربان، وأنا مُتَحَيِّرٌ لا أدرى ما أصنع، ولست أجترئ أطلبُ من الرّجل شيئاً.

وأقبل العُريان يشرب أكثرَ من الآخر الّذى كان يطبُخ، وجعل الذى كان يطبـخ، يقول له: استكْثِرْ من الشرب لتدفأ، إلى أن سَكِرَ العُريانُ، ونام.

فقام الأوّل، فطاف فى الدّار، ثمّ جاءنى، فكلّمنى، فسكتُّ، خوفـاً مـن أن يعلـمَ أنّى قد علِمْتُ بقصّتهما، فيقتُلنى، فظنّ أنّنى قد نِمْتُ.

فمضى إلى النّائم، فذبحه، ثمّ أمسكه حتّى مات، ثمّ لفّه فى كِسـاء، وحملـه علـى عاتِقِهِ، وخرج من الدار.

فقلتُ لنفسى: لأى شىء قُعُودى؟

فقمتُ، فجئتُ إلى البدرة، فجعلتها فى الكِساء الّذى كان علىَّ، وخرجتُ أسعى سعْياً شديداً.

فلم أزل كذلك، حتّى رأيتُ مسجداً قد فتحه إنسان، وخرج منه، وجلس يبول، فدخلته، وجاء الرّجل الذى كان يبول، فَدَخَلَهُ، وأغلق بابه.

وقال لى : أىُّ شىء أنت؟

فقلت: غريبٌ، جئتُ الساعةَ من السواد [2]، ولم أجسر أن أتجاوزَ هـذا الموضِـع، فأجرْنى، أجارَكَ الله.

فقال : نم مكانَك، فتركْتُ البِدرةَ تحت جنبى واتّكأتُ عليها.

---

(١) البدرة : الصرة الصغيرة، أو القبضة من المال.
(٢) سواد العراق: الريف.

فلم ألبث حتّى سمِعتُ فى الطريقِ صوتَ رجلٍ يسعى سعياً شديداً، وإذا كلام صاحبى بعينه، وهو يقول: عمِلها ابنُ الزانية، وَيْلى على دمه.

فأبصرتُه من شُبّاك المسجد، وإذا فى يده خِنْجر مُجرَّد، وهو يتردّد ذاهبا وجائياً، وأعماه الله عن دخول المسجد، إلى أن مضى.

و لم أزل ساهراً لا يحملنى النوم، خوفاً منه، وإشفاقاً على ما معى، إلى أن أضاء الصبّح، وأذّن فى المسجد.

وخرجتُ كأنّى أتوضّأ، وحملْتُ ما معى، ومشيتُ، والنّاس قد كَثُرُوا فى الطّريق، حتّى انتهيتُ إلى بيتى، فأخفيت ما جئتُ به، وأصلحت حالى، وحالَ زوجتى.

ثم خرجتُ إلى ضَيْعَة -كانت لأبى- خرابٍ، فأقمتُ بها مدّة، حتى عمّرتها بأكثرَ ذلك المال، وعلمتُ أنّه لا يتّفق مثلُ هذا الاتفاق أبداً، ولَزِمْتُ شأنى، وصَلُحَتْ حالى.

۞۞۞

١٤- التَّطهيرُ بالفَنّ

أخبرني أبوالفرج الأصبهانيُّ، قال : أخبرني الحَرَمِيُّ بنُ أبي العلاء، قال حدّثنا الزُّبيرُ بنُ بكّار، قال : حدثني عمّي مُصْعَبَ، عن عبدالرّحمن بن المُغيرة الحزامي الأكبر، قال:

لما قَدِمَ عثمانُ بن حيّان المُرّيُّ [١] المدينة والياً عليها، قال له قوم من وُجوه النّاس: قد وُلّيتَ المدينةَ على كَثْرَة من الفساد، فإن كنتَ تريد أن تُصْلِحَ، فطهّرها من الغِناء والزناء.

فصاح في ذلك[٢]، وأجَّل أهلَه ثلاثاً، يُخرَجون فيها من المدينة.

وكان ابنُ أبي عَتيق [٣] غائباً، وكان من أهل الفضْلِ والعفافِ والصلاحِ، فلمّا كان في آخر ليلة من الأجل، قَدِمَ.

فقال: لا أدخل منزلي حتّى أدخلَ على سلاّمَة القَسّ[٤].

فقال لها، وقد دخل عليها : ما دخلتُ منزلي، حتّى جئتكم أسلّم عليكم.

قالوا : ما أغفلَكَ عن أمورنا، فأخبروه الخبر.

فقال : أصبروا لي اللّيلة.

فقالوا : نخاف أنْ لا يُمكنك شيء، ونُؤْذَى.

فقال : إن خِفتُم شيئاً، فاخرجوا في السَّحَر.

ثمّ خرج، واستأذن على عثمانَ بن حَيّان، فأذِنَ له، فسلّم عليه، وذكر غَيْبَتَه، وأنّه جاء ليقضِيَ حقّه، ثمّ جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغِناء والزّناء.

وقال : أرجو أن لا تكون عَمِلْتَ عملاً، هو خيرٌ لك من ذلك.

قال عثمان : قد فعلتُ ما بَلَغَكَ، وأشار عليّ به أصحابُك.

قال : قد وُفّقتَ، ولكن ما تقول يرحمُكَ الله في امرأة كانت هذه صناعتَها، ثمّ تركَتْها، وأقبلتْ على الصيام والصدقة والخيْر، إني رسولُها إليك تقول : أتوجّه إليك، وأعوذُ بك أن تُخرجني من جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن مسجده.

---

(١) في زمن الخليفة عبدالملك بن مروان.
(٢) أرسل المنادين يعلنون قراره بإخراج أهل الغناء عن المدينة.
(٣) حفيد أبي بكر الصدّيق، ناقد محب للشعر، وصديق لعمر بن أبي ربيعة.
(٤) سلاّمة أشهر المغنيات، ونُسبت إلى رجل صالح أحبها حبّا عفيفاً، سمي "القَس" لصلاحه.

فقال : إنّى أدعُها لك ولكلامك.

فقال ابنُ أبى عَتيق: لا يَدَعُـكَ النّـاس، ولكـن تـأتيك، وتسـمعُ كلاَمهـا، وتنظـرُ إليها، فإن رأيتَ أنّ مثلَها يسع أن تُترك، تركتَها.

قال : نعم.

فجاءه بها، وقال لها : احملى معك سُبحة، وتَخَشَّعى، ففعلَتْ.

فلمّا دخلَتْ على عثمانَ، حدثتْه، فإذا هى من أعلم النّاس بأمور النّاس، فـأعجب بها، وحدّثته عن آبائه وأمورهم فَفَكِهَ لذلك.

فقال لها ابنُ أبى عَتيق: اقرئى للأمير، فقرأتْ.

فقال لها : احدِى له، ففعلت، فكثُر عَجَبُهُ بها.

فقال : كيف لو سمعتَها فى صناعتهـا، فلـم يـزلْ يُنْزِلُـهُ شـيئاً شـيئاً، حتّـى أمرهـا بالغناء، فقال لها ابنُ أبى عَتيق: غنّى:

سَدَدْنَ خَصَاصَ البَيْتِ لما دَخَلْنَهُ بكلِّ لَبَانٍ واضـــحٍ وجبـــينِ

فغنّته، فقام عثمان بنُ حيّان، فقعد بين يديهـا، ثـمّ قـال: لا واللهِ، مـا مثـل هـذه تخرج.

فقال ابنُ أبى عَتيق:[1] لا يَدَعُكَ النّاس، يقولون أقرَّ سلامةَ، وأخرج غيرَها.

فقال : دعوهم جميعاً، فتركوهم.

وأصبح النّاسُ يتحدّثون بذلك، يقولون: كلَّـمَ ابـنُ أبـى عَتيـقٍ الأمـيرَ فـى سـلاّمةَ القسِّ، فتركُوا جميعاً.

✿✿✿

(١) تأمل ذكاء ابن أبى عتيق فى ترتيب هيئة هذه المغنية، والتدرج فيما تعرضه من فنون، كيف بدأت بالثقافة العامة، ثم تطرقت منها إلى أخبار آبائه، مما ينتفخ به غروراً واعتزازا، ثم قرأت القرآن، ثم جاء الحداء، وهو شعر بدوى يمس القلوب الجافية كقلب هذا المرى، ثم كان شعر الغزل.. يشق طريقه بلا اعتراض.

١٥- ضَمَائِر قَلِقَة

ذكر محمّدُ بنُ إسحاقَ بن أبى العشير، عن إسحاقَ بنِ يَحيى بن مُعاذ، وقال : حدّثنى سَوار، صاحبُ رَحْبَةِ سوار، قال :

انصرفْتُ من دار المهدىِّ، فلمّا دخلتُ منزلى، دَعَوْتُ بالغداء، فحاشَتْ نفسى، فأمَرْتُ بهِ فَرُدَّ.

ثمّ دعوتُ بالنَّرْد، ودعوتُ جاريةً لى ألاعبها، فلم تَطِبْ نفسى بذلك، ودخلت القائلَةُ، فلَم يأخذْنى النّوم.

فنهضتُ، وأمرتُ ببغلةٍ لى شهباءَ، فأُسْرِجَتْ، فركبتها، فلمّا خرجت استقبلنى وكيلٌ لى ومعه ألفاً دِرهم.

فقلت له: ما هذا؟

فقال : ألفا دِرهم جَبَيْتُها من مستغلك الجديد.

قال : قلت : أمسِكْها معك، واتبعنى.

قال : ومضيتُ، وخلّيت رأسَ البغلة، حتّى عبرتُ الجسر، ثمّ مضت بى فى شارع دارِ الرقيق، حتّى انتهيتُ إلى الصحراء، ثمّ رجعتُ إلى باب الأنْبار، فطوَّفْتُ، فلمّا صرتُ فى شارع باب الأنبار، انتهيتُ إلى باب دارٍ لطيف، عنده شجرةٌ، وعلى الباب خادم، فوقفتُ، وقد عَطِشْتُ.

فقلت للخادم : أعندك ما تَسْقِينِيه؟

قال : نعم، فأخرج قُلّة نظيفة طيّبة الرّيح، عليها مِنْديل، فناولنيها، فشربْت.

وحضر وقتُ العصر، فدخلتُ مسجداً، فصليتُ فيه، فلمّا قضيت صلاتى، إذا أنا بأعمى يتلمّس.

قلت : ما تريد يا هذا؟

قال : إياك أريد.

قلت : وما حاجَتُك؟

فجاء حتّى قعد إلىّ، فقال: شَمَمْتُ منك رائحةَ الطِيب، فتخيّلت أنّـك مـن أهـل النعمة، فأردتُ أن ألقِىَ إليكَ شيئاً.

فقلت : قُلْ.

قال : أترى هذا القصر؟

قلت: نعم.

قال: هذا قصرٌ كان لأبى، فباعه، وخرج إلى خُراسان، وخرجتُ معه، فزالت عنّا النَعمةُ التى كنا فيها، فأتيتُ صاحب الـدّار، لأسـأله شـيئاً يَصلُنـى بـه، فـإنّى فـى ضَنْـكٍ شديد، وضَغْطةٍ عظيمة، ورُزُوحِ حالٍ قبيح، وأصير إلى سوار، فإنَه كان صديقاً لأبى.

قلت : ومَنْ أبوك؟

قال : فلانٌ بنُ فلان، فإذا أصدق النّاس -كان- لى.

فقلت : يا هذا، إنّ الله قد أتاك بِسَوار، ومَنَعَـهُ الطعـام والشـرابَ والنّـومَ، حتّـى جاء به فأقعدَه بين يديك.

ثمّ دعوتُ الوكيل، وأخذتُ منه الألفيْ درهم، فدفعتها إليه، وقلت لـه: إذا كـان غداً، فَصِرْ إلىّ، إلى المنزل.

ثمّ مضيتُ، فقلت: ما أحدّث المَهْدِىَّ بشىء أطرفَ مـن هـذا، فأتيتـه فاسـتأذنتُ عليه، فأذنَ لى، فحدّثتُه بالحديث، فأعْجب به، وأمر لى بألفيْ دينار، فأحضِرَتْ.

فقال لى : ادفعها إليه.

قال : فنهضتُ، فقال لى : اجلس، أعليكَ دَيْن؟

قلت : نعم.

قال : كم مبلغه؟

قلت : خمسون ألفَ دينار.

فقال : تُحمَل إليك، فاقضِ بها دَيْنَك، فقبضتُها.

فلمّا كان من الغد، أبطأ علىّ المكفوف، وأتانى رسولُ المهدى، يدعونى، فجئتُه

فقال : فكّرتُ فى أمرك، فقلت : يقضى دَيْنَه، ثمّ يحتاج إلى الحيلة والقرض، وقد أمرتُ لك بخمسين ألفَ دينارٍ أخرى.

قال : فقبضتُها، وانصرفت.

فجاءنى المكفوف، فدفعت إليه الألفىْ دينار، وقلت له: قد رَزَقَ الله خيراً كثيراً، وأعطيته من مالى ألفىْ دينار أخرى، فقبض أربعةَ آلاف دينار، ودعـا لى، وقـال : والله، ما ظننتُ أنّى أصلُ منك، ولا من أحدٍ من أهل هذه البلاد، إلى عُشْر هذا المـال، فجـزاكَ الله خيراً.

✿✿✿

١٦- سَبَعْ صَنَايِعْ!!

وذكر أبوالحسيْن القاضي، في كتابه، قال : بلغني عن عمرو بن مَسْعدَة، أنه قال:

كنتُ مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم، حتى إذا نزل الرَّقّة، قال لي: يا عمرو،أما ترى الرُّخّجيَّ، قد احتوى على الأهْوَاز، وهي سَلّةُ الخُبز، وجميعُ الأموال قِبَلَهُ، وقد طَمِعَ فيها، وكُتُبي مُتّصلِة في حَمْلِها، وهو يتعلّل، ويتربّصُ بنا الدوائر.

فقلت : أنا أكفي أمير المؤمنين هذا، وأنفذُ مَنْ يضطرّه إلى حَمْل ما عليه.

فقال : ما يُقنعني هذا.

قلت :فيأمرُ أميرُ المؤمنين بأمره.

قال : تخرجُ إليه بنفسك، حتى تُصَفِّدَه بالحديد، وتحمله إليّ، بعد أن تقبضَ جميع ما في يده من أموالنا، وتنظرَ في ذلك، وترتّبَ فيه عمالاً.

فقلت : السمعُ والطاعة، فلمّا كان من غد، دخلتُ إليه.

فقال : ما فعلتَ فيما أمرتُك به؟

قلت : أنا على ذاك.

قال : أريد أن تجيئني في غدٍ مودِّعاً.

قلت : السمع والطاعة، فلمّا كان من غدٍ، جئتُ مودّعاً.

فقال: أريد أن تحلفَ لي، أنّك لا تقيم ببغداد إلاّ يوماً واحداً، فاضطربتُ من ذلك، إلى أن حَظر عليّ واستحلفني أن لا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيّام، فخرجتُ، وأنا مضطربٌ مغموم.

وقلت في نفسي : أنا في موضع الوزارة، وقد جعلني مُسْتَحِثّا إلى عامل[1]، ومستخرجاً، ولكنّ أمْرَ الخليفة لابدّ من سماعه، وامتثالِ مرسومه.

---

(١) عمرو بن مسعده، وهو وزير، يأنف أن الخليفة كلّفه بعمل لا يقوم به الوزير، وإنما المستحث (رجال

وسرتُ حتى قَدمْتُ بغداد، و لم أقِمْ بها إلاّ ثلاثة أيام، وانحدرتُ منها فى زَلال[1]، أريد البَصرة، وجُعل لى فيه خيْش، واستكثرت من الثلج لشدّة الحرّ.

فلمّا صرتُ بين جَرْجَرَايا، وجبّل، سمعتُ صائحاً من الشاطىء، يصيح: يا ملاح، فرفعتُ سَجْفَ الزّلاّل، فإذا بشيخ كبير السنّ حاسر الرأس، حافى القدمين، خَلَق القميص.

فقلت للغلام: أجِبْه، فأجابه.

فقال : أنا شيخٌ كبيرُ السنّ، على هذه الصورةِ التى ترى، وقد أحرقَتنى الشمسُ، وكادت تُتلفُنى، وأنا أريد جبّل، فاحملونى معكم، فإن الله عَزَّ وجَلَّ يُحسِنُ أجْرَ صاحِبكم.

قال : فشتمه الملاّح، وانتهره.

فأدركتنى عليه رِقّة، وقلتُ للغلام : خذه معنا، فقدّم إلى الشط، وصِحْنا به، وحملناه.

فلمّا صار معنا فى الزلاّل، وانحدرنْا، تقدمتُ، فدُفِعَ إليه قميصٌ، ومنديل، وغَسَلَ وجهه، واستراح، فكأنّه كان ميتاً عاد إلى الدنيا.

وحضر وقتُ الغَداء، فتذمَّمْتُ[2] وقلت للغلام: هاتِهِ يأكل معنا.

فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكْلَ أديب، نظيف، غير أنّ الجوع قد أثّر فيه.

فلمّا رُفِعَتْ المائدة، أردت أن يقومَ ويغسلَ يده ناحية، كما يفعل العامّة، فى مجالس الخاصّة، فلم يفعل، فغسلتُ يدى.

وتذممتُ أن آمر بقيامه، فقلت : قدّموا له الطّسْتَ. فغسل يده ، وأردتُ بعدها أن يقومَ لأنام، فلم يفعل.

فقلت : يا شيخ، أيش صناعتُك؟

المتابعة من الكتاب) لكنه لا يملك غير الطاعة. وهذه مقدمة "نفسية" مهمة بالنسبة للقصة، كما ستتطور.

(١) الزلال: زورق خفيف من سفن السفر الصغيرة.

(٢) تذممت : شعرتُ بالحرج والحياء.

قال: حائك، أصلحَك الله.

فقلت في نفسي: هذه الحياكة علّمَتْهُ سوءَ الأدب، فتناومْتُ عليه، ومددتُ رِجليَّ.

فقال : قد سألتني عن صناعتي، فأجبتُكَ، فأنتَ -أعزك الله- ما صناعتُكَ؟

فأكبرت ذلك، وقلت : أنا جَنَيْتُ على نفسي هذه الجناية، ولابدّ من احتماله، أتراه -الأحمقَ- لا يرى زَلاّلي، وغِلماني، ونعمتي، وأنّ مثلي لا يُقال له مثلُ هذا؟

ثم قلت : أنا كاتب.

فقال : كاتبٌ كامل، أم كاتب ناقص؟ فإنّ الكتّاب خمسة، فمن أيّهم أنت؟

فَوَرَدَ عليَّ من قوْل الحائك، مَوْرِدٌ عظيم، وسمعتُ كلامكاً أكبْرتُهُ، وكنت متّكِئاً، فجلست.

ثم قلت له: فصِّل الخمسة.

قال : نعم، كاتبُ خَراج، يقتضي أن يكون عالماً بالشروط، والطُّسوق، والحساب، والمساحة، والبُثوق، والفُتوق، والرُّتوق.

وكاتبُ أحكام، يحتاج أن يكون عالماً بالحلال، والحرام، والاختلاف، والاحتِجاج، والإجماع، والأصول، والفروع.

وكاتبُ مَعونة، يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص، والحدود، والجراحات، والمراتبات، والسياسات.

وكاتبُ جيش، يحتاج أن يكون عالماً بحُلَى الرجال، وشيّات الدوابّ، ومُداراة الأولياء، وشيء من العلم بالنّسب والحساب.

وكاتبُ رسائل، يحتاج إلى أن يكون عالماً بالصدور، والفصول، والإطالة، والإيجاز، وحُسْن البلاغة، والخط.

قال : فقلت : أنا كاتبُ رسائل.

قال : فأسألُك عن بعضها ؟

قلت : سَلْ.

قال : أصلحكَ الله، لو أنّ رجلاً من إخوانك تزوّجـت أمـه، فـأردت أن تكاتبـه مهنئاً، فماذا كنتَ تكتب إليه؟

ففكّرتُ فى الحال، فلم يخطر ببالى شىءٌ، فقلت: اعْفِنِى.

قال : قد فَعَلْتُ، ولكنّك، لست بكاتبِ رسائل.

قلت : أنا كاتب خَراج.

قال : لا بأس، لو أنّ أمير المؤمنين ولاّك ناحية، وأمرك فيها بـالعدل والإنصـاف، وتقصّى حقّ السلطان، فتظلّم إليك بعضهم من مَسَّاحكَ، وأحضرتَهم للنظر بينهـم وبـين رعيتك، فحلف المسَّاحُ بالله العظيـم، لقـد أنْصفـوا، ومـا ظُلمـوا، وحلـف الرعيـةُ بـا لله العظيم، أنّهم قد جاروا وظَلَموا، وقالوا لـك: قـف معنـا علـى مـا مسـحوه، وانظـر مَـنِ الصادق من الكاذب، فخرجتَ لتقفَ عليه، فوقفوا على قُرَاحٍ شَكْلُهُ: قَاتِلُ قِثًّا[1]، كيـف كنتَ تمسحه؟

فقلت : كنت آخذ طولَه على انعواجه، وآخذ عرضه، ثم أضربه فى مثله.

قال : إن شَكْل قاتلَ قثّا، يكون رأساه محددين، وفى تحديده تقويس.

قلت : فآخذ الوسط فأضربه بالعمود.

قال : إذاً ينثنى عليكَ العمود، فأسكتنى.

فقلت : أنا لستُ كاتبَ خَراج.

قال : فإذاً ماذا؟

قلت : أنا كاتبُ قاضٍ.

قال : لا تُبَال، أفرأيتَ لو أنّ رجلاً تُوُفّىَ، وخلّف امرأتـين حـاملتين، إحداهمـا حرّة، والأخرى سُرّيَة، وولدت السُّريةُ غُلامـاً، والحرّةُ جارية، فعَمَـدتْ الحرّةُ إلى ولـد السُّرّيةِ فأخذتْه، وتركت بدله الجاريةَ، فاختصمتا فى ذلك، كيف الحكم بينهما؟

قلت : لا أدرى.

قال : فلست كاتبَ قاضٍ.

---

(١) بمعنى أن الخلاف على مساحة قطعة على شكل ثمرة القثاء.

قلت : أنا كاتبُ جيش.

قال : لا بأس، أرأيتَ، لو أنّ رجلين جاءا إليك لتحلّيهما[1]، وكل واحد منهما، اسمه، واسم أبيه، كاسم الآخر، واسم أبيه، إلاّ أنّ أحدَهما مشقوقُ الشفّة العليا، والآخر مشقوقُ الشفّةِ السفلى، كيف كنتَ تحلّيهما؟

قلت : أقول فلان الأعلم، وفلان الأعلم.

قال : إنّ رزقيهما مختلفان، وكلّ واحد منهما يجيء فى دَعْوَةِ الآخر.

قلت : لا أدرى.

قال : فلستَ بكاتبِ جيش.

قلت : أنا كاتبُ مَعونة.

قال : لا تُبَال، لو أنّ رجلين رُفعا إليك شُجَّ أحدُهما شجّة موضّحة [2]، وشَجَّ الآخر صاحبةَ شجّة مأمومة[3]، كيف تفصل بينهما؟

قلت : لا أدرى.

قال : إذن، لستَ كاتبَ معونة، فاطلب لنفسك - أيّها الرجل -شُغْلاً غيرَ هذا.

قال : فَقَصُرَتْ إلىَّ نفسى، وغاظنى، فقلت: قد سألتَ عن هذه الأمور ويجوز أن لا يكون عندَك جوابُها، كما لم يكن عندى، فإن كنتَ عالماً بالجواب، فَقُلْ.

فقال : نعم، أمّا الذى تزوّجَتْ أمه، فتكتب إليه: أمّا بعد، فإنّ الأمور، تجرى من عند الله، بغير محبّة عبادة، ولا اختيارهم، بل هو تعالى، يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزوجُ الوالدة، خار الله لك فى قبضها، فإن القبرَ أكرمُ الأزواج، وأستر للعيوب، والسلام.

وأمّا قُراح قاتل قتّا، فيمْسح[4] العمود، حتى إذا صار عدداً فى يدك ضربتَه فى مثله، ومثل ثلثه، فما خرج فهو مساحته.

---

(1) تسجل اسمهما مع تمييز كل منهما عن الآخر.
(2) الشجة الموضحة أو الواضحة : التى بلغت العظم وكشفت عنه.
(3) الشجة المأمومة - نسب إلى أم الدماغ - فهى فى قمة الرأس.

وأمّا الجاريةُ والغلام، فيوزَن اللبنان، فأيّهما أخفّ، فالجارية له.

وأمّا المرتزقان المتوافقان فى الاسمين فإن كان الشّقّ فى الشفة العليا، كتبتَ فلان الأعلم، وإذا كان فى الشفة السفلى، كتبت فلان الأفلح.

وأما أصحاب الشجّتين، فلصاحب الموضّحة ثلثُ الدّيّة، ولصاحب المأمومة نصفُ الدية.

قال : فلمّا أجاب فى هذه المسائل، تعجّبتَ منه، وامتحنته فى أشياء غيرها كثيرة، فوجدتُه ماهراً فى جميعها، حاذقاً، بليغاً.

فقلت : ألَسْتَ زعمتَ أنك حائك؟

فقال : أنا - أصلحكَ الله - حائكُ كلام، ولستُ بحائِكِ نِسَاجة، ثم أنشأ يقول:

ما مرَّ بؤسٌ ولا نعيم	إلاّ ولى فيهما نصيبُ
نوائبُ الدهر أدّبتني	وإنما يوعَظ الأديبُ
قد ذقتُ حُلواً وذقتُ مرّاً	كذاك عيش الفتى ضُروبُ

قلت : فما سبب الذى بك من سوء الحال؟

قال : أنا راجل كاتب، دامت عُطلتى، وكثرت عَيْلتى، وتواصلت محنتى، وقلّت حيلتى، فخرجتُ أطلب تصرّفا [1]، فقُطِعَ علىَّ الطريق، فتُركت كما ترى، فمشيْتُ على وجهى، فلمّا لاح لى الزلاّل، استغثتُ بك.

قلت : فإنّى قد خرجت إلى تصرّف جليل، أحتاجُ فيه إلى جماعة مثلك، وقد أمَرْتُ لك بخلعة حسنة، تصلح لمثلك، وخمسة آلاف دِرهم، تُصلح بها أمرَك، وتنفذ منها إلى عيالك، وتتقوّى نفسُك بباقيها، وتصيرَ معى إلى عملى، فأوليكَ أجلّه، إن شاء الله تعالى.

فقال : أحسن الله جزاءك، إذن تجدنى بحيث يسرّك، ولا أقوم مقام معذّر إن شاء الله.

---

(٤) المسح : القياس أو المساحة.

(١) التصرف : الوظيفة.

فأمرتُ بتقبيضه ما رسمتُ له، فقبضه، وانحدر إلى الأهـواز معي، فجعلته المُنَاظِرَ للزُّخْجِيِّ، والمحاسبَ له بحضرتي، والمستخرِجَ لما عليه، فقام بذلك أحسن قيام وأوْفاه.

وعَظُمَتْ حاله معي، وعادت نعمتُه إلى أحسن ما كانت عليه.

✿✿✿

١٧ - ثقة!!

وحكى محمّد بن الحسن المظفّر، قال :

حضرتُ العرضَ فى مجلس الجانب الشرقى ببغداد[١]، أيّام نَازُوك، فأخرج خليفةُ نازوك[٢] على المجلس جماعة، فَقَتَلَ بعضهم.

ثم أخرج غلاماً حَدَث السن، مليحَ المنظر، فرأيته لَما وقف بين يدى خليفة نازوك، تبسّم.

فقلت : يا هذا، أحسَبُكَ رابطَ الجأش، لأنّى أراك تضحك فى مقام يوجب البكاء، فهل فى نفسك شىء تشتهيه؟

فقال : نعم ، أريد رأساً حاراً [٣] ورقاقاً.

فسألتُ صاحب المجلس أن يؤخّر قتله إلى أن أطعمه ذلك، و لم أزل أُلطُفُ به، إلى أن أجاب، وهو يضحك منّى، ويقول : أىُّ شىء ينفع هذا، وهو يُقتل؟

قال : وأنفَذْتُ مَنْ أحضر الجميع بسرعة، واستَدْعَيْتُ الفتى، فجلس يأكل غيرَ مُكترث بالحال، والسيّافُ قائم، والقوم يُقدَّمون، فتُضرب أعناقُهم.

فقلت : يا فتى، أراك تأكل بسكون، وقلّة فكر.

فأخذ قشّة من الأرض، فرمى بها، رافعاً يده، وقال وهو يضحك:

يا هذا، إلى أن تسقطَ هذه إلى الأرض مائة فَرَجٍ.

قال : فوالله، ما استتمّ كلامه، حتى وقعت صَيْحَةٌ عظيمة، وقيل: قد قُتِل نازوك.

وأغارت العامّة على الموضع، فوثبوا بصاحب المجلس، وكسروا بابَ الحبس، وخرج جميع مَنْ كان فيه.

---

(١) يقصد عرض المسجونين، لإنزال العقوبات المقررة بهم، فى مقر الشُّرطة.
(٢) نازوك قائد تركى، وخليفته أو نائبه على شرطة بغداد غلام تركى أيضاً.
(٣) اشتهى الغلام لحم رأس ساخناً، مع رقاق!!

فاشتغلتُ أنا عن الفتى، وجميع الأشـياء، بنفسـي، حتـى ركْبـتُ دابّتـي مُهَـرْولاً، وصرتُ إلى الجسر، أريد منزلي.

فوالله، ما توسّطت الطريق، حتى أحسستُ بإنسان قد قبض على إصبعي برفـق، وقال : يا هذا ظنُّنا بالله -عَزَّ وجلَّ- أجملُ من ظنّك، فكيف رأيتَ لطيفَ صُنعه.

فالتفتُّ، فإذا الفتى بعينه، فهنأته بالسلامة، فأخذ يشكرني على ما فعلتـه، وحـال الناس والزحام بيننا، وكان آخر عهدي به.

✿✿✿

١٨- أعرابيٌّ شَيْخٌ

وحدّثني إبراهيم بن علي النّصيبي هذا، قال: حدّثني أبوالقاسم إبراهيم بن علي الصفّار، شيخٌ كان جاراً لنا بنصيبين، قال :

خرجتُ من نَصِيبين بسيف نفيس، كنتُ وَرِثته من أبي، أقصد به العبّاس بن عمرو السلمي، أمير ديار ربيعة، وهو برأس عَيْن لأهديه إليه، وأستَجْديه بذلك.

فصحبني في الطريق شيخٌ من الأعراب، فسألني عن أمري، فأنستُ به، وحدّثته الحديثَ، وكنّا قريباً من رأس عَيْن، ودخلناها، وافترقنا.

وصار يجيئني، ويراعيني، ويُظهر لي أنّه يسلّم عليّ، وأنّه يَبَرّني بالقصد، ويسألني عن حالي.

فأخبرته أنّ الأمير قَبِلَ هديتي، وأجازني بألفِ دِرهمٍ، وثياب، وأنّي أريد الخروج في يوم كذا وكذا.

فلمّا كان ذلك اليوم خرجتُ عن البلد، راكباً حماراً، فلمّا أصْحَرْتُ[1]، إذا بالشيخ على دُوَيْبَةٍ له ضعيفة، متقلداً سيفاً.

فلمّا رأيته استرَبْتُ به، وأنكرته، ورأيتُ الشرَّ في عينيه.

فقلت: ما تصنع ههنا؟

فقال : قد قَضَيتُ حوائجي، وأريد الرجوع، وصُحْبَتُك عندي آثرُ من صحبة غيرك.

فقلت : على اسمِ الله.

وما زلتُ متحرّزاً منه، وهو يجتهد أن أدنو منه، وأوانسه، فلا أفعل، وكلّما دنا منّي، بعدتُ عنه، إلى أن سرنا شيئاً كثيراً، وليس معنا ثالث.

فقصّر عني، فحثَثْت الحمار، لأفوتَه، فما أحسستُ إلاّ بركْضه، فألتفتُّ، فإذا هو قد جرّد سيفه، وقصدني، فرميتُ بنفسي عن الحمار، وعَدَوْتُ.

---

(١) أصحر : صار في الصحراء.

فلمّا خاف أن أفوته، صاح : يا أبا القاسم، إنّما مَزَحْتُ معك، فقف، فلم ألتفت إليه، وزاد فى التحريك.

وظهر لى ناووس[1] فطلبته، وقد كاد الأعرابى يلحق بى، فدخلتُ الناووس، ووقفت وراء بابه.

قال : ومن صفات تلك النواويس أنّها مبنيّة بالحجارة، وباب كلّ ناووس حجر واحد عظيم، قد نُقر، وحُفّف، وَمُلس، فلا تَسْتَمْكِنُ اليد منه، وله فى وجهه حلقة، وليس للباب من داخل شيء تتعلّق اليد به، وإنّما يُدفع من خارجه، فيُفتح، فيُدْخَل إليه، وإذا خُرِجَ منه، وجُذبتْ الحلْقة، انغلق الباب، وتمكنّ هذا من ورائه، فلم يمكن فتحه من داخل أصلاً.

قال : فحين دخلْتُ الناووس، وقفتُ خلف بابه، وجاء الأعرابى، فشدّ الدابّة فى حَلْقة الباب، ودخل يريدنى، مُخترطاً سيفَه، والناووس مُظلم، فلم يرنى، ومشى إلى صدر الناووس، فخرجتُ أنا من خلف الباب، وجذبته، وَنَفَّرْتُ الدابّةَ، فجذبَتْهُ معى، حتى صار الباب مردوماً محكماً، وحَصَّلتُ الحلقة فى رَزَّة هناك، وحَللْتُ الدابّة، وركبتُها.

فجاء الأعرابى، إلى باب الناووس، فرأى الموت عياناً، فقال : يا أبا القاسم، اتّق الله فى أمرى، فإننى أتلف.

فقلت : تتلف أنت، أهْوَن علىّ من أن أتلف أنا.

قال : فأخْرِجنى، وأنا أعطيك أماناً، واستَوْثِقْ منّى بالأيْمان، أن لا أعرِضَ لك بسوءٍ أبداً، واذكر الحُرْمة التى بيننا.

فقلت : لم تَرْعَهَا أنت، وأيْمانك فاجرة، لا أثق بها فى تلف نفسى.

فأخذ يكررّ الكلام، فقلتُ له: لا تَهْذِ، دع عنك هذا الكلام واقعد مكانَك، هُوَ ذَا أنا أركب دابّتك، وأجنّب حمارى، والوعد بعد أيّام بيننا هنا، فلا تبرح علىّ حتى أجىء، وإذا احتجتَ إلى طعام، فعليك بجيفَ العُلوج، فنِعْمَ الطعامُ لك.

---

(١) الناووس : القبر المبنى ظاهراً مثل "مقامات الأولياء" فى بلادنا.

وأخذتُ ألهو به في مثل هذا القول، وأخذ يبكي، ويستغيث، ويقول: قتلتني، والله.

فقلت: إلى لعنة الله، وركبت دابّته، وجنَّبْتُ حماري.

ووجدتُ على دابّته خُرْجاً فيه ثياب يسيرة، وجئتُ إلى نَصيبين، فبعتُ الثياب، وكانت دابّته شهباء، فصبغتها دهماء، وبعتها، لئلا يُعرَفَ صاحبُها فأطالبُ بالرجل، واتّفق أنه اشتراها رجل من المجتازين، وكُفيتُ أمرَه، وانكتمتُ القصّة.

فلمّا كان بعد أكثر من سنة، عرض لي الخروج إلى رأس عَيْن، فخرجتُ في تلك الطريق، فلمّا لاح لي الناووس، ذكرتُ الشيخَ.

فقلت : أعدل إلى الناووس، وأنظرُ ما صار إليه أمره، فجئتُ إليه، فإذا بابه كما تركتُه.

ففتحته، ودخلت، فإذا بالأعرابي قد صار رِمّة، فحَمَدْتُ الله تعالى على السلامة.

ثم حركته برجلي، وقلت له على سبيل العبث: ما خبُرك يا فلان؟ فإذا بصوت شيء يتخَشْخَش، ففتَشته، فإذا هِمْيان، فأخذته، وأخذت سيفه وخرجت، وفتحتُ الهِميان، فإذا فيه خمسمائة درهم، وبِعْتُ السيف بعد ذلك بجُملة دراهم.

❁❁❁

١٩- أيضاً .. سَيكُولُوجيَّةُ المُواجَهة

قال محمّد بن عَبْدوس فى كتاب "الوزراء" : حكى عن أبى عبدالله أحمد بن أبـى دُؤاد، أنّه قال :

ما صَحِبَ السلطانَ أرجلُ، ولا أخبثُ من عُمرَ بن فرج الرخّجـيّ، غضـب عليـه المعتصم يوماً وهمّ بقتله، وأمر بإحضاره، فجاءوا به وقد نَزَفَ دمُه.

فقال المعتصم : السيفَ، يا غلام، فجَعَلَتْ رُكْبَتَا عُمرَ تصطَكّان.

فقلت : إن رأى أميرُ المؤمنين أن يسألَه عن ذنبه، فلعله أن يخرج منه بعذر.

فقال له: يا ابنَ الفاعلة، أمرتُك فى ولد أبى طالب أن تتعرّفَ خبرَ منازلهم؟

قال : لا [1].

قال : فَلِمَ فَعلتَ ذلك؟

قـال عمـر : إنّمـا فعلـتُ ذلـك لأنـه بلغنـى عـن واحـد منهـم أن أهـل "قُـمْ" [2] يُكاتبونه، فأردتُ أن أعلمَ ما فى الكتب الواردةِ عليه.

وجعل عمر فى خلال ذلك يَلْمَس البِساط الذى كان تحت المعتصـم، فـزاد ذلـك فى غضبه.

وقال : يا ابنَ الفاعلة، ما شَـغَلَكَ مـا أنـتَ فيـه مـن لَمْـس البسـاط، كـأنَك غـيرُ مُكترث بما أريده بك؟

فقال : لا والله - يا أمير المؤمنين - ولكنّ العبد يُعْنَى من أمر سيده، بكلّ شىء، على جميع الأحوال، فإنّى استَخْشَنْت هذا البِساط، وليس هو من بُسُط الخلافة.

فقال له : ويُلك، هذا البِساط ذكَـرَ محمّـدُ بـن عبدالملـك أنّـه قـام علينـا بخمسـين ألفَ دِرهم.

فقال : يا سيّدى عندى خيرٌ منه قيمتهُ سبعمائة دينار.

---

(١) فقد "تطوع" بالتجسس على الطالبين (آل أبى طالب).

(٢) مدينة "قم" مركز الشيعة المقدس فى إيران.

قال : فذهب عن المعتصم -والله- ذلك الفَورُ الـذى كـان بـه، وسـكن غَضَبُـهُ. وقال : وَجِّه الساعةَ مَنْ يُحضره.

فجاء ببساط قد قام عليه -فيما أظنّ- بأكثر من خمسة آلاف دينـار، واستحسـنه المعتصم، واستلانه.

وقال : هـذا - واللهِ - أحسـنُ مـن بِسـاطنا، وأرخص، وقـد أخذنـاه منـك بمـا قام عليك.

وواللهِ ما بَرِحَ ذلك اليوم، حتى نادمه، وخَلَعَ عليه.

✿✿✿

٢٠- أجْوَد من ابن زائدة

حدّثني مَرْوان بن أبي حفصه، وكان لي صديقاً، قال :

كان المنصور قد طلب مَعْنَ بنَ زائدة الشيباني طلباً شديداً[1]، وجعل فيه مالاً.

فحدّثني مَعْن باليمن، أنه اضُطّر لشدّة الطلب أن قام في الشمس، حتى لوَّحتْ وجهَه، وخفّف من عارضيه ولحيته، ولبس جُبَّة صوف غليظة، وركب جملاً من جمال النقّالة، وخرج عليه ليمضيَ إلى البادية، وقد كان أبْلَى في الحرب بين يَدَيْ ابن هُبَيْرَةَ بلاءً حسناً، فغاظ المنصور، وجَدَّ في طلبه.

قال مَعْنٌ: فلمّا خرجْتُ من باب حَرْب، تَبِعَني أسودٌ، متقلّداً سيفاً، حتى إذا غبت عن الحرس، قبض على خِطام الجمل، فأناخه، وقبض عليّ. فقلت : مالك؟

فقال : أنت طِلْبَةُ أمير المؤمنين.

فقلت : ومَنْ أنا حتى يطلبَني أميرُ المؤمنين.

قال : أنت مَعْنُ بنُ زائدة.

فقلت : يا هذا اتق الله، وأين أنا من مَعْنِ بنِ زائدة.

فقال : دع عنك هذا، فأنا والله أعرَفُ بكَ منك.

فقلت له : فإن كانت القصّةُ كما تقول، فهذا جَوْهَرٌ حملتُه معي بأضعافِ ما بذل المنصورُ لمن جاء بي، فخذه، ولا تَسْفِك دمي.

فقال : هاتِهِ، فأخرجْتُه إليه.

فنظر إليه ساعةً، وقال : صدقْتَ في قيمته، ولستُ قابلَهُ حتى أسألك عن شيء، فإن صَدَقْتني أطلقتُك.

فقلت : قُلْ.

---

(١) الطلب هنا يعني المطاردة والتفتيش، والسبب أنه كان يقاتل في صفوف جيش الأمويين حين حدث الصدام العسكري مع بني العباس.

قال : إنّ الناس قد وصفوك بالجودِ، فأخبِرنى هل وَهَبْتَ قطُّ مالَكَ كلَّه؟

قلت : لا.

قال : فنصفَه؟

قلت : لا.

قال : فثلثَه؟

قلت : لا، حتى بلغ العُشْر.

فاستحييتُ، فقلت: أظنّ أنّى قد فعلتُ ذلك.

قال : ما أراك فعلتَه، وأنا والله رَاجِلٌ [1] ورزْقي مع أبى جعفر عشرون دِرهماً، وهذا الجوهر قيمته آلافُ دنانير، وقد وهبته لك، ووهبتُكَ لنفسك، ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أنّ في الدنيا أجودَ منك، فلا تعجبُكَ نفسُكَ، ولِتَحْقر بعدَها كلَّ شىء تعمله، ولا تتوقف عن مَكْرُمة، ثم رمى العِقد فى حجرى،وخلّى خِطام البعير، وانصرف.

فقلت له : يا هذا، قد والله فَضَحْتَنِي، وَلَسَفْكُ دمى أهْوَنُ علىَّ مما فعلتَه، فخذ ما دفعتُه إليك، فإنّى عنه غنى.

فضحك، وقال : أردتَ أن تكذّبنى فى مقالى هذا، والله لا أخذتُه، ولا آخذُ لمعروفٍ ثمناً أبداً، وتركنى ومضى.

فوالله لقد طلبتُه بعد أن أمِنْتُ، وضَمِنْتُ لمن جاءنى به ما شاء، فما عَرَفْتُ له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته.

✿✿✿

(١) راجل : أسير على قدميّ.

٢١- حذَس!!

حدّثني محمد بن عمر شُجاع المتكلّم، ويلقّب بجُنَيْد، قال : حدّثني رجل من الدقّاقين، في دار الزُّبَيْر بالبَصرة، قال :

أورد عليّ رجل غريب، سَفْتَجَةً بأجلٍ [١] ، فكان يتردّد عليَّ، إلى أن حلّ ميعاد السَّفْتجة.

ثم قال لي : دَعْها عندك حتى آخذَها متفرّقة، فكان يجيء في كلّ يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نَفِدَتْ، وصار بيننا معرفة، وألف الجلوس عندي، وكان يراني أخرِج من كيسي من صندوقٍ لي، فأعطيه منه.

فقال لي يوماً: إنّ قُفْلَ الرجلُ، صاحبُه في سَفَره، وأمينُه في حضره، وخليفتُه على حفْظ ماله، والذي ينفي الظِّنّة عن أهله وعياله، فإن لم يكن وثيقاً تطرّقت الحيَل عليه، وأرى قُفْلَك هذا، وثيقاً، فقل لي ممن ابتعتَه، لأبتاع مثله.

فقت : من فلان بن فلان الإقفاليّ، في جوار باب الصفّارين[٢].

قال : فما شعرتُ يوماً، وقد جئتُ إلى دكّاني، فطلبتُ صندوقي لأخرج منه شيئاً من الدراهم، فحمله الغلام إليّ، ففتحتُه، فاذا ليس فليه شيء من الدراهم.

فقلتُ لغلامي -وكان غير متّهم عندي- : هل أنكرتَ من الدِّرَّابات شيئاً؟

قال : لا.

فقلت : فتّشْ، هل ترى في الدكان نَقْباً؟

قال : لا.

فقلت : فمن السقف حيلة؟

قال : لا.

قلت : فاعلم أنّ الدراهم قد ذَهَبَتْ.

---

(١) السفتجة: إيصال تسليم مال، يقابله "الشيك" وكان هذا النظام معمولاً به، بين الأمصار والمدن الإسلامية في العصر العباسي، ويختص به وكلاء، منهم صاحب القصة، يقومون بعمل "البنوك".

(٢) الصفارين : من يُطلق عليهم في مصر "النحاسين".

فقلق الغلامُ، فسكّنْتُهُ، وقمت لا أدرى ما أصنع، وتأخر الرجل عنّـى فلمّـا غـاب اتّهمتُه، وذكرتُ مسألته عن القُفل.

فقلت للغلام : أخبرنى كيف تفتح دكَانى وتُغْلِقُه؟

قال : رسمى أن أدرّب دَرابتْين درابتين، والدَّرَّابات [1] فى المسـجد، فأحملهـا فـى دفعات، اثنتين أو ثلاثاً، فأشرجها، ثم أقفل، وكذلك عندما أفتحها.

فقلت : البارحة، واليوم، فعلتَ ذلك؟

قال : نعم.

فقلت : فإذا مضيْتَ لترّدَّ الدَّرَّابات، أو تحضَرها، على مَنْ تَدَعُ الدكان؟

قال : خالياً.

قلت : فمن هنا دُهيتُ.

ومضيتُ إلى الصانع الذى ابتعـتُ منـه القُفـل، فقلـت: جـاءك إنسـان منـذ أيـام، واشترى منك مثلَ هذا القُفل؟

قال : نعم، رجل من صفته كيت وكيت، فأعطانى صفّة صاحبى.

فعلمتُ أنّه احتال على الغلام وقت المساء، لما انصرفتُ أنا، ومضى الغـلام يحمـل الدَّرَّابات، فدخل هو إلى الدكان فاختبأ فيه، ومعه مفتاح القُفل الذى اشتراه، والذى يقع على قُفلى، وأنّه أخذ الدراهم، وجلس طول ليلتـه خلـف الدَّرَّابـات. فلمـا جـاء الغـلام، وفتح دَرّابَتين، وحملها ليرفعَها، خرج، وأنّه ما فعل ذلك، إلاّ وقد خرج إلى بغداد.

فسلّمتُ دكانى إلى الغلام، وقلـت لـه: مَـنْ سـأل عنّى فعرّفْـه أنّـى خرجـتُ إلى ضيْعتى.

قال : فخرجتُ، ومعى قُفْلى ومفتاحُه، وقلت: أبتدىء بطلب الرجل بوَاسِطَ.

(١) البوابات.

فلمّا صعدت من السَّميريّة [1] ، طلبتُ خاناً في الكتّبيين بواسط، لأنزلَه، فأرشدْت إليه، فصعِدْتُ، فإذا بقُفْلٍ مثل قُفلي سواءً على بيت [2] .

فقلت لقيّم الخان : هذا البيت مَن ينزله؟

فقال : رجلٌ قَدم من البَصرة أمس.

فقلت : أيُّ شيء صفته؟

فوصف لي صفةَ صاحبي، فلم أشكّ أنّه هو، وأنّ الدراهم في بيته.

فاكْتَرَيْتُ بيتاً إلى جانبه، ورصدتُ البيت، حتى انصرف قيّمُ الخان، وقمتُ ففتحتُ القُفل بمفتاحي، فحين دخلتُ البيت، وجدْتُ كيسي بعينه، فأخذْتُه، وخرجتُ وأقفلتُ، ونزلتُ في الوقت إلى السفينة التي جئتُ فيها، وأرْغَبْتُ الملاّحَ، وانحدرتُ إلى البَصرة.

فما أقمتُ بواسطَ إلاّ ساعتين من نهار، ورجعتُ إلى منزلي بمالي بعينِهِ.

✿✿✿

(١) السمرية : نوع من سفن السفر تصلح للمسافات القصيرة.
(٢) البيت هنا : الغرفة.

القصص الاجتماعية

١ – دَيْنٌ قديمٌ

بلغنى أنّه كان بالكوفة رجلٌ من أهل الأدب والظَرف، يعاشر النّاس، وتأتيه ألطافهم[1]، فيعيشُ بها.

ثمّ انقلت الدّهر عليه، فأمسك النّاس عنه، وجَفَوْهُ حتّى قعد فى بيته، والتجأ إلى عياله، فشاركهنّ فى فضل مغازلهنّ، واستمر ذلك عليه حتّى نسيَهُ النّاس، ولَزِمَهُ الفقر.

قال الرجل: فبينما أنا ذات ليلة فى منزلى، على أسْوَإِ حالٍ، إذا وَقْعُ حافرِ دابّة، ورجل يدقّ بابى، فكلّمته من وراء البابِ.

فقلت : ما حاجتك؟

فقال : إنّ أخاً لك لا أسمّيه، يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إنّى رجل مُستتر، ولستُ آنسُ بكلّ أحد، فإن رأيت أن تصيرإلىّ، لنتحدث ليلتنا. فقلتُ فى نفسى: لعلّ جَدّى [2] أن يكون قد تحرّك؟ ثم لم أجد لى ما ألبسه، فاشتمْلتُ بإزار امرأتى[3]، وخرجتُ، فقدّم إلىّ فرساً مجنوباً كان معه، فركبته. إلى أن أدخلنى إلى فتى من أجل النَاس وأجملهم وجهاً، فقام إلىّ، وعانقنى، ودعا بطعام فأكلْنا، وبشراب فشرْبنا، وأخذنا فى الحديث، فما خُضْتُ فى شىء إلاّ سبقنى إليه.

حتّى إذا صار وقت السَّحَر، قال : إن رأيتَ أن لا تسألنى عن شىء من أمرى، وتجعلَ هذه الزيارة بينى وبينك، إذا أرسلتُ إليك، فعلتَ، وههنا دراهم تقبلُها، ولا تردّها، ولا يضيقُ بعدَها عنك شىء، فنهضتُ، فأخرج إلىّ جراباً مملوءاً دراهم.

فداخلتْنى، أرْيَحِيَّةُ الشراب، فقلت : اخترتنى على النّاس للمُنادمة، ولِسِرِّك، وآخذُ على ذلك أجراً؟ لا حاجةَ لى فى المال.

---

(١) الألطاف : الهدايا.

(٢) جدّى: حظى.

(٣) اشتمل : تلفع.

فجهَدَ بي، فلم آخذْه، وقدّمَ إليّ الفَرَس، فركبتُه، وعدتُ إلى منزلي، وعيالي متطلّعون لما أجيء به، فأخبرتهم بخبري.

وأصبحتُ نادماً على فِعلي، وقد ورد عليّ وعلى عيالي ما لم يكن في حسابنا.

فمكثتُ حيناً، لا يأتي إليّ رسول الرّجل، إلى أن جاءني بعد مدّة، فصرتُ إليه، فَعَاوَدني بمثل ذلك الفعل، فعاودته بالامتناع، وانصرفتُ مخفقاً، فاقبلَتْ امرأتي عليّ باللوم والتوبيخ.

فقلت لها : أنتِ طالقٌ ثلاثاً إن عاوَدَني و لم آخذْ ما يعطيني.

فمكثتُ مدّة أطول من الأوّلة [1] ، ثمّ جاءني رسوله، فلمّا أردتُ الركوب، قالت لي امرأتي: يا مَيْشوم اذكر يمينَك، وبكاء بناتك، وسوءَ حالك.

فصرتُ إلى الرّجل، فلمّا أفضينا إلى الشُّرْب، قلتُ له: إنّي أحد عِلّة تمنعني منه، وإنّما أردتُ أن يكون رأيي معي.

فأقبل الرّجل يشرب، وأنا أحادثه، إلى أن انْبَلَجَ الفجر، فأخرَجَ الجراب وعاودني، فأخذتُه، فقبّل رأسي، وشكرني على قَبول برِّهِ، وقدم إليّ الفرسَ، فانصرفتُ عليه، حتّى انتهيتُ إلى منزلي، فألقيتُ الجراب.

فلمّا رآه عيالي، سجدت للهِ شكراً، وفتحناه فإذا هو مملوء دنانيرَ.

فأصلحت منه حالي، واشتريتُ مركوباً[2]، وثياباً حسنة، وأثاثاً، وضيْعةً قدّرت أنّ غلّتها تفي بي، وبعيالي بعدي، واستَظْهَرْتُ على زماني ببقية الدنانير.

وانثال النّاس عليّ، يُظهرون السرور بما تجدّد لي، وظنّوا أنّي كنتُ غائباً في انتجاع مَلِك [3] ، فقدمِتُ مُثْرياً، وانقطع رُسُلُ الرّجل عنّي.

فبينما أنا أسيرُ يوماً بالقرب من منزلي، فإذا ضوضاءُ عظيمة، وجماعة مجتمعة.

فقلت: ما هذا؟

قالوا : رجلٌ من بني فلان، كان يقطع الطريقَ، فَطَلَبَهُ السلطان، إلى أن عُرِفَ خبرُه ههنا، فهُجِمَ عليه، وقد خرج على النَاس بالسّيف، يمنع [4] نفسه.

---

(١) الأولة : الأولى - بلهجة العراق والخليج، وفي مصر : الأولانية.

(٢) المركوب هنا : ما يركب من الدواب.

(٣) الانتجاع : الرعي، والمعنى المقصود هنا : قصدت أميراً فأعطاني.

(٤) يمنع نفسه : يدافع عن نفسه.

فَقَرُبتُ من الجمع، وتأمّلتُ الرّجلَ، فإذ هو صاحبي بعينه، وهو يقاتل العامة، والشُّرَط، ويكشِفُ النّاس، فيبعُدون عنه، ثمّ يتكاثرون عليه ويضايقونه.

فنزلتُ عن فرسي، وأقبلتُ أقوده، حتّى دَنَوْتُ منه، وقد انكشف الناسُ عنه.

فقلت : بأبي أنتَ وأمي، شأنك والفرسَ، والنجاةَ، فأستوى على ظهره، فلم يُلْحَق.

فقبض عليّ الشُّرَط، وأقبلوا عليّ، يلهزوني[1]، ويشتموني، حتّى جاءوا بي إلى عيسى بن موسى، وهو والي الكوفة، وكان بي عارفاً.

فقالوا: أيّها الأمير، كدنا أن نأخذَ الرّجل، فجاء هذا، فأعطاه فرساً نجا عليه.

فاشتدّ غضب عيسى بن موسى، وكاد أن يُوقِع بي، وأنا منكر لذلك.

فلمّا رأيتُ المصدوقة[2] ، قلت : أيّها الأمير، أدنني إليك، أصدقك.

فاستدناني، فشرحتُ له ما كان أفضَتْ بي الحال إليه، وما عاملني به الرّجل، وأنّي كافأته بجميل فعله.

فقال لي سراً : أحسنتَ، لا بأس عليك.

ثمّ التفت إلى النّاس فقال : يا حمقى، هذا يُتّهم؟ إنّما لَفِظَ حافرُ فرسه حصاة، فقاده ليريحَه، فغشيه رجل مستقتل، بسيفٍ ماض، قد نكَلتم [3] عنه. بأجمعكم، فكيف كان هو يدفعه عن فرسه؟ انصرفوا، ثمّ خلّى سبيلي.

فانصرفتُ إلى منزلي، وقد قضيْتُ ذمام الفتى، وحَصَلَتْ النعمة بعد الشدّة، وأمِنْتُ عواقبَ الحال، وكان آخرَ عهدي به.

✿✿✿

---

(١) اللهز : الضرب بالكف على الرقبة.

(٢) المصدوقة : العصا التي يؤدب بها الأمير مَن يعاقبه، أطلق عليها هذا الاسم.

(٣) نَكَل : تراجع وامتنع.

٢- ضَياع!!

كان يصحُبنا على القرآن، رجلٌ مستور صالح، يُكْنَى أبا أحمد، وكان يكتب كتب العَطْف [١] للناس، فحدّثني يوماً قال :

بقيتُ يوماً بلا شيء، وأنا جالس فى دكّاني، وقد دعوتُ الله أن يسهّل قُوتِي، فما استتممت الدعاء، حتى فَتَحَ باب دكّاني غلامٌ أمرد، حسنُ الوجه جداً، فسلّم عليّ وجلس.

فقلتُ له : ما حاجتُك؟

فقال : أنا عبد مملوك، وقد طردني مولاى، وغَضبَ عليّ، وقال : انصرف عنّي إلى حيثُ شئتَ، وما أعددتُ لنفسى مَن أطرحُها عليه فى مثل هذا الوقت، ولا أعرفُ مَن أقصده، وقد بقيتُ متحيراً فى أمرى، وقيل لى إنّك تكتب كتب العطف، فاكتب لى كتاباً.

فكتبْتُ له الكتابَ الذى كنت أكتبه، وهو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾... إلى آخر السورة[٢] والمعوّذتين، وسورة الإخلاص، وآية الكرسى، و﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣] إلى آخر السورة، وكتبتُ آيات العطف وهى ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.... إلى آخر الآية [٤] ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.... إلى آخر الآية[٥] ، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ ... إلى آخر الآية[٦].

---

(١) كتب العطف : أحجبة لجلب المحبة أو استدامتها.
(٢) الفاتحة : ١-٢.
(٣) الحشر : ٢١.
(٤) الأنفال : ٦٣.
(٥) الروم : ٢١.
(٦) آل عمران: ١٠٣.

وقلتُ له: خذ هذه الرُّقعة، فشدَّها على عَضُدك الأيمن، ولا تعلّقْها عليك إلا وأنت طاهر.

فأخذها وقام وهو يبكى، وطرح بين يدىَّ ديناراً عَيْناً، فداخلتنى له رحمةً، فصلّيْتُ ركعتين، ودعوْتُ له أن ينفعَه الله بالكتاب، ويردّ قلب مولاه، وجلست.

فما مَضَتْ إلاّ ساعتان، وإذا بأبى الجُود، (خليفة عجيب)، غلام نَازُوك[1]، وكان خليفتَه على الشُّرطة، قد جاءنى، فقال لى : أجب الأمير نَازُوك، فَارْتَعْتُ.

فقال : لا بأس عليك، وأرْكَبَنِى بغلاً، وجاء بى إلى دار نَازُوك، فتركنى فى الدهاليز ودخل.

فلما كان بعد ساعة، أدخلْتُ، فإذا نازوك جالس فى دِسْت عظيم، وبين يديه الغِلمان قياماً سِمَاطيْن، نحو ثلثمائة غلام وأكثر، وكاتبه الحسين جالس بين يديه، ورجل آخر لا أعرفه.

فارتَعْتُ، وأهْوَيْت لأقبّل الأرض، فقال : مَهْ، عافاكَ الله، لا تفعل، هذا من سَنن الجبَارين، وما نريد نحن هذا، اجلس يا شيخ، ولا تَخَفْ، فجلست.

فقال لى : جاءك اليوم غلام أمردُ، فكتبتَ له كتاباً للعطف؟

قلت : نعم.

قال اصدُقْنِى عمّا جرى بينكما، حرفاً، حرفاً.

فأعدته عليه، حتّى لم أدَعْ كلمة، وتلوْتُ عليه الآيات التى كتبتها.

فلمّا بلغتُ إلى قول الغلام: أنا عبدٌ مملوك، وما أعددتُ لنفسى مَن أقصدُه فى هذه الحال، ولا أعرف أحداً ألجأ إليه، وقد طردنى مولاى، بكَيْتُ لما تداخلنى من رحمة له، وأرْيتُه الدينارَ الذى أعطانيه، فَدَمَعَتْ عينا نازوك وتجلّد، واستوْفىَ الحديث.

وقال : قُمْ يا شيخ، بارك الله عليك، ومهما عَرَضَتْ لك من حاجةٍ، أو لجارٍ لك، أو صديق، فسلنا إيّاها، فإنّا نقضيها، وأكثِر عندنا وانبسْطِ فى هذه الدار، فإنّكَ غيرُ محجوب عنها، فدعوتُ له وخرجت.

---

(١) نازوك : قائد تركى وصاحب شرطة بغداد، وعجيب غلام نازوك، من أتباعه، ويدير الشُّرطة نيابة عنه، أما أبو الجود (الثالث فى سلسلة قيادات الشرطة) فهو تابع لعجيب.

فلما صرْتُ خارج باب المجلس، إذا بغلامٍ قد أعطاني قِرطاساً فيه ثلثمائة درهم، فأخذتُه وخرجت.

فلمّا صرتُ في الدهليز، إذا بالفتى، فعدل بي إلى موضعٍ وأجلسني.

فقلت : ما خَبَرُك؟

فقال : أنا غلامُ الأمير، وكان قد طردني، وغَضِبَ عليّ، فلمّا أن جئتُك، واحتُبِسْتُ عندَك، طلبني، فرجعتُ مع رُسُلِهِ.

فقال لي : أين كنت؟

فَصَدَقْتُه الحديث، فلم يُصَدِّقْني، وأمر بإحضارك، فلمّا اتّفقنا في الحديث، وخرجتَ الساعة، أحضرني وقال : يا بنيّ، أنت الساعة من أجلِّ غلماني عندي، وأمكَنِهم من قلبي، وأخصهم بي، إذ كنتَ لَمّا غضبتُ عليك ما غيّرك ذلك عن محبّتي، والرغبة في خدمتي، وطلبِ الحِيَلِ في الرجوع إليّ، وانكشف لي أنّك ما أعددت لنفسك -بعد الله- سِوَايَ، ولا عرفتَ وجهاً تلجأ إليه في الدّنيا غيري، فما ترى بعد هذا إلاّ كل ما تحبّ، وسأعْلِي منزلتك، وأبلغ بك أعلى مراتب نُظَرائِكَ، ولعلَ الله سبحانه استجابَ فيك دعاء هذا الرجل الصالح، ونفعك بالآيات، فبأي شيء كافأت الرجل؟

فقلت : ما أعطيته غير ذلك الدينار.

فقال : سبحان الله، قم إلى الخزانة، فخذ منها ما تريد، وأعْطِهِ.

فأخذتُ منها هذا القرطاس، جئتك به، فخذه، وأعطاني أيضاً خمسمائة درهم، وقال لي : الزَمْني، فإني أحسنُ إليك.

فجئته بعد مُدَيْدَة، فإذا هو قائد جليل، وقد بلغ به نازوك تلك المنزلة، فوصلني بصِلَةٍ جليلة، وصار لي عُدّةً على الدهر وذخيرة.

✿✿✿

٣- ظالمٌ قَصَمَهُ الله

حدّثني محمّد بن محمد المُهندس، قال : حدّثني أبو مَرْوان الجامدي، قال:

ظلمني أحمدُ بن علي بن سعيد الكوفي، وهو يتقلّد وَاسِطَ لناصرِ الدولـة[1]، وقد تقلّد إمْرَةَ الأمراء ببغداد، وكنتُ أحدَ مَن ظَلَم، فظلمني، وأخذَ من ضيعتي بالجامدة نَيِّفاً وأربعين كُرّاً أرزاً، بالنصف من حقّ الرَّقَبة، بغير تأويل ولا شُبهة، سوى ما أخذه بحقّ بيت المال، وظَلَم فيه أيضاً، فتظلّمتُ إليه، وكلّمته، فلم ينفعني معه شيء، وكان الكُر الأرز بالنصف -إذ ذاك- بثلاثين ديناراً.

فقلت له : قد أخَذَ مني سيّدي ما أخذ، ووالله، ما أهتدي أنا وعيالي، إلى ما سوى ذلك، وما لي ما أقوتُهُم به باقي سنتي، ولا ما أعَمِّرُ به ضيْعَتي، وقد طابت نفسي أن تُطلِقَ لي ما جملته عَشرة أكرار، وجعلتُك من الباقي في حِلّ.

فقال : ما إلى هذا سبيل.

فقلت : فخمسة أكْرار.

فقال : لا أفعل.

فبكيْتُ، وقبّلتُ يدَه، ورقّقتُه، وقلت: هَبْ لي ثلاثةَ أكرار، وتصدّقْ عليَّ بها، وأنت من الجميع في حِلّ.

فقال : لا والله، ولا أرزة واحدة.

فتحيّرت، وقلت: فإني أتظَلّمُ منك إلى الله تعالى.

فقال لي : كُنْ على الظَّلامِة، (يكرّرها دفعات، ويكسر الميم، بلسان أهل الكوفة).

فانصرفت منكسرَ القلب، مُنقطع الرجاء، فجمعت عيالي، وما زلنا ندعو عليه لياليَ كثيرة، فهرب من واسط في اللّيلة الحادية عشرة من أخذه الأرز، فجئتُ إلى البَيْدَر، والأرز مطروح، فأخذتُه، وحملتُه إلى منزلي وما عاد الكوفي بعدها إلى واسط، ولا أفلح.

❁❁❁

---

(١) ناصر الدولة البُويهي، سيطر على منطقة واسط العراقية، وهي فوق البصرة في الاتجاه شمالاً نحو بغداد.

٤ - قاطعُ طريقٍ مُثَقَّف

وحدّثنى عبدُالله بن عمر بن الحارث الواسطى السَّرَّاج، المعروف بأبى أحمد الحارثىّ، قال:

كنتُ مسافراً فى بعض الجبال، فخرج علينا ابنُ سَباب الكُردىّ، فقطع علينا، وكان بزىِّ الأمراء، لا بزىّ القُطّاع.

فقرُبْتُ منه لأنظرَ إليه وأسمعَ كلامَه، فوجدته يدلُّ على فَهْمٍ وأدب فداخَلْته فإذا برجلٍ فاضل، يروى الشعر، ويفهم النحو، فطمِعْتُ فيه، وعمِلْتُ فى الحال أبياتاً مدحته بها.

فقال لى : لستُ أعلم إن كان هذا من شِعرك، ولكن اعمل لى على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة، لأعلم أنّك قلته، وأنْشَدَنى بيتاً.

قال : فعملتُ فى الحال إجازة له ثلاثةَ أبيات.

فقال لى : أىُّ شىء أخِذَ منك؟ لأردَّه إليك.

قال : فذكرتُ له ما أخِذَ منّى، وأضفتُ إليه قماشَ رفيقين كانا لى

فردّ جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجّار التى نهبها، كيساً فيه ألفُ دِرهم، فوهبه لى.

قال فَجَزَيْتُهُ خيراً، ورددتُه عليه.

فقال لى : لِمَ لا تأخذه؟ فَوَرَّيت[1] عن ذلك.

فقال: أحبّ أن تَصْدُقَنى.

فقلت : وأنا آمن؟

فقال : أنت آمن.

فقلت : لأنك لا تملكُه، وهو من أموال الناس الذين أخذتَها منهم الساعة ظُلماً، فكيف يحلّ لى أن آخذَه؟

---

(١) التورية : الإشارة إلى المقصود بطريق غير مباشرة.

فقال لى : أما قرأتَ ما ذكره الجاحظ فى كتاب اللصوص، عن بعضهم، قال : إنّ هؤلاء التجّار خانوا أمانتهم، ومنعوا زكاةَ أموالهم، فصارت أموالُهم مُستهلكةً [1] بها، واللصوص فقراء إليها، فإن أخذوا أموالهم -وإن كرِهوا أخذها- كان ذلك مباحاً لهم، لأنّ عَيْن المال مستهلكة بالزكاة، وهؤلاء يستحقون أخذ الزكاة، بالفقر، شاءَ أربابُ الأموال أم كَرِهُوا.

قلت : بلى، قد ذكر الجاحظ هذا، ولكن من أين يعلم أن هؤلاء ممن استَهْلَكَتْ أموالهم الزكاة؟

فقال : لا عليك، أنا أحضر هؤلاء التجّار الساعة، وأرِيكَ بالدليل الصحيح أنّ أموالَهم لنا حلال[2].

ثم قال لأصحابه: هاتوا التجّار، فجاءوا.

فقال لأحدهم : منذ كم أنتَ تتّاجر فى هذا المال الذى قَطَعْنا عليه؟

قال : منذ كذا وكذا سنة.

قال فكيف كنتَ تُخرِج زكاتَه؟ فتَلَجْلَجَ، وتكلم بكلامِ مَنْ لا يَعرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يُخْرِجَها.

ثم دعا آخر، فقال له: إذا كان معك ثلثمائةُ درهم، وعشرةُ دنانير، وحَالَتْ عليك السنة، فكم تُخرِج منها للزكاة؟ فما أحسنَ أن يُجيب.

ثم قال لآخر : إذا كان معك متاعٌ للتجارة، ولك دَيْن على نفسيْن، أحدهما مَلىء، والآخر مُعْسر، ومعك دراهم، وقد حال الحَوْل على الجميع، كيف تُخرج زكاة ذلك؟

قال : فما فَهِمَ السؤال، فضلاً عن أن يتعاطى الجواب.

---

(١) هذا الرأى يقوم على أساس أن الزكاة مستحقة فى المال الذى يبلغ النصاب على رأس كل سنة. فإذا أهمل المالك إخراج زكاة ماله عدداً من السنين، أدى هذا -على الرأى السابق- إلى اعتبار المال كله مستحقاً للزكاة.

(٢) هنا مغالطة واضحة، وحتى لو كان المال الذى لم تُخرج زكاته يُقاس إلى المال المسروق، فإن سرقة المسروق ليست مباحة.

فصرفهم، ثم قال لى : بَانَ لك صِدْقُ حكايـة أبـى عثمـان الجـاحظ؟ وأنّ هـؤلاء التجار ما زكّوا قَط؟ خذ الآن الكيس.

قال : فأخذُته، وساق القافلةَ لينصرفَ بها.

فقلت : إن رأيتَ أيّها الأمير أن تُنفِذَ معنا من يُبلغُنا المأمن، كان لك الفضلُ.

ففعل ذلك.

✿✿✿

٥- نِقَابَةُ اللّصوص

غلام لى قال :

كنتُ ناقداً بالأُبُلَّة[1] ، لرجل تاجر، فاقتضيْتُ له فى البصرة نحو خمسمائة دينار عَيْناً وَوَرِقاً[2]، ولففتها فى فُوطَةٍ، وأشفيتُ على المصير إلى الأُبُلَّة.

فما زلتُ أطلب ملاحاً، حتى رأيت مجتازاً فى خَيْطية [3] خفيفة فارغة، فسألتُه أن يحملنى، فسهَّل علىَّ الأجرة، وقال: أنا راجع إلى منزلى بالأبلَّة، فانزل معى، فنزلتُ، وجعلتُ الفوطةَ بين يدىَّ.

وسرنا إلى أن تجاوزنا مسماران [4] ، فإذا رجل ضريرٌ على الشطِّ يقرأ أحسنَ قراءةٍ تكون.

فلمّا رآه الملاح كبَّر، فصاح هو بالملاح: احمِلْنى، فقد جنَّنى الليلُ، وأخاف على نفسى، فشتمه الملاح.

فقلت له : احمِلْه، فدخل إلى الشطَّ فحمله، فلمَّا حَصَلَ معنا رجع إلى قراءته، فَخَلَبَ عقلى بطيبها.

فلمّا قرُبنا من الأبلّة، قطع القراءة، وقام ليخرجَ فى بعض المَشَارع فى الأُبلَّة، فلم أر الفوطة، فقمتُ واقفاً، واضطرْبتُ، وصِحْتُ.

فاستغاثَ المَلاح، وقال الساعةَ تَقْلِبُ الخَيْطِيَّة، وخاطبنى خطابَ مَنْ لا يعلم حالى.

فقلتُ له : يا هذا، كانت بين يدىَّ فوطةٌ فيها خمسمائة دينار.

فما سمع الملاح ذلك، بكى، ولطم، وتعرَّى من ثيابه، وقال أدخُلُ الشطَّ ففتّش، ولا لى موضعٌ أخّبىء فيه شيئاً فتتّهمنى بسرقته، ولى أطفال، وأنا ضعيف، فالله الله فى أمرى، وفَعَلَ الضريرُ مثل ذلك.

---

(١) الأبلة : بلد قرب البصرة على شاطىء دجلة، والناقد هو الجابى أو محصل الأموال.

(٢) العَيْن : الذهب، والوَرِق (بكسر الراء) : الفضة.. ويعنى الدنانير والدراهم.

(٣) الخيطية : نوع من الزوارق الخفيفة.

(٤) اسم ضاحية قريبة من البصرة.

وفتشتُ الخَيْطيّة فلم أجدْ شيئاً، فرحمتُهُما، وقلت: هذه محنة لا أدرى كيف التخلص منها، وخرْجنا، فعمِلتُ على الهرب. وأخذ كلّ واحد منّا طريقاً، وبتُّ فى بيتى، و لم أمْضِ إلى صاحبى، وأنا بليلة عظيمة.

فلما أصبحتُ، عملتُ على الهرب إلى البَصرة، لأستخفِيَ فيها أيّاماً، ثم أخرجَ إلى بلد شاسع.

فانحدرت، فخرجتُ فى مُشْرَعة بالبصرة، وأنا أمشى وأتعثر وأبكى قَلقاً على فراق أهلى وولدى، وذَهاب معيشتى وجاهى، إذ اعترضَنى رجل. فقال : يا هذا، ما بكَ؟

فقلت : أنا فى شُغْل عنك، فاستحَلفنى، فأخبرتُهُ.

فقال : امْضِ إلى السجن ببنى نُمَيْر، واشترِ معك خبزاً كثيراً، وشِواءً جيّداً، وحلوى، وسل السجّانَ أن يوصِلَك إلى رجل محبوس، يقال لَه: أبوبكر النقّاش، وقل له : أنا زائره، فإنّك لا تُمنع، وإن مُنِعتَ، فهبْ للسجّان شيئاً يسيراً فإنّه يُدخلك إليه، فإذا رأيته فسلم عليه ولا تخاطبْه حتى تجعلَ بين يديه ما معك، فإن أكل وغسل يديه، فإنه يسألُك عن حاجتك، فأخبرْه خبَرك، فإنّه سيدلك على مَنْ أخذ مالك، ويرتجعُهُ لك.

ففعلتُ ذلك، ووصلتُ إلى الرجل، فإذا هو شيخٌ مثقَل بالحديد.

فسلّمتُ عليه، وطرحْتُ ما معى بين يديه، فدعا رفقاءَ كانوا معه، فأقبلوا يأكلون معه، فلمّا استوفى وغسل يديه. قال: مَنْ أنت، وما جاء بك، فشرحتُ له قِصّتى.

فقال : امْضِ الساعة لوقتك – ولا تتأخر– إلى بنى هلال، فاقصِد الدربَ الفلانى حتى تنتهى إلى آخره، فإنك تشاهد باباً شَعِثاً[1]، فافتحه وادخل بلا استئذان، فستجد دِهليزاً طويلاً يؤدّى إلى بابين، فأدخل الأيمن منهما، فسيدخلك إلى دار فيها بيت فيه أوتاد وَبوَارِى، وعلى كلّ وَتَدِ إزار ومئزر، فانزع ثيابك، وعلّقها على الوَتَدِ، واتّزر بالمئزر واتّشح بالإزار، واجلس، فسيجىء قوم يفعلون كما فعلتَ، على أن يتكاملوا، ثم يؤتون بطعام فَكُلْ معهم، وتعمّد أن تفعل كما يفعلون فى كلّ شىء.

(١) الشعث: غير المنسق أو المنتظم.

فإذا أتوا بالنبيذ فاشرب معهم أقداحاً يسيرة، ثم خذ قدحاً كبيراً، فاملأه، وقم، وقل : هذا سَارى [1] لخالى أبى بكر النقّاش، فسيضحكون ويفرحون، ويقولون: هو خالُك؟ فقل: نعم، فسيقومون ويشربون لى فإذا تكامل شربهم لى، وجلسوا، فقل لهم: خالى يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: بحياتى يا فتيان، رُدُّوا على ابن أختى المِئْزَرَ الذى أخذتموه أمسِ من السفينة بنهر الأُبُلّة، فإنهم يردّونه عليك.

فخرجتُ من عنده، ففعلتُ ما قال لى، وجرت الصورة، على ما ذكر، سَوَاءً، ورُدَّت الفوطة علىَّ بعينها، وما حُلَّ شدّها.[2]

فلما حصلَتْ لى، قلتُ: يا فتيان، هذا الذى فعلتموه هو قضاء لحقّ خالى، وأنا لى حاجة تخصّنى.

فقالوا: مقضيّة.

فقلت: عرّفونى كيف أخذتم الفوطة؟ فامتنعوا، فأقسمتُ عليهم بحياة أبى بكر النقّاش.

فقال لى واحد منهم: تعرفُنى؟ فتأمّلتُه، فإذا هو الضرير الذى كان يقرأ. وإنّما كان يَتَعَامَى حيلةً ومكراً.

وأومأ إلى آخر، وقال: أتعرف هذا؟ فتأملته، فإذا هو الملاّح بعينه.

فقلت: أخبرانى كيف فعلكما؟

فقال الملاّح: أنا أدور فى المشارع[3] فى أوّل أوقات المساء، وقد سبَّقْتُ المتعامى فأجلستُه حيث رأيت، فإذا رأيتُ مَن معه شيء له قدر، ناديته وأرخصتُ عليه الأجرةَ وحملته، فإذا بلغ إلى القارىء، وصاح بى، شتمته، حتى لا يشكَّ الراكب فى براءة الساحة، فإن حمله الراكب فذاك، وإن لم يحمله رقّقته حتى يحمله، فإذا حمله، وجلس هذا يقرأ قراءتَه الطيّبةَ، ذَهِلَ الرجل كما ذَهِلْتَ أنت، فإذا بلغنا إلى موضع نكون قد

---

(١) هذا كما يقال الآن : هذا نخب فلان ، أو نشرب على شرف فلان!! وقرأت فى بعض المصادر أن هذه العبارة تحريف والأصل : "سرورى.

(٢) أى أن صرة النقود كانت لاتزال مربوطة على حالها، وهذا يعنى أن اللص لا يفتح ما جمع إلاّ فى هذا المجلس العام؟

(٣) المشرعة: ما نطلق عليه الموردة.

خلّينا فيه رجلاً متوقعاً لنا، يسبح حتى يلاصقَ السفينة، وعلى رأسه قوْصَرة [1] ، فلا يفطِن الراكب، فيستلب هذا الرجل المتعامى -بخفّة- الشيء الذى قد عينَا عليه، فيلقيه إلى الرجل الذى عليه القَوْصَرة، فيأخذها ويسبح إلى الشطّ، فإذا أراد الراكبُ النزول، وافتقد ما معه، عملنا كما رأيت فلا يتّهمنا، ونتفرّق، فإذا كان الغد، اجتمعنا واقتسمنا ما أخذناه، واليوم كان يومَ القسمة، فلما جئتَ برسالة خالك أستاذنا، سلّمنا إليك الفوطة.

قال : فأخذتُها، وانصرفت.

✿✿✿

(١) القوصرة : ما يشبه الزنبيل أو المقطف.

٦- سَيْكُولُوجِيَّة الرِّشْوَة

ورد علينا في وقت من الأوقات، بعض العمّال[١] متقلداً للأهواز، من قِبَلِ السلطان، فتتبع رسومَنا[٢]، ورَامَ نقضَ شئ منها.

فكنتُ أنا وجماعة من التُّناء[٣] في المطالبة، وكان فيها ذَهاب غلاّتنا في تلك السنة، لو تمّ علينا، وذَهاب أكثر قيمة ضياعنا.

فقال لي الجماعة: ليس لنا غيرُك، تخلو به، وتبذل له مِرْفَقاً[٤]، وتكفيناه.

فجئتُه، وخلوتُ به، وبذلتُ له مرْفَقاً جليلاً، فلم يقبْله، ودخلتُ عليه بالكلام من غير وجه[٥]، فما لاَنَ، ولا أجابَ.

فلمّا يئستُ منه، وكدتُ أن أقوم، قلتُ له: يا هذا الرّجل، أنت مقيمٌ من هذا الأمر على خطأ شديد، لأنك تظلمنا، وتُزيل رسومَنا، مسن حيث لا يَحْمَدُك السلطان، ولا تنتفع أنت أيضاً بذلك.

ومع هذا فأخبرني، هل تأمن أن تكون قد صُرِفْتَ[٦]، وكتاب صَرْفِكَ في الطّريق، يَردُ عليك بعد يومين أو ثلاثة، فتكون قد أهلكتنا، وأثِمْتَ في أمورنا، وفاتك هذا المِرْفَقُ الجليل، ولعلّنا نحن نُكْفَى، ويجئُ غيرُكَ، فلا يطالبنا، أو يطالبنا فنبذل له نحن هذا المِرْفق، فيقبله، ويكون الضرر يدخلُ عليك؟

فحين سمع هذا وافق، وكأنّه قد علِم من أمره ضعفاً ببغداد، وتلوّناً، وأنّي قد أحسستُ بانحلال أمره، وأنّ لي ببغداد مَن يكاتبني بالأخبار.

فأخذ يخاطبني مخاطبةَ مِن أين وقع إليّ هذا، فقوّيتُهُ في نفسه، فأجاب إلى أخذ المِرْفَق، وإزالة المطالبة.

---

(١) العمّال: كبار الموظفين (عكس الآن) من الحكام والمديرين.

(٢) الرسوم: الأمور المتفق عليها، والحقوق المكتسبة.

(٣) التناء: الملاّك والأثرياء. وهذا يعني انه حين تشدد العامل في نقض بعض الإعفاءات، قرر كبار الملاك رشوته ليبقى الأمر على ماهو عليه، وفي ذلك دلالة على ارتشاء مَن سبقوه إلى شغل الوظيفة.

(٤) المرفق: الرشوة، ويجمع على : مرافق.

(٥) أي: أغريته بأكثر من طريقة.

(٦) صرفت: فصلت عن عملك!!

فسلّمتُ إليه رِقاعاً إلى الصيارف بالمال، وأخذتُ منهُ حُجّةً بزوال المُطالبة [1]، فانصرفتُ وقد بلغتُ ما أردت.

فلمّا كان بعد خمسة أيّام، ورد عليه كتاب الصرف، فدخلتُ إليه، فأخذ يشكرني ويخبرني بما ورد عليه، فأوهمتُه أنّي كنتُ قلتُ له ذلك عن أصل[2]، وكُفِينَاه.

✿✿✿

(١) حجة بزوال المطالبة: ما نطلق عليه: خُلُوّ طَرَف.
(٢) أي أنني كنت أعرف مقدماً بأنه سيفصل عن عمله حقيقة.

٧ – ثراء العلماء

وجدتُ فى بعض الكتب عن الأصْمَعِيِّ، قال:

كنتُ بالبصرة، أطلب العلم، وأنـا مُقِـلّ [١]، وكـان علـى بـاب زقاقنـا بقّـال، إذا خرجتُ باكراً يقول لى: إلى أين؟ فأقول: إلى فلان المُحدِّث، وإذا عدتُ مساءً، يقول لى: من أين؟ فأقول: من عند فلان الأخبارىّ، أو اللّغوى.

فيقول: يا هذا، اقبل وصيتى، أنت شابٌ، فلا تضيّع نفسَك، واطلب معاشاً يعـود عليك نفعهُ، وأعطنى جميعَ ما عندَك من الكتب، حتّى أطرحَهـا فـى الـدَّن [٢]، وأصبَّ عليها من الماء للعشرة أربعة، وأنبّذه، وأنظر ما يكون منه، واللّهِ، لو طلبتَ منّى، بجميع كتبك، جَرْزَةَ بقل[٣] ما أعطيتك.

فيضيق صدرى بمداومته هذا الكلام، حتّى كنت أخـرج مـن بيتـى ليـلاً، وأدخلـه ليلاً، وحالى – فى خلال ذلك – تزداد ضيقاً، حتّـى أفضيـتُ إلى بيـع آجـرّ[٤] أساسـات دارى، وبقيتُ لا أهتدى إلى نفقة يومى، وطال شَعرى، وأخْلَقَ ثوبى، واتّسخ بدنى.

فأنا كذلك، مُتحيّراً فى أمرى، إذ جاءنى خادمٌ للأمير محمّد بنِ سليمانَ الهـاشمىِّ، فقال: أجبْ الأمير.

فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟

فلمّا رأى سوء حالى، وقُبْحَ منظرى، رجع فأخبر محمّد بن سليمان بخبرى، وعـاد إلىّ، ومعه تُخُوتُ ثياب، ودُرْج فيه بَخور، وكيس فيه ألف دينار.

وقال: قد أمرنى الأمير، أن أُدخلك الحمّام وألبسك من هذه الثياب، وأدَعَ باقيهـا عندك، وأطعمك من هذا الطعام، وإذا بخُوان كبير فيه صنوف الأطعمة، وأبخرك، لـترجعَ إليك نفسُك، ثمّ أحملك إليه. فسررتُ سروراً شديداً، ودعـوتُ لـه، وعملِـتُ مـا قـال، ومضيْتُ معه، حتّى دخلتُ على محمّد بن سليمان، فسلّمتُ عليه، فقرّبنى، ورفعنى.

---

(١) مقلّ: قليل المال فقير.

(٢) الدنّ: الوعاء يشبه البرميل، والعبارة تعنى السخرية من الكتب.

(٣) الجرزة: الحزمة.

(٤) الأجر: الحجارة.

ثمّ قال: يا عبدَ الملك، قد اخترتُك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فاعمَل على الخروج إلى بابه، وانظر كيف تكون؟

فشكرته، ودعوتُ له، وقلت: سمعاً وطاعة، سأخرجُ شيئاً من كتبى وأتوَجَّه.

فقال: ودِّعنى، وكن على الطريق غداً.

فقبّلتُ يده، وقمتُ، فأخذتُ ما احتجتُ إليه من كتبى، وجعلتُ باقيها فى بيت، وسددتُ بابَه، وأقعدتُ فى الدّار عجوزاً من أهلنا، تحفظها.

وبَاكَرَنى رسولُ الأمير محمّد بن سليمان، وأخذنى، وجاء بى إلى زَلَّال[1] قد اتخذ لى، وفيه جميع ما أحتاجُ إليه، وجلس معى يُنفق علىّ [2] ، حتّى وصلتُ إلى بغداد.

ودخلتُ على أمير المؤمنين الرّشيد، فسلّمتُ عليه، فردّ علىّ السلام.

وقال: أنت عبدُ الملك بن قَرِيب الأصمعىُّ.

قلت: نعم، أنا عبد أمير المؤمنين بن قريب الأصمعى.

قال: اعلم، أنّ وَلَدَ الرجل مُهجةُ قلبه، وثَمَرةُ فؤاده، وهو ذا أسْلم إليك ابنى محمداً[3] بأمانة الله، فلا تعلمه ما يُفسد عليه دينَه، فلعلّه أن يكون للمسلمين إماماً.

قلت : السمع والطاعة.

فأخرجه إلىّ، وحولت معه إلى دار، قد أخْلَيَتْ لتأديبه، وأخْدَمُ فيهامن أصناف الخدم، والفُرُش، وأجرى علىّ فى كلّ شهر عشرة آلاف دِرهم، وأمر أن تخرج إلىّ فى كلّ يوم مائدة، فَلَزِمتُهُ.

وكنتُ مع ذلك، أقضى حوائج النّاس، وآخذ عليها الرغائب[4]، وأنفذُ جميعَ ما يجتمع لى، أولاً، فأولاً، إلى البصرة، فأبنى دارى، وأشترى عَقاراً وضياعاً.

فأقمتُ معه، حتّى قرأ القرآن، وتفقّه فى الدِّين، وروى الشِعر واللغة، وعَلِمَ أيّامَ النّاس وأخبارهم.

---

(١) الزلال: نوع من سفن السفر للطبقة الثرية.

(٢) هنا بمعنى: يقوم على خدمتى.

(٣) محمد : هو الأمين، ولى عهد الرشيد.

(٤) الأصمعى يذكر هنا أنه كان يتوسط للناس عند أهل الحكم، ويقبل الهدايا ويحولّها على الفور من بغداد إلى مدينته "البصرة" وبمثل هذا يحتال أهل زماننا من أصحاب السلطان، حتى لا يلاحظ الناس اتساع ثرواتهم، أو تنتبه إليهم الأجهزة الرقابية بعد أن تنتهى وظائفهم!!

واستعرضه الرّشيد، فأعجب به، وقال : يا عبدالملك، أريد أن يُصَلّيَ بالنّاس، فـي يوم الجمعة، فاختر له خُطبة، فحفّظه إيّاها.

فحفّظته عشراً، وخرج، فصلّى بالنّاس، وأنا معه، فأعجبَ الرشيد به، وأخذه نثار الدنانير والدراهم من الخاصّة والعامةّ، وأتتنى الجوائزُ والصِّلاتَ من كلّ ناحية، فجمعـتُ مالاً عظيماً.

ثمّ استدعانى الرّشيد، فقال : ياعبد الملك، قد أحسنتَ الخِدْمة، فَتَمَنَّ.

قلتُ: ما عسى أن أتمنّى، وقد حزتُ أمانىّ.

فأمر لى بمال عظيم، وكُسوة كثيرة، وطيب فاخر، وعبيد، وإماء، وظَهْر[1]، وفُرش، وآلة.

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين، أن يأذن لى فى الإلمام بالبصرة، والكتابـةَ إلى عامله بها، أن يطالِبَ الخاصّة والعامّة، بالسّلام علىّ ثلاثةَ أيّام، وإكرامى بعد ذلك.

فكتبَ إليه بما أردتُ، وانحـدرتُ إلى البصـرة، ودارى قـد عَمُـرت، وضيـاعى قـد كَثُرت، ونعمتى قد فَشَت، فما تأخّر عنّى أحد.

فلمّا كان فى اليوم الثالث، تأمّلت أصاغر مَن جاءنى، فإذا البقّال، وعليـه عمامـة وَسخة، ورداءٌ لطيف، وجُبّة قصيرة، وقميصٌ طويل، وفى رجله جَرْموقان [2] ، وهو بلا سراويل.

فقال : كيف أنت يا عبدالملك؟

فاستضحكتُ من حماقته، وخطابه لى بما كان يخاطبنى به الرّشيد.

وقلت: بخير، وقد قبلت وصيّتك، وجمعتُ ما عندى مـن الكتـب، وطرحتُهـا فـى الدّنّ، كما أمرتَ، وصببتُ عليها من الماء للعشرة أربعة، فخرج ما ترى.

ثمّ أحسنت إليه بعد ذلك، وجعلتُه وكيلى.

✿✿✿

---

(١) الظهر : الدابة كالحصان والبعير، والآلة: الأثاث.

(٢) الجرموق: يشبه "البوت" وكان يُلبس قديماً فوق الخفّ لحمايته من الطين.

٨- أذان مُنْتَصَفِ اللّيل

حدّثني أبوالحسن محمّد بن عبدالواحد الهاشمي:

أنّ شيخاً من التجّار، كان له على بعض القُوّاد، مال جليل ببغداد، فَمَاطَلَهُ به، وجَحَدَهُ إياه، واستخفّ به.

قال: فعَزَمتُ على التظَلُّم إلى المعتضدِ[1]، لأنني كنتُ تظلمت إلى عبيدِ الله بن سليمان الوزير، فلم ينفعني ذلك.

فقال لي بعض إخواني: عليَّ أن آخذَ لك المال، ولا تحتاج إلى أن تتظلّم إلى الخليفة، قم معي السّاعة، فقمتُ معه.

فجاء بي إلى خيّاط في سوق الثلاثاء، يَخيط، ويُقرِىء القرآن في مسجدٍ، فقصّ عليه قصّتي، فقام معنا.

فلمّا مشْينا، تأخّرتُ، وقلتُ لصديقي: لقد عرّضت هذا الشيخ، وإيّانا، لمكروهٍ عظيم، هذا إذا حصل على باب الرجل، صفع، وصُفِعْنا معه، هذا لم يلتفت إلى شفاعة فلان، وفلان، و لم يفكّر في الوزير، فكيف يفكّرُ في هذا الفقير؟

فضحك، وقال: لا عليك، إمش، واسكُتْ.

فجئنا إلى باب القائد، فحين رأى غِلمانهُ الخيّاطَ، أعظموه وأهووا لتقبيل يده، فمنعهم من ذلك، وقالوا: ما جاء بك أيّها الشيخ، فإنّ صاحبنا راكبٌ[2]، فإن كان لك أمر يتمّ بنا بادرنْا إليه وإلاّ فادخل واجلس إلى أن يجيء، فقَوِيَتْ نفسي بذلك، ودخلْنا وجلسنا.

وجاء القائد، فلمّا رأى الشيخ أعظمه إعظاماً تاماً، وقال لستُ أنزع ثيابي، أو تأمُرَني بأمرك.

فخاطبه في أمري، فقال: واللّهِ، ما عندي إلاّ خمسةُ آلاف دِرهم تسأله أن يأخذَها، وأعطيه رهناً في باقي ماله.

---

(١) المعتضِد: أحد خلفاء بني العباس الأقوياء.

(٢) العبارة تعني أن سيدهم في مهمة خارج بيته.

فبادرتُ إلى الإجابة، فأحضر الدراهم، وحُلِياً بقيمة الباقى، فقبَضْتُ ذلك منه، وأشهدتُ عليه الرّجل، وصديقى، أنّ الرهن عندى إلى أجل، فإن حلَّ الأجَلُ و لم يعطنى، فقد وكّلنى فى بيعه، وقبْضِ مالى من ثمنه، فخرجنا، وقد أجاب إلى ذلك.

فلمّا بلْغنا مسجدَ الخيّاط، قلتُ له: قد ردّ الله تعالى علىّ هذا المال بسببك، فأحبُّ أن تأخذَ منه ما أحببتَ، بطيبة من قلبى.

فقال: ما أسرع ما كافأتنى على الجميل بالقبيح، انصرف، بارك الله لكَ فى مالك.

فقلت: قد بَقِيَتْ لى حاجة.

قال: قُلْ.

قلت: تُخبرنى عن سبب طاعته لك، مع تهاونه بأكثر أهل الدولة.

فقال: قد بلغتَ مرادك، فلا تقطعنى عن شغلى، وما أعيشُ به.

فألححتُ عليه، فقال: أنا رجلٌ أصلّى بالنّاس فى هذا المسجد، وأقْرِئُ القرآن، منذ أربعين سنة، ومعاشى من هذه الخياطة، لا أعرف غيرها.

وكنتُ منذ دهر، قد صلّيتُ المغرب، وخرجت أريد منزلى، فاجتزتُ بتُرْكِيٍّ كان فى هذه الدار، وامرأةٍ جميلة مجتازة، وقد تعلّق بها وهو سكران، ليدخلها داره، وهى ممتنعة تستغيث، وليس من أحد يُغيثها، أو يمنعه منها، وتقول فى جملة كلامها: إنّ زوجى قد حلف علىّ بالطلاق، أن لا أبيتَ بَرّا، فإن بيّتنى، خَرِب بيتى، مع ما يرتكبه منّى من الفاحشة.

قال: فَرَفقت به وسألته تركها، فضرب رأسى بدبّوس كان فى يده، فشجّنى، ولكمنى، وأدخل المرأةَ بيتَه.

فصرتُ إلى منزلى، وغسلتُ الدم، وشددت الشجّة، واسترحتُ، وخرجتُ لصلاة العشاء الآخرة.

فلمّا صلّينا، قلتُ لمن معى فى المسجد: قوموا بنا إلى عدوّ اللّه، هذا التركى، لنُنكَر عليه، ولا نبرح، أو نُخْرِج المرأة.

فقاموا، وجئنا فَضَجّجْنَا على بابه، فخرج إلينا في عدّة غلمان، فأوْقع بنا، وقصدني من بين الجماعة، فضربني ضرباً عظيماً كدتُ أتلف منه، فحملني الجيران إلى منزلي كالتالف، فعالجني أهلي، ونمتُ نوماً قليلاً، وقمتُ نصف الليل، فما حملني النوم، للألم، والفكر في القصّة.

فقلت: هذا قد شَرب طول ليلته، ولا يعرف الأوقات، فلو أذَّنتُ، لوقع له أنّ الفجرَ قد طلعَ، وأطلق المرأة، فلحِقَتْ بيتها قبل الفجر، فسلِمَتْ من أحد المكروهيْن[1].

فخرجتُ إلى المسجد متحاملاً، وصعدتُ المنارة، فأذّنتُ، وجلستُ أطلع منها إلى الطريق، أترقّب خروج المرأة، فإن خرجَتْ، وإلاّ أقمتُ الصلاة، لئلا يشكّ في الصباح، فيخرجها.

فما مضت إلاّ ساعة، والمرأة عنده، حتّى رأيتُ الشارع قد امتلأ خيلاً ورجالاً، ومشاعلَ، وهم يقولون: مَنْ أذّن الساعة؟ ففزِعتُ، وسكتُّ.

ثمّ قلت: أخاطبهم، لعلّي أستعين بهم على إخراج المرأة، فصحتُ من المنارة: أنا أذّنتُ.

فقالوا لي: إنزل، وأجب أمير المؤمنين.

فقلت : دنا الفَرَجُ، فنزلتُ، فإذا بدر[2]، وعدّة غِلمان، فحملني، وأدخلني على المُعتضد، فلمّا رأيته، هِبْتُهُ، وارتعتُ، فسكّن منّي.

وقال : ما حملك على أن تغرّ المسلمين بأذانك في غير وقته، فيخرج ذو الحاجة في غير وقتها، ويمسك المريد للصوم، في وقت قدأباح الله له الأكل فيه، وينقطع العَسَسُ والحرس عن الطواف؟

فقلت : يؤمِّنني أميرُ المؤمنين، لأصْدُقَه.

فقال : أنتَ آمن.

فقصصتُ عليه قصّة التركيّ، وأريْتُه الآثار.

فقال : يابدر، عليّ بالغلام الساعة والمرأة، وعُزِلْتُ في موضع.

---

(١) المكروه الأول هو الاعتداء على شرفها وقد حدث، والآخر تعرضها لطلاق زوجها، وهو محتمل!!
(٢) بدر من موالي المعتضد المقربين جداً.

فمضى بدر، وأحضر الغلام والمرأة، فسألها المعتضد عن الصورة فأخبرَتْهُ بمثل ما أخبرتُه.

فقال لبدر : بادِرْ بها الساعةَ إلى زوجها، مع ثقةٍ يُدخلُها دارها، ويشرح لزوجها القصّة، ويأمره عنّى بالتمسك بها، والإحسانِ إليها.

ثمّ استدعانى، فوقفتُ بإزائه، فجعل يخاطب الغلام، وأنا واقف أسمع.

فقال له: كم جرايتُك؟

قال : كذا وكذا.

قال : وكم عادتك؟

قال : كذا وكذا.

قال : وكم صلاتك؟

قال : كذا وكذا.

قال : وكم جاريةً لك؟

قال : كذا وكذا، فذكر عدّة جوارى.

قال : أفما كان فيهنّ، وفى هذه النعمة العريضة، كفاية عن ارتكاب معصية الله تعالى، وخرق هيبة السُلطان، حتّى استعملتَ ذلك، وجاوزته إلى الوثوبِ بمن أمرك بالمعروف؟ فأسْقِطَ الغلامُ فى يده، ولم يَحِرْ جواباً.

فقال : هاتوا جوالقاً[1]، ومداق الجص[2] وأدخلوه الجوالق، ففعلوا ذلك به.

وقال للفرّاشين: دُقُّوه، وأنا أسمع صياحه، إلى أن مات، فأمر به، فطُرِح فى دِجلة، وتقدّم إلى بدر أن يُحمل ما فى داره.

ثم قال لى: يا شيخ، أىَّ شىء رأيتَ من أجناس المُنْكَر، كبيراً كان أو صغيراً، أو أىّ أمر عنّ لك، فمر به، وأنكر المُنْكَر، ولو على هذا -وأومأ إلى بدر- فإن جرى عليك

---

(١) جوالق (جمع جَوْلق) : أكياس أو زكائب.

(٢) الجصّ : الجير.

شيء، أو لم يُقْبلَ منك، فالعلامة بيننا أن تؤذّن في مثل الوقت الذي أذّنتَ فيه، فإنّي أسمعُ صوتَك، وأستدعيك، وأفعلُ هذا بمن لا يقبل منك.

فدعوتُ له، وانصرفت.

وانتشر الخبر في الأولياء والغلمان، فما خاطبتُ أحداً بعدها في إنصاف أحد، أو كفّ عن قبيح إلا أطاعني كما رأيتَ، خوفاً من المعتضد.

وما احتجتُ إلى الأذان في مثل ذلك الوقت.

✿✿✿

٩- مُعاينة طبية

دخلتُ يوماً على القاضى أبى الحسين بن أبى عمر، وهو مغموم، فقلت: لا يغمّ الله قاضى القضاة، ما هذا الحزن الذى أراه به؟

قال : مات يزيدُ المائى[١].

فقلت: يُبقى الله قاضى القضاة، ومَن يزيد المائىّ، حتى إذا مات اغتمّ عليه قاضى القضاة، هذا الغمَّ كلّه؟

فقال : ويحك، مثلك يقول هذا فى رجل كان أوْحَد زمانه فى صناعته، وقد مات وما ترك أحداً يقاربه فى حِذْقه، وهل فخر البلدان ألاّ بكثرة رؤساء الصنائع، وَحُذاق أهل العلوم فيها؟ فإذا مضى رجل لا مثيل له فى صناعة لا بدّ للناس منها، فهل يدلّ هذا إلاّ على نقصان العالم وانحطاط البلدان؟!

ثم أقبل يعدّد فضائله، والأشياء الطريفةَ التى عالجَ بها، والعللَ الصعبة التى زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء، منها:

قال : أخبرنى منذ مدّة رجل من جلّة أهل البلد، أنّه كان حدث بابنةٍ له عِلّة طريفة،[٢] فكتمتْ أمرها، ثم أُطّلع عليها أبَوها، فكتمها هو مُدَيْدَة،[٣] ثم انتهى أمر البنت إلى حدّ الموت.

قال : وكانت العلّة، أنّ فَرْجَ الصبيّة كان يضرب عليها ضرباً عظيماً لا تنام معه الليل ولا النهار، وتصرخ أعظمَ صُراخ، ويجرى فى خلال ذلك منه دمٌ يسير كماء اللحم، وليس هناك جرح يظهر، ولا ورم.

قال : فلمّا خِفْتُ المأثمَ،أحضرتُ يزيد، فشاورتُه.

فقال : أتأذن لى فى الكلام، وتبسُط عُذرى فيه.

فقلت له : نعم.

قال : لا يُمكننى أن أصفَ لك شيئاً، دون أن أشاهدَ المَوْضعَ بعيْنى، وأفتشَه بيدى، وأسْألَ المرأة عن أسبابٍ لعلّها كانت الجالبةَ للعلة.

---

(١) المائى : نسبة إلى الماء، والمقصود هنا : البول، فعمل هذا الرجل النظر فى البول، أو ما نعرفه الآن بتحليل البول، وسنرى من هذه القصة ما يدل على خبرة الرجل وفطنته.
(٢) الطرافة -هنا- تعنى الندرة.
(٣) أى زمناً قصيراً.

قال : فَلِعِظَم الصورة، وبلوغِها حدّ التَلف، أمكنْتُه من ذلك.

فأطال المساءلة، وحدّثها بمـا ليس مـن جنس العِلّـة. بعـد أن جَسّ الموضـع مـن ظاهره، وعرف بُقعة الألم، حتّى كدتُ أن أثِب به. ثم صبرتُ، ورجعتُ إلى مـا أعرفـه عن سيرته، فصبرتُ على مضض.

إلى أن قال: تأمرُ مَن يُمسكها، ففعلتُ.

فأدخل يده فى الموضع دخولاً شديداً، فصاحت الجاريةُ، وأغمى عليهـا، وانبعـث الدم، وأخرج يديه وفيها حيوان أقلّ من الخُنفساء، فرمى به.

فجلست الجارية فى الحال، وقالت: يا أبة، استرنى، فقد عُوفيتُ.

فأخذ يَزيدُ الحيوانَ بيده، وخرج من الموضع، فلحقته، فأجلسته.

وقلت :أخبرنى ما هذا؟

فقال : إنّ تلك المساءلة التى لم أشكّ من أنّك أنكرتَها، إنّما كانت لأطلبَ دليـلاً أستدلُّ به على سبب العِلّة.

إلى أن قـالت لى الصبيّـة : إنّهـا فـى يـوم مـن الأيّـام، جلسَـتْ فـى بيـت دُولاب البقر[1]، فى بُستان لكم، ثم حدثت العِلّة بها، من غير سبب تعرفه، فى غدِ ذلك اليوم.

فتخيّلت أنّه قد دبّ فى فَرْجها من القُراد[2] الذى يكون على البقر- وفـى بيـوت البقر قراد- قد تمكّن من أول داخل الفَرْج، فكلّما امتصّ الدم من موضعه ولّد الضَّرَبـان، وأنّه إذا شبع، خفّ الضربان، لانقطـاع مصّـه، ونقّـط مـن الجـرح الـذى يمتـصّ منـه إلى خارج الفَرْج.

فقلت : أدخل يدى، وأفتّش.

فأدخلتُ يدى، فوجدتُ القراد كما حَدَسْت، فأخرجته، وهذا هو الحيوان، وقـد تغيّرت صورته لكثرة ما امتصّ من الدم، مع طول الأيام.

قال : فتأملنا الحيوان، فإذا هو قُراد، وبرئت المرأة.

✿✿✿

---

(١) دولاب البقر: الساقية.

(٢) القرادة: حشرة تلتصق بجلد الحيوان وتعيش على امتصاص دمه.

١٠- الحُرَّةُ .. والجَارية

قال محمّد بن عَبْدوس فى كتاب "الوزراء": إن إبراهيمَ بنَ العباس الصّولى، قال :

كنتُ أكتبُ لأحمد بن أبى خالد، فدخلتُ عليه يوماً. فرأيتُه مُطرقاً، مفكّراً، مغموماً، فسألته عن الخبر.

فأخرج إلىّ رُقعةً، فإذا فيها أنّ حَظِيّة [١] من أعز جواريه عنده يخالفُ إليها، وتُوطِيء فراشه غيره، ويستشهد فى الرقعة، بخادمين كانا ثقتيْن عنده.

وقال لى : دعوتُ الخادمين، فسألتهما عن ذلك، فأنكرا، فتهدّدتُهما، فأقاما على الإنكار، فضربتهما، وأحضرتُ لهما آلة العذاب، فاعترفا بكلّ ما فى الرُّقعة على الجارية، وإنّى لم أذق أمسِ ولا اليوم طعاماً، وقد هَمَمْتُ بقتل الجارية.

فوجدتُ بين يديه مصحفاً، ففتحته لأتفاءل بما يخرج فيه، فكان أوّل ما وقعت عينى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[٢]... الآية، فشككتُ فى صِحة الحديث، وأريته ما خرج به الفأل.

وقلت : دعنى أتلطّف فى كشف هذا.

قال : افعل.

فخلوتُ بالخادمين منفردين، ورَفَقْتُ بأحدهما، فقال : النارُ ولا العارُ، وذكر أنّ امرأة ابن أبى خالد، أعطته ألف دينار، وسألته الشهادة على الجارية، وأحضرنى الكيسَ مختوماً بخاتم المرأة، وأمَرْتُهُ أن لا يذكر شيئاً إلا بعد أن يُوقع به المكروه، ليكون أثبتَ للخبر، ودعوتُ الآخر، فاعترف بمثل ذلك أيضاً.

فبادرتُ إلى أحمد بالبشارة، فما وصلتُ إليه، حتى جاءته [٣] رُقعةُ الحُرّة، تُعْلمه أنّ الرقعة الأولى كانت من فعلها، غَيْرَةً عليه من الجارية، وأنّ جميع ما فيها باطل، وأنها حملت الخادمين على ذلك، وأنها تائبة إلى الله تعالى من هذا الفعل وأمثاله.

فجاءته براءة الجارية من كل وجه، فَسُرَّ بذلك، وزال عنه ما كان فيه، وأحسن إلى الجارية.

✿✿✿

---

(١) الحظية : الجارية المخصصة لإمتاع سيدها، فليست للخدمة.

(٢) الحجرات : ٦.

(٣) الرقعة : قصاصة الورق، أو الرسالة.

١١- والقضيَّةُ .. جارية !!

وقد كان فيما يقارب عصرَنا مثل هذا، وهو ما حدَّثني به أبوالحسن على بن عمر الدارقُطْني الحافظ، قال: حدَّثني أبو أحمد محمَّد بن أحمد الجُرجاني الفقيه، قال:

كنّا ندرُس على أبى إسحاق المَرْوَزيِّ الشافعي، وكان يدرس عليه معنا فتى من أهل خُراسان، له والد هناك، وكان يوجِّه إليه فى كلّ سنة، مع الحاجِّ، قدر نفقة السنة.

فاشترى جارية، فوقعت فى نفسه، وأَلِفها، وأَلفَتْه، وكانت معه سنين.

وكان رسْمُه أن يستدين فى كلّ سنة، دَيْناً، بقدر ما يَعجز من نفقته، فإذا جاء ما أنفذه أبوه إليه ، قضى دَيْنه، وأنفق الباقى مدّة ثم عاد إلى الاستدانة.

فلمّا كان سنة من السنين. جاء الحاجّ، وليس معهم نفقة من أبيه.

فسألهم عن سبب ذلك، فقالوا له: إنَّ أباك اعتل عِلّة عظيمة صعبة، واشتغل بنفسه، فلم يتمكّن من إنفاذ شىء إليك.

قال : فقلق الفتى قلقا شديداً، وجعل غرماؤه يطالبونه كالعادة، فى قضاء الدَّيْن وقت المَوْسم، فاضطُرَّ، وأخرج الجارية إلى النخّاسين[1]، فعَرَضَها.

وكان الفتى ينزل بالقرب من منزلى، وكنّا نصطحب إلى منزل الفقيه، ولا نكاد نتفارق.

فباع الجاريةَ بألف درهم وكَسْر، وعزم على أن يفرّق منها على غُرَمَائه[2] قدر ما لهم، ويُتَموَّنُ بالباقى.

وكان قَلِقاً، موجَعاً، متحيّراً، عند رجوعنا من النخّاسين.

فلمّا كان الليلُ إذا ببابى يدقّ، فقمتُ ففتحته، فإذا بالفتى.

فقلت : مالَكَ؟

فقال : قد امتنع علىّ النوم، وقد غلبتنى وَحشة الجارية، والشوق إليها.

---

(١) النخّاس: تاجر الرقيق، الذى يبيع ويشترى العبيد والإماء، والعبارة تعنى: عرض الجارية للبيع.
(٢) الغرماء : أصحاب الدَّيْن المستحق للسداد.

ووجدته من القلق على أمر عظيم، حتى أنكرتُ عقلَه، فقلتُ: ما تشاء؟

فقال: لا أدرى، وقد سهل علىّ أن ترجعَ الجاريةُ إلى ملكى، وأبكّرَ غداً فأقرَّ لغُرمائى بمالِهم، وأحبسَ فى حبس القاضى، إلى أن يفرِّج الله تعالى عنّى، ويجيئنى من خُراسان ما أقضى به دَيْنى فى العام المقبل، وتكون الجارية فى ملكى.

فقلتُ له : أنا أكفيك ذلك فى غد إن شاء الله، وأعملُ فى رجوع الجارية إليك، إذا كنتَ قد وطنت نفسك على هذا.

قال : فبكّرنا إلى السوق، فسألنا عمّن اشترى الجارية.

فقالوا : امرأة من دار أبى بكر بن أبى حامد، صاحبِ بيت المال.[1]

فجئنا إلى مجلس الفقيه، فشرحتُ لأبى إسحاق المَرْوزىِّ بعض حديث الفتى، وسألتُه أن يكتب رُقعةً إلى أبى بكر بن أبى حامد، يسأله فيها فَسخ البيع، والإقالة [2]، وأخذ الثمن، وردّ الجارية، فكتب رُقعة مؤكّدة فى ذلك.

فقمتُ، وأخذتُ بيد الخُراسانى صديقى، وجئنا إلى أبى بكر بن أبى حامد، فإذا هو مجلس حافل، فأمهلنا حتى خف، ثم دَنَوتُ أنا والفتى، فعرفنى وسألنى عن أبى إسحاق المروزىّ، فقلت: هذه رُقعته خاصّةً فى حاجةٍ له.

فلمّا قرأها، قال لى : أنت صاحبُ الجارية؟

قلت : لا ، لكنّه صديقى هذا، وأومأتُ إلى الخراسانى، وقصصتُ عليه القصّة، وسببَ بيع الجارية.

فقال : والله، ما أعلمُ أنّى ابتعتُ جاريةً فى هذه الأيّام، ولا ابتيعت لى.

فقلت : إنّ امرأة جاءت وابتاعتها، وذكرت أنّها من دارك.

قال : يجوز.

ثم قال : يا فلان، فجاءه خادم، فقال له: امض إلى دُور الحُرُم، فاسأل عن جارية اشتريتْ أمس، فلم يزل يدخل ويخرج من دار إلى دار، حتى وقع عليها، فرجع إليه.

---

(١) صاحب بيت المال : هو وزير الخزانة الآن.

(٢) الإقالة : قبول عذر الفتى، وإعادة الجارية إليه بعد استرداد ثمنها.

فقال له : أعَثَرتَ عليها؟

فقال : نعم ، فقال : أحضرها، فأحضرَها.

فقال لها : مَن مولاكِ؟ فأومأتْ إلى الخُراساني.

فقال لها : أفتحبّين أن أردَّك عليه؟

فقالت : والله، ليس مثلك يا مولاى مَن يُختار عليه، ولكن لمولاى عليّ حقّ التربية.

فقال : هى كَيِّسَةٌ عاقلة، خُذْها.

قال : فأخرج الخُراساني الكيس من كُمّه، وتركه بحضرته.

فقال للخادم : إمض إلى الحُرُم، وقل لهنّ : ما كنتنّ وعدتن به هذه الجارية من إحسان، فعجّلنه الساعة.

قال : فجاء الخادم بأشياء لها قدْر وقيمة، فدفعها إليها.

ثم قال للخُراساني: خُذْ كيسَك فاقضِ منه دَيْنَك، ووسّع بباقيه على نفسكَ وعلى جاريتك، والزم العلْمَ، فقد أجريتُ عليك فى كلّ شهر قَفيزَ دقيق، ودينارين، تستعين بها على أمرك.

قال : فوالله ما انقطعت عن الفتى، حتى مات أبوبكر بن أبى حامد.

✿✿✿

١٢ - ... ويَوْمٌ عليكَ

حدثني عليّ بن الحسين بن محمّد بن موسى بن الفرات، قال:

كنتُ أتولّى ماسَبْذَان [١]، وكان صاحب البريد [٢] بها عليُّ بنُ يزيد، وكان قديماً يكتب للعبّاس بن المأمون[٣]، فحدّثني : أنّ العبّـاس غضب عليه وأخذ جميع ما كان يملكُه، حتّى إنّه بقي بـ "سُرَّ مَنْ رَأى" لا يملك شيئاً، إلاّ برْذَوْنه [٤]، بسرجه ولجامه، ومُبَطّنةً، وطيلساناً، وقميصاً، وشاشيَة، وأنهَ كان يركب في أوّل النّهار، فيلقىَ من يريد لقاءه، ثم ينصرف، فيبعث ببرذونه إلى الكِراء، فيكسب عليه ما يَعلفه، وما ينفقه هو وغلامه[٥].

فاتّفق في بعض الأيّام أنّ الدابّة لم تكسب شيئاً، فباتَ هو وغلامه طَاوييْن، قال: ونالنا من الغد مثلُ ذلك.

فقال غلامي : يا مولاي، نحن نصبر، ولكن الشأن في الدابّة، فإنّي أخافُ أن تَعْطَب.

قلتُ : فأي شيء أعمل؟ ليس إلا السّرج، واللّجام، وثيابي، وإن بعتُ من ذلك شيئاً، تعطّلتُ عن الحركة، وطلب التصرّف[٦].

قال : فانظر في أمرك.

فنظرتُ، فإذا بحصيري خَلَقٌ، ومخدّتي لَبنَة مغشّاة بخرقة، أدعها تحت رأسي، ومَطْهَرَة خزَفٍ للطهور، فلم أجد غيرَ منديل دبيقي[٧] خَلَق، قد بقي منه الرّسم.

فقلتُ للغلام: خذ هذا المنديل، فبعه، واشترِ عَلَفاً للدّابة، ولحماً بدرهم، واشوِه، وجيء به، فقد قَرِمتُ إلى أكل اللحم.

---

(١) منطقة من بلاد فارس.

(٢) صاحب البريد : المسئول عن مراسلات الدولة في هذه المنطقة.

(٣) يكتب له: أي بمنزلة مدير أعماله في لغة زماننا.

(٤) البرذون: دابة بين الحصان والحمار.

(٥) هكذا الحال إذا غضب الكبراء على أتباعهم، تركه بحماره وثيابه لا أكثر، فكان أن الحمار يعوله ويوفر نفقته!!

(٦) طلب التصرف: البحث عن وظيفة.

(٧) دبيق : قرية مصرية اشتهرت بصناعة الحرير، فإليها نُسبِ المنديل.

فأخذ المنديل، ومضى، وبقيتُ فى الدار وحدى، وفيها شَاهْمَرْج [1] قد جاع لجوعنا، فلم أشعر إلاّ بعصفور قد سقط فى المطهرة التى فيها الماء للطهور، عطشاً، فشرب، فنهض إليه الشاهمرج، فناهضه، فلضعفه ما قَصُرَ عنه، وطار العصفور، ووقف الشاهْمَرْج، فعاد العصفور إلى المطهرة، فبادره الشَّاهْمَرَج فأخذه بُحُمَيَّةَ، فابتلعه. فلمّا صار فى حَوْصَلته، عاد إلى المطهرة، فتغسّل، ونشر جناحيْه وصاح، فبكيْتُ، ورفعتُ رأسى إلى السّماء، وقلت: اللهمّ كما فرَّجْتَ عن هذا الشّاهَمرْج، فرِّجْ عنا، وارزقنا من حيث لا نحتَسِب.

فما رددتُ طَرْفى، حتّى دقّ بابى، فقلتُ : مَن أنت؟

قال : أنا إبراهيمُ بنُ يوحنّا، وكيلُ العبّاس بن المأمون.

فقلت: ادخل، فدخل، فلمّا نظر إلى صورتى، قال: ما لى أراك على هذه الصّورة، فكتمته خبرى.

فقال لى: الأميرُ يقرأ عليكَ السّلام، وقد اصطبحَ اليوم، وذكركَ وقد أمر لك بخمسمائة دينار، وأخرج الكيسَ فوضعه بين يدىَّ.

فحمَدْتُ الله تعالى، ودعوتُ للعبّاس، ثمّ شرحتُ له قصّتى، وأطفته فى دارى وبيوتى، وحدّثته بحديث الدابّة، وما تقاسيه من الضُّرّ، والمنديل، والشاهْمَرج، والدعاء، فتوجّع لى، وانصرف.

ولم يلبث أن عاد، فقال لى: صرتُ إلى الأمير، وحدثته بحديثك كلّه، فاغتم لذلك، وأمر لك بخمسمائة دينار أخرى، قال: تَأَنَّثْ بتلك، وأنفق هذه، إلى أن يُفرِجَ الله.

وعاد غلامى، وقد باع المِنديل، واشترى منه ما أردتُه، فأريته الدنانير، وحدّثته الحديث، ففرح حتّى كاد أن تنشقَّ مرارته.

وما زال صُنْعُ الله يتعاهدُنا.

✿✿✿

(١) شاهمرج معناها (بالفارسية) : ملك الطيور - نوع من الصقور.

١٣- العَصَبيَّةُ العربيَّة

وذكر ابن عَبْدوس فى كتاب "الوزراء"، عن ثُمامةَ بن أشْرَس، أنّه قال:

اجتمع النّاس، وجلس لهم الفَضْلُ بنُ سَهْل[١]، على فُرُشٍ مرتفعة، فقام خطيباً، فحمِدَ الله وأثنى عليه، وذكر النبى فصلى عليه، ثمّ ابتدأ بالوقيعة فى عبدالله بن مالك الخزاعى [٢]، وذكر أنّه كان يدّعى على الرّشيد - فى حكاية حكاها- دخولَ بيت القيان، وهو كاذبٌ فى ذلك، وهو الذى كان يفعل هذا الفعل، ويدخل المواخيرَ والدساكر، ولا يرفع نفسه عن ذلك، ولا يصونُ عِرضه.

قال ثُمامةُ: ثمّ أقبلَ عليّ، فقال: وإنّ أبا مَعْنٍ، ليعلمُ ذلك، ويعرفُ صحّة ما أقول. فتركتُ تشييع كلامه بالتصديق، وأطرقت إلى الأرض، ودخلتْنى عصبيةُ العربيّة لابنِ مالك.

ثمّ عاد إلى تهجين عبدالله، والتوسّع فى الدعاوَى عليه، ثمّ أقبلَ عليَّ ثانية، وقال: إنّ ثُمامةَ ليعرفُ ذلك، فسكتُّ، وأطرقتُ، وإنّما كان يريد منّى تشييع كلامه بالتصديق.

فلمّا رأى إعراضى عن مساعدته ترك الإقبال عليّ، وأخذ فى خُطبته، حتّى فَرَغَ من أربه فى أمر عبدالله بن مالك.

فلمّا تفرّق النّاسُ عنه، وانصرفْتُ، علمتُ أنّى قد تعرّضت لِمَوْجَدةِ الفضل، وهو الوزير، وحالى عنده حالى.

فلمّا حَصَلْتُ فى منزلى، جاءنى بعض إخوانى مّمن كان فى ناحية الفضل، قالوا: ماذا صنع أبو مَعْن، يخاطبُه الوزير، فيُعرض عنه مرَّة بعد أخرى.

فقلت : أنا واللهِ، بالمَوْجَدَة[٣] عليه -أعزّه الله - أحقّ، لأنّه قام فى ذلك الجمع، وقد حضر كلُّ شريف ومشروف، فلم يستشهد بى فى خُطبته، وما أجراه فى كلامه،

(١) الفضل بن سهل وزير المأمون، أما ثمامة فأحد علماء عصره.
(٢) عبدالله بن مالك الخزاعى قائد عربى عباسى، أما الفضل بن سهل فهو فارسى... من هنا أدركت ثمامة الغَيْرة من عبدالله والتشهير به وهو لا يملك الدفاع عن نفسه أمام الوزير.
(٣) المَوْجَدة: الألم والعتاب.

إلاّ في موضع ريبَةٍ، أو ذكر نَبْوَةٍ، ودارِ مُقَيِّن ومغنّية، وما أقدرُ أن أشهد إلاّ أن أكون مع القوم ثالثاً.

فقالوا : صدقت -والله - يا أبا مَعْن، بئس الموضعُ وضعكَ.

فرجع كلامي إليه، فقال : صدق والله ثُمامة، وهو بالمعتبة أحقّ.

واندفَعتْ عنّي مَوْجَدَتُه، وما كان بي إلاّ ما داخلني من الحِمّيّة لعبدِالله بن مالك.

✿✿✿

١٤- عَرَبٌ ... وعَجَم !!

"كان محمدُ بنُ يزيد الأموى الحِصْنى قد أجابَ ساخراً حين افتخر القائدُ العباسىُّ عبدالله بن طاهر (الفارسى) بأبيه. ثم تلاقى الرجلان حين ذهب عبدالله - فى قمة سطوته- إلى الشام. ويروى الحِصْنى بنفسه ما جرى، وكيف انتهى، إذ قال" :

لَمّا بلغنى إجماعُ عبدالله بن طاهر على الخروج لطلب نصر بن شَبَث- الخارجىّ كان فى ذلك الوقت- بنفسه، أيقنتُ بالهلاك، وخِفْتُ أن يقَربَ منّى، فتنالنى منه بادرة مكروهٍ، و لم أشكّ فى ذَهاب النعمة، وإن سَلِمت النفس لما بلغه من إجابتى إيّاه، عن قصيدته التى فخَر بها:

مُدْمِنُ الإغضاء موصولُ ... ومُديمُ العَتْبِ مملولُ
ومَدينُ البيض فى تعبٍ ... وغَريمُ البيض ممطولُ
وأخو الوجهيْن حيث رَمَى ... بهواه فهو مَدْخُولُ

"إلى أن يفخر بأصوله فيقول" :

سائِلِى، عما تُسائلُنِى ... قد يَرُدُّ الخُبْرَ مسئولُ
أنا مَن تعرفنَّ نسبتَه ... سلفى الغُرُّ البَهاليلُ
مُصْعَب جدّى نقيبُ بنى ... هاشم والأمرُ مجهولُ
وحسيْن رأسُ دعوتهم ... ودعاء الحق مقبولُ
سلْ بهم تُنبيك نجدتُهم ... مَشْرَفيات مصاقِيلُ

....

قال الحِصْنِيُّ: وكنت لما بلغتنى القصيدةُ، امتعضتُ للعربية، وأنِفْتُ أن يفخر عليها رجل من العَجَم، لأنه قتل ملكاً من ملوكها بسيف أخيه [1]، لا بسيفه، فيفخر عليها هذا الفخر، ويضع منها هذا الوضع، فَرَدَدْتُ على قصيدته، و لم أعلم أن الأيام تجمعُنا، ولا أن الزمان يضطرنى إلى الخوف منه، فقلت:

لايَرعْك القالُ والقيلُ ... كلما بُلِّغْتَ تهويلُ

....

(١) يشير إلى مقتل الأمين وقد قتله القائد العباسى عبدالله بن طاهر بن الحسين، فكأنما قتله بسيف أخيه المأمون وليس بمقدرته الخاصة.

أيها النّازى مطيتَه — لأغاليطِكَ تحصيلُ
قد تأولتم على جهةٍ — ولنا فى ذاك تأويلُ
قاتلُ المخلوع مقتولُ — ودمُ القاتِل مطلولُ
قد يخون الرمَحَ عاملُهُ — وسِنانُ الرمح مصقولُ
وينالُ الوتْرَ طالبُه — بعد ما تسلو المثاكيلُ

" ثم يصل إلى التهكمُّ الحاد المُقذع حين يصف آباء عبدالله بن طاهر بقوله":

يا ابن بيت النّار موقدِها — ما لحاديه سراويلُ
أىَّ مجدٍ فيكَ نعرفه — أىُّ جدّ لك بَهْلولُ
مَن حسين أو أبوك ومَن — مُصعبٌ غالَتْهُمُ غُولُ
وزُرَيق إذ تُخَلّفُه — نسبٌ عمرُكَ مَجهول
تلك دعوَى لا نناقشها — وأبوّات مراذيلُ
أسرة ليست مباركةً — غيرها الشمُّ البهاليلُ
ما جرى فى عُودِ أثْلَتِكُم — ماءُ مَجْد فهو مدخولُ
قَدَحَتْ فيه أسافلُه — وأعاليه مجاهيلُ
إنّ خيرَ القول أصدقُهُ — حين تصطكّ الأقاويلُ
كُنْ على منهاج معرفةٍ — لا تغرّنْك الأباطيلُ

قال: فلمّا قَرُب عبدُالله بن طاهر منّى، استوحشتُ من المُقام خوفاً على نفسى، ورأيتُ بُعدى وتسليمى حُرُمى عاراً باقياً، و لم يكن لى إلى هربى بالحُرُم سبيل، فأقمتُ على أتمّ خوف مستسلماً للاتّفاق، حتى إذا كان اليوم الّذى قيل إنّه ينزل فيه العسكر بهذه النواحى أغلقتُ بابَ حصنى، وأقمتُ هذه الجاريةَ السوداء ربيئةً [1] تنظر لى على مَرْقَب من شَرَف الحصن، وأمرتُها أن تُعرّفنى الموضع الذى ينزل فيه العسكر قبل أن يفجأنى، ولبِسْتُ ثيابَ الموت أكفاناً، وتطيّبتُ، وتحنّطْتُ.

فلمّا رأت الجارية العسكر يقصد حصنى، نزلتْ فعرّفتنى، فلم يرعْنِي إلاّ دقٌّ باب الحصن فخرجتُ، فإذا عبدُالله بنُ طاهر، واقف وحده، منفردٌ عن أصحابه، فسلّمتُ عليه سلاَم خائفٍ، فردَّ علىَّ غيرَ مُسْتَوْحِشٍ، فأومأتُ إلى تقبيل رِجْلِهِ فى الرِكابِ، فمنع أَلْطَفَ مَنْعٍ وأحسنَه، ونزلَ على دكّانٍ على باب الحصن.

---

(١) الربيئة : الذى يراقب الطريق.

ثمّ قال : ليَسكنْ رَوْعُك، فقد أسأتَ الظنَ بنا، ولو علمنا أنّا بزيارتنا لك نَرُوعكَ ما قصدناك.

ثمّ أطال المسألة، حتى رأى الثقةَ منّى قد ظهرت، فسألنى عن سبب مقامى فى البرّ[1]، وايثارى إياه على الحاضرة، ورفاهة عيشها، وعن حال ضيعتى ومعاملتى فى ناحيتى، فأجبته بما حضر لى.

حتّى إذا لم يبق من التأنيس شىءٌ أفضى إلى مساءلتى عن حديث نَصْرِ بنِ شَبَث، وكيف الطريق إلى الظَّفَرِ به، فأخبرتُه بما حَضَرنى[2].

ثمّ أقبل علىّ وقد انبسطتُ فى محادثته كلّ الانبساط، فقال: أحبّ أن تنشدنى القصيدة الّتى فيها :

يا ابنَ بيْتِ النار موقدِها ما لحاديه سراويلُ

فقلت : أصلح اللهُ الأمير، قد أرْبَتْ نعمتُك على مِقدار همّتى، فلا تكدّرْها بما ينغّصُها.

فقال : إنّما أريد الزيادةَ فى تأنيسك، بأن لا ترانى متحفّظاً مَما خِفْتَ، وعزم علىَّ فى إنشادها، عزم مُجدٍّ فقلت: يريد أن تطرأ على سمعِهِ، فيثورُ ما فى نفسه، فيوقعُ بى. ولم أجد من إنشادها بدّاً، فأنشدتُهُ القصيدةَ، فلمّا فَرغْتُ منها، عاتبنى عتاباً سهلاً، فكان منه أن قال: يا هذا، ما حملَكَ على تكلّف إجابتى؟

فقلت : الأميرُ أصلحه الله، حمَلَنى على ذلك بقوله:

وأبى مَن لا كِفاء له مَن يُسامى مجدَه؟ قولوا!

فقلتُ كما تقول العرب، وتفتخر السوقة على الملوك، وكنتُ لما بلغتُ إلى قولى:

يا ابنَ بيْتِ النار موقدِها ما لحاديه سراويلُ

قال لى : يا ابنَ مسلَمة، لقد أحصينا فى خزائن ذى اليمَينيْن بعد موته، ألفين وثَلثُمائِة سراويل من صنوف الثّياب، ما أصلحَ فى أحدها تكّة، سوى ما استُعمل فى اللّبس، على أنّ النّاس يقلّون اتّخاذ السراويلات فى كُسَاهم.

---

(١) البر : البادية.

(٢) هنا يتجلى ذكاء عبدالله بن طاهر فى تحويل مجرى الحديث بالسؤال عن الثائر الخارجى، وفى نفس الوقت يطمئن الحصنى بأنه ليس شاغله.. وسيكون أكبر نفساً حين يطلب منه أن ينشد أمامه قصيدته فى هجاء آبائه.

فاعتذرتُ إليه بما حضرني من القول فى هذا، وفى جميع ما تضمنّته القصيدة، فقَبل القول، وبَسَطَ العُذر، وأظهر الصفح.

وقال : قد دللتنا على ما احتجنا إليه، من معرفة أمرِ نَصْرِ بن شَبَث، أفتستحسِنُ القعود عنّا فى حربه. ولا يكون لك فى الظَّفَرِ به أثر يشاكل إرشادك لوجوه مطالبه؟ فاعتذرتُ إليه بلزوم ضيعتى ومنزلى، وعجزى عن السّفر للقصور عن آلته.

فقال : نكفيكَ ذلك، وتقبَّله منّا، ودعا بصاحب دوابّه، فأمره بإحضار خمسة مراكبٍ من الخيل الهَمَاليج بسروجها ولُجُمها المُحَلاة، وبثلاث دوابَ من دوابّ الشّاكريّة، وخمسة أبغل من بغال الثقل، وأمر صاحب كسوته بإحضار خمسة تخُوتٍ من أصناف الثياب الفاخرة، وأمر خازنه بإحضار خمس بدر دراهم، فأحضر جميعُ ذلك، ووُضعَ على الدّكان الذى كان عليه جالساً بباب الحِصن.

ثم قال لى: كم مدَّة تأخرّك عنّا إلى أن تلحق بنا ؟ فقرَّبْتُ الموعد، فقام ليركب، فابتدرت إلى يده لأقبلّها، فمنعنى، وركب، وسار الجيش معه، وما ترك أحداً ينزل، وكفى الله مؤونتهم، وخرجَت السوداء، فنقلت الثيابَ والبِدَر، وأخذ الغِلمان الكُراع، وما لَقِيتُ عبدالله بعدها.

✿✿✿

١٥ - عَرَبٌ وأتْرَاك

كان الإفشين [١] نَقَمَ على أبى دُلَف العِجْلِىِّ [٢]، وهـو مضمـوم إليـه فـى حـرب بَابك[٣]، أشياء، فلمّا ظفر ببَابك، وقَدِم "سُرَّ مَنْ رَأى"، شكاه إلى المُعتصم، وسأله ليأمرَه به، ففعل، ثم سأله أن يُطلقَ يده عليه، فلم يفعل، وكان أحمدُ بنُ أبى دُؤَاد متعصباً لأبـى دُلَف، يقول للمعتصم: إنّ الإفشينَ ظالمٌ له، وإنّما نَقَمَ عليه نصيحتَه فى مُحاربـة بَـابك، وجدّه فيها، ودَفْعَهُ ما كان الإفشين يذهـب إليـه مـن مُطاولـة الأيّـام، وإنفـاقِ الأمـوال، وانبساطِ اليد فى الأعمال، وتركَهُ متابعتهِ على ذلك.

فألحّ الإفشينُ على المعتصم بالله فىإطلاق يده عليه، وكـان للإفشـين قـدْرٌ جليـل عند المعتصم، يدخل عليه بغير إذْن.

"قال ابن أبى دُؤَاد" : دَخَلْتُ على المعتصم يوماً، فقال: يا أبـا عبـدالله لم يدعْنـى اليومَ أبوالحسن الإفشين حتّى أطلقتُ يدَه على القاسم بن عيسى (يعنى أبا دُلَف).

فقمتُ من بين يديه، وما أبصُر شيئاً خوفاً على أبى دُلف، ودخلنى أمـر عظيـم، وخرجتُ فركبتُ دابتى، وسرتُ أشدَّ سير من الجَوْسَق إلى دار الإفشين بقـرب المَطيـرة، أؤمّل أن أدرك أبا دُلَف قبل أن يُحْدثَ الإفشينُ عليه حادثة.

فلمّا وقفتُ ببابه، كَرِهتُ أن أستأذن فيعلمَ أنّى قد حضـرتُ بسـبب أبـى دُلَـف، فيُعَجّل عليه، فدخلتُ على دابتى إلى الموضع الذى كنت أنزل فيه، وأوهمتُ حاجبه أنّى قد جئتُ برســالة المعتصـم، ثـمّ نزلـتُ، فرُفِـعَ السِّـتر، فدخلـتُ، فوجـدتُ الإفشـينَ فـى موضعه، وأبا دُلف مقيَّد بالحديد بين يديه فى نِطْعٍ، وهو يُقرِّعُهُ، ويخاطبُـه بأشـدِّ غضـب وأعظمِ مُخاطبة.

فحين قُرْبتُ منه أمسَكَ، فسـلّمْتُ، وأخـذتُ مجلسـى، ثـمّ قلـت للإفشـين": قـد عرفتَ حُرمتِى بأمير المؤمنين، وخدمتى إيّاه، وموضعى عنده، وموقعى من رأيـه، وتفـرّدَه بالصنيعة عندى والإحسان، وعلمت مع ذلك ميلى إليك، ومحبّتى لك، وقد رَغِبتُ إليك فيما يَرْغَبُ فيه مثلى إلى مثلِك، مّمن رفع الله قدره، وأجلَّ خطره، وأعلى همّته.

---

(١) الإفشين قائد من الترك، صارت إليه قيادة الجيوش فى عصر المعتصم الذى استكثر من جنود الترك، خروجاً عن صراعات العرب والفُرس، فتحوّل الدواء إلى داء جديد، وهذه القصة تجسد جانباً من الصراع العربى التركى.

(٢) من أبطال العرب وقادتهم، واسمه القاسم بن عيسى.

(٣) بابك الخُرمى ثائر فارسى على الخلافة العباسية، هزمه الإفشين وقتله.

فقال : كلُّ ما قلتَ كمـا قلـتَ، وكـلّ مـا أردتَ فهـو مبـذول لـك، خـلا هـذا الجالس، فإنّي لا أشفّعُكَ فيه.

فقلت : ما جئتُكَ إلاّ فى أمره، ولا ألتمس منك غيرَه، ولولا شدّة غضبـك، ومـا تتوعده به من القتل، لكان فى جميل عفوكَ ما يُغنى عـن كلامـك، ولكنّى لما عرفـتُ غيظَك، وما تَنْقِمه عليه، احتجتُ - مع موقعه منّـى - إلى كلمـة فـى أمـره، واستيهاب عظيمِ جُرْمه، إذ كان مثلك فى جلالتك إنّما يسأل جلائلَ الأمور.

فقال : يا أبا عبدالله، هذا رجل طَلَبَ دمى، و لم تُقنعـه إزالـةُ نعمتـى، ولا سـبيل إلى تشفيعكَ فيه، ولكنْ هذا بيتُ مالى، وهذه ضياعى، وكلُّ ما أملك بين يديك، فخـذ من ذلك كلّه ما أردتَ.

فقلتُ : بارك الله لك فى أموالك وثَمَّرها، لم آتِـكَ فـى هـذا، وإنّمـا أتيتُـك فـى مَكْرُمَةٍ يبقى لك فضلُها، وحسنُ أحدوثتِها، وتعتقد بها مِنّة فى عنقـى، ولا أزال مرتَهنـاً فى شكرها.

فقال: ما عندى فى هذا شيء البتّةَ.

فقلتُ له: القاسمُ بن عيسى فارسُ العرب وشريفُها، فاستَبقه، وأنعمْ عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً، فهَبْه للعرب كلّها، وأنتَ تعلم أنّ ملوكَ العجم لم تزل تَفْضُلُ علـى ملـوك العرب، ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النّعمان حتّى ملّكه، وأنـتَ الآن بقيّـةُ العَجَـم وشريفُها[1]، والقاسمُ شريفُ العرب، فكن اليوم شريفاً من العَجَم أنعمَ على شريفٍ مـن العرب، وعفا عنه.

فقال : ما عندى فى هذا جواب إلاّ ما سمعْتَ، وتنكّر، وتبيّنْتُ الشرَّ فى وجهه.

فقلتُ في نفسي: أنصرفُ، وأدَعُ هذا يقتل أبا دُلَف؟ لا والله، ولكـن أمْثُـلُ بـين يديه قائماً، وأكلّمُهُ، فلعله أن يستحيَ، فقمْتُ، وتوهّمنى أريد الانصرافَ، فتحفّزَ لى.

فقلت: لستُ أريد الانصـراف، وإنّمـا مَثُلْـتُ بـين يديـك قائمـاً، صـابراً، راغبـاً، ضارعاً، سائلاً، مُستَوْهِباً هذا الرّجلَ منك.

فكان جوابه أغلظ.

(١) اعتبر ابن أبى دؤاد "العجم" جنساً جامعاً لكل مَن ليسوا عرباً، وهذا صحيح وإن يكن ضَرَبَ المثل للقـائد التركى بكسرى فارس.

فتحيّرتُ، وقلتُ في نفسي: أنكبُّ على رأسه، فأقبّله. فدَخَلَني من ذلك أنَف شديد(١)، وقلتُ في نفسي: أقبِّلُ رأسَ هذا الاقلف؟(٢) لا يكون هذا أبداً.

ثمّ راجعتني الشّفقةُ على أبي دُلَف، فقبّلتُ رأسَه، وضَرَعتُ إليه، فلم يجبني، فأخذني ما قَدُم ومَا حَدَثَ.

فجلست، وقلت له: يا أبا الحسن، قد طلبت منك، وضَرَعْتُ إليك،

ووضعتُ خدّي لك، ومثلت بين يديك، وقبّلتُ رأسَكَ، فشفّعْني، واصرِفْني شاكراً، فهو أجملُ بك.

فقال: لا واللهِ، ما عندي غير الّذي قلته لكَ.

فقلت له: أنا رسول أمير المؤمنين إليك، وهو يقول لك: لا تُحْدِثْ في القاسم بن عيسى حَدَثاً، فإنّك إن قتلتَه قُتِلتَ به.

قال : أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلقَ يدي عليه؟

قلت: نعم، أنا رسوله إليك بما قلتُه لك، فإن كنتَ في الطّاعة فاسمعْ وأطِعْ، وإن كنتَ قد خَلَعْتَ، فقل: لا طاعة! ونفضتُ في وجهه يدي، ونهضتُ.

فاضطرب حتّى لم يقدْر أن يدعوَ لي بدابّتي.

وركبتُ، فأغذَذْتُ السير إلى المعتصم، لأخبره الخبر، وبما اضطررْتُ إليه من تأدية رسالته، لأنّي علمتُ أنّه لم يقلْ لي ما قاله، إلا وهو يحبُّ استبقاء أبي دُلَف.

فانتهيتُ إلى الجَوْسَق في وقتٍ حار، والحجاب جميعاً نيام، والدّارُ خالية، فدخلتُ حتّى انتهيتُ إلى ستر الدّار التي فيها المعتصم، فجلست، وقلت: إن جاء الإفشين دخلتُ معه وتكلّمْتُ، وإن سألَ الوصولَ، أخبرتُ أميرَ المؤمنين الخبر كلّه(٣).

فبينا أنا كذلك، إذ خرج خادمٌ من وراء السِّتْر، فعرّفته، ثمّ دخل وخرج فقال: أدخل.

فدخلت، وقلت: يا أمير المؤمنين، أما لي حُرمة؟ أما لي ذِمام؟ أما لي حقّ؟ أما في فضل أمير المؤمنين عليّ، ونِعمته عندي، ما تجب رعايته؟

---

(١) الأنف والأنفة: الكبرياء والترفع.
(٢) الأقلف : الذي لم يُختن.
(٣) إشارة إلى ما أدعاه ابن أبي دُؤَاد من أنه يحمل رسالة صريحة من المعتصم بعدم قتل أبي دُلَف.

فقال: مالكَ يا أبا عبدالله؟ ما قصّتك؟ اجلس، فجلست.

ثمّ قلت: يا أميرَ المؤمنين، قلتَ لى اليوم فى القاسم بن عيسى قولاً علمتُ معه أنّك أردتَ استبقاءه وحَقْنَ دمه، فمضيتُ من فورى إلى أبى الحسن الإفشين، ثمّ قصصتُ عليه القصّة إلى موضع الرّسالة التّى أديتها عنه إليه، وهو فى كلّ ذلك يتغيّظ، ويفتل سِبالَه [1]، حتّى إذا أردتُ أن أعرّفه الرّسالةَ الّتى أدّيتُها عنه، قطع، وقال: يمضى قاضيَّ، وصنيعتى أحمدُ بنُ أبى دُؤَاد إلى خَيْذَر [2]، فيخضعُ له، ويقفُ بين يديه، ويُقبّلُ رأسه، فلا يشفّعه؟ قتلنى الله إن لم أقتلْه، يكررها.

فما استوفى كلامه، حتّى رُفِع السِّتر ودخل الإفشين، فلقيّه بأكبرِ البِّر والإكرام، وأجلسه بقُربه، وقال: فى هذا الوقت الحارّ يا أبا الحسن؟

فقال : يا أمير المؤمنين، رجلٌ قد عرفتَ ما نالنى منه، وأنّه طلب دمى، وقد أطلقتَ يدى عليه، يجيئُنى هذا، ويقول لى إنّك بعثتَ إلىّ تأمرنى أن لا أحْدِث فيه حَدَثاً، وأنّى إن قتلتهُ قُتِلْتُ به؟

قال : فغضب، وقال: أنا أرسلتُه إليك، فلا تُحدثْ على القاسم بن عيسى حَدَثاً.

فنهض الإفشين مغضَباً يُدَمْدِمُ، واتّبعته لأتلافاه، فصاح بى المعتصم: ارجع يا أبا عبدالله، فرجعتُ، وقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّه كان بقى شىء مما جرى منى قطعتنى بكلامك عن ذكره لك.

قال : تعنى الرّسالة؟

قلت : نعم.

قال : قد فهمتها، والقاسم (أبو دُلَف) يوافيك العشيَّةَ، فاحذر أن تفوه بشىء مّما جرى.

ومضى الإفشين، فأطلق القاسمَ، وخَلَع عليه، وحمَلَه، فجاءنى القاسم من العشيّة. وما أخبرتُ بالحديث حتّى قُتِل الإفشينُ، ومات المُعتصم.

❁❁❁

---

(١) السبال: الشارب.

(٢) خيذر بن كاوس هو الإفشين.

١٦- الكلُّ في واحد !!

حدّثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق التّنوخيُّ، قال:

كان إسماعيلُ الصَّفّار البصريُّ، أحدَ شيوخ المعتزلة الأجلاد، وكان النّاس -إذ ذاك- يتشدّدون على المعتزلة، وينالونهم بالمكاره.

فتقلّد البصرة نِزارُ بنُ محمدّ الضبّي، فرُفع إليه عن رجل أنّه مُعْتَزلي، فحبسه[1]، فاستغاث الرّجل بإسماعيل، فكلّم غير واحد من رؤساء البلد، أن يكلّم نِزاراً فيه، فتجنّبوا ذلك بسبب المَذْهب، فبات إسماعيل قلقا.

ثمّ بَكَرَ من غدٍ، فطاف على كلّ معتزليّ بالبصرة، وقال لهم: إن تمّ هذا عليكم هلكتم متفرّقين، وحُبِسْتُم، وأتيَ على أموالكم ونفوسكم، فاقبلوا منّي، واجتمعوا، وتدبّروا برأيي، فإنّ الرّجل يتخلّص وتعزُّون.

فقالوا : لا نُخالِف عليك.

فوعدهم ليوم بعينه، ووعد معهم كلَّ من يعرفه من العوام، وأصحاب المذاهب ممَن يتّبع قُصّاص المعتزلة، ومَن يميل إليهم؟

فلمّا كان ذلك اليوم، اجتمع له منهم أكثرُ من ألفِ رجل، فصار بهم إلى نزار، واستأذن عليه، فإذن له ولهم.

فقال : أعزّ الله الأمير، بلغَنا أنّك حَبَسْتَ فَلاناً، لأنّه قال : إنّ القرآن مخلوق، وقد جئناك، وكلّنا نقول: إنّ القرآن مخلوق، وخلفنا ألوف يقولون كما نقول، فإمّا حبستنا جميعاً، وإما أطلقتَ صاحِبنا، وإذا كان السُلطان -أطال الله بقاءه- قد ترك المِحْنة، وقد أقرّ النّاسَ على مذاهبهم، فلِمَ نؤاخَذُ نحن بمذهبنا، من بين سائر المقالات؟

فنظر نِزار فإذا فتنة تثور، لم يؤْذنَ له فيها، و لم يَدْرِ ما تجرّ، فأطلق الرّجل، وسلّمه إليهم.

فشكره إسماعيل، وانصرف والجماعة.

✿✿✿

---

(١) لا يزال الدساسون ضيقو الفكر يفلعون الشيء نفسه تحت شعار العقيدة، أو الأخلاق... وقد رسمت القصة (الخبر) طريقة الردّ على مَن يحارب الفكر بالعنف.

١٧- الشاعرُ والمُنجِّم !!

حدّثني عليُّ بنُ هشام بن عبدالله الكاتب، قال: حدّثنـي أبوالقاسـم سـليمان بـن الحسن بن مَخْلَد، قال :

لما أنفِذَ أبي إلى مصر، واجتذبْتُ أبا عُبادة البُحْتُرىَّ، وأبا مَعْشَـر المنجِّم، وكنتُ آنـس بهمـا فـى وَحدتـى، وملازمتـى البيـت، فكانـا أكـثرَ الأوقـات عنـدى، يحادثـانى ويعاشرانى.

فحدّثانى يوماً : إنهما أضاقا إضاقةً شديدة، وكانا مصطحبين، فعنَّ لهما أن يَلْقَيـا المعتّز بالله، وهو محبوس، فيتودّدان إليه ويوصّـلان عنـده أصـلاً [١]، فتوصّـلا إليـه، حتّـى لقياه فى حبسه.

قال البحترىّ: فأنشدتُه أبياتى الّتى كنت قلتُها فى محمّد بـن يوسـف الثّغْرى، لما حُبِس، وخاطبتُ بها المعتّز، كأنى عمِلتُها له فى الحال، وهى:

جُعلـتُ فِـداكَ الدّهـرُ ليـس بمنفــكّ	مـن الحـادثِ المشـكّو والنّـازل المشـكى
ومــا هـــذهِ الأيـــامُ إلاّ منـــازل	فمـن مـنزل رَحْـبٍ ومـن مـنزل ضنّـك
وقــد هذّبتْــك الحادثـــاتُ وإنّمـــا	صفـا الذّهـبُ الإبريـزُ قبلَـك بالسّـبْكِ
أمـا فـى رسـول الله يوسـفَ أسـوَةٌ	لمثلـكِ محبوسـاً علـى الظُلـم والإفْـكِ
أقـام جميـلَ الصبر فـى السّــجن برهـةً	فـآل بـه الصّـبر الجميـــل إلى المُلْــكِ
علـــى أنّه قـد ضِيم فى حبســك العُلاَ	وأصبح عزُّ الدّيـن فـــى قبضةِ الشّركِ

قال : فأخذ الرُّقعة الّتى فيها الأبيات، فدفعها إلى خادم كـان واقفـاً علـى رأسـه، وقال له: احتفظ بهذه الرُّقعـة، فـإن فـرَّج الله عنّى، فـأذْكِرنى بهـا، لأقضـىَ حـقّ هـذا الرّجل الحرّ.

وقال لى أبو معشر: وقد كنتُ أنا أخذت مولده، ووقتَ عُقدَ لـه العهـد، ووقـتَ عُقدت البيعةُ للمستعين بالخلافة، فنظرتُ فى ذلك، وصحّحـتُ الحكـم للمعـتّز بالخلافـة بعد فتنة تجرى وحـروب، وحَكَمْـتُ علـى المستعين بـالقتل، فسـلّمتُ ذلـك إلى المعـتز، وانصرفنا[٢].

---

(١) أى يقدمان له خدمة فى مرحلة اضطهاده، يقدِّرها لهما حين يئول الأمر إليه.

(٢) وهكذا خدع ولىّ العهد (المعتز) المتعلق بالخلافة بأبيات تناسب حاله لكنها ليسـت فيـه وتلفيقـات منجـم كاذب، وتفاءل بهذا وصدّقه، وأثاب عليه فيما بعد.

وضرب الزّمانُ ضربه، وصحّ الحكم بأسره.

قال أبومعشر: فدخلتُ أنا والبُحترى جميعاً إلى المعتّز، وهو خليفة، بعد خلع المُستعين وتغريقه، فقال لى: لم أنْسَكَ، وقد صح حُكْمُك، وقد أجريْتُ لك فى كلّ شهر مائةَ دينار، وثلاثين ديناراً نُزُلاً، وجعلتك رئيسَ المنجّمين فى دار الخلافة، وأمرتُ لك عاجلاً بإطلاقِ ألفِ دينارٍ صلَةً. فقبضتُ ذلك كله فى يومى.

✿✿✿

١٨- جَهَالَة أهلِ الثِّقَة

حدّثني محمّد بن مَخْلَد، وكان يلقَب لُبَد، لطول عمره، وروى عنه المدائنيّ الكاتب، عن أبيه مخلد بن يزيد :

أنّ المأمونَ، أوّلَ ما قدم العراق، خطر له أن يقلّد الأعمال، الشيعةَ[1] الذين قدموا معه من خُراسان، فطالت عُطلة كتّابِ السواد وعمّاله، وكانوا يحضُرون دارَه في كلّ يوم، حتّى ساءت أحوالهم.

فخرج يوماً بعض مشايخ الشيعة، وكان مغفّلاً، فتأمّل وجوههم، فلم يَرَ فيهم أسنَّ من مَخْلَدِ بن يزيد، فجلس إليه، وقال له: إن أمير المؤمنين أمرني أن أتخيّر ناحية من نواحي الخَراج، صالحةَ المِرْفق، ليوقّع بتقليدي إيّاها، فاختر لي ناحية.

فقال: لا أعرف لك عملاً أولى بك من بزبندات[2] البحر، وصدقات الوحْش.

فقال له : اكتبه لي، فكتبه له مَخْلَد، فعرض الشيعيّ الرُّقعةَ على المأمون، وسأل تقليدهَ ذلك العمل.

فقال له: مَنْ كتب لك هذه الرُّقعة؟

فقال: شيخٌ من الكتّاب، يحضرُ الدارَ في كلّ يوم.

فقال : هلمَّه.

فلمّا دخل، قال له المأمون: ما هذا يا جاهل؟ تفرّغتَ لأصحابي؟

ففقال له : يا أمير المؤمنين، أصحابُنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ ما يصل إلى أيديهم من الخزائن والأموال، وأما شروط الخَراج، وحكمه، وما يجب تعجيلُ استخراجه، وما يجب تأخيره، وما يجب إطلاقه، وما يجب منعه، وما يجب إنفاقه، وما يجب الاحتسابُ به، فلا يعرفونه، وتقليدهم يعود بذَهاب الارتفاع، فإن كنتَ يا أمير

---

(١) الشيعة يعني الأنصار الذين قاتلوا معه ضد أخيه الأمين.

(٢) بزبندات البحر: أي السدود التي تقام على شاطئه. وهنا كان أهل "الخبرة" الذين لحقهم التعطل يتهكمون من أهل "الثقة" الجهلاء، فليست هناك وظائف بهذا المعنى!!

المؤمنين لا تثق بنا، فضمّ إلى كلّ واحد منهم رجلاً منّا، فيكون الشيعيُّ يحفظ المال، ونحن نجمعه.

فاستطاب المأمون رأيه وكلامَه، وأمر بتقليد عمّال السَّوَاد وكتّابه، وأن يَضُمَّ إلى كلٍّ واحد منهم، واحداً من الشيعة، وضمّ مَخْلَدَ إلى ذلك الشيخ، وقلّده ناحية جليلة.

✿✿✿

١٩- مصادفة .. صدقتْ

حدّثني عبيدُالله بن محمّد العَبْقَسي، عن بعض تجّار الكَرْخ ببغداد، قال:

كنتُ أعاملُ رجلاً من الخُراسـانيّة، أبيعُ لـه فـي كـلّ مَوْسِـم متاعـاً، فـانتفعُ مـن سمسرته بألوف دَراهم.

فلمّا كان سنةً من السنين تأخّر عنّي، فأثّر ذلك في حالي، وتواترت علـيّ مِحـنٌ، فأغلقتُ دكّاني وجلستُ في بيتي، مستتراً من دَيْن لحقني، أربع سنين.

فلمّا كان في وقت الحاجّ، تتبّعتْ نفسي خبرَ الخُراساني، طمعاً في إصلاح أمري به، فمضيْتُ إلى سوق يَحيى، فلم أُعْطَ له خـبراً، فرجعـتُ، فـنزلتُ الجزيـرة وأنـا تعـب مغموم.

وكان يوما حاراً، فنزلتُ إلى دجلـة، فتغسّـلت، وصعـدت فـابتلّ موضـعُ قدمـي، فقلعتْ رجلي قطعةً من الرمل، انكشفت عن سَيْر.

فلبسـتُ ثيـابي، وجلسـتُ مفكّـراً أولَـعُ بالسـير، فلـم أزل أجـرّه حتّـى ظهـر لي هِمْيَان[1] موصول له، فأخذتُه، فإذا هو مملوء دنانيرَ، فأخفيتُه تحت ثيابي، ووافيتُ منزلي، فإذا فيه ألفُ دينار.

فَقويتْ نفسي قوّةً شديدة، وعاهدتُ الله عَـزَّ وجَـلَّ، أنّـه متى صَلُحَـت حـالي، وعادت، أن أعرّف الهيمانَ، فمَن أعطاني صِفَتَه، رددتُه عليه.

واحتفظتُ بالهِميان، وأصلحتُ أمري مع غُرَمائي، وفتحتُ دكّـاني، وعـدتُ إلى رَسْمِي من التجارة والسَّمْسَـرة، فمـا مضـت إلا ثـلاثُ سـنين حتّـى حَصَـل فـي مِلكـي ألوفُ دنانير.

وجاء الحُـجُّ، فتتبّعْتهـم لأعـرف الهِميـان، فلـم أجـد مَـن يعطينـي صفتَـه، فعـدتُ إلى دكّاني.

---

(١) الهميان: الحزام وقد ربط إليه كيس لحفظ النقود.

فبيما أنا جالس، إذا رجل قائم حيال دكّاني، أشعثَ، أغبرَ، وافى السِّبال[1]، فـي خِلْقَـه سُـؤّال[2] الخُراسانيّة، وزيِّهـم، فظننتـه سائلاً، فأومـأتُ إلى دُرَيْهمـات لأعطيَـه، فأسرع الانصراف، فارتْبتُ به، فقمتُ، ولحِقْته، وتأمّلته، فإذا هو صـاحبى الـذى كنت أنتفع بسمسرته فى السنة بألوفِ دراهم.

فقلت له: يا هذا، ما الذى أصابك؟ وبكيْتُ رحمةً له.

فبكى، وقال : حديثى طويل.

فقلت: البيت، وحملْته إلى منزلى، فأدخلته الحَمَّام، وألبستُه ثياباً نظافـاً، وأطعمتـه، وسألته عن خبره.

فقال: أنت تعرف حالى ونعمتى، وإنّـى أردتُ الخـروج إلى الحَـجِّ فـى آخـر سـنة جئتُ إلى بغداد، فقال لى أمير البلد: عنـدى قطعـةُ يـاقوتٍ أحمـرَ كـالكفّ، لا قيمـة لهـا عِظَماً وجلالةً، ولا تصلح إلاّ للخليفة، فخذها معـك، فبعْهـا لى ببغـداد، واشـترِ لى مـن ثمنها متاعاً طَلَبه، من عِطر. وطرَف بكذا وكذا، وأحمل الباقى مالاً.

فأخذتُ القطعةَ الياقوت، وهى كما قال، فجعلتُها فـى هميـان جلْـد، مـن صفتـه كيْتَ وكيْتَ، ووصف الهميان الّذى وَجَدْتُهُ، وجعلتُ فى الهِيمانِ ألـفَ دينـار عيْنـاً مـن مالى، حملته فى وَسَطى.

فلمّا جئتُ إلى بغداد، نزلتُ أسبح عشيّاً فى الجزيرة الّتى بسُوقِ يَحيـى، وتركـتُ الهِميانَ وثيابى بحيث ألاحظُها.

فلمّا صعِدت من دِجلة، لبستُ ثيابى عند غروب الشمس، وأنْسيتُ الهِميان، فلـم أذكرْه إلى أن أصبحتُ، فعدتُ أطلبه، فكأنَّ الأرضَ ابتلعته.

فهونـت علـى نفسـى المصيبـة، وقلـت: لعـلَ قيمـة الحَجَـر ثلاثـةُ آلاف دينـار، أغرمها له.

فخرجتُ إلى الحجّ، فلمّا رجعتُ، حاسْبْتُك على ثمن متاعى، واشتريتُ للأمير مـا أراده، ورجعتُ إلى بلدى، فأنفذتُ إلى الأمير ما اشتريتُه، وأتيتُه، فأخبرتُه بخبرى.

---

(١) السبال : الشارب، فالرجل أشعث مهمل الشعر لبؤسه.
(٢) السؤال (بتشديد الهمزة) : جمع سائل، وهو الشحاذ.

وقلت له : خذ منّى تمام ثلاثة آلاف دينار، عِوَضاً عن الحَجر.

فطَمع فيّ وقال: قيمته خمسون ألف دينار، وقبض عليّ، وعلى جميع ما أملكه من مال ومتاع، وأنزل بى صنوف المكاره، حتّى أشهَدَ عليَّ فى جميع أملاكى [1] ، وحبسنى سبع سنين، كنتُ يُرَدَّدُ عليَّ فيها العذاب.

فلمّا كان فى هذه السنة، سأله النّاس فى أمرى، فأطلقنى.

فلم يمكننى المُقام ببلدى، وتحمّلُ شماته الأعداء، فخرجتُ على وجهى، أعالجُ الفقرَ، بحيث لا أعْرَف، وجئتُ مع الحَجّ الخُراسانى، أمشى أكثرَ الطريق، ولا أدرى ما أعمل، فجئت إليك لأشاورَك فى معاشٍ أتعلّق به.

فقلت: قد ردَّ الله عليك بعضَ ضالّتك، هذا الهميان الذّى وصفْتَه، عندى، وكان فيه ألفُ دينار أخذتُها، وعاهدتُ الله تعالى، أنّنى ضامنها لمن يعطينى صفةَ الهِيمان، وقد أعطيتنى أنت صفتَه، وعلمتُ أنّه لك، وقمتُ، فجئتُه بكيسٍ فيه ألفُ دينار.

وقلتُ له: تعيّشْ بهذا فى بغداد، فإنّك لا تَعْدَمُ خيراً إن شاء الله.

فقال لى : يا سيّدى الهِيمان بعينه عندك، لم يخرج عن يدك؟

قلت: نعم.

فشَهِقَ شهقة، ظننتُ أنّه قد مات معها، وغُشىَ عليه، فلمّا أفاق بعد ساعة، قال لى : أين الهِميان؟

فجئتُه، فطلب سكّيناً، فأتيتُه بها، فخرق أسفل الهِميان، وأخرج منه حَجَرَ ياقوتٍ أحمر، أشرق منه البيت، وكاد يأخذ بَصَرى شعاعُهُ، وأقبل يشكرنى، ويدعو لى.

فقلتُ له : خذ دنانيرك.

فحلف بكلِّ يمين، لا يأخذ منها إلاّ ثمنَ ناقة، ومحمل، ونفقة تُبْلِغه، فبعد كلّ جهد أخذ ثلثمائة دينار، وأحلّنى من الباقى، وأقام عندى، إلى أن عاد الحاج، فخرج معهم.

فلمّا كان العام المقبل، جاءنى بقريب مّما كان يجيئنى به سابقاً من المتاع.

---

[1] أى أن أمير البلد استولى على جميع ما يملك فى كقابل الياقوتة المفقودة، وأشهد عليه أنه باع له هذه الممتلكات!!

فقلت له: أخبرني خبرك.

فقال: مضيتُ، فشرحتُ لأهل البلد خَبَري، وأريتُهم الحجَر، فجاء معي وجوهُهم إلى الأمير، وأعلموه القصّة، وخاطبوه في إنصافي.

فأخذ الحجَر، وردّ عليَّ جميع ما كان أخذه منّي، من متاع، وعَقار، وغير ذلك، ووهبَ لي من عنده مالاً.

وقال : اجعلني في حِلّ مَما عذبتُك وآذيتُك، فأحللته.

وعادت نعمتي إلى ما كانت عليه، وعدتُ إلى تجارتي ومعاشي، وكلّ هذا بفضل الله تعالى وبركتك، ودعا لي.

وكان يجيئني بعد ذلك، حتّى مات.

✿✿✿

٢٠- المأمون يعود إلى السماع

حدّثنى أبوالفرج الأصبهانيُّ، قال :

أقام المأمونُ بعد دخوله بغداد عشرين شهراً، و لم يسمع حرفاً من الأغانى، ثم كان أوّلَ مَن تغنّى بحضرته أبوعيسى بن الرّشيد أوّل مرّة، ثمّ واظب على السماع متستّراً، متشبّهاً بالرّشيد فى أوّل أمره، فأقام المأمون كذلك أربع سنين، ثم ظهر للندماء والمغنّين.

قال إسحاقُ بنُ إبراهيمَ الموصلى: وكان حين أحبّ السماع، سأل عنّى، فجُرِّحْتُ بحضرته، وقال الطاعن علىّ: ما يقول أمير المؤمنين فى رجل يَتيهُ على الخلفاء، ما بَقّى هذا من التيه شيئاً إلاّ استعمله.

فأمسك عن ذكْرى، وجفانى مَن كان يصلنى لسوء رأيه فىَّ، فأضرَّ ذلك بى، حتّى جاءنى عَلُّويَه يوماً، فقال لى: أتأذن لى فى ذِكْرِكَ بحضرة المأمون، فإنّا قد دُعِينا اليوم.

فقلت: لا، ولكن غنّه بهذا الشعر، فإنّه يبعثه على أن يسألك لمن هو؟ فإذا سألك انفتح لك ما تريده، وكان الجواب أسهَل عليك من الابتداء.

قال : هات، فألقيتُ عليه لحنى فى شعرى:

يا سَرْحَةَ الماء قد سُدَّت مواردُهُ ... أما إليك طريق غيرُ مسدودِ
لحائم حامَ حتّى لا حُيامَ به ... مشرّدٍ عن طريق الماء مطرودِ

قال أبوالفرج الأصبهانى: والغناء فيه لإسحاق الموصلى، رَمَلٌ بالوسطى، عنه، وعن عمرو بن بانة.

رجع الحديث، قال: فمضى عَلُّويَه، فلمّا استقرّ به المجلس، غناه بالشعر، الذّى أمره به إسحاق.

فقال المأمون، ويلُك يا عَلُّويه، لمن هذا الشعر؟

فقال : يا سيّدى لعبدٍ من عبيدك، جفوتَه، وأطرحتَه، من غير ذنب.

فقال : إسحاقَ تَعْنِى؟

قال : نعم.

فقال : يحضر الساعة.

قال إسحاق: فجاءنى رسول المأمون، فصرتُ إليه، فلمّا دخلتُ إليه استدنانى، فدنوْتُ منه، فرفع يديه إلىّ مادّهما، فانكببتُ عليه، فاحتضننى بيديه، وأظهر من بِرِّى وإكرامى، ما لو أظهره صديق مؤانس لصديق، لسُرَّ به.

✿✿✿

القصص الشعبية

١- راكب الأسد

حدّثني أبوجعفر أصبغ بن أحمد، وكان يحجُبُ أبا محمد المُهَلّبي رحمه الله، قبل وزارته، فلما وَلِيَ الوّزارة كان يصّرفه في الاستِحْثَاث على العمال[1]، وفي الأعمال التي يتصرّف فيها العمّال الصغار، قال:

كنت بشيراز مع أبي الحسن علي بن خلف بن طناب، وهو يتولّى عمالَتها يومئذ.

فجاء مُستحثٌ من الوزير، يطالبه بحمل الأموال، وكان أحد العمّال الأكابر، وقد كُوتب بإكرامه.

فأحضره أوّل يوم طعامه وشرابه، فامتنع من مؤاكلته، وذكر أنّ له عذراً.

فقال : لابدّ أن تأكل.

فأكل بأطراف أصابعه، و لم يُخرج من كُمّه.

فلمّا كان في غد، قال عليّ بن خلف لحاشيته: لِيدْعُه كلَّ يوم واحدٌ منكم، فكانوا يدعونه، ويدعون بعضهم بعضاً، فكانت صورته في الأكل واحدة.

فقالوا : لعل به برصًا أوجذاماً.

إلى أن بلغت النوبة إليَ، فدعوتُه ودعوتُ الحاشية، وجلسنا نأكل، وهو يأكل معنا على هذه الصورة، فسألته إخراج يده والانبساطَ في الأكل، فامتنع عن إخراج يده.

فقلت له: يلحقك تنغيص بالأكل هكذا، فأخرِجْها على أىّ شيء كان بها، فإنّا نرضى به.

قال : فكشفها، فإذا فيها وفي ذراعه أكثرُ من خمسين ضربة، بعضها مُندمل، وبعضها فيه بقّية، وعليها أدوية، وهي على أقبح منظر.

(١) الاستحثاث هو ما نطلق عليه الآن: متابعة الخطة أو مراقبة الموظفين.

فأكل معنا غير مُحْتَشم[1]، وقُدّم الشراب فشربنا، فلما أخذ منه الشراب، وسألناه عن سبب تلك الضربَات.

فقال : هو أمر طريف أخاف أن لا أصدَّق فيه.

فقلت : لابدّ أن تتفضّل بذلك.

فقال : كنت عام أوّل قائماً بحضرة الوزير، فسلّم إلىّ كتاباً إلى عامل دمشق، ومنشوراً، وأمرنى بالشخوص إليه، وإرهاقه بالمطالب بحمل الأموال، ورسم لى أن أخرج على طريق السَّماوة لأتعجّل، وكتب إلى عامل هَيْت[2] بإنفاذى مع خِفارة.

فلما حَلَلْتُ بـ "هيْت"، استدعى العاملُ جماعة من عدّةٍ من أحياء العرب، وسلّمنى إليهم، وأعطاهم مالاً على ذلك، وأشهد عليهم بتسلّمى، واحتاط فى أمرى.

وكانت هناك قافلة تريد الخروج منذ مدّة، وتتوقّى البَرِّيَّةَ، فأنسوا بى وسألونى أن آخذ منهم لنفسى مالاً، وللخفراء الأعراب مالاً، وأحلَهم فى الخِفارة، ويسيرون معى، ففعلتُ ذلك، فصرنا قافلة عظيمة.

وكان معى من غِلمانى ممّن يحمل السلاح نحو عشرين غلاماً، وفى حمّالى القافلة والتجار جماعة يحملون السلاح أيضاً.

فرحلنا عن هَيْت، وسرنا فى البرّية ثلاثة أيّام بلياليها، فبينا نحن نسير إذ لاحتْ لنا خيل.

فقلت للأعراب: ما هذه الخيل؟ فمضى منهم قوم إليهم ثم عادوا كالمنهزمين.

فقالوا: هؤلاء قوم من بنى فلان بيننا وبينهم شرٌّ وقتال، ونحن طَلِبَتُهُم[3]، ولاثبات لنا معهم، ولا يمكننا خفارتَكم معهم، وركضوا منصرفين، وبقينا متحيّرين، فلم أشكّ أنّهم كانوا من أهلهم، وأنهم فعلوا ذلك بمُوَاطأةٍ علينا.

---

(١) دون شعور بالحرج.

(٢) السماوة: بادية الشام، وهيت: إحدى القرى فى الطريق إليها.

(٣) طلبتهم : الهدف الذى يبحثون عنه.

فجمعتُ القافلة، وشجّعتُ أهلها وغلماني، وضممتُ بعضها إلى بعض، وأمرتهم بحمل السلاح، وَلأمَةِ[1] الحرب، فصرنا حول القافلة من خارجها متساندين إليها كالدائرة.

وقلت لمن معي: لو كان هؤلاء يأخذون أموالنا ويَدَعُون جمالَنا لننجوَ عليها كان هذا أسهل، ولكنّ الجمال والدواب أوّلُ ما تؤخذ، ونتلف نحن في البريّة ضيعة وعطشاً، فاعملوا على أن نقاتل، فإن هزمناهم سلِمنا وإن قُتِلنا كان أسهل من الموت بالعطش.

فقالوا : نفعل.

وغَشِينَا القومُ، فقاتلناهم من انتصاف النهار إلى أن حجز الليل بيننا، و لم يقدروا علينا، وقتلْنا عدّة خيل، وجرحنا منهم جماعة، وما ظفِروا منّا بعَوْرة، وباتوا بالقرب منّا حَنِقين علينا.

وتفرّق الناس للأكل والصلاة، واجتهدتُ بهم أن يجتمعوا، ويبيتوا تحت السلاح، فخالفوني، وكانوا قد كلّوا وتعِبُوا، ونام أكثرهم.

فغشيتنا الخيلُ، فلم يكن عندنا امتناع، فوضعوا فينا السيوف، وكنت أنا المطلوبَ خاصّة، لما شاهدوه من تدبيري القوم برأيي، وعلموا أنّي رئيسُ القافلة، فقطّعوني بالسيوف، ولحقتني هذه الجراحاتُ كلُّها، وفي بدني أضعافها.

قال : وقد كشف لنا عن أكثر جسده، فإذا به أمرٌ عظيم هالنا، و لم نره في بَشر قط.

قال : وكان في أجلي تأخيرٌ، فرميتُ نفسي بين القتلى، لا أشكّ في تلفي، وساقوا الجمال والأمتعة والأسارى.

فلما كان بعد ساعة، أفقتُ، فوجدتُ في نفسي قوّة، والعطش قد اشتدّ بي، فلم أزل أتحامل، حتى قمتُ أطلب في القافلة سطيحة[2] قد أفلتت، أشرب منها، فلم أجد شيئاً.

---

(١) لأمة الحرب: رداء الحرب من ثياب وسلاح.

(٢) السطيحة: وعاء الماء أو القربة.

ورأيتُ القتلى والمجروحين الذين هم فى آخر رمق، وسمعتُ من أنينهم ما أضعف نفسى، وأيقنت بالتلف.

وقلت : غاية ما أعيش إلى أن تطلعَ الشمس.

فتحاملتُ أطلب شجرة أو محملاً قد أفلت، لأجعله ظِلاً لى من الشمس إذا طلعت.

فإذا أنا قد عثرتُ بشىء لا أدرى ما هو، فى الظلمة، فإذا أنا مُنبطح عليه بطولى وطوله.

فثار من تحتى، وعانقته، وقدّرته رجلاً من الأعراب، فإذا هو أسدٌ!!

فحين علمتُ ذلك طار عقلى، وقلت: إن استرخيْت افترسنى، فعانقتُ رقبته بيدى، ونمتُ على ظهره، وألصقتُ بطنى بظهره، وجعلتُ رجلَيَّ تحت مَخْصَاه.

وكانت دمائى تجرى، فحين داخلنى ذلك الفزع العظيم رَقَأ[1] الدم، وعَلِقَ شعر الأسد بأفواه أكثر الجراحات، فصار سداداً لها، وعوناً على انقطاع الدم، لأنّى حَصَلتُ كالملتصق عليه.

وورد على الأسد منّى، أطرف ممّا ورد علىَّ منه وأعظم، وأقبل يجرى تحتى كما تجرى الفرس تحت الراكب القوىّ، وأنا أحسُّ بروحى تخرج، وأعضائى تتقصّف من شدّة جريه، و لم أشكّ أنّه يقصدِ أجَمَةً بالقرب، فيلقينى إلى لَبْوتِهِ فتفترسنى.

فجعلتُ أضبط نفسى مع ذلك وأؤمّل الفرج، وأدافع الموت عاجلاً، وكلّما همّ أن يربض ركضتُ خِصاه برجلى فيطير، وأنا أعجب من نفسى ومطيّتى، وأدعو الله عَزَّ وجَلَّ، وأرجو الحياة مرّة، ومرّة آيس من نفسى.

إلى أن ضربنى نسيمُ السَّحَر، فقويت نفسى، وأقبل الفجر يضىء، فتذكّرت طلوع الشمس فجزعت، ودعوتُ الله تعالى، وتضرعتُ إليه.

فما كان بأسرعَ من أن سمعت صوتاً ضعيفاً لا أدرى ما هو، ثم قوى، فشبهته بصوت ناعورة، والأسد يجرى، وقوى الصوت، فلم أشكّ فى أنّه ناعورة.

---

(١) رقا : تجمد وتوقف.

ثم صعد الأسد إلى تل، فرأيتُ منه بياض ماء الفرات وهو جار، وناعورة تدور، والأسد يمشي على شاطىء الفرات برفق، إلى أن وجد مُشْرعة[1] ، فنزل منها إلى الماء، وأقبل يسبح ليبعد.

فقلتُ لنفسي: ما قعودي، لئن لم أتخلّص هنا، لا تخلّصتُ أبداً.

فما زلت أرْفقُ به، حتى تخلصت، وسقطتُ، وسبحتُ منحدراً، وأقبل هو يشقّ الماء عرْضاً.

فما سبحتُ إلا قليلاً، حتى وقعت عيني على جزيرة، فقصدتها، وحصلت فيها، وقد بطَلَتْ قوتي، وذهب عقلي، فطرحت نفسي عليها كالتالف.

فلم أحِسّ إلاّ بحر الشمس قد أنبهني، فرجعتُ أطلب شجرة رأيتها في الجزيرة، لأستظل بها من الشمس، فرأيتُ الأسد مُقْعياً على شاطىء الفرات حيال الجزيرة، فقلّ فزعي منه.

وأقمتُ مستظلاً بالشجرة، أشربُ من ذلك الماء، إلى العصر، فإذا أنا بزورق منحدر، فصِحتُ بهم، فوقفوا في وسط الماء.

فقلت : يا قوم، احملوني معكم، وارحموني.

فقالوا: أنت دسيس اللصوص.

فأريتهم جراحاتي، وحلفتُ لهم أنّه ما في الجزيرة بعلمي أحد سواي، وأومأتُ لهم إلى الأسد، وقلت لهم: قصّتي طريفة، وإن تجاوزتموني كنتم أنتم قد قتلتموني، فالله الله، في أمري، فوقفوا، فأتوا، فحملوني.

فلمّا حصلت في الزورق، ذهب عقلي، فما أفقتُ إلاّ في اليوم الثاني، فإذا عليّ ثياب نِظاف، وقد غسلت جراحاتي، وجُعِل فيها الزيت والأدوية، وأنا بصورة الأحياء.

فسألني أهل الزورق عن حالي، فحدّثتهم.

وبلغنا إلى هيت، فأنفذتُ إلى العامل مَن عرّفه خبري، فجاءني مَن حملني إليه.

وقال : ما ظننتُ أنّك أفْلتّ، فالحمدلله على السلامة.

---

(١) المشرعة: الموردة.

وقال لى : كيف هذا الذى جرى لك؟

فحدّثته الحديث من أوّله إلى آخره، فتعجّب عجباً شديداً، وقال: بين الموضع الذى قُطع عليكم فيه الطريق، وبين الموضع الذى حملك أهل الزورق منه مسافةُ أربعين فرسخاً على غير مَحَجّة.

فأقمتُ عنده أياماً، ثم أعطانى نفقةً، وثياباً، وزورقاً، فجئتُ إلى بغداد، فمكثتُ أعالج جراحاتى عشرة أشهر حتى صرتُ هكذا.

ثم خرجتُ وقد افتقرتُ، وأنفقتُ جميع ما كان فى بيتى، فلمّا قمتُ بين يدى الوزير، رقّ لى، وأطلق مالاً، وأخرجنى إليكم.

✿✿✿

٢ - الجميلة المتوحشة

حدّثنى أبوالمغيرة محمّد بن يعقوب بن يوسف، الشاعر البصرى، قال:

حدّثنى أبو موسى عيسى بن عبدالله البغدادى، قال: حدّثنى صديق لى قال:

كنتُ قاصداً الرملة [1] وحدى، وما كنتُ دخلتها قط.

فانتهيتُ إليها وقد نام الناس، ودخل الليل، فعَدَلْتُ إلى الجبّانة، ودخلتُ بعض القِباب التى على القبور، فطرحتُ دَرَقَة [2] كانت معى، واتّكأتُ عليها، وعانقت سيفى،واضطجعتُ أريد النوم، لأدخلَ البلد نهاراً.

قال: فاستَوْحَشْتُ من الموضع، وأرِقتُ، فلمّا طال أرقى، أحسستُ بحركة.

فقلت: لصوص يجتازون، ومتى تصدّيتُ لهم، لم آمنهم، ولعلّهم أن يكونوا جماعة، فانخزلتُ بمكانى، و لم أتحرّك.

وأخرجتُ رأسى من بعض أبواب القبّة، على تخوّف شديد منّى، فرأيتُ دابّة كالذئب تمشى، فإذا به قصد قبّة بحيالى، وما زال يتلفت طويلاً، ويدور حواليها، ثم دخلها.

فارتبتُ، وأنكرتُ أمره، وتطلّعَتْ نفسى إلى علم ما هو فيه.

فدخل القبّة، وخرج غير مطيل، ثم جعل يتبصّر، ثم دخل وخرج بسرعة، ثم دخل وعينى إليه، فضرب بيده إلى قبر فى القبّة، ينبشه.

فقلت: نباش لا شكّ فيه، وتأملته يحفر بيده، فعلمتُ أنّ فيها آلة حديد يحفر بها.

فتركته إلى أن أطمأن وأطال، وحفر شيئاً كثيراً، ثم أخذتُ سيفى ودرقتى، ومشيْتُ على أطراف أناملى، حتى دخلتُ القبّة، فأحسّ بى، فقام إلىّ بقامة إنسان، وأومأ إلىّ ليلطمَنى، فضربتُ يده بالسيف، فأبنْتُها [3] وطارت.

فقال : أوّه، قتلتنى لعنك الله.

---

(١) الرملة : من مدن فلسطين.

(٢) الدرقة : الدرع المصنوع من الجلد.

(٣) أبنتها : قطعتها.

وعدا من بين يدىّ، وعدوْتُ خلفه، وكانت ليلة مقمرة، حتى دخل البلد، وأنا وراءه ولستُ ألحقه، إلاّ أنّه بحيث يقع بصرى عليه.

إلى أن احتاز بى طرقاً كثيرة، وأنا فى خلال ذلك أعلّم الطريق لئلا أضلّ، حتى جاء إلى باب، فدفعه ودخل وأغلقه، وأنا أسمع.

فعلّمت الباب، ورجعتُ أقفو الأثرَ والعلاماتِ التى علّمتها فى طريقى، حتى انتهيتُ إلى القبّة التى كان فيها النبّاش.

وطلبتُ الكفّ فوجدتها، فأخرجتها إلى القمر، فبعد جَهد، انتزعتُ الكفّ المقطوعة من الآلة الحديد، وإذا هى كفّ كالكفّ، وقد أدخل أصابعه فى الأصابع، وإذا هى كفّ فيها نقش حنّاء، وخاتمان من الذهب، فعلمتُ أنّها امرأة.

فحين علمتُ أنّها امرأة، اغتممت، وتأملتُ الكفّ، فإذا هى أحسن كفٍّ فى الدنيا، نعومة، ورطوبة، وسِمَناً، وملاحة.

فمسحتُ الدم عنها، ونمتُ فى القبّة التى كنتُ فيها، ودخلتُ البلد من الغد، أطلب العلامات التى علّمتها، حتى انتهيتُ إلى الباب.

فسألت : لمن الدار؟

فقالوا : لقاضى البلد.

واجتمع عليها خلق كثير، وخرج منها شيخ بهىّ، فصلّى الغداةَ بالناس، وجلس فى المحراب، فازداد عجبى من الأمر.

فقلتُ لبعض الحاضرين: بمن يُعرف هذا القاضى؟

فقال: بفلان.

وأطلتُ الجلوس والحديث فى معناه، حتى عرفتُ أن له أبنةً عاتقاً[1]، وزوجة، فلم أشكّ فى أنّ النباشة ابنته.

فتقدمتُ إليه، وقلت: بينى وبين القاضى أعزّه الله حديثٌ لا يصلح إلاّعلى خَلْوة.

---

(١) الفتاة العاتق: التى بلغت سنّ الزواج.

فقام إلى داخل المسجد، وخلا بي، وقال: قُلْ.

فأخرجتُ الكفّ وقلتُ: أتعرف هذه؟

فتأمّلها طويلاً، وقال : أمّا الكفّ فلا، وأما الخاتمان، فمن خواتيم ابنةٍ لي عاتق، فما الخبر؟

فقصصت عليه القصة بأسرها، فقال: قُمْ معي.

فأدخلني إلى داره، وأغلق الباب، واستدعى طبقاً وطعاماً، فأحضر، واستدعى امرأته، فقال لها الخادم: اخرجي.

فقالت: قُلْ له كيف أخرج ومعك رجل غريب، فخرج الخادم، وأعلمه بما قالت.

فقال : لابدّ من خروجها تأكل معنا، فهنا منَ لا أحتشمُهُ.

فتأبّت عليه، فحلف بالطلاق لتخرجنّ له فخرجتْ باكية، وجلست معنا.

فقلت لها : أخرجي ابنتَك.

فقالت: يا هذا، أو قد جُننتَ؟ ما الذي حلّ بك، قد فضحتني وأنا امرأة كبيرة، فكيف تهتِكُ صبيّةً عاتقاً؟ فحلف بالطلاق لتُخرجنّها، فخرجت.

فقال: كلي معنا، فرأيتُ صبية كالدينار، ما نظرتْ مقلتاي أحسنَ منها، إلاّ أن لونها قد أصفر جداً، وهي مريضة.

فعلمتُ أنّ ذلك لنزف الدم من يدها، فأقبلت تأكل بشمالها، ويمينُها مخبوءة.

فقال لها أبوها : أخرجي يَدك اليمنى.

فقالت أمّها: قد خرج بها خُرَّاج، وهي مشدودة، فحلف لتَخرُجنّها

فقالت له امرأته: يا رجل استر على نفسك، وابنتِكَ، فوالله، وحلفت له بأيْمان كثيرة، ما أُطلعت لهذه الصبيّة على سوء قط إلاّ البارحة فإنّها جاءتني بعد نصف الليل، فأيقظتني، وقالت : يا أمي، الحقيني، وإلاّ تلفتُ.

فقلت : مالَكِ؟

فقالت: إنّه قد قُطِعتْ يدي، وهو ذا أنزف الدم، والساعة أموت فعالجيني، وأخرجت يدها مقطوعة، فلطمتُ.

فقالت : يا أماه لا تفضحيني ونفسك بالصباح عند أبي والجيران، وعالجيني.

فقلت : لا أدرى بم أعالجك.

فقالت: إغلى زيتاً، وأكوى به يدى.

ففعلتُ ذلك، وكويتها، وشددتها، وقلت لها: الآن خبّرينى ما دهاك، فامتنعت.

فقلت: والله، إن لم تحدّثينى، لأكشفنّ أمرك لأبيك.

فقالت: إنّه وقع فى نفسى، منذ سنين، أن أنبش القبور، فتقدّمتُ إلى هذه الجارية، فاشترت لى جلد ماعز بشعره واستعملت لى كفًا من حديد.

فكنت إذا أعْتَمَ الليل، أفتح الباب، وآمرُها أن تنام فى الدهليز، ولا تغلق الباب، وألبس الجلد، والكفّ الحديد،وأمشى على أربع، فلا يشكّ الذى يرانى من فوق سطح أو غيره أنّنى كلب.

ثم أخرج إلى المقبرة، وقد عرفتُ من النهار، خبر مَن يموت من رؤساء البلد، وأين دُفن، فأقصد قبره، فأنبشه، وآخذ الأكفان، وأدخلها معى فى الجلد، وأمشى مشيتى، وأعودُ والباب غير منغلق، فأدخل، وأغلقه، وأنزع تلك الآلة، فأدفعها إلى الجارية، مع ما قدأخذتُ من الأكفان، فتخبئه فى بيت لا تعلمون به.

وقد اجتمع عندى نحو ثلثمائه كفن، أو ما يقارب هذا المقدار، لا أدرى ما أصنعُ بها، إلاّ أنّى كنت أجد لهذا الخروج، والفعل، لذّة لا سبب لها أكثر من إصابتى بهذه المحنة.

فلّما كانت الليلة، وسُلّط علىّ رجل أحسّ بى، كأنّه كان حارساً لذلك القبر، فقمتُ لأضرب وجهه بالكفّ الحديد، ليشغل عنّى، وأعدو، فداخلنى بالسيف، ليضربنى، فتوقّيتُ الضربة بيمينى، فأبان كفّى.

فقلت لها: أظهرى أن قد خرج فى كفّك خراج، وتعاللى، فإنّ الذى بك من الصفار، يصدّق قولك. فإذا مضت أيّام، قلتُ لأبيك: إذا لم تُقطع يدُك، خبُثَ جميع جسدك، وتلفتِ، فيأذن فى قطعها، فنظهر أنّا قد قطعناها، ويشيع الخبر - حينئذ- بهذا، ويستتر أمرك.

فعلمنا على هذا، بعد أن استتبتها[1]، فتـابت، وحَلَفَتْ بـالله العظيـم، لا عـادت تفعل شيئاً من ذلك.

وكنتُ قد خطر لى أن أبيع هذه الجارية، إلى سَفّار يُغرّبُها عن هذه البلد التى نحن فيها، وأراعى مَبيت الصبيّة، وأبيتُها إلى جانبى، ففضحتنا ونفسَك.

فقال القاضى للصبيّة: ما تقولين؟

فقالت : صدقت أمّى، ووالله، لا عدتُ أبداً، وأنا تائبةٌ إلى الله تعالى.

فقال لها أبوها: هذا صاحبك الذى قطع يدك، فكادت تتلف جزعاً.

ثم قال لى : يا فتى من أين أنت؟

قلت : من العراق.

قال : ففيمَ ورَدْتَ؟

قلت :أطلب الرزق.

قال : قد جاءك حلالاً طيباً، نحـن قـوم مياسـير[2]، ولله علينـا نعمـة وسـتر، فـلا تُنقص النعمة، ولا تهتك السِّـتر، أنـا أزوّجـكَ بـابنتى هـذه، وأغنيـكَ بمـالى عـن النـاس، وتكون معنا فى دارنا.

فقلت: نعم.

فرفع الطعام، ثم خرج إلى المسجد، والناس مجتمعون ينتظرونه فخطب، وزوّجنى، وقام فرجع، وأقعدنى فى الدار.

ووقعت الصبيّة فى نفسى، حتى كدتُ أموت عشـقاً لَهـا، فافترعتهـا[3] وأقـامت معى شهوراً، وهى نافرة منّى، وأنا أؤانسها، وأبكى حسـرة علـى يدهـا، وأعتـذر إليهـا، وهى تظهر قَبول عذرى، وأنّ الذى بها غمًّا على يدها، وهى تزداد حُنقاً علىّ.

إلى أن نمتُ ليلةً، واستثقلتُ فى نومى، فأحسستُ بثقْل علـى صـدرى، فـانتبهتُ جَزِعاً، فإذا زوجتى باركة على صدرى، وركبتاهـا علـى يَـدىَّ، مسـتوثقة منهـمـا، وفـى يدها سكّين، وقد أهْوَتْ لتذْبحنى، فاضطربتُ.

---

(١) طلبت منها أن تتوب.

(٢) مياسير : ميسرون أغنياء.

(٣) افترع الفتاة: أزال بكارتها.

ورُمْتُ الخلاص، فتعذّر، وخَشِيتُ أن تبــادرنى، فسـكتّ، وقلـت لهـا: كلّمينـى، واعملى ما شئتِ.

فقالت لى : قل.

فقلت: ما يدعوك إلى هذا؟

قالت: أظننتَ أنّك قد قطعتَ يدى، وهتكتنى، وتزوّجنى مثلـك، وتنجـو سـالماً؟ والله لا كان هذا.

فقلت: أما الذبح، فقد فاتك، ولكنّك تتمكّنين مـن جراحـات توقعينهـا بـى، ولا تأمنين أن أفلت، فأذبحك، وأهرب أو أكشـف هـذا عليـك، ثـم أسـلمك إلى السـلطان، فتنكشف جنايتك الأولى، والثانية، ويتبّرأ منكِ أبوك، وأهلك، وتُقتلين.

فقالت: افعل ما شئتَ لابدّ من ذبحك، وقد استوحش الآن كلّ منّا من صاحبه.

فنظرتُ، فإذا الخلاص منها بعيد، ولابدّ من أن تجرح موضعاً مـن بدنـى، فيكـون فيه تلفى.

فقلت: ليس إلاّ العمل فى حيلة، فقلتُ لها: أوَ غير هذا؟

قالت: قل.

قلت :أطلّقك الساعة، وتفرجـين عنّى، وأخـرج غـداً عـن البلـد، فـلا أراك، ولا ترينى أبداً، ولا يُكشف لك حديث فى بلـدك، ولا تفتضحى، وتـتزوجين بمـن شـئت، فقد شاع أنّ يدك قُطِعت بخرّاج خبّثها، وتربحين الستر.

قالت: لا أفعل، حتى تحلف لى أنّك لاتقيم فى البلد، ولا تفضحنى أبداً، وتعجّـل لى الطلاق.

فطلّقتها، وحلفتُ لها بالأيْمـان المغلّظة أنّى أخـرج، ولا أفضحهـا، فقـامت عـن صدرى تعدو، خوفاً من أن أقبض عليها، حتى رمت الموسى مـن يدهـا، بحيـث لا أدرى أين هو، وعادت.

وأخذتْ تُظهر أنّ الذى فعلته بى مُزاحاً، وأخذت تلاعبنى، فقلت: إليكِ عنّى، فقد حَرُمْتِ علىّ، ولا تحلّ لى ملامستُك، وفى غد أخرج عنك.

فقالت : الآن علمتُ صدقك، واللهِ، لئن لم تفعل، لا نجوتَ من يدى، وقامت فجاءتنى بُصرّة، وقالت: هذه مائة دينار، خذها نفقة لك، واكتب رُقعة بطلاقى، واخرج غداً.

فأخذتُ الدنانير، وخرجتُ من سُحْرَة ذلك اليوم، بعد أن كتبت إلى أبيها، أنّى قد طلّقتها ثلاثاً، وأنّنى خرجتُ حياءً منه.

و لم ألتق معهم إلى الآن.

✿✿✿

٣- الرؤيا

حدّثني أبوالحسن أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول الأنباري التّنوخيّ، قال :

خرج أخي أبومحمّد الحسن بن يوسف، يقصد أخانا أبا يعقوب إسحاق ابن يوسف وهو حينئذ بمصر، ومعه زوجة كانت لأبي يعقوب إسحاق ببغداد، وبُنيّة له منها، ومضى.

فلما عاد حدّثني أنه سلك في قافلة كبيرة، من "هَيْت" على طريق السماوة[1]، يريد دمشق، قال : فلمّا حَصَلنا في أعماق السماوة، أخفرنا[2] خفراؤنا، وجاء قوم من الأعراب، فظاهروهم علينا، وأظهروا أنّهم من غيرهم، وقطعوا علينا، فاستاقوا ركائبنا، فبقيتُ أنا والناس مطرّحين على الماء الذي كنّا نزلنا بلا جمل، ولا زاد، ولا دليل، فأيسنا من الحياة.

فقلتُ للناس: إنّ الموت لابّد منه على كلّ حال، أقمنا في أماكننا أم سرنا، فلأن نسيرَ في طلب الخلاص فلعلَ الله أن يرحمَنا ويخلّصنا، أوْلى من أن نموت ههنا، وإن مُتنا في سيرنا كان أعذر.

فساعدوني، وسرنا يومنا وليلتنا، وأنا أحمل الصبيّة ابنةَ أخي، لأن أمها عجزت عن حملها، وكلما طال علينا الطريق، ولم نر إنساناًولا محجّة [3] ، أحسسنا بالهلاك، ومات منّا قوم، وأنا خلال ذلك، قد بدأت بقراءة ختمة، وأنا متشاغل بها، وبالدّعاء.

إلى أن وقعنا في اليوم الثاني، على حلّة [4] أعراب، فأنكرونا، فلم أعمل عملاً، حتّى وَلَجتُ بيت امرأة منهم، فأمسكت ذيلها، وكنتُ سمعتُ أن الإنسان إذا عمل ذلك أمِنَ شرّهم، ووجب حقّهُ عليهم، ثمّ تفرّقنا في البيوت.

---

(١) من الطريف أن يكون حادث قطع الطريق في قصة سابقة في هذا الموقع نفسه ببادية الشام أو السماوة، وهذا يؤكد اضطراب الأمن في المنطقة، وكثرة لصوص الأعراب.

(٢) أخفرتنا : غدرت بنا، وهذا ما حدث أيضاً في القصة السابقة.

(٣) المحجة : الطريق.

(٤) الحلة : القرية أو ما يشبهها.

واختلفت أحوال النّاس، فأمّا أنا ، فإنّ صاحب البيت الذى نزلتُ عليه، لما رأى هيبتى ودرسى للقرآن، أكرمنى، و لم أزل أحادثه وأرفُقُ به.

فقال لى : ما تشاء؟

فقلت: تُركُبنى وهذه المرأة، وهذه الصبيّةَ، راحلةً، وتسير معنا إلى دمشق على راحلة أخرى، بزادٍ وماء، حتّى أعطيك ثمنَ راحلتك، وأهبَها لك، وأقضى حقّك بعد هذا.

قال : فتذمّم [1] واستحيا، وقدّرتُ أنّى إذا دخلت دمشق، وجدتُ بها من أصدقاء أخى، مَن آخذ منه ما أريد.

فكسانى الأعرابى، وكسا المرأة والصبية، ووطأ لى راحلة، وحمل معنا من الماء والزّاد كفايتنا، وركب هو راحلة أخرى، وكان أكثر مَن وصل معنا إلى ذلك الموضع، قد تأتّى لى، فصرنا رفقة صالحة العدد.

فلمّا كان بعد أيّام، شارفْنا دمشقَ مع طلوع الشمس، فإذا بأهلها قد خرجوا يستقبلوننا، وكلّ مَن له صديق أو معرفة، يسأل عنه، وقد بلغهم خبر القطع، فما شعرتُ إلا بإنسان يسأل عنّى، بكنيتى ونسبى.

فقلت : هأنذا.

فعدل إلىّ، وقال : أنت أبو محمّد الأزرقُ الأنبارىُّ؟

فقلت : نعم.

فقال : إلىّ، وأخذ بخِطام راحلتى، وتبعنى الأعرابى براحلته، حتى دخلنا مع الرّجل دمشق.

فجاء بنا الرّجل، إلى دارٍ حسنة سَرِيَة، تدلّ على نعمة حسنة، فأنزلَنا، و لم أشكّ أنّه صديق لأخى.

فنزلتُ، وأنزلتُ الأعرابىَّ معى، وأخذت جمالنا، وأدخلنا الحَمَّام وألبست خلعة نظيفة، وفُعلَ بالمرأة والصبية مثلَ ذلك، وأقمتُ عنده يومين فى خَفْض عيش، لا أسأله عن شىء، ولا يسألنى.

---

(١) تذمم : أظهر التعفف.

فلمّا كان في اليوم الثالث، قال: ما صورة هذا الأعرابيّ معك [1]؟ فأخبرته بما أخذنا منه.

فقال لي : خذ ما تريد من المال.

فقلت: أريد كذا وكذا ديناراً، فأعطاني ذلك، فدفعته إلى الأعرابي، وسلّمتُ إليه جمليْه.

وسألتُ الرجل أن يزوّده زاداً كثيراً لا يكون مثله في البادية، فأخرج له شيئاً كثيراً، وخرج الأعرابيّ شاكراً.

فقال لي الرّجل: إلى أين تريد من البلاد، وكم يكفيك من النفقة؟

فلمّا قال لي ذلك، ارتبْتُ به، وقلت: لو كان هذا من أصدقاء أخي الذّين كاتبهم بتفقّدي، لكان يعرف مقصِدي.

فقلت له: كم كاتبَك أخي أن تدفع إليّ؟

قال : ومَن أخوك؟

قلت : أبو يعقوب الأزرق الأنباريّ، الكاتبُ بمصر.

فقال: والله، ما سمعتُ بهذا الاسم قط، ولا أعرفه.

فورد عليّ أعجبَ مورد، وقلت له : ياهذا، إنّي ظننتك صديقاً لأخي، وأنّ ما عاملتني به من الجميل من أجله، فانبسطتُ إليك بالطّلب، ولو لم أعتقد هذا لانقبضتُ، فما السبب فيما عاملتني به؟

فقال : أمر هو أوْكَدُ من أمر أخيك، يجب أن يكون أنبساطك إليه أتمّ.

فقلت : ما هو؟

قال : إنّ خبر الوقعة بالقافلة التي كنتَ فيها، بلغنا في يوم كذا وكذا، فما بقي كبير أحد بدمشق، إلاّ وردت عليه مصيبة عظيمة، إمّا بذَهاب مال، أو بغمّ على صديق،

---

(١) يعني : ما علاقة هذا الأعرابي بك؟

غيرى، فإنّى لم يكن بى شىء من ذلك يتعلّـق قلبى بـه، واتّعَـدَ النّـاس للخـروج، لتلقّـى المنقطعين، وإصلاح أحوالهم، و لم أعزم أنا.

فلمّا كان فى الليل، رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فى النّـوم، وهـو يقـول لى: أدرك أبا محمّد الأزرق الأنبارىَّ، وأغِثْه، وأصلِح شأنه بما يُبلغه مقصده، فلمّـا أصبحـتُ، خرجتُ مع النّاس، فسألتُ عنك، فكان ما رأيتَ، والآن اذكر ما تريده.

فبكيتُ بكاءً شديداً، لم أقدر معه علـى خطابـه مـدّة، ثـمّ نظـرتُ إلى مـا يُبْلِغُنـى مصر، فطلبته منه، فأخذته، وأصلحتُ أمرى، وسألتُ الرجّلَ عن اسمه، فقـال: أنـا فـلان بن فلان الصابونى.

قال : فلمّا بلغتُ إلى مصر، حدّثت أخى بالحديث، فعجب منه، وبكى.

قال أبوالحسن: وضـرب الدّهـر ضربـه، وورد أبـو يعقـوب أخـى إلى بغـداد بعـد سنين، فتذاكرنا هذا الحديث.

فقال أخى: لما عرّفنى أخى أبو محمّد، ما عامله به ابنُ الصـابونى الدمشـقى هـذا، جعلته صديقاً لى، فكنتُ أكاتبه.

فلمّا وردتُ إلى دمشق، وجـدتُ حالـه قـد اختلّـت، لِمِحَـنٍ لحقتـه، فوهبـتُ لـه ضيعتـى بدمشـق، وكـانت جليلـة الغلّـة والقيمـة، فسـلّمتها إليـه، مكافأةً لمـا عـامل بـه أبا محمّد أخى.

✿✿✿

٤ - ضَرْبَةُ حظ

خرج رجل من الكتّاب فى عسكر المُعتصمِ إلى مصر، يريد التصرُّف[١]، فلم يحظ بشىء مّما أمّل، ودخل المُعتصمِ بالله مصر.

قال : فحدَّثنى بعض المتصرّفين عنه، قال : نزلتُ فى دارٍ بـالقرب منـه، فحدّثنـى الرجل بما كنتُ وقفتُ على بعضه.

قال : أصبحتُ ذات يوم، وقد نَفَدَت نفقتى، وتقطّعت ثيـابى، وأنـا مـن الهـمّ، والغمّ، على مالا يوصف عِظَماً.

فقال لى غلامى : يامولاى، أىَّ شىء نعمل اليوم؟

فقلت له : خذ لجام الدابّة، فبعْه، فإنه مُحَلّى، وابتع مكانه لجامـاً حديـداً، واشـتر لنا خبزاً سَميذاً، وجَدْياً سميناً، فقد قرمْتُ إلى أكلهما، وعجّل، ولا تـدع أن تبتـاع فيمـا تبتاعه كوز نبيذ شيروىّ[٢].

فمضى الغلام، وجلستُ أفكّر فى أمرى، ومَن ألاقى، وكيف أعمـل، وإذا ببـاب الدار قد دُقّ دقاً عنيفاً، حتّى يكادَ أن يُكسر، وإذا رَهَجٌ [٣] شديد.

فقلت لغلام كان واقفاً بين يدىّ: بادر، فانظر ما هذا.

فـإلى أن يفتـح البـاب، كُسِرَ، وامتـلأت الـدار بالغلمـان الأتـراك وغـيرهم، وإذا بأشناس، وهو حاجب المعتصم، ومحمّد بن عبدالملك الزّيات، وهو الوزير، قد دخلا.

فطرحتُ لهم زُلّية[٤]، فجلسا عليها، وإذا معهما حفّارون.

قال: فلمّا رأيتُ ذلك، بادرتُ فقبّلت أيديهما، فسألانى عـن خـبرى، فخبرتهمـا إيّاه، وأننى قد خرجتُ فى جملة أهل العسكر، طلباً للتصـرّف، وذكـرتُ حـالى ومـا قـد آلت إليه، فوعدانى جميلاً، والحفّارون يحفرون فى وَسَـط الـدار، حتّـى ترجّـل النهـار[٥]، وأنا واقف بين أيديهما، وربّما حدثتهما.

---

(١) يريد التصرّف: يبحث عن وظيفة.

(٢) السميذ : السميط ، قرم إلى اللحم: إشتاق إلى أكله، وشيروى: نسبة إلى شيراز أو شخص يصنعه.

(٣) رهج: غبار.

(٤) زلية: بساط، وهى فارسية، وتستخدم فى الخليج والعراق الآن ولكن يقال: زولية.

(٥) ترجل النهار: بلغ غايته، أى وقت الظهيرة

فالتفت أشناس إلى محمّد بن عبدالملك فقال: أنا والله جائع.

فقال له محمّد: وأنا -والله- كذلك.

فقلتُ عند ذلك: يا سيّدى، عند خادمكما شيء قد اتُّخِذَ له، فإن أذنتما فى إحضاره أحضره.

فقالا : هات.

فقدّمت الجدى، وما كان ابتيع لنا، فأكلا، واستوفيا، وغسلا أيديهما.

ثم قال لى أشناس: عندك شيء من ذلك الفن؟[1]

قلت : نعم، فسقيتهما ثلاثةَ أقداح.

وجعل أحدُهُما يقول للآخر: ظريف، وما ينبغى لنا أن نضيعَه البائس.

فبينما الحال على ذلك، إذ ارتفع تكبيرُ الحفّارين، وإذا هم قد كشفوا عن عشرين مرجلاً[2] دنانير، فوجّهوا بالبشارة إلى المعتصم، وأخرجت المراجِل.

فلما نهضا، قال أحدهما للآخر: فهذا الشقىّ الذى أكلنا طعامه، وشربنا شرابه، ندعه هكذا؟

فقال له الآخر: فنعمل ماذا؟

قال : نَحفِن له من كلّ مِرْجل حَفْنة، لا تؤثّر فيه، فنكون قد أغنيناه، ونَصْدُقُ أمير المؤمنين عن الحديث.

ثمّ قالا: افتح حجرك. وجعل كلّ واحد، يحفن له حَفْنَة، من كلّ مِرْجَل، وأخذا المال، وانصرفا.

فنظرتُ، فإذا قد حصل لى عشرون ألف دينار، فانصرفتُ بها إلى العراق، وابتعتُ بها ضياعاً ولزمت منزلى، وتركت التصرّف.

✿✿✿

(١) السؤال عن "ذلك الفن" كناية عن النبيذ.

(٢) المرجل : الإناء أو القدر الضخمة.

٥- عَوْدَةُ الغائِب

قال مؤلف هذا الكتاب: وقد بلغنى حديثٌ لعمرو بـن مَسْعَدة فـى زلالـه[1]، أن عمروَ بنَ مسعدة، كان مُصَعِداً من واسط إلى بغداد، فى حـر شـديد، وهـو جـالس فـى زلاّل، فناداه رجلٌ: يا صاحب الزلاّل، بنعمة الله عليك إلا نظرتَ إلىّ.

قال : فكشف سَجْفَ الزلاّل، فإذا بشيخ ضعيف حاسرِ الرأس.

فقال له : قد ترى ما أنا عليه، لستُ أجد مَن يحملنى، فـابْلغ الأجـر فـىَّ، وتقـدّم إلى ملاّحيك يطرحونى بين مجاديفهم، إلى أن أصل بلداً يطرحونى فيه.

قال عمرو بن مسعدة: فرحمتـه، وقلـت: خـذوه، فـأخذوه، فغُشِـىَ عليـه، وكـاد يموت لما لحقه من المشى فى الشمس.

فلمّا أفاق، قلت له: يا شيخ، ما حالُك، وما قصّتك؟

فقال : قصّة طويلة.

فسكّنته وطرحتُ عليه قميصاً ومنديلاً، وأمرتُ له بدَراهمَ وشمشك[2]، فشكرنى.

فقلت : لا بدّ أن تحدّثنى بحديثك.

فقال : أنا رجل كانت لله عَزَّ وجَلَّ علىّ نعمة جليلة، وكنـتُ صَيرفيـاً، فـابتعتُ جاريةً بخمسمائة دينار، فعشقتها عشقاً عظيماً، وكنتُ لا أقدر أن أفارقهَا ساعة واحدة، فـإذا خرجـتُ إلى الدكّـان، أخذنـى كـالجنون والهَيمَـان، حتـى أعـود فـأجلس معهـا يومى كله.

فدام ذلك حتى تعطَّل دكّانى، وتعطّل كسبى، وأقبلت أنفق من رأس المال، حتـى لم يبق منه قليل ولا كثير، وأنا مع ذلك لا أطيق أن أفارقَها.

فحبَلَت الجارية، وأقبلتُ أنقض دارى، وأبيع نَقْضَها، حتى فَرَغْت من ذلك، فلـم تبق لى حيلة.

---

(١) الزلال: نوع من سفن السفر الخاصة.

(٢) الشمشك : هو الشبشب بالفارسية.

فضربها الطَّلْقُ، فقالت: يا هذا، هو ذا أموت، فاحتل فيما تبتاع به عسلاً، ودقيقاً، وشيرجاً[1]، ولحماً، وإلاّ متُّ.

فبكيتُ، وحزنتُ، وخرجتُ على وجهي، وجئتُ لأغرق نفسي في دِجلة، فذكرتُ حلاوة النفس، وخوف العقاب في الآخرة، فامتنعت.

ثم خرجتُ هائماً على وجهي إلى النَّهْرَوَان، وما زلتُ أمشي من قرية إلى قرية، حتى بلغتُ خُراسان، فصادفتُ بها مَن عرفني، وتصرّفتُ[2] في ضياعه، ورزقني الله عز وجَلَّ مالاً عظيماً، فأثْرْيت، واتّسعت حالي، ومكثُ سنين، لا أعرف خبر منزلي، فلم أشكّ أنّ الجارية قد ماتت.

وتراخت السنون حتى حصل لي ما قيمته عشرون ألف دينار.

فقلت: قد صارت لي نعمة، فلو رجعتُ إلى وطني.

فابتعتُ بالمال كلّه، متاعاً من خُراسان، وأقبلت أريد العراق، من طريق فارسَ والأَهْوَاز.

فلما حَصلتُ بينهما، خرج على القافلة لصوص، فأخذوا جميع ما فيها، ونَجَوْتُ بثيابي، وعدتُ فقيراً.

ودخلتُ الأهواز، فبقيتُ بها متحيراً، حتى كشفتُ خبري لبعض أهلها ممن أعرفه، فأعطاني ما تحمّلت به إلى واسط.

ونفدَتْ نفقتي، فمشيْتُ إلى هذا الموضع، وقد كدتُ أتلف، فاستغثتُ بك، ولي منذ فارقت بغداد، ثمان وعشرون سنة.

فعجبتُ من ذلك، وقلت له: اذهب فاعرف خبرَ أهلك، وصِرْ إليَّ، فإنّي أتقدّم بتصريفك فيما يصلح لمثلك، فشكر، ودعا، ودخلنا بغداد. ومضت على ذلك مدّة طويلة، أنسيتُه فيها، فبينَا أنا يوماً، وقد ركبتُ، أريد دار المأمون، وإذا بالشيخ على بابي، راكباً بغلاً فارهاً، بمَرْكَبٍ محلّى ثقيل، وغلامٍ أسودَ بين يديه، وثيابٍ حسنة.

فلما رأيته رحّبت به، وقلت: ما الخبر؟

---

(١) الشيرج: زيت السمسم أو السيرج.

(٢) تصرفت: عملت أو توظفت.

فقال : طويل، وها أنا آتى إليك فى غدٍ، وأحدّثك بالخبر.

فلما كان من الغد، جاءنى فقلت له: عرّفنى خبرَك، فقد سررتُ بسلامتك، وبظاهر حالك.

فقال : إنّى صعدت من زلاّلك، فقصدتُ دارى، فوجدتُ حائطها الذى يلى الطريق كما خلّفته، غير أنّ باب الدار كان مَجْلوًّا، نظيفاً، وعليه دكاكين، وبوّاب، وبغل مع شاكرّية.[1]

فقلت: إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ماتت جاريتى، وملك الدار بعضُ الجيران، فباعها من رجل من أصحاب السلطان.

ثم تقدمت إلى بقّال كنتُ أعرفه فى المحلّة، فوجدتُ فى دكّانه غلاماً حَدَثاً.

فقلت له : مَم تكون من فلان البقّال؟

فقال : أنا ابنه.

فقلت: ومتى مات؟

قال : منذ عشرين سنة.

قلت : لمن هذه الدار؟

قال : لابن داية أمير المؤمنين، وهو الآن صاحب بيت ماله.

قلت: بمن يُعرف؟

قال : بابن فلان الصيرَفىّ، فأسمانى.

قلت: فهذه الدار مَن باعها إليه.

قال : هذه دار أبيه.

قلت : وأبوه يعيش؟

قال : لا.

---

(١) الشاكرية السيّاس (جمع سائس)، ويقصد بالدكاكين: المقاعد، أو ما نطلق عليه "الدكّة".

قلت: أتعرف من حديثهم شيئاً؟

قال : نعم، حدَّثنى أبى، أنّ والد هذا الرجل كان صيرفيّاً جليلاً، فافتقر، وأنّ أمّ هذا الرجل ضربها الطَّلْقُ، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً، ففُقِدَ، وهَلَكَ.

وقال أبى : جاءنى رسول أمّ هذا، يطلب لها شيئاً، وهى تستغيث بى، فقمتُ لها بحوائج الولادة، ودفعتُ لها عشرة دراهم، فما أنفقَتْها، حتى قيل: قد وُلِد لأمير المؤمنين الرشيد، مولود ذكر، وقد عُرِض عليه جميعُ الدايات، فلَم يقبل ثديهنّ، وقد طُلِبَ له الحرائر، فجاءوه بغير واحدة، فما أخذ ثدى واحدة منهنّ، وهم فى طلب مُرضع.

فأرشدتُ الذى طلب الداية إلى أمّ هذا، فحُمِلَتْ إلى دار الرشيد، فحين وُضِع فمُ الصبىّ على ثديها، قَبله، فأرضعته، وكان الصبىّ المأمون، وصارت عندهم فى حال جليلة، ووصل إليها منهم خير كثير.

ثم خرج المأمون إلى خُراسان، وخرجت هذه المرأة وابُنها هذا معها، ولم نعرف أخبارهم إلاّ منذ قريب، لما عاد المأمون، وعادت حاشيتُه، رأينا هذا قد صار رجلاً، ولم أكن رأيته قَبْلُ قط، وقد كان أبى مات؟

فقالوا: هذا ابن فلان الصيرفى، وابنُ داية الخليفة المأمون، فبنى هذه الدار وسوّاها.

فقلت: فعندك علم من أمُّهُ أهى حيّة أم ميتة؟

قال : هى حيّة، تمضى إلى دار الخليفة أيّاماً، وتكون عند ابنها أيّاماً هنا.

فحَمَدْتُ الله تعالى على هذه الحال، وجئت، حتى دخلت الدار مع الناس، فرأيتُ الصحن فى نهاية العمارة والحُسْن، وفيه مجلس كبير مفروش بفُرُش فاخرة، وفى صدره رجل شاب بين يديه كتّاب وجَهَابذة [1] ، وحساب يستوفيه عليهم، وفى صفاف الدار وبعض مجالسها، جَهَابِذَةٌ بين أيديهم الأموال والتخوت، والشواهين[2]، يقبضون ويُقْبِضُون.

(١) الجهابذة (جمع جهبذ) وهم الصيارفة ومحصلو الأموال.

(٢) التخت: صندوق يُحفظ به ميزان الذهب، والشاهين: الميزان.

ويصرت بالفتى، فرأيتُ شَبهي فيه، فعلمتُ أنه ابنى، فجلست فى غُمــار النـاس، إلى أن لم يبق فى المجلس غيرى، فأقبل علىّ.

فقال : يا شيخ، هل من حاجة تقولها؟

فقلت: نعم، ولكنّه أمر لا يجوز أن يسمعَه غيرُك.

فأومأ إلى غِلمان كانوا قياماً، فانصرفوا، وقال: قُلْ، أعزّكَ الله.

قلت: أنا أبوك.

فلمّا سمع ذلك تغيّر وجهه، ثم وثب مسرعاً، وتركنى مكانى.

فلم أشعر إلاّ بخادم جاءنى، فقال : قم يا سيّدى، فقمت أسير معـه، حتـى بلغـت ستارة منصوبة، فى دار لطيفة، وكرسىّ بين يديها، والفتى جالس على كرسىّ آخر.

فقال : اجلس أيّها الشيخ.

فجلستُ على الكرسى، ودخل الخادم، فإذا بحركة خلف الستارة.

فقلت: أظنّك تريد أن تختبر صدق ما قلتُ لك مـن جهـة فلانـة، وذكـرتُ اسـم جاريتى، أمّه.

قال : فإذا بالستارة قد كُشفَت، والجارية قد خرجت إلىّ، فوقعـت علـىّ تقبّلنـى وتبكى، وتقول: مولاى والله.

قال: فرأيتُ الفتى، قد تشوّش، وبُهِتَ وتحيّر.

فقلت للجارية: وَيْحَكِ ما خبرك؟

فقالت: دع خبرى، ففى مشاهدتك، مّما تفضل الله عَزَّ وجَلَّ بذلك، كفاية، إلى أن أخبرك، فقُلْ ما كان من خبرك أنت؟

فقصصتُ عليها خبرى، منذ يوم خروجـى مـن عندهـا، إلى يومـى ذاك، وقصـت هى، علىَّ قصتها، مثل ما قال ابن البقّال، وأعجب، وأشرح، وكلّ ذلك بمرأى من الفتى ومسمَع، فلما استوفى الحديث، خرج وتركنى فى مكانى.

قال : وإذا أنا بخادم، قال: يا مولاى، يسألك ولدك أن تخرجَ إليه.

قال : فخرجتُ إليه، فلما رآنى من بعيد، قام قائماً على رجليه، وقال: معذرة إلى الله، وإليكَ يا أبة، من تقصيرى فى حقّك، فإنه فجأنى من أمرك، ما لم أظنّ أنّه يكون، والآن، فهذه النعمة لك، وأنا ولدُك، وأميرُ المؤمنين يجتهد بى منذ دهر، أن أدَعَ هذه الجَهْبذَة، أتوفر على خدمته فى الدار، فلا أفعل، طلباً للتمسّك بصنعتى، والآن، فأنا أسأله أن يردّ إليك عملى، وأخدُمُه أنا فى غيرما، فقم عاجلاً، وأصلحْ أمرك.

فأخِذت إلى الحمّام ونُظِّفت، وجاءونى بخِلعة، فألبستها، وخرجتُ إلى حجرة والدته، فجلستُ فيها.

ثم أدخلنى على أمير المؤمنين، وحدّثته بحديثى، وخلع علىّ، وردّ إلىّ العمل الذى كان إلى ولدى، وأجرى علىّ من الرزق، فى كلّ شهر كذا، وقلّد ابنى أعمالاً هى من أجل عمله، وأضْعَفَ له أرزاقه، وأمره بلزوم حضرته فى أشياء استعمله فيها من خاصّ أمره.

فجئتُ لأشكرك على ما عاملتنى به من الجميل، وأعرّفك بتجدّد النعمة.

قال عمرو بن مَسْعدَة: فلمّا أسمى الفتى عِلمتُ أنّه ابنُ داية المأمون، كما قال.

✿✿✿

٦- فِرَاسَةٌ أو تَعَارُفُ أرْوَاح ؟!

عن رجل من أهل الكوفة، قال :

كنّا مع مَسْلمة بن عبدالملك [(١)]، ببلاد الرّوم، فسبا سبايا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعُرِضَ السبيُ، فقتل خَلْقاً، حتّى عُرِضَ عليه شيخ كبير ضعيف، فأمر بقتله.

فقال له : ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلى؟ إن تركتنى حيّاً، جئتك بأسيريْن من المسلمين شابّين.

قال له: ومَن لى بذلك؟[(٢)]

قال : إنّى إذا وعدتُ وفيتُ.

قال : لست أثق بك.

فقال له : دعنى حتّى أطوفَ فى عسكرك، لعلّى أعرف مَن يتكفّلُ بى إلى أن أمضى وأعود أجىء بالأسيرين.

فوكّل به مَن يطوف، ويتصفّح الوجوه، حتّى مرّ بفتى من بنى كلاب، قائماً يحسّ فرسه[(٣)].

فقال له : يا فتى ، اضمنّى للأمير، وقصّ عليه قصتّه.

فقال : أفْعَلُ، وجاء الفتى إلى مَسْلَمة، فضمنه، فأطلقه مسلمة.

فلمّا مضى، قال للفتى : أتعرفه؟

قال : لا، والله.

قال : فلمَ ضمنته؟

قال : رأيته يتصفّح الوجوه، فاختارنى، من بينهم، فكرهتُ أن أخْلُفَ ظنّه فىّ.

---

(١) أحد القادة الأبطال من البيت الأموى.

(٢) يعنى: مَن يضمن صدقك؟

(٣) يحسّه: ينظفه. والمِحسَّ: آلة من حديد ذات أضراس يُزال بها الغبار عن الدابة.

فلمّا كان من الغد، عاد الشيخ، ومعه أسيران شابّان من المسلمين، فسلّمهما إلى مَسْلمة، وقال: إن رأى الأميرُ أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معى إلى حصن لأكافئه على فعله.

فقال مسلمة للفتى الكلابى: إن شئتَ فامضِ معه.

فلمّا صار إلى حصنه، قال له: يا فتى، تعلم - واللهِ - أنّك ابنى؟

قال له : وكيف أكون ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت رجل من الرّوم نصرانى؟!

فقال له : أخبرنى عن أمّك، ما هى؟

فقال : روميّة.

قال : فإنّى أصفها لك، فبالله إن صَدَقْتُ، إلاّ صَدَّقْتَنى.

قال : أفعَل.

فأقبل الرّومى، يصف أمّ الفتى، ما خَرَمَ من صفتها شيئاً.

فقال له الفتى : هى كذلك، فكيف عرفَت أنّى ابنها؟

قال : بالشَّبه، وتعارفِ الأرواح، وصدق الفِراسة.

ثمّ أخرج إليه امرأة، فلمّا رآها الفتى لم يشكّ فيها أنّها أمه لتقارُب الشَبه، وخرجت معها عجوز كأنّها هى، فأقبلتا تقبّلان رأس الفتى، ويديه، وتترشّفانه.

فقال له : هذه جدّتُك، وهذه خالتُك.

ثمّ اطّلع من حِصنه، فدعا بشباب فى الصَحراء، فأقبلوا، فكلّمهم بالرّوميّة، فأقبلوا يقبّلون رأس الفتى ويديه، فقال : هؤلاء أخوالُك، وبنو خالاتك، وبنو عمّ والدتك.

ثمّ أخرج إليه حَلْياً كثيراً، وثياباً فاخرةً، وقال : هذا لوالدتك عندنا منذ سُبيتْ، فخذه معك، وأدفعه إليها، فإنّها ستعرفه، ثمّ أعطاه لنفسه مالاً كثيراً، وثياباً، وحلياً، وحمله على عدّة دواب، وألحقه بعسكر مسلمة، وانصرف. وأقبل الفتى قافلاً حتّى دخل

إلى منزله فأقبل يُخرج الشيء بعد الشيء مما عرّفه الشّيخ أنّه لأمّه، وتراه أمّه، فتبكى، فيقول لها : قد وهبتُه لك.

فلمّا كثُر عليها، قالت له: يا بنيّ، أسألك بالله، من أى بلد صارت إليكم هذه الثّياب، وهل تصف لى أهل هذا الحصن الّذى كان فيه هذا؟

فوصف لها الفتى صفةَ البلد والحصن، ووصف لها أمّها وأختها، والرّجالَ الذين رآهم، وهى تبكى وتقلق.

فقال لها : ما يبكيك؟

فقالت: الشّيخ والله والدى، والعجوز أمّى، وتلك أختى.

فقصّ عليها الخبر، وأخرج بقيّة ما كان أنفذه معه أبوها إليها، فدفعه إليها.

✿✿✿

٧- ابنُ التِّمْسَاح !!

وحكى أبوعلى محمد بن الحسن بن المظفَّر الكاتب المعروف بالحاتِميِّ، قال :

رأيتُ بمصر رجلاً يعرف بابن التمساح، فسألتُ جماعة من أهل مصر، من العامّة، عن ذلك.

فقالوا : هذا وَطِيءَ التمساحُ أمَّه، فولدته.

فكذَّبْتُ ذلك، وبحثتُ عن الخبر، فأخبرنى جماعةٌ من عقلاء مصر، أنّ التمساح بها يأخذ النّاس من الماء فيفترسهم.

وربما أخذهم وهو شبعان، فيحمل المأخوذ بيده على صدره، حتى يجيء به إلى أجرافٍ أسفلَ مصر بمسافة، وهى جبال حجارة فيها مغارات إلى النيل، لا يصل إليها الماشى ولا سالك الماء لبعدها عن الجهتين.

فيتسلق التمساح إلى بعض المغارات، فيودع بها الإنسان الذى أخذه، حيّاً أو ميتاً بحسب الاتّفاق، ويمضى.

فإذا جاع و لم يظفر بشيء، عاد إلى الموضع فيفترس الإنسانَ الذى خبَّأه هناك.

قال : فكان قد قبض على امرأة فى بعض الأوقات، فجعلها فى المغارة، فذكرتْ المرأة، أنّها حينما استقرّت فى المغارة، وانصرف التمساح، رأت هناك رجلاً حيّاً، وآثار جماعة قد افترسهم التمساح.

وأنّها سألت الرجلَ عن أمره، فذكر أنّ التمساح تركه هناك منذ يومين.

قالت : وأخذ الرجل يؤانسنى بالحديث، إلى أن طالبنى بنفسى.

فقلت: يا هذا اتّق الله.

فقال : التمساح قد مضى، ومن ساعة إلى ساعة فَرَج، ولعل أن تجتازَ بنا سفينة قبل عودته فنطرحَ أنفسَنا إليها.

فوعظتُه، فلم يلتفت إلى كلامى، واغتصبنى نفسى، فواقعنى.

وما نزل حتى جاء التمساح، فأخذه من فوقى، ومضى، فبقيتُ كالميتة فزعاً.

فأنا كذلك، إذ سمعتُ وقْع حوافر الخيل، وصوتَ أقدامِ كثيرين، فأخرجت رأسى من الغار، وصحتُ واستغثتُ، فاطّلع أحدهم. وقال: ما أنت؟

فقلت: حديثى طريف، أرموا لى حبلاً أتخلّص به إليكم.

فرموا لى حبلاً فشددتُ نفسى، واستظهرتُ جهدى، وأطراف الحبل فى أيديهم.

فقلت : اجذبونى.

فجذبونى، فصرتُ معهم على ظهر المغارة، بعد أن تَوَهَّنْتُ، وتسلّخَتْ يدىّ.

فسألونى عن خبرى، فأخبرتهم، فأركبونى شيئاً، وأدخلونى البلد، فلمّا كان وقتُ عادة حيْضى، تأخّرت عنّى، ثم ظهر الحَمْل. فولدت ابنى هذا بعد تسعة أشهر.

وكرِهْتُ أن أخبر كلَّ أحد بهذا الحديث، فنسبْتُ ذلك إلى التمساح، واستَتَرَ أمرى بذلك.

✿✿✿

٨- سَيِّدٌ محسُودٌ

منارةُ، خادمُ الخلفاء، قال:

رُفِعَ إلى هارون الرّشيد، أنّ رجلاً بدمشق، من بقايا بنى أميّة، عظيمَ الجاه واسعَ الدُّنيا، كثير المال والأملاك، مطاعاً فى البلد، له جماعة أولاد ومماليك وموالى، يركبون الخيل، ويحملون السّلاح، ويغزون الرّوم، وأنّه سَمْحٌ جواد، كثيرُ البذل والضيافة، وأنّه لا يؤمَن منه فَتْقٌ لا يمكن رَتْقُهُ، فَعَظُمَ ذلك على الرّشيد.

قال منارة: وكان وقوفُ الرّشيد على هذا وهو بالكوفة، فى بعض خَرْجاته إلى الحجّ سنة ست وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسْم، وقد بايع للأمين ثمّ المأمون ثمّ المؤتَمن[1].

فدعانى وهو خال، فقال لى: دعوتك لأمر أهمّنى وقد منعنى النومَ، فانظر كيف تكون؟ ثمّ قصّ علىّ خبرَ الأموى.

وقال : اخرج السّاعة، فقد أعددتُ لك الجمّازات [2]، وأزحتُ علّتك فى الزاد والنّفقة والآلات، وضَمَمْتُ إليك مائَة غلام، فاسلك البريَّة، وهذا كتابى إلى أمير دمشق، وهذه قيود، فادخل، وابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع، فقيّده، وجئنى به، وإلا فتوكّل به أنت ومَن معك حتّى لايهرُب، وأنْفِذِ الكتابَ إلى أمير دمشق، ليركبَ فى جيشه فيقبضَ عليه، وتجيئنى به، وقد أجّلتك لذهابك سِتّاً، ولعودك ستّاً، ويوما لُمقامك، وهذا محمَل، تجعله - إذا قيّدتَه- فى شُقّه، وتجلس أنت فى الشِّقّ الآخر، ولا تكل حفظَه إلى غيرك، حتّى تأتينى به فى اليوم الثّالث عشر من خروجك، وإذا دخلتَ داره فتفقّدْها، وجميعَ ما فيها، وأهله، وولده، وحاشيتَه، وغلمانَه، وقدْرَ النعمة، والحال، والمحالّ، واحفظ ما يقوله الرّجل حرفاً بحرف، بجميع ألفاظه، منذ وقوع طَرْفك عليه، إلى أن تأتينى به، وإيّاك أن يشذّ عليك شيء من أمره، انطلق مُصَاحباً.

قال منارة: فوّدعتُه وخرجتُ، فركبنا الإبل، وطوينا المنازل، أسير اللّيل والنّهار، ولا أنزل إلاّ للجمع بين الصلاتين، والبوْل، وتنفيسِ النّاس قليلاً.

---

(١) هنا مفارقة ذكية وطريفة من راوية القصة، فالرشيد يبايع لخلافته ثلاثة أجيال قادمة، مع هذا يخشى رجلاً محدود القدرة فى أطراف ملكه الواسع!!

(٢) الجمازات : الإبل السريعة المدربة على السفر عدواً.

إلى أن دخلتُ دمشق في أوّل اللّيلة السّابعة، وأبواب البلد مغلقة، فكرهْت طَرْقها، فنمتُ بظاهر البلد، إلى أن فُتِح بابه في الغد، فدخلتُ على هيأتي، حتّى أتيتُ باب دار الرّجل، وعليه صُفَفٌ عظيمة، وحاشية كثيرة، فلم أستأذن، ودخلتُ بغير إذن.

فلمّا رأى القوم ذلك، سألوا بعض أصحابي عنّي، فقالوا لهم: هذا منارة، رسولُ أمير المؤمنين إلى صاحبكم، فأمسكوا.

فلمّا صرتُ في صَحْنِ الدّار، نزلتُ، ودخلتُ مجلساً، رأيتُ فيه قوماً جلوساً، فظننتُ أنّ الرّجل فيهم، فقاموا إليّ، ورحّبوا بي، وأكرموني.

فقلت : أفيكم فلان؟

قالوا : لا، نحن أولاده، وهو في الحمّام.

فقلت : استعجلوه.

فمضى بعضُهم يستعجله، وأنا أتفقّد الدّار، والأحوالَ، والحاشية، فوجدتُ الدّار قد مَاجَتْ بأهلها مَوْجاً شديداً.

فلم أزل كذلك، حتّى خرج الرّجل، بعد أن أطال، واستَرَبْتُ به، واشتدّ قلقي وخوفي من أن يتوارى.

إلى أن رأيتُ شيخاً قد أقبل بزيّ الحمّام، يمشي في الصّحن، وحوله جماعة؛ كهولٌ، وأحداثٌ، وصبيانٌ، هم أولادهُ، وغلمانٌ كثير، فعلمتُ أنّه الرّجل.

فجاء حتّى جلس، وسلّم عليّ سلاماً خفيفاً، وسألني عن أمير المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب.

فما انقضى كلامه حتّى جاؤوه بأطباق الفاكهة، فقال لي : تقدّم يا منارةُ فكُلْ معنا.

فقلت: ما بي إلى ذلك حاجة.

فلم يعاودْني، وأقبل يأكل هو والحاضرون معه، ثمّ غسل يديه، ودعا بالطعام، فجاؤوه بمائدة حسنة جميلة، لم أر مثلها إلاّ للخليفة، فقال: تقدّمْ يا منارةُ فساعدنْا على الأكل، لا يزيد علىأن يدعوَني باسمي، كما يدعوني الخليفة.

فامتنعتُ، فلم يعاودني، وأكل هو وأولادُه، وكانوا تسعة، عددتهم، وجماعةٌ كثيرة من أصحابه، وحاشيته، وجماعة من أولاده وأولاد أولاده.

فتأمّلتُ أكله في نفسه، فرأيتُه أكْلَ الملوك،ووجدتُ جأشه رابطاً، وذلك الاضطراب الذّي كان في داره قد سكن، ووجدته لا يُرفع من بين يديه شيء، كان على المائدة، إلاّ وُهِبَ.

وقد كان غلمانه، لما نزلتُ الدّار، أخذوا جمالي، وجميعَ غِلماني، فعدلوا بهم إلى دار له، فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيتُ وحدي، ليس بين يديّ إلاّ خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي.

فقلتُ في نفسي: هذا جبّار عنيد، فإن امتنع عليّ من الشّخوص، لم أطق إشْخَاصَه بنفسي، ولا بمن معي، ولا حِفْظَه إلى أن يلحقني أميرُ البلد، وجزعت جزعاً شديداً، ورابني منه استخفافُه بي، وتهاونه بأمري، وأن يدعَوني باسمي، وقلّةُ أكتراثه بامتناعي من الأكل والشرب، ولا يسألني عمّا جئتُ له، ويأكل مطمئناً.

وأنا أفكر في ذلك، إذ فرغ من طعامه، وغسل يديه، واستُدْعِيَ بالبَخور، فتبخّر، وقام إلى الصّلاة، فصلّى الظهر صلاةً حسنة، وأكثرَ من الدّعاء والابتهال.

فلمّا انفتل من محرابه، أقبل عليّ، وقال : ما أقدمكَ يا منارة؟

قلت: أمرٌ لك من أمير المؤمنين، وأخرجتُ الكتاب، فدفعته إليه، ففضّه، وقرأه، فلمّا استَتَمَّ قراءته، دعا أولاده، وحاشيتَه، فاجتمعوا، فلم أشكّ أنّه يريد أن يُوقع بي.

فلمّا تكاملوا، ابتدأ فحلف أيماناً غليظة، فيها الطّلاق، والعِتاق، والحجّ، والصّدقة، والوَقْفُ، والحَبْس، إن اجتمع اثنان منهم في موضع، وأن يتفرّقوا، ويدخلوا منازِلَهم، ولا يظهر منهم أحد، إلى أن يَنكشف له أمر يعمل عليه.

ثمّ قال: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالمصير إلى بابه، ولستُ أقيم بعد نظري فيه لحظةً واحدة.

وقال لغِلمانه، وأولاده: استوصوا بمن ورائي من الحُرمُ خيرا، وما بي حاجة أن يصحبَني غلام، هات أقْيَادَكَ يا منارة.

فدعوتُ بها، وكانت فى سَفَطٍ، فأحضَر حـدّاداً، ومـدّ سـاقيه، فقيّدتُـه، وأمـرتُ غِلمانى بحمله حتّى حَصَل فى المحمل، وركبت فى الشّقّ الآخر، وسرتُ مـن وقتـى، و لم ألق أميرَ البلد، ولا غيرَه.

وسرتُ بـالرّجل، ليـس معـه أحـد، إلى أن صرنـا بظـاهر دمشـق، فـابتدأ يحدّثنـى بانبساط، حتّى أنتهينا إلى بستانٍ حسن فى الغوطة، فقال: ترى هذا؟

فقلت : نعم.

قال : هو لى، وفيه من غرائب الأشجار كَيْتَ وكَيْت، ثمّ انتهى إلى آخر، فقـال: مثلَ ذلك، ثمّ انتهى إلى مزارعَ حسانٍ، وقرى سَرِيّة، فأقبل يقول: هذا لى، ويصف كـلّ شىء فيها.

فاشتدّ غيظى منه، فقلتُ له : هل علمتَ أنّى شديد التعجّب منك؟

قال: ولِمَ؟

قلت : أَلَسْتَ تعلم أنّ أمير المؤمنين قد أهمَّه أمرُك، حتّى أرسل إليك مَن انتزعك من بين أهلك، وولدك، ومالك، وأخرجكَ عن جميع حالك، وحيـداً، فريـداً، مقيّـداً، لا تدرى ما يصير إليـه أمـرُك، ولا كيـف تكـون، وأنـت مـع هـذا، فـارغُ القلـب، تصـف بساتينَك وضياعَك، هذا وقد رأيتك، وقـد جئـتُ ، وأنـت لا تعلـم فيـم جئـتُ، وأنـت ساكنُ القلب، قليل الفكر، وقد كنتَ عندى شيخاً عاقلاً.

فقال مجيباً لى: إنّا لله وإنا إليه راجعون، وأخطأتْ فِراستى فيك يا مَنارة، قدَّرْتُـك رجلاً كاملَ العقل، وأنّك ما حللت من الخلفاء هذا المحلّ، إلاّ بعد أن عرفوك بذلك، فإذا عقلُك وكلامُك يشبه كلامَ العَوَامِّ وعقلَهم، فالله المُستعان.

أمّا قولك فى أمير المؤمنين، وإزعاجه لى من دارى، وإخراجه إيّاى إلى بابـه علـى هذه الصّورة، فأنا على ثقة بالله عَزَّ وجَلَّ، الّذى بيده ناصيةُ أمير المؤمنين، فلا يملك معـه لنفسه، ولا لغيره، ضَراً ولا نَفعاً، إلاّ بإذن الله ومشيئته، ولا ذنب لى عنـد أمـير المؤمنـين أخافُهُ، وبعد، فإذا عرف أمير المؤمنين أمرى، وعَلِمَ سلامةَ جانبى، وصلاحَ ناحيتى، وأنّ الأعداء والحَسَدَة، رَمَوْنى عنده بما لست فى طريقه، وتقوّلـوا علـىّ الأبـاطيلَ الكاذبـة، لم يستحل دمى، وتحرَّجَ من أذاى وإزعاجى، فردّنى مكرّماً، أو أقـامنى ببابـه معظّمـاً، وإن

كان سَبق فيّ قضاء الله تعالى، أنّه يَبْدُرُ إلىّ ببادرة سوء، وقد حضر أجلى، وحان سَفْكُ دمى على يده، فلو اجتهدَتْ الملائكةُ والأنبياءُ وأهلُ السموات والأرض، على صَرْف ذلك عنّى ما استطاعوا، فلمَ أتعجّل الهمّ، وأتسلّف الفكرة والغمّ، فيما قد فَرَغَ الله منه، وأنا حسنُ الظنّ بالله الّذى خلق ورزق، وأحيا وأمات، وفطر وجَبَلَ، وأحسن وأجْمَل، وأين الصبْر والرّضا، والتفويض والتّسليم إلى مَن يملك الدّنيا والآخرة، وكنتُ أحسب أنّك تعرف هذا، فإذا قد عرفتُ مبلغَ فهمك، فإنّى لا أكلّمك بكلمة، حتّى تفرّق بيننا حضرةُ أمير المؤمنين.

ثمّ أعْرَضَ عنّى، فما سمعتُ له لفظةً بغير القرآن والتسبيح، أو طلب ماء أو حاجة تجرى مجراه، حتّى شارفنا الكوفة فى اليوم الثّالثِ عَشَرَ بعد الظّهر، فإذا النُّجُبُ قد استقبلتنا على فراسِخَ من الكوفة، يتجسّسون خبرى.

فلمّا رأونى رجعوا بخبرى إلى أمير المؤمنين، فانتهيتُ إلى الباب آخر النّهار، فدخلتُ على الرّشيد، فقبلتُ الأرض، ووقفتُ بين يديه.

فقال : هات ما عندك، وأيّاك أن تُغفل منه لفظه واحدة.

فسُقت إليه الحديث من أوّله، حتّى أنتهيتُ إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والطهور والبَخور، وما حدّثْتُ به نفسى من أمتناعه منّى، والغضب يظهر فى وجهه ويتزايد، حتّى انتهيتُ إلى فَراغ الأمويِّ من الصّلاة، وانْفتَالِهِ، وسؤاله عن سبب مقدمى. ودَفْعِى الكتابَ إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وأسبابه، ويمينه أن لا يتبعه أحد منهم، وصرفِهِ إيّاهم، ومدّ رجليه حتّى قيّدته، فما زال وجه الرّشيد يُسْفِر.

فلمّا انتهيتُ إلى ما خاطبنى به في المَحْمَل، عند توبيخى إيّاه، قال: صَدَقَ والله، ما هذا إلاّ رجلٌ محسود على النّعمة، مكذوبٌ عليه، ولقد آذيناه، ولعمرى لقد أزعجناه، وروّعناه وروعنا أهلَه، فبادرْ بنزع قيوده عنه، وائتنى به. فخرجتُ، فنزعتُ قيوده، وأدخلته على الرشيد، فما هو إلاّ أن رآه، حتّى رأيتُ ماء الحياء يدور فى وجه الرشيد، ودنا الأمَويّ، فسلّم بالخلافة، ووقف، فردّ عليه الرّشيد ردًّا جميلاً، وأمره بالجلوس، فجلس.

وأقبل عليه الرّشيد، ثم قال له: إنّه بلغَنا عنك فَضْل هِمَّةٍ، وأمور، أحببنا معهـا أن نراك، ونسمعَ كلامك، ونحسنَ إليك، فاذكر حوائجك.

فأجاب الأموى جواباً جميلاً، وشكر، ودعا ثمّ قال: أمّا حاجتى، فما لى إلاّ حاجة واحدة.

فقال : مقضيّة، فما هى؟

قال : يا أمير المؤمنين، تردُّنى إلى بلدى، وأهلى، وولدى.

فقال : نحن نفعل ذلك، ولكن سَلْ ما تحتاج إليه من صـلاحِ جـاهِكَ ومعاشِك، فإنّ مثلَك لا يخلو أن يحتاجَ إلى شىء من هذا.

فقال : عُمّال أمير المؤمنين مُنصِفُون، وقد استغنيت بعَدْلِهِ عـن مسـألته، وأمورى منتظمة، وأحوالى مستقيمة، وكذلك أمـور أهـل بلـدى بـالعدل الشّـامل فـى دولـة أمـير المؤمنين.

فقال له الرّشيد: انصرف محفوظاً إلى بلـدك، واكتـب إلينـا بـأمرٍ إن عـَرَضَ لـك، فودّعه الأمويُّ.

فلمّا وَلى خارجاً، قال لى الرّشيد: يا منارة، احملْه من وقتك، وسِرْ به راجعاً كمـا أتيتَ به، حتَى إذا أوصلتَه إلى المجلس الّذى أخذته منه، فارجع وخلّه.

ففعلتُ ذلك.

✿✿✿

٩- خُرافَةٌ تاريخيَّة

ورَدَ كتاب صاحب بريد الثغور الشاميّة، علَى عبدالملك، يخبره فيه أن خيلاً من الرّوم تراءَتْ للمسلمين، فنفروا إليها، ثمّ عادوا ومعهم رجلٌ كان قد أسِرَ فى أيّام معاوية بن أبى سفيان، فذكر أنّ الرّوم لما توافَقُوا مع المسلمين، أخبروهم أنّهم لم يأتوا لحربٍ، وإنّما جاؤوا بهذا المسلم ليسلّموه إلى المسلمين، لأنّ عظيم الرّوم أمرهم بذلك.

وذكر صاحب البريد، أنّ النافرين ذكروا، أنّهم سألوا المسلم عمّا قال الرّوم، فوافق قولُه قولَهم، وذكر أنّ الرّوم قد أحسنوا إليه، فانصرفوا عنهم، وإنّى سألته عن سبب مَخْرَجِهِ، فذكر أنّه لا يخبر بذلك أحداً دون أمير المؤمنين.

فأمر عبدالملك بإشْخاص المسلم إليه، فأشْخِصَ إلى دمشق.

فلمّا دخل على عبدالملك، قال له: مَن أنت؟

قال : قُبَاث بن رزين اللّخمى. أسكن فُسطاط مصر فى الموقع المعروف بالحمراء، أسِرتُ فى زمن معاوية[1]، وطاغية الرّوم -إذ ذاك- توما ابن مرزوق.

فقال له عبدالملك: فكيف كان فعله بكم؟

قال : لم أجد أحداً أشدّ عداوة للإسلام وأهله منه، إلاّ أنّه كان حليماً، فكان المسلمون فى أيّامه أحسن أحوالاً منهم فى أيّام غيره[2]، إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال - فى أوّل ما ملك - : إن الأسرى إذا طال أسرهم فى بلدٍ، أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة، وليس شيء أنْكَأ لقلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد، فأمر باثنى عشر قِدْحاً[3]، فكتب على رأس كلّ قدح اسم بَطرْيق [4] من بطارقة البلدان، ويُضرب بالقِداح فى كلّ سنة أربع مرات، فمَن خرج اسمه فى القدِح الأوّل، حُوِّل إليه المسلمون، فاحتبسهم عنده شهراً، ثمّ إلى الثانى، ثم إلى الثّالث، ثمّ تعاد القِداح بعد ذلك.

---

(١) هذا يعنى أنه بقى فى أسر الروم أكثر من عشرين عاماً.

(٢) يقصد الأسرى المسلمين فى بلاد الروم.

(٣) القدح : السهم.

(٤) البطريق (فى لغة زمانهم) القائد من الروم (أو حاكم الأقليم= المحافظ فى زماننا وكما ستدل الحكاية)، وليس "رجل الدين" كما هو الآن من كلمة بطريق.

فكنّا لا نصير عند أحد من البطارقة، إلاّ قال لنا: احمدوا الله حيث لم يتلكم ببطريق البَرْجان [1]، فكنّا نرتاع لذكره، ونحمد ربّنا إذ لم يبتلنا به، فمكثنا على ذلك سنين.

ثمّ ضُربت القِداح، فخرج الأوّل والثانى لبطريقين، والثالث لبطريق البَرْجان، فمرّ بنا فى الشهرين غمّ كبير، نترقّب المكروه.

ثمّ انقضى الشهران، فحُمِلنا إليه، فرأينا على بابه من الجَمع خلافَ ما كنّا نعاين، ورأينا من زبانيته من الغِلْظَة خلافَ ما كنّا نرى، ثمّ وصلنا إليه، فتبيّن بنا من فظاظته وغِلظته، ما أيقنّا معه بالهَلَكة، ثمّ دعا بالحدّادين، فأمر بتقييد المسلمين بأمثال [2] ما كان يقيّدهم به غيره، فلم يزل الحديد يعمل فى رِجْل واحد واحد، حتّى صار الحدّاد إلىّ، فنظرتُ إلى وجه البطريق فرأيته قد نظر إلىّ نظراً بخلاف العين الّتى كان ينظرُ بها إلى غيرى، ثمّ كلّمنى بلسان عربىّ، فسألنى عن اسمى ونسبى ومسكنى، بمثل ما سألنى عنه أمير المؤمنين، فصَدَقْتُهُ عمّا سألنى عنه.

ثمّ قال لى : كيف حفظُك لكتابكم؟ فأعلمته أنّى حافظ.

قال : اقرأ آل عِمران، فقرأت منها خمسين آيةً.

فقال : إنّك لقارئٌ فصيح، ثمّ سألنى عن روايتى للشّعر، فأعلمته أنّى راوية.

فاستَنْشدَنى لجماعة من الشعراء، فقال: إنّك لَحسنُ الرواية.

ثمّ قال لخليفته: إنّى قد وَمِقْتُ [3] هذا الرّجل، فلا تُحَدّده.

ثمّ قال: وليس من الإنصاف أن أسوءه فى أصحابه، ففكّ الحديدَ عن جماعتهم، وأحسِنْ مثواهم، ولا تقصّرْ فى قِراهم[4].

ثمّ دعا صاحبَ مطبخه، فقال له : لست أطْعَمُ طعاماً،ما دام هذا العربىّ عندى، إلاّ معه، فاحذر أن تُدخل مطبخى ما لا يحلّ للمسلمين أكلهُ، وأن تجعل الخمرَ فى شىء من طبيخِكَ، ثمّ دعا بمائدته، واستَدْنانى حتّى قعدتُ إلى جانبه.

فقلت له: فَدَتْكَ نفسى وبأبى أنت، أحبُّ أن تخبَرنى من أى العربِ أنت؟

---

(١) البرجان: اسم طائفة أو بلد فى شمال بلاد الروم.

(٢) أمثال : أضعاف.

(٣) ومقه :أحبه أو مال إليه، فلا تقيده بالحديد.

(٤) القِرى (بكسر القاف): الضيافة.

فضحك وقال : لستُ أعرف لمسألتك جواباً، لأنى لستُ عربيًّا فأجيبك على سؤالك.

فقلتُ له: مع هذه الفصاحة بالعربية؟

فقال : إن كان العلم باللّسان ينقل الإنسان من جنسه إلى جنس مَنْ حَفِظَ لسانَه، فأنت إذاً روميٌّ، فإنّ فصاحتك بلسان الرّوم، ليست بدون فصاحتى بلسان العرب، فعلى قياس قولك ينبغى أن تكون روميّاً، وأكون أنا عربياً.[1]

فصدقت قوله، وأقمتُ عنده خَمْسَ عَشْرَةَ ليلة، لم أكن منذ خُلِقْتُ، فى نعمة، أكبر منها.

فلمّا كانت ليلة ست عَشْرة، فكّرتُ أنّ الشَهر قد مضى نصفُه، وأن الليالى تقرّبنى من الانتقال إلى غيره، فبت مغموماً.

وصار رسوله إلىّ، في اليوم السادس عشر، يدعونى إلى طعامه، فلمّا حضر الطعام بين أيدينا، رأى أكلى مقصّراً عمّا كان يعهد ، فضحك، ثم قال لى: أحسبك يا عربىّ، لما مضى نصف الشّهر، فكّرتَ فى أنّ الأيام تقرّبك من الانتقال عنّى إلى غيرى مِّمن لا يعاملك بمثل معاملتى، ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معى، فَسَهِرْت، واعتراكَ لذلك غمّ غيَّر طعامك، فأعلمته أنّه قد صدق.

فقال : ما أنا إن لم أحسن الاختيار لصديقى بحرٌ، وقد أمنَّك الله مّما حَذِرْتَ، و لم ألبث فى اليوم الذى وصلتَ إلىّ فيه، حتى سألتُ الملكَ، فصيّرك عندى، ما كنتَ فى أرض الرّوم، فلستَ تُنقل عن يدى، ولا تخرج منها إلاّ إلى بلدك، وأرجو أن يسبّب الله ذلك على يدىّ، فطابت نفسى، و لم أزل مقيماً عنده، إلى أن انقضى الشّهر.

فلمّا انقضى، ضُرِب بالقداح، فخرج الأوّل، والثّانى، والثالث، لبطارقة غير الّذى نحن عنده، فحُوِّل أصحابى، وبقيتُ وحدى.

وتغدّيتُ فى ذلك اليوم مع البَطريق، وكان من عادتى أن أنصرفَ من عنده بعد غَدائى إلى إخوانى من المسلمين، فنتحدث، ونأنس، ونقرأ القرآن ونَجْمَعُ الصلوات، ونتذاكَرُ الفرائضَ،ويسمع بعضنا من بعض ما حفظ من العلم وغيره، فانصرفتُ ذلك اليوم بعد غَدائى إلى الموضع الّذى كنتُ أصير إليه وفيه المسلمون، فلم أرَ فيه إلاّ الكَفَرَة،

(١) هذا تعليل طريف مقبول لميل بطريق البرحان إلى الأسير العربى، أنه وجد لغته "الرومية" جيدة.

فضاق صدرى ضيقاً تمنّيتُ معه أنّى كنت مع أصحابى، فبتُّ بليلةٍ صعبةٍ لم أطعَم فيها الغَمْضَ، وأصبحتُ أكسفَ خَلْقِ الله بالا، وأسوأهم حالاً.

وصار إلىّ الرّسولُ فى وقت الغداء، فصرتُ إليه، فتبيّن الغمّ فى أسرّة وجهى، ومددتُ يدى إلى الطعام، فرأى مدّ يدى إليه، خلافَ مدِّى الّذى كان يعرف، فضحك، ثمّ قال : أحسبك اغتممت لِفراق أصحابك؟

فأعلمته أنّه صدق، وسألته: هل عنده حيلة فى ردّهم إلى يده.

فقال: إنّ الملك لم ير أن يُنقلَ أصحابُك من يدى إلى يد غيرى إلاّ ليغمَّهم بما يفعل، ومن المحال أن يدع تدبيره فى الإضرار بهم، لمَيْلى إليك ومحبّتى لك، وليس عندى فى هذا الباب حيلة، فسألتُه أن يسأل الملك إخراجى عن يده، وضمّى إلى أصحابى أكون معهم حيث كانوا.

فقال : ولا فى هذا أيضاً حيلة، لأنّى لا أستجيز أن أنقلَكَ من سَعَةٍ إلى ضيقٍ، ومن كرامة إلى هَوان، ومن نعمة إلى شقاء.

فلمّا قال ذلك، تبيّن فىَّ الانكسار، وغلبة الغمّ، فقال لى: بَلغَ بك الغمّ إلى النهاية؟

فأخبرته: أنّه قد بلغ بى الغمّ، أن اخترتُ الموت على الحياة، لعلمى أنّه لا راحة لى بغيره.

فقال لى: إن كنتَ صادقاً، فقد دَنَا فَرَجُك.

فسألته عمّا دلّه على ذلك، فقال لى: إنّى وقعتُ فى نَكَبات أشدَّ هولاً مّما أنت فيه، وكان عاقبتها الفَرَج.

وأعلمنى أنّ بَطْرَقَةَ بلده لم تزل فى آبائه يتوارثونها، وأنّ عددهم كان كثيرا، ولم يبق غيرُ أبيه وعمّه، وكانت البطرقة إلى عمّه دون أبيه، فأبطأ على أبيه وعمّه الولد [1]، فبذلا للمُتَطببين الكثير من الأموال لعلاجهما بما يصلح الرّجالَ للنسّاء إلى أن بَطَل العمّ، ويئس من الانتشار، فصرف بعضُ الأطبّاء عنايته إلى معالجة أبى البطريق، فَعَلِقَتْ أمّه به.

فلمّا علم العمّ أنّه قد عَلقَت أمُّه به، جمع عدّةً من الحُبالى، من أَلْسنَةٍ مختلفة، منها العربى، والرّومى، والإفرنجى، والصّقلابى، والخَزرى، وغير ذلك، فوُضِعن فى داره.

---

(١) بمعنى أنهما لم ينجبا.

فلمّا وضعتْ البطريقَ أمُّه، أمر بتصيير أولئك النّساء كلّهن معه، وتقدَّمَ إلى كلّ واحدة منهنّ، ألاّ تكلّمه إلاّ بلسانها.

فلم تَستَتِمّ له أربع سنين، حتّى تكلمّ بكلّ الألسنة الّتى لأمّهاته اللاتى أرضعنَه.

ثم أمر بتصيير مُلاعبيه ومؤدبيه من جميع أجناس النّساء اللّواتى ربّينه، فكانوا يعلّمونه الكتابة، وقراءةَ كتبهم فلم تمرّ عليه تِسْعُ سنين، حتّى عرف ذلك كلّه.

ثمّ أمر عمه أن يُضمّ إليه جماعة من الفرسان يعلّمونه الثّقافةَ والمُنازلة، وجميع ما يتعلمّه الفرسان، وتقدّم بمنعه من سُكْنَى المنازل، وأمر أن ينزل فى المضارب، وأن يُمنع من أكل اللّحم إلاّ ما يصيده طائر يحمله على يديه، أو كلبٌ يسعى بين يديه، أو صيدَ بسهمه، فكانت تلك حاله حتّى استوفى عشرَ سنين، ثمّ مات عمّه، وَوَلَى أبوه البطرقةَ بعد عمّه، وأمره بالقُدُوم عليه، فلما رآه، ورأى فهمه، وأدبه، وشمائله، اشتدّ عُجْبُهُ به، فسمح له بما لم تكن الملوك تسمح به لأولادها، وأعدّله المضارب والفساطيط [1] الدّيباج، وضمّ إليه جماعةً كثيفةً من الفرسان، ووسّع على الجميع فى كلّ ما يحتاجون إليه، وردّه إلى سُكنى المضارب، وأخذه بالاستبعاد عن منازل أبيه.

قال البطريق " فلمّا تّمت لى خَمْسَ عَشْرَةَ سنة، ركبتُ يوماً لارتياد مكان أكون فيه، فبَصُرْت بغدير ماء قدّرت طوله ألف ذراع وعرضَه ما بين ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة ذراع، فأمرتُ بضرب مضاربى عليه، وتوجّهتُ إلى الصّيد، فرزقتُ منه فى ذلك اليوم، ما لم أطمع فى مثله كثرةً، ونزلتُ في بعض المضارب فأمرتُ الطبّاخين، فطبخوا لى ما اشتهيتُ من الطعام، ثمّ نُصبَتْ المائدةُ بين يدىَّ.

فإنّى لأنظر إلى الطبيخ يُغرف، إذ سمعتُ ضجّة عظيمة، فما فهمتُ خبرها حتّى رأيتُ رؤوسَ أصحابى تتساقط عن أبدانهم، فتنحّيتُ عن مكانى الّذى كنتُ فيه،وخلعتُ الثّياب الّتى كانت علىّ، ولبستُ ثيابَ بعض عبيدى، ثمّ ضربتُ ببصرى يَمنة ويَسرة، فلم أر حولى إلاّ مقتولاً وإذا فاعل ذلك بأصحابى مَنْسرِ[2] من مناسر البَرجان.

ثمّ أسرتُ كما يؤسر العبيد، واحتُملِ جميع ما كان معنا، من مضرب وغيره، وصاروا بى إلى ملك البرّجان.

---

(١) جمع فسطاط، وهو الخيمة. والديباج: الحرير.

(٢) المنسر: عصابة اللصوص كبيرة العدد، فى مصر تفخم السين وتنطق "مَنْصَر".

فلمّا رآني، و لم يكن له ولـد ذكَر، أمـر بالتوسـعة علـيّ، وأن أكـون واقفـاً عنـد رأسه، وسمّاني ابنه.

وكان للملك بنت، وكان بهـا مُغرمـاً، وكـان قـد علّمهـا الفروسـيّة، ومسـاورةَ الفرسان، ومساهمتَهم ومراكضتَهم.

فقال – وأنا حاضر– لجماعة: مَن منكم يتوجّه إلى ملك الـرّوم فيجيئنـي بكـاتب من بلده، ليعلّمَ ابنتي الكتابة.

فأعلمته أنّ رسوله لا يأتيه بأكتبَ منّي.

فأمرني أن أكتب بين يديه، فكتبتُ، فاستحسن خطّي، وقرنه بكتب كـانت تَـردُ عليه من والدي، فرأى خطّي أجودَ منهـا، فدفـع إليّ ابنتـه، وأمرنـي أن أعلمّهـا الكتابـة، فَهَويتُها، وهَويتني

فمكثتُ معي حتّى استوفت ثلاثَ عَشْرَةَ سنة، ثمّ عَـدَتْ إليّ يومـاً وهـي باكيـة، فقلت لها : ما يُبكيك يا سيّدتي؟

فقالت: دعني، يحقُّ لي البكاء، فسألتها عن السبب.

فقالت: كنتُ جالسة بين يدىْ أبي وأمّي في هذه اللّيلة، فغلبتنـي عينـي، فنمـت، فسمعت أبي يقول لأمّي: أرى ثَدْيَيْ ابنتك قـد تَفَلّكَـا[1]، وأرى هـذا الرّومـيّ قـد غَلُـظَ كلامُه، وليس ينبغي أن يجتمعا بعد هذا الوقت، فإذا جلسَتْ غداً معه، فابعثي إليهـا مَـن يفرّق بينهما، حتّى لا يراها، ولا تراه.

قال البطريق: ومن سُنّة البَرجـان، أن يكـون الرّجـل يخطـب لابنتـه زوجـاً، حتّـى يزوّجها، ولا يخطب لها إلاّ مَن تختاره البنت.

قال البطريق: فقلتُ لابنة الملك، إذا سألك أبوكِ، مَن تحبّين أن أخطـب لـك مـن الرّجال، فقولي: لستُ أريد إلاّ هذا الرّومي.

فغضبَتْ، وقالت: كيف يجوز أن أسأل أبي أن يزوّجني بعَبْد؟

قال : فقلت لها : ما جعلني الله عبداً، وأنا ابنُ ملك، وأبي ملك الرّوم.

(١) تفلكا : نسبة إلى الفلك، وهو مستدير، والمعنى أنها كبرت واستدار ثديها.

قال البطريق: وأهل البَرجان، يسمّون البطريقَ الروميَّ الذى يتولّى حـدّ برجـان : ملك الرّوم.

فسألتنى: هل أخبرتُها بحقّ؟

فأعلمتها أنّه حقّ.

فما انقضى كلامنا، حتّى جاء رسول الملك، ففرّقوا بيننا، و لم يمض بعد ذلك، إلاّ ثلاثة أيّام حتّى دعانى الملك، فدخلتُ عليه، فرأيتُ أماراتِ الشرّ مستحكمةً فى وجهه.

فقال لى: يا شقىُّ، ما حملـك علـى الكَـذِب فـى نسبِك؟ وأنـا أحكـم علـى مِـن انتسب إلى غير أبيه بالقتل.

فقلت له : ما انْتَسَبْتُ إلى غير أبى.

فقال لى : أتقول إنّك ابنُ ملك الرّوم؟

فأعلمته أنّى أقول ذلك، ودعوته إلى الكشف عنه.

فقال: لستُ أحتاج إلى كشف أمـركَ برسـول أرسـله ليَعـرفَ خـبرَك، ولكـن لى أشياء أمتحنك بها، فأعرف صدقك من كَذبك، فدعوته إلى كشفها بما شاء.

فدعا بدابّة، ولَبْد، وسَرْج، ولِجام، فأمرنى بتناول الدّابة، فأخذتُ الدّابـة مـن يـد السائس، ثمّ أمرنى بأخذ اللّبْد، فأخذته، ثمّ أمرنى بإلقائه على الدّابة، فَفَعَلْـتُ مـا أمرنـى به. ثمّ أمرنى بتناول السرج، فأخذته، ثمّ أمرنى بشدّ الحزام، والثّفر، واللّبـب [1]، وأخـذ اللّجام وإلجام الدابّة، ففعلتُ ذلك، ثمّ امرنى بركـوب الدابّـة، فركبـت، وأمرنـى بالسّـير فسرت، وأمرنى بالإقبال والإدبار، ففعلت، ثمّ أمرنى بالنزول، فنزلت. فقال عند ذلـك: أشهد أنّه ابن ملك الرّوم، لأنّه أخْذَ الدابة أخذ ملك، وعمِل سائرَ الأشـياء مثلمـا تعملـه الملوك، فاشهدوا أنّى قد زوّجته ابنتى.

فلمّا قالوا: شهدنا، قال : لا تشهدوا.

فلمّا سمعت قوله: لا تشهدوا، تخوّفتُ أن يأتى على نفسى.

---

(١) الثفر : سير من الجلد يشد على مؤخرة الدابة، واللبب (عكسه): ما يشد فى صدر الدابة.

ثمّ قال لى : لم أتوقّف عن الشّهادة رغبة عنك، ولكنّا لنا شرط لا نقدر أن نخالفه، و لم نأمن أن تُضطرّ إليه، فنحملك على شرطنا، وهو ما لم نخبرك به، ونوقفك عليه، فنكون قد ظلمناك، أو ندع لك سُنّة بلدنا، فنكون قد فارقنا سُنّتنا، إنّ سُنّتنا يا روميّ، أن لا نفرق بين الزوجين إذا مات أحدُهما، فإن مات الرّجل قبل المرأة، نوّمناها معه فى نعشه، وحملناهما معاً، حتّى ننزلهما إلى بئر هى مأوى موتانا، وجعلنا معهما طعاماً وشراباً لثلاثة أيّام، ثمّ أنزلناهما إلى البئر، فإذا صارا إلى قرارها سيّبنا الحبال عليهما، وكذلك إن ماتت المرأة قبل الرّجل، جعلناها فى سريرها، وجعلنا زوجها معها، وصيّرناهما جميعاً فى البئر، فإن رَضيتَ بهذه السُنة فبارَكَ الله لك فى زوجك، وإن لم ترض أَقَلْنَاك، فلسنا نزوّجك، ولا تستقيم لنا على خلاف سُنّتنا، فأحوجتنى الصبابة بها أن قلت: قد رَضيتُ بهذه السُنّة.

فأمر بتجهيزها وتسليمها إلىّ، وجمع بيننا، فأقمتُ معها أربعين يوماً، لا نرى إلاّ أنّا قد فزنا بمُلك الدنيا.

ثمّ اعتلّت علّة كانت معها غَشْية، لم يشكّ كلّ مَن رآها إلا أنّها قُبضَتْ، فجُهّزَتْ بأفخر ثيابها، وجُهّزتُ معها بمثل ذلك، وحُملْنا على نعش واحد، وركب الملك، وأهل المملكة، فشيّعونا حتّى وافوا بنا شَفيرَ البئر، ثمّ شدّوا أسافل السرير بالحبال، وجعلوا معنا فى النعش طعاماً وشراباً لثلاثة أيّام ، ثمّ حطّونا حتّى صرنا إلى قرارة البئر.

ثمّ أرخيَتْ علينا الحبال، فسقط حبل منها على وجه الجارية، فأزال الوجعُ ما كان بها من الغَشْيِ، فأنتبهت، فلمّا انتبهَتْ، رأيت أنّ الدنيا قد جُمِعَتْ لى.

واستمرّت عينى على الظلمة، فرأيتُ فى الموضع الّذى أنا فيه، من الخبز اليابس والخمر ما له دهر كثير، فأخذنا نتغذّى به جميعاً.

وكنّا لا نعدَم فى يوم من الأيّام، إلاّ النادر، سريراً يدلى فيه زوجان، أحدهما ميت، والآخر حيّ، فإن كان النّازل رجلاً حيًّا، تولّيتُ أنا قتلَه، لئلا يكون مع زوجتى غيرى، وكذلك إن كانت الحيّة امرأة، تولّت زوجتى قتلها، لئلا يكون مع زوجها غيرها.

فمكثنا فى البئر على هذه الحال أكثر من سنة، ثمّ دلّى فى البئر دَلْوٌ، فعلمت أنّ مدلّى الدلو غيرُ برَجانىّ، وأنّه لا يدخل ذلك الموضع غير برجانىّ، إلاّ رومى، ووقع لى أن أقدّم الجارية قبلى، لتتخلّص، ثمّ تعرّفهم حالى، فيردّوا الدلو إلىّ، فأصعَد.

فحملتُ بنت الملك فجعلتها في الدلو بكُسْوتها، وحُلِيِّها، وجواهرها، واجتذب القوم الدلو، فخرجت إليهم الجارية.

فإذا القوم مماليكُ لأبي، و لم ينتبهوا للسؤال عنّي، وهابتهم الجارية، أن تقول لهم شيئاً، وقد كانوا رأوا ما فيه أمّي وأبي، وما غلب عليهما من الحزن لفقدي، فصاروا إليهما بالجارية ليتسلون به، فسُرَّا بها، وسكنا إليها.

واستمرّت هيبة الجارية فحَصَلت شرَّ محصل.

وقد كان لوالدي صديق، له أدب وحكمة، وعلم بالتصوير، صوّر لهما صورتي في خشبة، وزوّقها، وجعلها في بيت، وقال لأبويّ: إذا ذكرتما ابنكما، واشتدّ غمّكما، فادخلا فانظرا إلى هذه الصورة، فإنّكما ستبكيان بكاءً كثيراً يعقبكما سَلْوة.

فلمّا صارت الجارية إلى أبويّ، ورأتهما يدخلان ذلك البيتَ كثيراً، ويخرجان، وقد بكيا، استفْقَتْهُما يوماً، وهما داخلان، فبصُرت بالصوّرة، فلمّا رأتها لطمت وجهها، ونتفت شعرها، ومزّقت ثيابها.

فسألاها عن السبب فيما صنعت بنفسها، فقالت: هذه صورة زوجي، فسألاها عن اسمه، واسم أبيه وأمّه، فأسْمَتهم جميعاً.

فقالا لها : فأين زوجك؟

قالت : في البئر الّتي أخرجت منها، فركب أبي وأمّي في أكثر أهل البلد، ومعهم الغلمان الّذين أخرجوا من البئر، حتّى وافوا البئر، فدلّوا الدلو، وكنتُ قد سللتُ سيفي الذي كان أنزل معي من غِمده، وجعلت ذُبَابه بين ثدييّ لأتّكيء عليه، فأخرجه من ظهري، فأستريح من الدنيا، لغلبة الغمّ عليّ، فوثبت، فقعدت في الدّلو، واجتذبوني حتّى خرجت، فوجدت أبي، وأمّي، وامرأتي، على شفير البئر، وقد أحضروا لي الدّواب لأركب وأنصرف إلى بلادي، وكان أبي قد صار ملك تلك البلاد، فلم أطعهما، وأعلمتهما أنّ الأصوب البعثة إلى أبي الجارية، وأمّها، حتّى يريا ابنتهما مثلما رأيتماني.

ففعلا ذلك، ووجّهاً إلى أبي الجارية، وهو صاحب البَرجان، فخرج في أهل مملكته، حتّى عايَنَها، وأقاموا عُرْساً جديداً، وحدثت مهادنة بين الرّوم والبَرجان، جرت فيها أيمان مؤكدة أن لا يعدو أحدهما على صاحبه ثلاثين سنة، وصار القوم إلى بلادهم، وصرنا إلى منازلنا.

قال : ومات أبى، فوَرثت البَطْرقة عنه، ورُزقت من بنت ملك البَرجان الولد، وأنت يا عربى، فإن كان الغمّ قد بلغ منك إلى ما ذكرتَ فقد جاءك الفَرَج.

فما انقضى كلام البطريق، حتّى دخل عليه رسولُ ملك الرّوم يدعوه، فمضى إليه، ثمّ عاد إلىّ، فقال: يا عربىّ، قد جاءك الفَرَج، كنتُ عند الملك، وقد جرى ذِكْرُ العرب، ورمتهم البطارقةُ عن قوس واحدة، فذكروا أنّهم لا عقولَ لهم ولا آداب، وأنّ قهرهم الرّوم بالغلبة والاتّفاق، لا بِحُسْنِ التدبير.

فأعلمتُ الملك أنّ الأمر بخلاف ما قالوا، فإنّ للعرب آدباً، وأذهاناً، وتدبيراً جيّداً.

فقال لى الملك: أنت لمحبّتك لضيفِكَ العربىِّ تُفْرِطُ فى إعطاء العرب ما ليس لها، وتصفها بما ليس فيها.

فقلت : إن رأى الملك أن يأذن فى إحضار هذا العربى، ليجمعَ بينه وبين هؤلاء المتكلّمين، ليعرف فضيلته، فأمرنى بحملك إليه.

فقلت: بئس ما صنعتَ بى، لأنّى أخاف إن غلبنى أصحابه أن يستخفّ بى، وإن غلبتهم أن يَضْطَغِنَ علىَّ.

فقال: هذه صفة العامّة، والملوك على خلافها، وأنا أخبرك أنّك إن غلبتهم حللتَ فى عين الملك، وكنتَ عنده بمكان يقضى لك فيه حاجة، وإن غلبوك سرّه غَلَبَةُ أهل دينه لك، فأوْجَبَ لك أيضاً بذاك ذِماماً[1]، وإنّ أقلّ ما يرى أن يقضى لك حاجة، فإن غَلَبتَ أو غُلبتَ فسله إخراجك من بلده، وردك إلى بلادك، فإنّه سوف يفعل ذلك.

قال قباث: فلمّا دخلتُ على الملك، استدنانى، وقرّبنى، وأكرمنى، وقال لى: ناظِرْ هؤلاء البطارقة.

فأعلمته، أنّى لا أرضى لنفسى بمناظرتهم، وأنّى لا أناظر إلاّ البطريقَ الأكبر، فأمر بإحضاره.

فلمّا دخل، سلّمتُ عليه، وقلتُ له: مرحباً أيّها الشّيخ الكبير القَدْر. ثمّ قلت له: يا شيخ كيف أنت؟

---

(١) الذمام : الحرمة والمنزلة.

قال : فى عافية؟

قلت : فكيف أحوالُك كلها؟

قال : كما تحبّ.

فقلت له : فكيف ابنُك؟

فتضاحكت البطارقةُ كلُّها، وقالوا: زعم البطريقُ -يعنون الّذى هو صديقى- أنّ هذا أديب، وأنّ له عقلاً، هو لا يعلم بجهله، أنّ الله تعالى قد صان هذا البطريق عن أن يكون له ابن.

فقلت: كأنّكم ترفعونه عن أن يكون له ابن؟

قالوا: إى واللهِ، إنّا لنرفعه، إذ كان الله رفعه عن ذلك.

فقلت : واعجباً، أيَجِلُّ عبد من عبيدالله، أن يكون له ابن، ولا يَجِلُّ الله تعالى، هو خالق الخلائق كلّها، عن أن يكون له ابن.

قال : فنَخَرَ البطريقُ نَخْرةً أفزعتنى، ثم قال : أيّها الملك،أخرِجْ هذا السّاعةَ عن بلدك، لايُفسد عليك أهله.

فدعا الملك بالفرسان، فضمّنى إليهم، وأحضر لى دوابَّ البريد، وأمر بحملى عليها، وتسليمى إلى مَن يلقانا فى أرض الإسلام من المسلمين، فسلمونى إلى مَن تسلّمنى من أهل الثّغر.

ثمّ ذكر حديثاً لعبدالملك، مع الرّجل، لا يتعلّق بهذا الباب فأذكره، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصوّاب.

✿✿✿

١٠- لا يحضُرُ دَعْوةً .. لا يُشَيِّع جنَازة !!

حدّثني عبيدُ الله بن محمّد، قال: حدّثنـا أبـو أحمـد الحسـين بـن موسـى الموسـوى العلوى النّقيب، قال:

حدّثنـى شـيخ كـان يخدُمنـى، وقـد تجارْينـا أحـاديث النّـاس، فقـال: إنّـه حلـف بالطلاق، ألاّ يحضُرَ دعوة، ولا يشيّع جنازة، فسألته عن ذلك.

فقال: كنتُ انحدرتُ إلى البَصرة من بغداد، فصعدتُ إلى بعض مشارع[1] البصرة عشاءً، فاستقبلنى رجل، فكنّانى بغير كُنيتى، وبشَّ فى وجهى، وأحفى، وجعـل يسـألنى عن قوم لا أعرفهم، ويحلف علىّ فى النّزول عنده.

وكنتُ غريباً، لا أعرف مكاناً، فقلت: أبيتُ عنده الليلة إلى غدٍ، فأطلبُ موضعاً.

فموَّهْتُ عليه فى القول، فجذبنى إلى منزله، وكان معى رَحلٌ صالح، وفى كمّـى دراهم كثيرة.

فدخلتُ إليه، فإذا عنده دعوةٌ، والقوم على نبيـذ، وقـد خـرج لحاجـة، فشبّهنى بصديق له، وتَمَوَّه عليه أمرى لسُكْره.

وكان فيمن عنده، رجلٌ له غـلام أمـرد، فلمّـا أخـذوا مضـاجعهم للنّـوم، أرقْـتُ من بينهم.

فلمّا كان بعد ساعة، رأيتُ واحداً من الجماعة، قد قام إلى الغلام الأمرد، فَفَسَـق به، ورجع إلى موضعه، وكان قريباً من صاحب الغُلام.

واستيقظ فى الحال صاحبُ الغلام، فتقدم إلى غلامه ليفْسُقَ به.

فقال له : ما تريد؟ ألم تكن الساعة عندى، وفعلتَ بى كذا وكذا؟

فقال : لا .

فقال : قد جاءنى السّاعةَ من فعل بى، وظننتـه إيّـاك، فلـم أتحـرّك، ولم أظـنّ أنّ أحداً يَجْسُرُ عليك.

---

(١) المشارع جمع مشرعة، وهى "المُوَرَدة".

فنَخَرَ الرّجل، وجّرد سكيناً من وَسَطِه، وقام، وأنـا أرْعَـدُ، فلـو كـان دنـا منّـى، حتّى يجدنى أرعد، لقتلنى، وظنّ أنّى صاحب القصّة.

فلما أراد الله عَزَّ وجَلَّ، من بقاء حياتى ما أراد، بدأ بصاحبـه، فوضـع يـده علـى قلبه، فوجده يخفُق، وقد تناوَمَ عليه، يرجـو بذلـك السـلامة، فوضـع السـكّين فـى قلبـه، وأمسك فَاهُ، فاضطرب الرّجل، وتَلفَ.

فأخذ الرّجل بيد غلامه، وفتح الباب، وانصرف.

فورد علىّ أمر عظيم.

وقلت : أنـا غريـب، وينتبـه صـاحب البيـت، فـلا يعرفنـى، ولا يشـكّ فـى أنّـى صاحب الجناية، فأقتل.

فتركـتُ رَحْلى، وأخـذتُ ردائـى، ونَعلـى، وطلبـتُ البـاب، فلـم أزل أمشـى، لا أدرى أين أقصد، والليل منتصف، وخِفْت العَسَس، فرأيتُ أتون [1] حمّام لم يُوقَد بَعْدُ.

فقلت: أختبيء فيه، إلى أن يُفتح الحمّام، فأدخله، فجلستُ فى كِسْر الأتون.

فما لبثت حينا، حتّى سمعتُ وَقْـعَ حـافر، وإذا برجـل يقـول: قـد رأيتـك يـا ابـنَ الفاعلة، ودخل الأتون، وأنا كالميت مـن الفـزع، لا أتحرّك، فلمّـا لم يجـد حسّـاً، أدخـل رأسـه، ويـدَه، يومـيء بسـيف معـه فـى الأتّـون، وأنـا بعيـد عـن أن ينـالنى السـيّف، صابرٌ، مستسلم.

فلمّا لم يُحِسّ أحداً، خرج إلى بابه، وإذا معه جاريـة، فأدخلهـا الأتّـون، فذبحَهـا، وتركَها ومضى.

فرأيتُ بريق خلخالين فى رجليها، فانتزعتهما منها، وخرجت، وما زلـتُ أمشـى فى الطريق متحيّراً، إلى أن صرتُ إلى باب حمّام قد فُتِح، فدخلته، وخبّأتُ مـا معـى فـى ثيابى، عند الحمّامى.

وخرجتُ وقـد أصبحـتُ، فضممـتُ الخَلْخَـالَيْن إلى مـا معـى، وطلبـتُ الطريـق، فعرفـتُ أنّـى بـالقرب مـن دار صديـق لى، فطلبتهـا، فدققـتُ بابـه، ففتـح لى، وسُـرَّ بمقدَمى، وأدخلنى.

---

(١) أتون : فرن.

فدفعتُ إليه منديلي الّذي كان فيه دراهمي والخَلْخَالين، ليخبّئهما، فلمّا نظر إليهما تغيّر وجهه.

فقلت: مالك؟

فقال : من أين لك هذان الخَلْخَالان؟

فأخبرته بخبري كلّه في ليلتي، فدخل مسرعاً إلى دار حَرَمه، وخرج إليّ.

فقال : أتعرف الرّجل الّذي رأيته قتل الجارية؟

قلت : أمّا بوجهه فلا، لأن اللّيلَ والظلمةَ كانت حائلةً بيننا، ولكنْ إن سمعتُ كلامَه عرفتُه.

فأعدّ طعاماً، وغدا في أمره، وعاد بعد ساعة، ومعه رجلٌ شابّ من الجُند، فكلّمه، وغمزني عليه.

فقلت : نعم، هذا هو الرّجل.

ثم أكلنا، وحضر الشراب، فحَمَل عليه بالنّبيذ، فسَكِرَ، ونام موضعه، فأغلق بابَ الدار، وذبح الرّجل.

وقال لي : إنّ المقتولة أختي، وكان هذا أفسدها، ونمى الخبر إليّ منذ أيّام فلم أصدّق، إلاّ أنّي طردت أختي، وأبعدتُها عنّي، فمضت إليه، ولستُ أدري ما كان بينهما، حتّى قتلها، وإنّما عرفت الخَلْخَالَيْن ودخلتُ فسألت عنها. فقيل لي: هي عند فلان.

فقلت: قد رَضِيتُ عنها، فوجّهوا، فردّوها، فلجلجوا في القول، فعلمتُ أنّ الرّجل قد قتلها كما ذكرتَ، فقتلته، فقم حتّى ندفنه.

فخرجنا ليلاً، أنا والرّجل، حتّى دفنّاه، وعدتُ إلى المُشْرَعة، هارباً من البصرة، حتّى دخلتُ بغداد.

وحلفتُ ألا أحضُر دعوة أبداً.

وأمّا الجنازة، فإنّي خرجتُ ببغداد، نصف النّهار، في يوم حار، لحاجة، فاستقبلتني جنازة يحملها نَفْسَان.

فقلت: غريب، فقيرٌ، أحملها معهما فأثاب، فدخلت تحتها، بدلاً من أحد الحمّالين.

فحين استقرّت على كتفي، افتقدت الحمّال، فلم أجِدْه، فصحتُ: ياحمّال، ياحمّال.

فقال الآخر: إمش، واسكت، قد انصرف الحمّال.

فقلت : السّاعةَ، واللهِ، أرمي بها.

فقال الحمّال: واللهِ، لئن فعلتَ لأصيحنّ.

فاستحيَيْتُ، وقلت : ثوابٌ، فحملناها إلى مسجد الجنائز، فلمّا حططنا الجنازة في مسجد الجنائز، هرب الحمّال الآخر.

فقلت : ما لهؤلاء الملاعين، والله، لأتِمَّنَّ الثواب، فأخرجتُ من كمّي دراهم، وصحت: يا حفّار، أين قبر هذه الجنازة؟

فقال : لا أدري.

فقلت : احفر، فأخذ منّي دِرهميْن، وحفر قبراً.

فلمّا صوّبت عليه الجنازة، ليأخذ الميت فيدفنه، وثب الحفّار من القبر فلطمني، وجعل عمامتي في رقبتي، وصاح: يا قوم.. قتيل، فاجتمع الناس، فسألوه.

فقال : هذا الرّجل، جاء بهذا الميت، بلا رأس، لأدفنه، وحلّ الكفن، فوجدوا الأمر على ما قاله الحفّار.

فدَهِشْتُ، وتحيّرت، وجرى عليّ من مكروه العامّة، ما كادت نفسي تتلف معه.

ثمّ حُمِلْتُ إلى صاحب الشُّرطة، وأُخْبِرَ الخبر، فلم يُرِدْ شاهداً عليّ، فجُرّدت للسياط، وأنا ساكتٌ باهت.

وكان له كاتب عاقل، فحين رآني، ورأى حيْرتي، قال له : أنظِرْني، حتّى اكتشف حالَ هذا الرّجل، فإني أحسبه مظلوماً، فأمْهله.

فقام، وخَلاَ بي، وساءلني، فأخبرته خبري، ولم أزد فيه ولم أنْقُص.

فنحّى الميت عن الجنازة، وفتّشها، فوجد عليها مكتوباً: أنّها للمسجد الفلانى، فى النّاحية الفلانية.

فأخذ معه رجاله ومضى، فدخل المسجد متنكّراً، فوجد فيه خيّاطاً، فسأله عن جنازة هناك، كأنه يريد أن يحمل عليها ميتاً له.

فقال الخيّاط: للمسجد جنازة، إلاّ أنّها قد أخِذَت منه الغَداةَ، لِحَمْل ميت، ولم تُرَدّ.

قال : مَن أخذها؟

قال : أهلُ تلك الدار، وأومأ إليها.

فكبسها الكاتب برجّالة الشُّرطة، فوجد رجالاً، فقبض عليهم، وحملهم إلى الشُّرطة، وأخبر صاحب الشُّرطة بالخبر.

وقرّر القومَ، فأقرّوا أنّهم تغايروا على غلام أمرد كان معهم، فقتلوه، وطرحوا رأسه فى بئر حفروها فى الدّار، وحملوه على تلك الصورة، وأنّ الحمّالَيْن كانا من جملة القوم، وعلى أصلٍ هرباً.

فضرُبت أعناق القوم، وخُلّيَ سبيلى.

فهذا سبب يَمينى فى ألا أحضُرَ جنازة.

✿✿✿

١١- جَزَاءُ الإحِسَان !!

حدّثني إبراهيمُ بنُ عليّ بنِ سعيد زَوْبعة النّصيبينيّ المتكلّم، قال :

قال جماعة من أهل نصيبين: إنّه كان بها أخَوان، ورثا عن أبيهما مالاً عظيماً، جليلاً، فاقتسماه، فأسرع أحدهما في حصتّه حتى لم يبق معه شيء[1]، واحتاج إلى ما في أيدي الناس، وثمّر الآخر حصّته، فزادت.

وعرض له سفر في تجارته، فجاءه أخوه الفقير، وقال: يا أخي إنّك تحتاج إلى أن تستأجر غلاماً في سفرك، وأنا أحتاج إلى أن أخدُمَ الناس، فاجعلني بدل غلام تستأجره، فيكون ذلك أصْوَنَ لي ولك.

فلم يشكّ الأخ أن أخاه قد تأدّب، وأنّ هذا أوّلُ إقبال، وآثر أن يَصُونَ أخاه، ورقّ عليه، فأخذه معه.

وكان للأخ الغنيّ حمارٌ فارهٌ يركبه، وقد استأجر بغالاً لأحماله، فأركب أخاه أحدها، وركب هو أحدها، وأركب المُكاريّ الحمار، وساروا.

فلمّا استمّر بهم السفر، وحصّلوا في جبل في الطريق، وفيه كهف فيه عين ماء، فقال الأخ الفقير للأخ الغني: لو نزلنا ههنا، وأرحنا دوابنا، وسقيناها من هذا الماء، وأكلنا، ثم ركبنا، لكان أرْوَحَ لنا.

فقال : افعل.

فنزل التاجر على باب الكهف الذي في الجبل، وأدخل متاعه إليه، وبسط السفرة، وأخذ أخوه الفقير، والمُكاري، الدوابّ، ومضيا ليسقياها.

وانتظر التاجرُ أخاه، فاحتبس طويلاً، ثم جاء وحده، وشدّ الدوابّ.

فقال له أخوه : يا أخي ما قُعادك، وأنا أنتظرك تأكل معي؟

فقال : حتى سقيْتُ الدوابّ.

فقال : وأين المُكاري؟

---

(١) أي أسرف في إنفاق ما ورثه ولم يثمره.

فقال : قد نام في الجبل.

فقال : تعال، حتّى نأكل.

فتركه ومضى، ثم عاد،وبيده حجارة يرمى بها أخاه، ويقول لـه: استكتفِ[1] يـا ابنَ الفاعلة.

فقال له : وُيحك ما تريد؟

فقـال : أريـد قتلَـك يـا ابـنَ الفاعلـة، أخـذت مـالَ أبـى، فجعلتَـه تجـارة لـك، وجعلتنى غُلامَك.

قال : ورفسه، وألقاه على ظهـره، ثـم أوثقـه كِتافـاً، وأثخنـه ضربـاً بالحجـارة، وشجاجاً، وصاح الرجل، فلم يجبه أحد.

وبرك أخوه الفقير على صدره، وكان فى وسطه سكين عظيمـة، فـى قِراب لهـا، فرام استخراجها من القراب ليذبحه بها، فتعسّرت عليه، فقام عن صدر أخيه، وأعلا يـدَه فخرجت اليسرى، وفيها السكّينُ فى قرابها، وجذبها بيده اليمين، وقد صار القراب مـع حَلْقِهِ، فخرجت السكّين بحميّة الجذبة، فذبحته، فوقع يخور فى دمه، ونزف إلى أن مـات، وجفّت يده على السكّين بعد موته، وهى فيها.

وحصل على تلك الصورة، وأخوه الغنُّى مشدود، لا يقدر على الحركة، والسفرة منشورة، والطعام عليها، والدوابّ مشدودة.

فأقام على تلك الصورة بقيّة يومه، وليلته، وقِطعةً من غده.

فاجتازت قافلة على المحجَّـة، وكـان بينهـا وبـين الكهـف بُعْـد، فأحسّـت البغـال بالدوابّ المجتازة، فصَهلت، ونَهَقَ الحمار، وجذبـت الرَّسَـنَ، وجذبـت البغـال أرسـانها، فأفلتت، وغارت[2] تطلب الدوابّ.

فلمّا رأى أهل القافلة، دوابًّا غائرة، ظنّوا أنها لقوم قد أسرهم اللصـوص، وكـانوا فى مَنَعَة، فتسارعوا إلى البغال.

فلمّا قصدوها، رجعت تطلبُ موضعَها.

---

(١) استكتف : أى كتف نفسك.

(٢) غارت (عامية بغدادية) : أسرعت تجرى.

وتبعها قوم من أهل القافلة، حتى أنتهوا إلى التاجر، وشاهدوه مكتوفـاً، والسُّـفرةَ منشورة، والأخَ مذبوحاً، وبيده السكّين، فشاهدوا عجباً.

واستنطقوا الرجل، فأومأ إليهم أنّ لا قُدرة له على الكلام، فحلّوا كتافه، وسـقوه ماءً، وأقاموا عليه إلى أن أفاق، وقدر على الكلام، فأخبرهم الخبر.

فطلبوا المُكارى، فوجدوه غريقاً فى الماء، قد غرّقه الأخ الفقير.

فحملوا أثقال التاجر على بغاله، وأركبوه على حمـار، وسـيّروه معهـم إلى المنزل الآخر.

✿✿✿

١٢- قِرْد !!

حدّثني عليّ بن نظيف المتكلّم، المعروف بشَهْدَانْجَة، وسعيد بن عبدالله السمَرْقَنْدى الفقيه الحنفي، عمّن حدثهما.

إنّه بات في سطح خَانٍ، في بعض الأسفار، ومعهم قَرّاد، ومعه قرد، وامرأته، فباتا في خان.

قال : فلما نام الناس، رأيت القردَ قد قلع المسمارَ الذى في السلسلة، ومشى نحو المرأة، فلم أعلم ما يريد.

فقمتُ، فرآني القرد، فرجع إلى مكانه، فجلستُ، ففعل ذلك دَفَعات، وفعلته.

فلما طال عليه الأمر، جاء إلى خُرْج القرّاد، ففتحه، وأخرج منه صُرَّة دَراهم، خمّنتُ أنّ فيها أكثر من مائة درهم، فرمى بها إليّ.

فعجبتُ من أمره، وقلت : أمْسِكُ، لأنظرَ ما يفعل، فأمسكتُ.

فجاء إلى المرأة، فمكّنته من نفسها، فوَطِأها.

فاغتممتُ بتمكيني إيّاه من ذلك، وحفظتُ الصرّة.

فلما كان من غدٍ، صاح القرّاد، يطلب ما ذهب منه.

وقال لصاحب الخان، قِرْدِى يعرف مَن أخذ الصُّرة، فاضبط بابَ الخان، وأقعُدُ أنا وأنت والقرد، ويخرج الناس، فمن عَلِق به القرد فهو خصمي، ففعل ذلك.

وأقبل الناس يخرجون والقرد ساكت لا يتكلّم، وخرجتُ فما عَرَضَ لى، فوقفتُ خارج الخان أنظر ما يجري، فلمّا لم يبق إلاّ يهودى، فخرج، فعلِق به القرد.

فقال القرّاد: هذا خَصمي، وجذبه ليحملَه إلى صحاب الشُّرطة، فلم أستحلّ السكوت.

فقلت: يا قوم، ليس اليهوديُّ صاحبَكم، والصُّرّة معى، ولى قصّة عجيبة فى أخذها، وأخرجتها، وقصصتُ عليهم القصة.فحُمِلْنا إلى صاحب الشُّرطة، وحضرت الرفقة فعّرفوا صاحب الشرطة مَحَلّى، ومنزلتى، ويسارى، وأقبل القرّاد يحيدُ عن قرده.

فما برحت حتى أمر صاحب الشُّرطة بقتل القرد، وطُلبت المرأةُ، فهربَتْ، وسَلِمَ اليهوديّ.

✿✿✿

١٣- من غرائبِ الصُّوفية

حدّثنا إبراهيم الخوّاص الصوفي، رحمه الله تعالى قال:

ركبتُ البحر مع جماعة من الصُّوفيَّة، فكُسر بنا المركب فنجا منّا قومٌ على لوح من خشب المركب.

فوقفنا على ساحل لا ندرى فى أى مكان هو، فأقمنا فيه أيّاماً لا نجد ما نقتاته، فأحسسنا بالموت، وأيقنّا بتَلَفِنا من الجوع لا محالة.

فقال بعضنا لبعض: تعالَوْا نجعلْ لله تعالى على أنفسنا أن ندع له شيئاً، فلعله أن يرحمَنا فيخلّصَنا من هذه الشدّة.

فقال بعضنا : أصومُ الدهر كلّه.

وقال الآخر : أصلّى كلّ يوم كذا وكذا ركعة.

وقال بعضنا : أدَع لذّات الدنيا، إلى أن قال كُل واحد منهم شيئاً، وأنا ساكت.

فقالوا : قُلْ أنت الآخر شيئاً.

فلم يجر على لسانى إلاّ أنْ قلت : أنا لا آكل لحم فيل أبداً.

فقالوا: ما هذا القول فى مثل هذا الحال؟

فقلت : واللهِ، لم أتعمّد هذا، ولكنّى منذ بدأتم فعاهدتهم الله تعالى عليه، وأنا أعرض على نفسى شيئاً كثيرة فلا تطاوعنى بتركها، ولا خطر ببالى شىء أدَعه لله تعالى، ولا مرّ على قلبى غير الذى لَفَظت به، وما أجْرِىَ هذا على لسانى إلا لأمر.

فلما كان بعد الساعة، قال أحدنا: لِـمَ لا نطوف هذه الأرضَ متفرّقين فنطلب قوتاً، فمَن وجد شيئاً أنذر به الباقين، والموعد هذه الشجرة.

قال : فتفرّقنا فى الطواف، فوقع بعضنا على ولد فيلٍ صغير، فلوّح بعضنا لبعض فاجتمعنا، فأخذه أصحابنا، واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون.

فقالوا لى : تقدّم وكُلْ معنا.

فقلت : أنتم تعلمون أنّي منذ ساعة تركته لله عَزَّ وجَلَّ، وما كنتُ لأرجع فيه، ولعلّ ذلك قد جرى على لساني من ذِكْري له، هو سبب موتي من بينكم، لأنّي ما أكلتُ شيئاً منذ أيّام، ولا أطمعُ في شيء آخر، ولا يراني الله عَزَّ وجل انقض عهده، ولو متّ جوعاً، فاعتزلتهم وأكل أصحابي.

وأقبل الليل، فأويتُ إلى أصل شجرة كنت أبيتُ عندها، وتفرّق أصحابي للنوم.

فلم يكن إلاّ لحظة، وإذا بفيل عظيم قد أقبل وهو يَنْعَر والصحراء تتدكْدَك، بنعيره وشدّة سعيه، وهو يطلبنا.

فقال بعضنا لبعض : قد حضر الأجل، فتشهّدوا، فأخذنا في الاستغفار والتسبيح، وطَرَحَ القومُ نفوسَهم على وجوههم.

فجعل الفيل يقصِد واحداً منهم، فيتشمّمه من أوّل جسده إلى آخره، فإذا لم يبق منه موضعاً إلا شمّه، شال إحدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه.

فإذا علم أنّه قد تَلِف، قصد إلى آخر ففعل به مثل فعله بالأوّل.

إلى أن لم يبقَ غيري، وأنا جالس منتصبٌ أشاهد ما جرى وأستغفر الله عَزَّ وجَلَّ وأسبّح.

فقصدني الفيل، فحين قَرُب منّي، رميتُ بنفسي على ظهري ففعل بي من الشمّ كما فعل بأصحابي، ثم عاد فشمّني دفعتين أو ثلاثاً، ولم يكن فعَل ذلك بأحد منهم غيري، وروحي في خلال ذلك تكاد تخرج فَزَعاً.

ثم لفّ خُرطومه عليّ وشالني في الهواء، فظننته يريد قتلي، فجهرتُ بالاستغفار.

ثم لفّني بخرطومه فجعلني فوق ظهره، فانتصبتُ جالساً، واجتهدتُ في حفظ نفسي بموضعي.

وانطلق الفيل، يُهرول تارةً، ويسعى تارة، وأنا تارة أحمد الله تعالى على تأخير الأجل وأطمعُ في الحياة، وتارة أتوقّع أن يثور بي فيقتلني، فأعاودُ الاستغفار، وأنا أقاسي في خلال ذلك من الألم والجزع لشدة سرعة سَعْيِ الفيل أمراً عظيماً.

فلم أزل على ذلك، إلى أن طلع الفجر وانتشر ضوؤه، فإذا به قد لفّ خرطومه عليّ.

فقلت : قد دنا الأجل وحضر الموت، وأكثرت من الاستغفار.

فإذا قد أنزلنى عن ظهره برفق، وتركنى على الأرض، ورجع إلى الطريق التى جاء منها، وأنا لا أصدّق.

فلما غاب عنّى، حتى لا أسمع له حسّاً، خررتُ ساجداً لله تعالى فما رفعتُ رأسى حتى أحسستُ بالشمس.

فإذا أنا على محجّة عظيمة، فمشيْتُ نحو فَرسخيْن، فانتهيتُ إلى بلد كبير، فدخلته.

فعجب أهلُه منّى، وسألونى عن قصتّى، فأخبرتهم بها، فزعموا أنّ الفيل قد سار بى فى تلك الليلة مسيرة أيّام، واستطرفوا سلامتى.

فأقمتُ عندهم حتى صَلُحْتُ من تلك الشدّة التى قاسيتها، وتندّى بدنى، ثم سرتُ عنهم مع التجار، فركبتُ فى مركب، ورزقنى الله السلامة، إلى أن عدتُ إلى بلدى.

❁❁❁

١٤- أمينٌ .. شَرِيفٌ

حدّثني ابوبكر محمّد بن عبيدالله بن محمّد الرازي، المعروف بابن حَمْدون، عن الحسن بن محمّد الأنباري الكاتب، قال: كان لي أيّام مُقامي بأرَّجان جار تاجر، يعرف بجعفر بن محمّد، وكنت آنَسُ به، فحدّثني، قال:

كنت أحجّ دائماً، وأنزل على رجل عَلَويٍّ، حُسَيْنيٍّ فقير، مستور، فألْطِفُه، وأتفقّده.

فتأخرّتُ عن الحجِّ سنة، ثمّ عاودتُ، فوجدته مُثْرِياً، فسررت، وسألته عن سبب ذلك.

فقال : كان قد اجتمع معي دُرَيْهِمات على وجه الدّهر، ففكّرتُ، عامَ أوّل، في أن أتزوّج، فإنّي كنت عَزَباً، كما قد علمتَ.

ثمّ علمتُ أنّ فرض الحجّ قد تعيّن عليّ، فرأيتُ أن أقدّم أداءَ الفرض، وأتوكّل على الله عَزَّ وجَلَّ، في أن يسَهل لي - بعد ذلك- ما أتزوّج به.

فلمّا حججتُ، طُفت طَواف الدخول، وأودعتُ رَحْلي، وما كان معي، في بيت من خان، وأقفلتُ بابه، وخرجتُ إلى مِنَى.

فلمّا عدت، وجدتُ البيت مفتوحاً، فارغاً، فتحيّرتُ، ونزلت بي شدّة ما مرّ بي قطُّ مثلُها.

فقلت : هذا أعظم للثواب، فما وجه الغمّ، فاستسلمتُ لأمر الله عَزَّ وجَلَّ.

فجلستُ في البيت، لا حيلة لي، ولا تسمح نفسي بالمسألة[1]، فاتّصل مُقامي ثلاثة أيّام، ما طعِمْتُ فيها شيئاً.

فلمّا كان في اليوم الرابع، بدأ فيَّ الضعف سَحَراً، وخِفت على نفسي، وذكرتُ قول جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله : "ماءُ زمزم لما شربُ له"، فخرجتُ أريدها حتّى شربتُ منها، ورجعتُ أريد باب إبراهيم الخليل- على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام - لأستريحَ فيه.

---

(١) لم تطب نفسه بأن يتسوّل.

فبينا أنا أسير، إذ عَثَرتُ فى الطريق بشىء أوجع إصبعى، فأكْبَبْتُ عليه لأمسكه، فوقعت يدى على هِميان أدلم[1] أحمر كبير، فأخذته.

فلمّا حصل فى يدى، ندمتُ، وعلمتُ أنّ اللقَطَة -ما لم تُعرَّف- حرام.

وقلت : إذا تركته الآن، كنتُ أنا المضيِّع له، وقد لزمنى أن أعرِّفه، ولعلّ صاحبه، إذا رجع إليه، أن يَهَبَ لى شيئاً أقتاته حلالاً.

فجئتُ إلى بيتى، وفتحتُ الهِميان، فإذا فيه دنانيرُ صُفر، تزيد على ألفىْ دينار.

فسددته، ورجعتُ إلى المسجد، فجلستُ عند الحِجْر ، وناديت: مَنْ ضاع له شىء، فيأتينى بعلامته، ويأخذه.

فانقضى يومى، وأنا أنادى، وما جاءنى أحد، وأنا على حالى من الجوع.

وبتُّ فى بيتى، ليلتى كذلك، وعدتُ إلى الصَّفَا والمَروة، فعرفته عندهما يومى، حتّى كاد ينقضى، فلم يأتنى أحد.

فضعُفْتُ ضعفاً شديداً، وخشيت على نفسى، فرجعتُ متحاملاً، ثقيلاً، حتّى جلستُ على باب إبراهيم الخليل، على نبيّنا وعليه السلام، وقلت قبل انصرافى: إنّى قد ضَعُفْتُ عن الصياح وأنا ماضٍ أجلس على باب إبراهيم، فمَن رأيتموه يطلب شيئاً ضاع منه، فأرشدوه إلىّ.

فلمّا قَرُب المغرب، وأنا فى الموضع، إذا أنا بخُراسانىّ ينشد ضالّة[2]، فصحتُ به، وقلتُ له: صِفْ لى ما ضاع منك، فأعطانى صفة الهميان بعينه، وذكر وزْنَ الدنانير وعددها.

فقلت : إن أرشدتك إلى مَن يردّه عليك، تعطينى منه مائة دينار؟

قال : لا.

قلت : فخمسين ديناراً؟

قال : لا.

---

(١) الهميان: كيس لحفظ النقود مثبت بحزام يُربط على الوسط.

(٢) رجل من خراسان يبحث عن شىء فقده.

قلت : فعشرة دنانير؟

قال : لا.

فلم أزل أنزل معه، حتّى بلغتُ إلى دينار واحد.

فقال : لا، إن رأى مَن هو عنده، أن يردّه إيماناً وإحتساباً، وإلاّ فهو أبصَر، وولّى لينصرف.

فورد علىّ أعظم وارد، وهَمَمْتُ بالسكوت، ثمّ خِفتُ الله سبحانه وتعالى، وأشفقتُ أن يفوتنى الخُراسانّى.

فصحتُ به : ارجع، ارجع، وأخرجتُ الهِميان، فدفعتُه إليه، فأخذه، ومضى، وجلستُ، ليس لى قوّة على المشى إلى بيتى.

فما غاب عنّى إلاّ قليلاً، حتّى عاد، فقال لى: من أى البلاد أنت، ومن أىّ النّاس؟

قال : فاغتظتُ منه غيظاً شديداً، وقلت: ما عليك، هل بقى لك عندى شىء؟

قال : لا، ولكنى أسألك بالله العظيم، من أى النّاس والبلاد أنتَ؟ فعرِّفنى، ولا تضجَر.

فقلت: رجلٌ من العرب، من أهل الكوفة.

فقال : من أيّهم أنت، واختصِرْ؟

فقلت: رجلٌ من ولد الحسيْن بن علىّ بن أبى طالب، رضى الله عنهم.

فقال : ما حالُك ومالُك؟

قلت : لا أملك فى هذه الدنيا كلّها إلاّ ما تراه، وقصصتُ عليه حالَ محنتى وما كنت طمِعت فيه أن يُعطينيه من الهِميان، وما قد انتهيتُ إليه من الضعف من الجوع.

فقال : أريد مَن يُعرّفنى صحّة نسبك وحالك، حتّى أقوم بجميع أمرك كلّه.

فقلت : ما أقدر على المشى للضعف، ولكن إئْتِ الطُّوّاف، وصِحْ بالكوفيّين، وقُلْ: رجل من بلدكم، علوّى، بباب إبراهيم، يريد أن يجيئه منكم مَن ينشط لحالٍ هو فيها، فمَن جاء معك فهاتِه.

فغاب غير بعيد، ثمّ جاء ومعه من الكوفيين جماعة اتّفق أنّهم كلّهم كانوا يعرفون باطن حالى.

فقالوا : ما تريد أيّها الشّريف؟[1].

فقلت : هذا رجلٌ يريد أن يعرف حالى، ونَسبى، لشىءٍ بينى وبينه، فعرِّفوه ما تعرفون من ذلك.

قال : فعرَّفوه نسبى، ووصفوا له طريقتى، وعُذْرِى.

فضمنّى، وجاء فأخرج الهِميان بعينهِ، كما سلّمنه إليه، فقال : خذ هذا بأسره، وبارك الله لك فيه.

فقلت : يا هذا، ما كفاك ما عاملتنى به، حتّى تهزأ بى، وأنا فى حال الموت.

قال : معاذ الله، هو لك، والله.

فقلت: فَلِمَ بخِلْتَ علىّ بدينار منه، ثمّ وهبت لى الجميع؟

فقال : ليس الهِميان لى، وما كان يجوز لى أن أعطيكَ منه شيئاً، قَلَّ أو كثر، وإنّما أعطانيه رجل من بلدى، وسألنى أن أطلب فى العراق، أو فى الحجاز، رجلاً علوياً، حُسينياً، فقيراً، مستوراً، فإذا علمتُ هذا من حاله، أغنيته، بأن أسلّم إليه هذا المال كلّه ليصير أصلاً لنعمة تنعقد له، فلم تجتمع لى هذه الصفات قبلك فى أحد، فلمّا اجتمعت فيك بما شاهدته من أمانتك، وفقرك، وعفّتك، وصبرك، وصحّ عندى نسبك فأعطيتكه.

فقلت له : يرحمك الله، إن كنتَ تحبّ استكمال الأجر، فخذ منه ديناراً، وابتع لى به دراهم، واشتر بها ما آكله، وصر به إلىّ الساعة ههنا.

فقال : لى إليك حاجة.

قلت : قُلْ.

قال : أنا رجلٌ موسر، والّذى أعطيتُك ليس لى فيه شىء، كما عرّفتك، وأنا أسألك أن تقوم معى إلى رحلى، فتكونَ فى ضيافتى إلى الكوفة، وتتوفّر عليك دنانيرك.

فقلت: ما فىّ حركة، فاحتل فى حَمْلى، كيف شئتَ.

(١) الشريف : المنتسب إلى آل البيت.

فغاب عنّى ساعة، وجاء بمركوب، وأركبنيه إلى رحله، وأطعمنى فى الحال ما كان عنده، وقطع لى من الغد ثياباً، وكان يخدُمنى بنفسه، وعادلنى فى عمّاريته [1] إلى الكوفة، فلمّا بلغتها، أعطانى من عنده دنانير أخر، وقال لى : تزوّد بها بضاعة، وفارقته، وأنا أدعو له، وأشكره، و لم أمسّ الهميان.

وأخذتُ أنفق من الدنانير الّتى أعطانيها الرّجل، باقتصاد، إلى أن اتّفقت لى ضيْعةٌ رخيصة، فابتعتها بالهِميان، فأغلّت، وأثمرت، وأنا من الله عَزَّ وجَلَّ، فى نعمة جزيلة، وخير كثير، والحمد لله على ذلك.

✿✿✿

(١) يعنى كان معه فى نفسى الهودج فوق راحلته.

القصص السياسية

١- مراكِزُ القُوَى

كان في يد صاعد بن مَخْلَد ضمانات كثيرة[١]، وكانت معاملته مع أبى نوح عيسى بن إبراهيم[٢]، وكان صاعدٌ من وجوه النّاس.

فحضر صاعدٌ بين يدى أبى نوح، يحاسبَه فى أموال وجبت عليه، فجرت بينهما مناظرات، فشتم فيها أبونوح صاعداً، فردّ عليه صاعد، مثل ما قاله له.

فاستعظم الحاضرون ذلك، واستخفّوا بصاعد، وقالوا له: يا مجنون، ما هذا الفعل؟ قتلتَ نفسَك، ثمّ أقاموه، وخلّصوه من أبى نوح، وقالوا: هذا مجنون، لم يدرِ ما خرج من رأسه.

فانصرف إلى منزله، متحيّراً، لا يدرى ما يصنع فيما نزل به، فحدّث أخاه عَبْدون[٣] بما جرى.

فقال له : إن لم تطعنى، قَبَضَ عليك فى غدٍ، وطالبك من المُصَادرة بما لا يَفِى به حالُكَ، ولا حالُ جميع أهلك، وقتلك -بلا شكّ- تشفّياً.

قال له صاعد : فما الرأى؟

قال : كم عندك من المال، واصدُقنى؟ قال : خمسون ألف دينار.

قال : أتطيب نفسُك أن تتعرَّى عنها وتحرسَ دمك، وما يبقى من حالك وضياعك؟ أم لا تسمح بذلك، فتؤخذ منك تحت المقارع، وتذهب النّفس والنّعمة كلّها؟

---

(١) الضمان : هو أن يتعهد الشخص بتسديد مبالغ مالية كبيرة للدولة نظير إطلاق يده فى أراض أو مصالح يديرها لحسابه.

(٢) يدل السياق على أن أبا نوح هذا هو المسئول عن ديوان الضياع أو الأراضى.

(٣) من طرائف هذا الخبر ما ذكره عبود الشالجى أن صاعداً وعبدون كانا نصرانيين ثم أسلم صاعد وبقى أخوه نصرانياً، وحين فزع إليه فإنه أخلص له النصح وأنقذه.

فقال له : قد تَعَرَّيْتُ عنها، كى تبقى نفسى.

قال : فادفع إلىّ منها ثلاثين ألف درهم، ففعل.

فحملها عبدون، وأتى حاجبَ موسى بن بَغَا، فقال له: خذ هذه العشرةَ آلاف درهم، وأوصلنى إلى فلان الخادم، وكان هذا خادمه الذى يتعشّقهُ موسى، ويطيعه فى كلّ أموره، وموسى إذا ذاك هو الخليفة، وكَتَبَتُهُ كالوَزارة، والأمور فى يده، والخليفة فى حِجْره[1].

قال : فأخذ الحاجب ذلك، وأوصله إلى الخادم، فأحضره العشرين ألف درهم، وقال: خذ هذه، وأوصلنى إلى الأمير السّاعة، وأعنّى عليه فى حاجة أريد أن أسأله إيّاها، ومشورة أشير بها عليه، فأوصله الخادم إليه.

فلما مَثَلَ بين يديه، سعى إليه بكتابه، وقال له: قد نهبوك، وأخذوا مالك، وأخربوا ضياعك، وأخى يجعل كتابتَك أجلَّ من الوَزارة [2]، ويغلِبُ لك على الأمور، ويوفّر عليك كذا، ويحمل إليك اللّيلة، من قبل أن ينتصف الليل خمسين ألف دينار عينا هدية لك لا يريد عنها مكافأة، ولا يرتجعها من مالك، وتستكتِبه، وتخْلَعُ عليه.

فقال موسى: أفكّر فى هذا؟

فقال : ليس فى هذا فكر، وألحّ عليه.

فقال الخادم: فى الدنيا أحد جاءه مثلُ هذا المال، فردّه؟ وكاتبٌ بكاتب، فأجابه موسى، وأنعم له.

فقال له عبْدون: فتستدعى أخى السّاعةَ، وتشافِهُهُ بذلك، فأنْفَذَ إليه، فأحضره، وقرّر عليه ذلك، وبات عبْدون فى الدّار لتصحيح المال، فوفّاه.

وبكّر صاعدٌ، فخَلَعَ عليه لكتابته، وأركب الجيشَ كلّه فى خدمته، وانقلبت سامُراء، بظهور الخبر.

---

(١) هكذا بدأت رحلة البحث عن مركز قوة للاحتماء به من بطش صاحب ديوان الضياع: الحاجب، فالخادم الخاص بالملذات الشاذة، فالقائد التركى المتسلط على الخليفة.

(٢) يجعل ديوانك الخاص أعظم من دواوين الدولة.

فبكرٌ بعضُ المتصرِّفين إلى الحسن بن مَخْلَد، وكان صديقاً لأبى نوح، فقال له: قد خُلع علَى صاعد.

فقال : لأى شيء؟

فقال : تقلَّدَ كتابة موسى بن بَغَا، فاستعظم ذلك.

وركب فى الحال، إلى أبى نوح، وقال له : عرفتَ خبر صاعد؟

فقال : نعم، الكلب، قد بلغك ما عاملنى به، والله لأفعلنّ به، ولأصنعنّ.

فقال له: أنت نائم؟ ليس هذا أردتُ، قد وَلِيَ الرّجلُ كتابةَ الأمير موسى بن بغـا، وخَلَع عليه، وركب معه الجيش بأسْرِهِم إلى داره.

فقال أبو نوح : ليس هذا ما ظننته، بات خائفاً منّا، فأصبحنـا خـائفين منـه، فمـا الرّأى عندك؟

قال : أن أصلِحَ بينكما السّاعة.

فركب الحسن بن مخلد إلى صاعد، فهنّأه، وأشار عليه أن يُصالِح أبا نـوح، وقـال له: أنت بلا زوجة، وأنا أجعلك صِهْرَه، وتعتَضد به، و إن كنتَ قد نُصِرت عليه، فهـو مَن تعلمُ موضعَه، ومحلّـه، ومحـلّ مصاهرتـه ومودّتـه، و لم يَدَعْـه حتّى أجـابَ إلى الصلـح والمصاهرة.

فقـال لـه : فـتركبُ معـى إليـه، فإنّـه أبوالبنـت، والـزّوج يقصِـد المـرأة، ولـولا ذاك لجاءك.

فحمله من يومه إلى أبـى نـوح، واصطلحـا، ووقـع العقـدُ فـى الحـال بينهمـا فـى ذلك المجلس.

✿✿✿

٢- من السِّجْن إلى الوَزارة

وحدّثني غيرُ واحد من الكتّاب، عمّن سمع أبا علي بن مُقْلة، لما عاد من فارس وزيراً، يحدّث، قال:

من طريف ما اتّفقَ لي في نكبتي هذه الّتي أدّتني إلى الوَزارة، أنّني أصبحتُ وأنا محبوس مقيّد في حجرة من دار ياقوتَ، أمير فارس، وقد لحقني من اليأس من الفَرَج وضيق الصدر ما أقْنَطَني وكاد يذهبُ بعقلي، وكنّا، أنا وفلان محبوسَيْن، مقيّدين، في بيت واحد من الحجرة، إلاّ أنّا على سبيل تَرْفِيهٍ وإكرام.

فدخل علينا كاتبٌ لياقوت، وكان كثيراً ما يجيئنا برسالته، فقال: الأمير يُقرِئُكُما السّلام، ويتعرّف أخباركما، ويعرض عليكما قضاء حاجة إن كانت لكما.

فقلتُ له: تقرأ عليه السّلام، وتقول له: قد -والله- ضاق صدري، واشتهيتُ أن أشربَ على غِناءٍ طيّب، فإن جاز أن يسامحنا بذلك سِراً، ويتّخذ به مِنّةً عليَّ ويداً، تفضَّل بذلك.

فقال لي المحبوس الّذي كان معي: يا هذا، ما في قلوبنا فضل لذلك.

فقلت للكاتب: أدِّ عنّي ما قلتُ لك.

قال : السمعُ والطاعةُ، ومضى، وعاد فقال : الأمير يقول لك : نعم وكَرامة وعَزَازة، أيَّ وقتٍ شئتَ.

فقلت : الساعةَ.

فلم تمض إلا ساعة، حتّى جاءوا بالطعام، فأكلنا، وبالمشامّ والفواكه والنبيذ، وصُفَّ المجلس، فجلستُ أنا والمحبوس الّذي معي في القَيْدَيْن.

وقلتُ له: تعالَ، حتى نشرب، ونتفاءل بأوّلِ صوت تغنيه المُغَنّية، في سرعة الفرج مّما نحن فيه فلعلّه يصحّ الفأل.

فقال : أمّا أنا فلا أشرب، فلم أزل أرفُق به حتّى شرب، فكان أوّلَ صوت غنّته المغنيّة:

تَوَاعَدَ للبيْن الخَلِيطُ لينبتوا ... وقال لراعي الذّوْدِ موعدُك السّبتُ
ولكنّهم بانوا -ولم أدْرِ- بغتةً ... وأفظع شيء حين يفْجَؤك البَغْتُ

فقال لى: ما هذا مّما يُتفاءل به، وأىُّ معنى فيه، مّما يدلّ على فَرَجنا؟

فقلت : ما هو إلا فأل مُبارك، وأنا أرجو أن يفرّق الله بيننا وبين هذه الحالة الّتى نحن عليها، وبين الفرج والصلاح، يوم السبت.

قال : وأخذْنا فى شربنا يومنا، وسُكْرِنَا، وانصرفَتْ المُغنّية، ومضت الأيّام.

فلمّا كان يوم السبت، وقد مضى من النّهار ساعتان، إذا بياقوتَ قد دخل علينـا، فارْتَعْنـا، وقمـتُ إليـه، فقـال: أيّهـا الوزيـر، الله، الله، فـى أمـرى، وأقبـل إلىّ مسـرعاً، وعانقنى، وأجلسنى، وأخذ يهنّينـى بـالوَزارة فُبهِـتُّ، و لم يكـن عنـدى علـمٌ بشـىء مـن الأمر، ولا مقدّمةٌ له.

فأخرج إلىّ كتاباً ورد عليه من القاهر بالله، يُعلمـه فيـه بمـا جـرى علـى المُقتـدر، ومبايعة النّاس له بالخلافة، ويأمرُ بأخذ البيعة على مَنْ بفارسَ مـن الأوليـاء، وفيـه تقليـده إيّاى الوَزارة، ويأمره بطاعتى، وسلّم إلىّ أيضاً، كتاباً من القاهر، يأمرنى فيـه بـالنّظر فـى أموال فارس، والأولياء بها، واستصحاب ما يمكن من المـال، وتدبـير أمـر البلـد بمـا أراه، والبدار إلى حضرته، وأنّه استخلف لى - إلى أن أحضُر - الكَلْوَذَانىَّ.

فحَمِدتُ الله كثيرا، وشكرته، وإذا الحـداد واقـف، فتقدّمـتُ إليـه بفـكّ قيـودى وقيود الرّجل، ودخلتُ الحَمَّامَ، وأصلحتُ أمـرى وأمـرَ الرّجـل، وخرجـتُ فنظـرت فـى الأعمال والأموال، وجمَّعْتُ مالاً جليلاً فى أيام يسيرة، وقررتُ أمورَ البلد، واسـتصحبتُ الرجل معى إلى الحضرة، حتى جلست هذا المجلس، وفرَّجَ الله عنا.

✿✿✿

٣- فَنُّ اصطِناع الأوْلِياء

قال : دعا المأمون يوماً بـأبي عبّادَ[١]، فدفـع إليـه كتاباً مختوماً، وأمـره أن يـأتيَ عَمْرَو بنَ مَسْعَدة، فيُناظَره على ما فيه باباً، باباً، ويأخذَ تحت كلّ باب خَطَّه فيه، ويختمَه بخَاتَمـه، وخـاتَمِ عمـرو، ويحتفـظَ بـه إلى أن يسـأله عنـه، ولا يذكـره ابتـداءً، وأكّـد على ذلك.

قال : فعلمتُ أنّها وقيعة، وقد كنتُ شاركتُ عمراً في أشياء، فصارت إلينا منها أموال، فخِفْتُ أن تكون مذكورةً في الكتاب.

فقصدتُ عمْراً، فوجدته في بُستان أحمد بن يوسف، يلعب بالشّطَرنْج مـع بعـض أصحابه، فعرّفته أنّي محتاج إلى الخَلوة معه.

فقـال : دعنـي السـاعة، فقـد اسـتوى لي هـذا الدَّسْـت، (أي سـينتصر فـي الدوْر).فضاق صدري، وقلبت الشطرنج، وقلت : قد سال السَّيْل، وهلكنا وأنت غافل، اقرأ هذا الكتاب، فقرأه فطالبتُه أن يكتبَ خطَّه، تحت كلّ فصل منه، بحُجّته،

فضحك، وقال : ويُحك، أما تستحي، تخدُم رجلاً طول هـذه المـدّة، ولا تعـرف أخلاقه، ولا مذَهَبَهُ؟

فقلت : يا هذا؟ أخبرني عنك، إن أقدمتَ على جَحْدِ[٢] مـا فـي هـذا الكتـاب، لتعذّر حجّة ما شاركتُك فيه، أمّا أنا فوالله ما أجحدُ، ولكن أصبِرُ لأمر الله تعالى.

قال : فتحبّ أن أطلعك على ما هو أشدّ عليك من هذا؟

قلت : وما هو؟

فقال : كتاب دفعه إليّ أميرُ المؤمنين منذ سنة، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هـذا، فعرفتُ ضيقَ صدرك، فلم أذكره لك.

---

(١) أبوعباد من كُتّاب المأمون، وعمرو بن مسعدة من وزرائه.. وخلاصة ما جرى أن المأمون اسـتدعى كاتبـه وقدّم إليه كشفاً بممتلكات الوزير وطلب منه أن يأخذ توقيعه عليها، ويوقـع إلى جانبـه، ويحتفـظ الكـاتب عنده بهذا الكشف ، ولا يبرزه إلا إذا طلبه المأمون.

(٢) الجحد : الإنكار.

فكدتُ أموت إلى أن فَرَغ من كلامه، فقلت له : أرنى إيّـاه، فـأحضره، وقرأتـه، وأنا أنتفض، وعمرو يضحك.

فلمّا فرغت منه، قلت: عند الله أحتسب نفسى ونعمتى.

فقال : أنتَ واللهِ مجنون.

فقلت: دعنا من هذا، ووقّعْ تحت كلّ فصل.

فنظر إلى جُملةِ ما نُسِبَ إليه فى الكتاب، فوجده أربعين ألف ألف درهم، فوقـع فى آخره: لو قَصُرت همّتنا فى هذا القـدر وأضعافه، لوَسَعْتَنا منازلُنـا، ومـا يفـى هـذا، بدَلْجَةٍ فى بَرْدٍ، أو رَوْحَةٍ فى حَرَّ، وأرجو أن يُطيلَ الله بقاء أمير المؤمنين، ويبلغَنا فيه مـا نؤمله به، وعلى يده[1].

وكان جملة ما رُفِعَ علىّ، سبعة وعشرون ألف ألف دِرهم.

فقال : يا هذا، إنّ صاحبنا ليس ببخيل، ولكنّـه رجـل يكـره أن يطـوى معروفـه، وإنّما أراد أن يُعلِمَنا أنّه قد عَلِم بما صار إلينا، فأمسَكَ عنه على عِلم.

ثمّ ختم الكتاب بخاتَمه، وخاتَمى، وانصرفتُ وأنا فى الموت، فلم ألبث أن كتبتُ وصيّتى، وأحكمت أمرى، وكنت سنة مغموماً، وذاب جسمى.

فقال لى المأمون يوماً : يا أبا عبّاد، قد أنكرتُ حالَك، أتشكو علّة؟فقلت: لا، يـا أمير المؤمنين، ولكنى منذ سنة، حىٌّ كميت لأجل الكتاب الذى دفعه إلىّ أمـيرُ المؤمنـين، لأناظرَ عليه عمرو بنَ مَسْعَدة.

فقال: أمسك عنّى، حتى أعيدَ عليك جميع ما جرى بينكما، فحدّثنى بجميـع مـا دار بيننا، كأنّه كان ثالثنا.

فقلت: لقد استقصى لك الذى وكّلته بخبرِنا، والله، ما خَرَمَ منه حرفاً.

فقال : والله، ما وكّلتُ بكما أحـداً، ولكـن ظنّـاً ظننتـه، وعلمـت أنّـه لا يـدور بينكما غيرُه، ولقد عجبتَ من غير عجب، لأنَّ عقول الرجال يدرك بعضها بعضاً، وهذا عمرو بن مسعدة، أعرفُ بنا منك، وأوسع صدراً، وأبعدُهمّة، وما أردتُ بما فعلتُ، إلاّ

(١) هذا من أغرب الحجج التى يذكرها وزير للإثراء واستغلال النفوذ، أنه يبذل جهداً كبيراً، ويعـانى مشـقة، وأنه يستطيع أن يكتسب أكثر لو كان فى بيته. والعجب أن المأمون قبل هذا المنطق، وقبل الاستمرار فيه.

أن تعلماَ أنّي قد عرفتُ ما صار إليكما، وتستكثرانه، فأحببتُ أن أزيل عنكما غَمَّ المُسَاتَرة، وثِقْل المُرَاقبة، وأنّي لمتذمّم لكما، خَجِلٌ من ضَعْفِ أثَرِى عليكما.

فسررتُ، وحرتُ كأنّى أطلِقْتُ من عِقَال، فشكرتُه ودعوتُ له.

ثم قلت : ما أصنع بهذا الكتاب؟

قال : خَرِّقْه إلى لعنة الله، وامض مصاحَباً، آمناً، فى سِترِ الله عَزَّ وجَلَّ.

✿✿✿

٤- قَلَقُ الضَّمير

كان أحمدُ بنُ أبى خالد، بغيضاً، قبيحَ اللهجة، وكان مع ذلك حرّاً[1] وكان يلزمه رجل متعطّل من طلاّب التصرّف يقال له: صالحُ بنُ عليّ الأضْجَم [2]، من وجوه الكُتّاب، فحدّث، قال :

طالت بى العُطْلَةُ فى أيّام المأمون، والوزير -إذ ذاك- أحمد بن أبى خالد، وضاقت حالى، حتّى خَشيتُ التكشّف[3].

فبكّرت يوماً إلى أحمدَ بن أبى خالد مُغَلِّساً[4]، لأكلّمَه فى أمرى، فرأيتُ بابه قد فُتِحَ، وخرج بين يديه شمعة، يريد دارَ المأمون.

فلمّا نظر إلىّ، أنكر علىّ بُكُورِى، وعبَس فى وجهى، وقال: فى الدنيا أحد بَكَّر هذا البُكُور ليشغلنا عن أمرنا.

فلم تصبر نفسى أن قلتُ: ليس العَجَبُ منك -أصلحك الله- فيما استقبلتنى به، وإنّما العَجَبُ منّى، وقد سهرتُ ليلتى، وأسْهَرْتُ مَن فى دارى تأميلاً لك، وتوقّعاً للصبح، لأصيرَ إليك، فأبثّك أمرى، وأستعين بك على صلاح حالى، وإلاّ فعلىَّ، وعلىَّ، وحلفتُ يميناً غليظة، لا وقفت ببابك، ولا سألتُك حاجة، حتّى تصيرَ إلىّ معتذراً ممّا كلّمتنى به.

وانصرفتُ مغموماً، ومكروباً بما لَقِيَنى به، متندّماً على ما فَرَطَ منّى، غير شاكّ فى العَطَب، إذ كنت لا أقدرُ على الحِنْث، وكان ابنُ أبى خالد، لا يلتفت إلى إبْرار قَسَمِى.

فإنّى لكذلك، وقد طلعت الشمس، إذ طلع بعض غلمانى، فقال: أحمدُ بنُ أبى خالد، مُقبل فى الشّارع، ثمّ دخل آخر، فقال: قد دخل دَرْبَنَا، ثمّ دخل آخر، فقال: قد وقفَ على الباب، ثمّ تبادر الغِلمان بدخوله الدهليز، فخرجتُ مستقبلاً له.

---

(١) كان قاسياً متجهماً، ولكنه شريف الصفات، يقدّر الشرفاء.

(٢) طلاب التصرف: الباحثون عن الوظائف.

(٣) التكشف : انكشاف الحال وظهور علامات الفقر.

(٤) وقت الغلس وهو حين يختلط ظلام آخر الليل بأول النهار.

فلمّا استقرّ به مجلسه فى دارى، ابتدأتُ أشكره على إبراره قَسَمِى، فقال: إن أمير المؤمنين، كان أمرَنى بالبُكور إليه فى بعض مُهمّاته، فدخلتُ إليـه، وقـد غلبنـى الفكـر ، لِمَا فَرَطَ إليك، حتّى أنكَر ذلك، فقصصتُ عليه قصّتى معك.

فقال : قد أسأتَ بالرجل، قم، فامض إليه، فاعتذر مّما قلتَ له.

قلت: فأمضى إليه فارغَ اليد؟

قال : فتزيد ماذا؟

قلت : يُقْضَى دَيْنُه.

قال : كم هو؟

قلت : ثلثمائة ألف درهم.

قال : وقّع له بذلك.

قلت : فيرجع بعدُ إلى الدَيْن؟

قلت : وَقّع له بثلثمائة ألف درهم أخرى.

قلت : فولاية يُشرَّف بها.

قال : ولّه مصر، أو غيرَها، مّما يشببها.

قلت: ومعونةً على سفره؟

قال : وَقّع له بثلثمائة ألف دِرهم ثالثة.

قال : وأخرَجَ التوقيع من خفـه، بالولايـة، وبتسـعمائة ألـف دِرهـم، فدفـع ذلـك إلىّ، وانصرف.

✿✿✿

٥- خَصْمٌ شَرِيف

حدّثنى علىّ بن عيسى، وكان ضامناً لأعمال الخَراج والضياع ببلده، فبقيَتْ عليه أربعون ألف دينار.[1]

وألحّ المأمون فى مطالبته، حتى قال لعلىِّ بنِ صالح، حاجبه: طالبْه بالمال، وأَنْظِرْه ثلاثةَ أيّام، فإن أحْضر المالُ قبل انقضائها، وإلا فاضرِبْه بالسياط، حتى يؤدّيَها أو يتلف.

وكانت بين علىّ بن عيسى وغسّان بن عبّاد عداوة، فانصرف علىُّ بنُ عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه، لا يقدر على شيء من المال.

فقال له كاتبه: لو عرَّجْتَ على غسّان، وأخبرتَه بخبرك، لرجوتُ أن يعينك على أمرك.

فقال : على ما بينى وبينه؟! (أى من العداوة والخصومة).

قال : نعم، فإنّ الرجل أرْيَحىٌّ كريم.

قال : فحملته حالُه على قَبول ذلك، فدخل على غسّان، فقام إليه، وتلقّاه بجميلٍ، ووفّاه حقّه.

فقال له : إنّ الحالَ الذى بينى وبينك، لا يوجب ما أبديتَه من تَكْرِمَتى.

فقال : ذاك حيث تقع المنافسةُ عليه والمضايقة فيه، والذى بينى وبينك بحاله، ولدخول دارى حرمة توجبُ لك علىَّ بلوغَ ما ترجوه، فإن كانت لك حاجةٌ فاذكرها، فقصّ كاتُبه عليه قصّتَه.

فقال غسّان : أرجو أن يكفيَه الله تعالى. ولم يَزِد على هذا شيئاً.

فمضى على بن عيسى آيساً من نفسه، كاسفَ البال، نادِماً على قصده، وقال لكاتبه لّما انصرف: ما أفدتنى بقصد غسّان إلاّ تعجّل المَهانَةِ والذلِّ.

---

(١) نظام الضمان فى العصر العباسى هو نفسه نظام الالتزام فى مصر فى عصر المماليك. يلتزم الضامن بدفع مبلغ للحكومة، فى نظير أن يسمح له بجبايته من الناس (الفلاحين) فى منطقته، وكان الأثرياء يتهربون من الضمان والالتزام لما فيه من جور عليهم.

وتشاغَلَ فى طريقه بلقاء بعض إخوانـه، وعـاد إلى داره، فوجـد علـى بابـه بغـالاً عليها أربعون ألف دينار، مع رسول غسّان بن عبّاد، فأبلغه سلامَه، وعرّفه غمّه بمـا دُفِـعَ إليه، وسلّم إليه المال، وتقدّم إليه بحضور دار المأمون من غدِ ذلك اليوم.

فبكّر عليُّ بنُ عيسى، فوجد غسّان بن عبّاد قد سبقه إليها، فلمّا وصل النـاس إلى المأمون، مَثُلَ غسان بن عبّاد بين الصفّين، وقال: يا أمير المؤمنين إنّ لعليّ بن عيسى حُرْمة وخدمة، وسالفَ أصل، ولأمير المؤمنين عليه سالفُ إحسان، وقد لحقه من الخُسـران فـى ضمانه ما قد تعارفه الناس، وقد جرى عليه من حِدّةِ المطالبة، وشدّتها، والوعيد بضـرب السياط إلى أن يتلف، ما حيّره، وقطعه عن الاحتيال فيما عليه من المـال، فـإن رأى أمـيرُ المؤمنين، أن يُجْرِيَنى على حُسْنِ عادته فى كرمه، ويشفّعَنى فى بعض مـا عليـه، ويضعـه عنه، فعل.

قال : فلم يـزل بهـذا ونحـوه، حتـى حطّـه النّصـف، واقتصـر منـه علـى عشـرين ألف دينار.

قال غسّان: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يجدّد عليه الضّمان، ويشرّفه بخِلَع.

فأجابه المأمون إلى ذلك.

قال : فيأذن أميرُ المؤمنين، أن أحملَ الدواة إليه، ليوقّعَ بذلك، ويبقى شرف حملهـا علىّ وعلى عَقِبى.

قال : افعل.

ففعل، وخرج على بن عيسى، والتوقيع معه بذلك، وعليه الخِلَع.

فلمّا وصل إلى منزله، ردّ العشرين ألف دينار، إلى غسّان، وشكره.

فردّها غسّان، وقال : إنّى لم أستحطّها لنفسـى، وإنّمـا أحببـتُ توفيرَهـا عليـك، واستحططها لك، وليس -والله- يعود شىء من المال إلى ملِكى أبداً.

وعرف علىّ بن عيسى، ما فعله معه غسّان، فلم يزل يخدُمُه إلى آخر العمر.

✿✿✿

٦- وَلِيُّ العَهد فى السِّجن

حكى الخليفة المعتضدِ عن فَترة ولايته للعهد قال:

لما ضَرَّب[١] إسماعيل بنُ بلبل بينى وبين أبى المُوَفّق، فأوحشه منّى، حتّى حبسنى الخَبْسَةَ المشهورة، وكنتُ أتخوف القتل صباحاً ومساءً، ولا آمن أن يرفع إسماعيل عنّى ما يَزيدُ فى غيظ الموفّقِ علىَّ، فيأمرُ بقتلى.

فكنت كذلك، حتى خرج الموفّق إلى الجبل، فازداد خوفى، وأشفقتُ أن يحدّثه عنّى إسماعيلُ بكذب، فيجعل غيبته طريقاً إليه، فلا يكشفه، ويأمر بقتلى، فأقبلتُ على الدعاء والتضرع إلى الله، والابتهال فى تخليصى.

وكان إسماعيل يجيئنى فى كلّ يوم، مراعياً خَبَرى، ويُرينى أنّ ذلك خدمةٌ لى.

فدخل إلىّ يوماً: وبيدىِ المصحف، وأنا أقرأ، فتركتُه، وأخذتُ أحادِثُهُ.

فقال : أيّها الأمير، أعطِنى المصحف لأتفاءل لك به، فلم أجبه بشىء.

فأخذ المصحف : ففتحه، فكان فى أوّل سطر منه ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [٢] ، فاسودّ وجهه، وأرْبَدَّ وخلط الورق.

وفتحه الثانية، فخرج: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[٣] فازداد قلقاً واضطراباً.

وفتحه الثالثة، فخرج : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٤].

---

(١) ضرّب (بتشديد الراء): أوقع وأثار الخلاف. وهنا استطاع الوزير ابن بلبل أن يوقع بين الخليفة وابنه، حتى حبسه.

(٢) الأعراف : ١٢٩.

(٣) القصص : ٥-٦.

(٤) النور : ٥٥.

فوضع المصحف من يده، وقال : أيّها الأمير، أنت والله الخليفة، بغير شـكٍ، فمـا حقُّ بشارَتي؟

فقلت: الله، الله، فـي أمـري، احقِـن دمـي، أسـأل الله أن يُبْقـىَ أمـير المؤمنـين، والأمير الناصر، وما أنا وهذا؟ ومثلك فى عقلـك، لا يُطلـق مثـل هـذا القـول بمثـل هـذا الاتّفاق. فأمسَكَ عنى.

وما زال يحدّثنى، ويخرجنى من حديث، ويدخلنى فى غيره، إلى أن جرى حديـث ما بيني وبين أبى، فأقبل يحلف لى بأيْمان غليظة، أنّـه لم يكـن لـه فـى أمـرى صنـع، ولا سعايةٌ بمكروه، فصدّقته، و لم أزل أخاطبه بما تطيب به نفسه، خوفا من أن تَزيدَ وحشَـتُه، فيسرعَ فى التدبير لتَلَفِى، إلى أن انصرف.

ثم صار إلىّ بعد ذلـك، وأخـذ فـى التنصّـل والاعتـذار، وانـا أظهـرِ لـه التصديـق والقَبول، حتى سكَن، و لم يشك أنّى معترف ببراءة ساحته.

فما كان بأسـرعَ مـن أن جـاء الموفّـق مـن الجبـل، وقـد اشـتدّت علّتـه، ومـات، فأخرجنى الغِلمان مـن الحبـس، فصيّرونى مكانـه، وفـرّج الله عنّـى، وقـاد الخلافـةَ إلىّ، ومكّننى من عدوّى إسماعيلَ بنِ بُليل، فأنفذتُ حُكْمَ الله فيه.

✿✿✿

٧- أنت اليوم .. وأنا غداً

قال عبيدالله بن سليمان :

كنت بحضرة أبى، فى ديوان الخَراج بـ "سُرَّ مَن رأى"، وهو يتـولاّه -إذ ذاك- إذ دخل علينا أحمدُ بنُ خالد الصَّرِيفينى، فقام له أبى قائماً فى مجلسه، وأقعـده فـى صـدره، وتشاغل به [١]، و لم يَنظُر فى عَمل حتّى نهـض، ثـمّ قـام معـه، وأمـر غِلمانـه بـالخروج بين يديه.

فاستعظمتُ أنا، وكلّ مَن فـى الدّواويـن ذلـك، لأنّ رسـم[٢] أصحـاب الديـوان، صغارَهم وكبـارَهم، أن لا يقومـوا فـى الدّيـوان لأحـد مـن خلـق الله عَـزَّ وجَـلَّ، ممّـن يدخل إليهم.

وتبيّن ذلك أبى فى وجهى، فقال لى : يا بنّى، إذا خَلَوْنا، فسلْنِى عن السّبب فيما عملته مع هذا الرّجل.

قال : وكان أبى يأكل فى الدّيوان، وينام فيه، ويعمل عشيّاً.

فلمّا جلسنا نأكل، لم أذكّره، إلى أن رأيت الطعام قد كاد ينقضى، فقال لى : يـا بنىّ شغلك الطعام عن إذكارى بما قلتُ لك أن تذكّرنى به؟

فقلت : لا ، ولكن أردتُ أن يكون ذلك على خَلوة.

فقال : يا بنىّ، هذا وقت خَلوة، ثمّ قال: أليس قـد أنكـرتَ، أنـت والحـاضرون، قيامى لأحمدَ بن خالد، فى دخوله وخروجه، وما عاملته به؟

فقلت : بلى.

قال : كان هذا يتقلّد مصر، فصرفته عنهـا[٣] ، وقـد كـانت طـالت مدّتُـه فيهـا، فتتبّعته، فوطئْـتُ آثـارَ رجـل لم أجـد أجمـلَ منـه آثـاراً، ولا أعـف عـن أمـوال السـلطان والرعيّة، ولا رأيتُ رعيّةً لعاملٍ أشكرَ من رعيّته له.

---

(١) تفرّغ للاهتمام بالضيف.

(٢) الرسم : التقاليد الوظيفية، أو البروتوكول.

(٣) كان أحمد بن خالد والياً على مصر، وفُصِل عن وظيفته، وخلفه فى الولاية سليمان بن وهب، والد راويـة الخبر.

وكان الحسينُ الخادم المعروف بـ "عَرَق الموت" صاحبَ البريد بمصر، من أصدق النّاس له، وكان مع هذا من أبغض النّاس، وأشدهم اضطراباً فى أخلاقه، فلم أتعلّق عليه بحُجَّة.

ووجدته قد أخّر رفع الحساب لسنة متقدّمه ولسنّته الّتى هو فيها، و لم يستتمّها لصَرْفى له عنها، و لم يُنفذه إلى الدّيوان، فسُمْته أن يحطّ من الدّخل، وأن يزيدَ فى النّفقات والأرزاق، ويكْسِرَ من البقايا، فى كلّ سنة مائة ألف دينار، لآخذها لنفسى، فامتنع من ذلك، فأغلظْتُ له، وتوعّدته ونزلتُ معه إلى مائة ألف واحدة للسّنتين، وحلفت بأيْمان مؤكّدة، أنّى لا أقنع منه بأقلّ منها.[1]

فأقام على امتناعه، وقال : أنا لا أخون لنفسى، فكيف أخون لغيرى، وأزيلُ ما قام به جاهلى من العفاف؟

فقيّدته وحبسته، فلم يجب، وأقام مقيداً فى الحبس شهوراً.

وكتب "عَرَقُ الموت"، صاحب البريد، إلى المتوكّل يضرِّب علىَّ ويحلف أنّ أموال مصر لا تفى بنفقتى ومؤونتى، ويصف أحمد بن خالد، ويذكر ميل الرّعية إليه، وعفّته.

فبينَا أنا ذات يوم على المائدة آكل، إذ وَرَدَتْ علىَّ رقعةُ أحمدَ بن خالد، يسألنى استدعاءه لمهمّ يلقيه إلىّ، فلم أشكّ أنّه قد غَرِضَ[2] بالقيد والحبس، وقد عزم على الاستجابة لمرادى.

فلمّا غسلتُ يدى دعوتُهُ، فاستخْلانى، فأخْليتُهُ، فقال : أما آن لك يا سيّدى أن تَرقَّ لى مّما أنا فيه من غير ذنب أذنبته إليك، ولا جُرم، ولا قديم ذَحْل[3]، ولا عداوة.

فقلت : أنت اخترتَ لنفسك هذا، ولو أجبتنى على ما قد سمعتَ يمينى عليه، لتخلّصت، فاستجب لما أريد منك.

---

(١) هنا يعترف الوالى الجديد بأنه حاول إكراه الوالى السابق على تزوير الدفاتر القديمة ليتمكن من سرقة نسبة من دخل الدولة.

(٢) ضاق صدراً.

(٣) الذحل : الثأر.

فأخذ يستعطفنى، فجاءنى ضدُّ ما قدّرته فيه، وغاظنى، فشتمته، وقلت : هذا الأمر المهمّ الّذى ذكرتَ فى رقعتك أنّك تريد أن تلقيه إلىّ هو أن تستعطفنى، وتسخرَ منّى، وتخدعَنى.

فقال : يا سيّدى، فليس عندك الآن غير هذا؟

فقلت : لا.

فقال : إذا كان ليس غير هذا، فاقرأ يا سيّدى هذا.

وأخرج إلىّ كتاباً لطيفاً مختوماً فى رُبع قرطاس، ففضضته، فإذا هو بخطّ المتوكّل[1] الّذى أعرفه، إلىّ، بالانصراف، وتسليم ما أتولاه إلى أحمد بن خالد، والخروج إليه مما يلزمنى، ورفع الحساب إليه، والامتثال لأمره.

فورد علىّ ذلك أقبحَ مَوْرِد، لقرب عهد الرّجل بشتمى له، وأنّه فى الحال تحت مكارهى وحديدى، فأمسكتُ مبهوتاً.

ولم ألبث أن دخل أميرُ البلد فى أصحابه وغلمانه، فوكّل بدارى؛ وجميع ما أملكه، وبأصحابى، وغِلمانى، وجَهَابذَتى، وكُتّابى، وجعلتُ أزحف من الصّدر، حتّى صرتُ بين يدى أحمد بن خالد وهو فى قيوده.

فدعا أميرُ البلد بحدّاد، ففكّ قيوده، فمددت رجلىَّ، ليوضع فيها القيد، فقال لى: يا أبا أيوب، ضم أقدامك ووثب قائماً، وقال لى: يا أبا أيوب، أنت قريب عهد بعَمَالة هذا البلد، ولا منزل لك فيه، ولا صديق، ومعك حُرُم وحاشية كبيرة، وليس تَسَعُك إلا هذه الدّار –كانت دار العمالة– وأنا أجد عِدّة مواضع، وليس لى كبير حاشية، ومن نكبة خَرَجْتُ، فأقم بمكانك.

وخرج، وصرف التوكيل[2] عنّى، وعن الدّار، وأخذ كتّابى وأسبابى إليه.

فلمّا انصرف، قلتُ لغِلمانى: هذا الّذى نراه فى النوم، انظروا من وُكّلَ بنا؟

فقالوا : ما وُكّلَ بنا أحد.

---

(١) الخليفة المتوكل الذى أعاد الوالى المحبوس إلى منصبه فجأة.

(٢) الحراسة الخاصة بقصد تقييد الحرية.

فعجبتُ من ذلك عجباً شديداً، وما صلّيتُ العصر حتّى عاد إلىّ جميع مَن حمله معه من المتصرّفين والكتاب والجهابذة، وقالوا: أخذ خطوطَنا برَفْعِ الحساب، وأمرنا بالملازمة، وأطلقَنا، فازداد عَجَبى.

فلمّا كان من الغد، باكَرَنى مُسَلِّماً، ورحتُ إليه فى عشيّة ذلك اليوم مسلّماً عليه.

فأقمتُ على ذلك ثلاثين يوماً، يغدو إلىّ، وأروحُ إليه، وربما غَدَوْتُ أنا، وراح هو، وهداياه وألطافهُ تأتينى فى كلّ يومٍ من الفاكهة، والثلج، والحيوان، والحلوى.

فلمّا كان بعد ثلاثين يوماً، جاءنى، فقال لى: قد عشقتَ مصرَ يا أبا أيّوب، واللهِ ما هى طيّبةُ الهواء، ولا عذبة الماء، وإنّما تطيب بالولاية والاكتساب، ولو دخلتَ إلى "سُرّ مَنْ رأى" لما أقمتَ إلاّ شهراً حتّى تتقلّد أجلّ الأعمال.

فقلتُ له: والله، ما أقمتُ إلا توقّعاً لأمرك فى الخروج.

فقال : أعطنى خط كاتبك، بأنّ عليه القيامَ بالحساب، واخرج فى حفظ الله. فأحضرتُ كاتبى، وأخذ خطّه كما أراد، وتسلّمه، وقال : أخرج فى أىّ وقتٍ شئتَ.

فخرجتُ من غدٍ، فخرج هو وأمير البلد وخاصّتهُ، ووجوهُ أهله، فشيّعونى إلى ظاهر البلد، وقال لى: تقيم فى أوّل منزلٍ على خمسةِ فراسخ، إلى أن أزيحَ عِلّة [1] قائد يصحبك إلى الرّملة، فإنّ الطَريقَ فاسد.

فاستوحشتُ من ذلك، وقلت: هذا إنّما غرّنى حتّى أخرجَ كلّ ما أملكه، فيتمكّن منه فى ظاهر البلد، فيقبضه، ثمّ يردّنى إلى الحبس والتوكيل والمطالبة، ويحتجّ علىّ بكتاب يذكر أنّه ورد عليه ثانياً.

فخرجتُ، وأقمتُ بالمرحلة الّتى أمر بها، مستسلماً، متوقّعاً للشرّ، إلى أن رأيتُ أوائلَ عسكر مقبلٍ من مصر.

فقلتُ لعلّه القائد الّذى يريد أن يصحَبنى، أو لعلّه الّذى يريد أن يقبض علىّ به، فأمرتُ غِلمانى بمعرفة الخبر.

فقالوا : قد جاء أحمدُ بنُ خالد العامل بنفسه.

---

(١) أتمكن من تجهيز قائد.

فلم أشكّ إلا أنّ البلاء قد ورد بوروده، فخرجتُ من مِضْرَبي، فلقيته وسلّمت عليه، فلمّا جلس، قال : أخلونا؟ فلم أشكّ أنّه للقبض عليَّ، فطار عقلي، فقام مَن كان عندي، و لم يبق غيري وغيُره.

فقال : أعلمُ أنّ أيّامك لم تطل بمصر، ولا حظيت بكبير فائدة، وذلك الباب الّذي سألتنيه في ولايتك فلم أستجب إليه، إنّما أخّرت الإذن لك في الانصراف من أوّل الأمر إلى الآن، لأنّي تشاغلتُ بالفراغ لك منه، وقد حططتُ من الارتفاع[1]، وزدتُ في النّفقات، في كلّ سنة خمسةَ عَشَرَ ألف دينار، تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار، وهو يقرب ولا يظهر، ويكون أيسر مما أردته منّي ذلك الوقت، وقد تشاغلتُ به حتّى جمعتُه لك، وهذا المال على البغال قد جئتكَ به، فتقدّم إلى مَن يتسلّمه.

فتقدّمتُ بقبضه، وقبّلتُ يده، وقلت : والله، قد فعلتَ يا سيّدي ما لم تفعله البَرامِكة، فأنكر ذلك، وتقبَّضَ منه، وقبّل يدي.

وقال : ههنا شيء آخر أريد أن تقبلَه.

فقلت : وما هو؟

قال : خمسة آلاف دينار قد استحققتها من أرزاقي، فامتنعتُ من ذلك وقلت : فيما تفضّلتَ به كفاية.

فحلف بالطلاق، أنّي أقبلُها منه، فقبلتها.

ثمّ قال: وهنا ألطاف من هدايا مصر، أحببتُ أن أصحبك إيّاها، فإنّك تمضي إلى كُتّاب الدواوين ورؤساء الحضرة، فيقولون لك: وُلّيتَ مصر، فأين نصيبُنا من هداياها؟ و لم تطل أيّامك، فتعدّ لهم ذلك، وقد جمعتُ لك منه ما يشتمل عليه هذا الثَّبَتُ.

وأخرج إليّ درجاً فيه ثبت جامع لكلّ شيء في الدّنيا حسن طريفٍ، جليل القدر، من ثياب دَبيقيّ، وقصب، وخَدَمٍ وبغالٍ، ودواب، وحمير، وفُرُش، وطيب، وجوْهَر، حتّى أقلام ومِداد، ما يكون قيمته مالاً كثيراً.

---

(١) أي زاد في المصروفات، وقلّل في الإيراد، بما يسمح باقتناص جزء من المال العام لنفسه، أو للآخر، وهكذا رضي طواعية بما لم يرض به كرهاً من قبل، وفي الحالين هو سارق، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

فأمرتُ بتسلّمه، وزدتُ في شكره.

فقال لي: يا سيّدي، أنا مغرم بحبّ الفَرْش، وقد استعمل لي فرش بيت أرمنّي، وهو عشر مصلّيات بمخادّها، ومساندها، ومساورها، ومطارحها، وبُسُطها، وهو مذهّب، بطُرُز مذّهبه، قد قام عليّ بخمسة آلاف دينار، على شدّة احتياطي، وقد أهديته لك، فإن أهديته للوزير عَبْدَك، وإن أهديته للخليفة ملكّته به، وإن أبقيته لنفسك وتجمّلت به[1]، كان أحبَّ إليّ.

قال : وحمله، فما رأيتُ مثله قَط، ولا سمحت نفسي بإهدائه إلى أحد، ولا استعماله، وما ابتذلتُ منه شيئاً غير هذا الصّدر ومسنده ومساوره، يوم إعذارك[2]، أفتلومني على أن أقوم لهذا الرّجل، يا بنيّ؟

فقلتُ: لا واللهِ يا أبتِ، ولا على ما هو أكثر من القيام، ولو كان مستطاعاً.

فكان أبي بعد ذلك، إذا صَرَف [3] رجلاً، عامله بكلّ جميل، ويقول: علّمنا أحمد بن خالد، حُسْنَ الصّرف، أحسن الله جزاءه.

✿✿✿

---

(١) اعتراف خطير بعمومية البلوى وانتشار الرشوة في نيل الوظائف الكبرى في دولة الخلافة.

(٢) الإعذار: الختان أو الطهارة.

(٣) صرف رجلاً: أنهى عمله.

٨- الاستخبارات الخاصة

حدّثني شيوخ الكتّاب:

أنّ القاسم بنَ عبيدِالله الوزير، لما انفرد بالوَزارة بعد موت أبيه، كان يحبّ الشُّرْب، واللّعب، ويخاف أن يتّصل ذلك بالمعتضد[1]، فيستنقصه، وينسبه إلى الصبيانيّة، والتهوّك [2] في اللّذات، والتشاغل عن الأعمال، وكان لا يشرب إلاّ في الأحايين، على أخفى وأسترَ ما يمكنه.

وأنّه خلا يوماً مع جواريه، ولبس من ثيابهنّ المصبَّغات[3]، وأحضر فواكه كثيرة، وشرب، ولعب، من نصف النّهار إلى نصف اللّيل، ونام بقيّة ليلته، وبَكّر إلى المُعتضِد على رسمه للخدمة، فما أنكر شيئاً.

وبكرَّ في اليوم الثاني، فحين وقعت عين المعتضدِ عليه، قال له: يا قاسم، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خَلوتك، وألبستنا معك من ثيابك المصبَّغات.

قال : فقبّل الأرض، وورّى عن الصّدق، وأظهر الشكر على هذا البسْط، وخرج وقد كاد أن يتلف غمّاً لوقوف المعتضدِ على هذا السّر، وكيف رَقَى إليه، وأنّه إذا لم يَخْفَ عليه هذا القدر من أمره، فكيف تخفى عليه مَرَافِقُه[4]، فجاء إلى داره كئيباً.

وكان له في داره صاحبُ خَبَر [5] جَلْدٌ يرفع إليه الأمور، فأحضره، وعرّفه ما جرى بينه وبين المُعتضدِ، وقال له: ابحث لي عمَّن أخرَجَ هذا الخبر، فإن فعلتَ، زدتُ في رزقك وأجزتك بكذا وكذا، وإن لم تخرجه، نفيتُك إلى عُمَان. وحلف على الأمرْين.

فخرج صاحبُ الخبر من حضرته متحيّراً كئيباً، لا يدرى ما يعمل في يومه ذلك، مفكّراً كيف يجتهد ويحتال، فما وقع له رأى يعمل عليه.

قال صاحبُ الخبر: فلمّا كان من الغد، بَكّرت إلى دار القاسم، زيادة بُكُور على ما جرى به رَسْمي، لفرط قلقى وسهرى تلك اللّيلة، ومحبّتى للبحث.

---

(١) أحد الخلفاء الأقوياء من بنى العباس.

(٢) التهوّك: مزيج من التهور والتهتك وهى تحمل معنيهما.

(٣) الملابس المزركشة المخصصة للعب واللهو.

(٤) المرافق : الرشاوى وما يشبهها.

(٥) مخبر خاص.

فجئتُ، و لم يُفتح باب دار القاسم بعد، فجلستُ، فإذا برجلٍ زَمِـنٍ يزحـف، فـي ثياب المكدّين [1] ، ومعه مِخلاة، كما تكون مع المُكدّين.

فلمّا جاء إلى الباب، جلس إلى أن فُتح، فسابقني إلى الدّخول، فَوَلَع به البوّابـون، وقالوا له: أيُّ شيء خبرك يا فلان، وصفعوه، ومازحوه، ومازحهم، وطايبهم، وشتموه، وشتمهم، وجلس في الدّهليز.

فقال : الوزير يركب اليوم؟

قالوا : نعم، السّاعةَ يركب.

قال : وأيّ وقت نام البارحة؟

قالوا : وقت كذا وكذا.

فلمّا رأيته يسأل عن هذا، حمّنتُ عليه أنّه صاحب خبر، فأصغيتُ إليـه، و لم أرِهِ أنّي حافلٌ بأمره وهو يسأل، إلى أن لم يُبقِ شيئاً يجوز أن يعلَمَه البوّابون، عمّن وصـل إلى الوزير، ومَن لم يصل، ومتى خرجوا، إلا سألهم عنه، وحدّثوه هم، أحـاديث أخـر، على سبيل الفُضُول.

ثمّ زحف فدخل إلى حيث أصحاب السُّتور، فأخذ معهم في مثل ذلك، وأخـذوا معه في مثله.

ثمّ زحف فدخل إلى دار العامّة.

فقلت لأصحاب الستور: مَن هذا؟

فقالوا: رجل زَمِنٌ فقير أبْلَهٌ طيّب، يدخل الدّار يتصدّق [2] ويتطايب، فيَهَـبُ لـه الغِلمان والمتصرّفون.

فتبعته إلى أن دخل المطبخ، فسأل عمّا أكل الوزير، ومَن كـان معـه علـى المـائدة، وكل واحد يخبره بشيء، ثمّ خرج يزحف، حتّى دخل حجرة الشّراب، فلم يزل يبحـث عن كلّ شيء، فيحدّث به، ثمّ خرج إلى خزانة الكُسـوة، فكـانت صورتـه كذلـك، ثـمّ جاء إلى مجلس الكتّاب في الدّيوان، فتصدّق، وأقبل يسمع ما يجرى، ويسأل الصّبيّ بعـد

(١) الزمن (بكسر الميم): العجوز الذى أضناه طول الزمن، والمكدّ: الشحاذ.

(٢) يتصدق –هنا– بمعنى يطلب الصدقة.

الصّبيّ، والحَدَث بعد الحَدَث، عن الشيء، ويستخبر الخبر، في كلّ موضع من تلك المواضيع، ويستقيه، ويخلط الجدّ بالمزح والتطايب بكلامه، والأخبار تنجرّ إليه، وتتساقط عليه، والقطع والزلّات[1] تجيئه، وهو يملأ المِخلاة، فلمّا فرغ من هذا، أقبل راجعاً يريد الباب.

فلمّا بلغ الباب تبعته، فخرج حتّى جاء إلى موضع من الخُلْد، فدخل إليه، فوقفتُ أنتظره، فإذا هو بعد ساعة، قد خرج شاباً بثياب حِسان، ماشياً، بغير عِلّة، فتبعته حتّى جاء إلى دارٍ بقرب دار الخادم الموكّل بحفظ دار طاهر، فدخلها.

فسألتُ عنها، فقالوا: هذه دار فلان الهاشمي، رجل مُتَجمّل.

فرصدته إلى وقت المغرب، فجاء خادمٌ من دار ابن طاهر، فدقّ الباب، فكلّمه من خُوخَة له، ففتح له ورمى إليه بُرقعة لطيفة، فأخذها الخادم وانصرف.

فجئتُ، فطلبتُ من الوزير غِلماناً، فسلّم إليّ ما طلبت، فبكّرتُ في السّحَر إلى الدّار التي في الخُلْد، فإذا بالرّجل قد جاء بزّيه الّذي دخل به داره بقرب دار ابن طاهر، فكَبَسْتُه في الموضع، فإذا هو قد نزع تلك الثياب، ولبس ثياب المُكدّين الّتي رأيتُها عليه أوّلاً.

فحملته، وغطّيتُ وجهَه، وكتمتُ أمره، حتّى أدخلته دار القاسم، ودخلتُ إليه، فقصصتُ عليه الخبر.

فلمّا فرغ القاسم من شُغله، استدعاه، فقال له: اصدُقْني عن أمرك، أو لا ترى ضوْء الدّنيا، ولا تخرج من هذه الحجرة -والله- أبداً.

قال : تؤمنني؟

قال: أنت آمن، فنهض لا عِلّة به.

فتحير القاسم، وقال له: خبرك؟

فقال : أنا فلان الهاشمي، وأنا رجل متجمّل، وأنا أتخبّر عليك للمعتضد، منذ كذا وكذا، وأنزل في دَرْب يعقوب، بقرب دار ابن طاهر، ويجري عليّ المعتضد في كل شهر

(١) الزلات : الصدقات.

خمسين ديناراً، فأخرج كلّ يوم من بيتى، بالزىّ الّذى لا يُنكره جيرانى فأدخل داراً فى الخُلد، بيدى منها بيتٌ بأجرة، فيظنّ أهلها أنى منهم[1]، ولا ينكرون تغيير الزىّ.

فأخرج من هناك بهذه الثّياب، وأتزامن من الموضع وألبسَ لِحية فوقَ لِحْيتى، مخالفةً للون لحيتى، حتّى إذا لقينى فى الطريق -بالاتّفاق- بعض مَن يعرفنى، أنكرنى.

فأمشى زحفاً من الخُلد إلى دارك، فأعمل جميع ما حكاه صاحب خبرك، وأستقى أخبارَك من غلمانك، وهم لا يعرفون غرضى فيُخرجون إلىّ من الأسرار -بالاسترسال- ما لو بُذِلَ لهم فيه الأموال ما خرجوا به.

ثمّ أخرج فأجىء إلى موضعى من الخُلْد، فأغيّر ثيابى، وأعطى ذلك الّذى اجتمع لى فى المِخلاة للمُكدّين، وألبَس ثيابى الّتى يعرفنى بها جيرانى، وأعود إلى منزلى، فآكل، وأشرب، وألعب، بقيّةَ يومى.

فإذا كان المغرب جاءنى خادمٌ من خدم دار ابن طاهر، مندوبٌ لهذا، فأرمى إليه من رَوْزَنَة [2] لى، رُقعة فيها خبر ذلك اليوم، ولا أفتح له بابى.

فإذا كان بعد تسعة وعشرين يوماً، جاءنى الخادم، فأنزل إليه، فأعطيه رُقعة ذلك اليوم، ويعطينى جارى ذلك الشّهر.

ولولا أنّى لم أر صاحب خبرك، ولا فطنتُ له، لما تمّ علىّ هذا، ولو كنتُ لحظته لحظة واحدة، ما خفى علىَّ أنّه صاحب خبر، ولكنتُ أرجع من الموضع الّذى أراه فيه، فلا يعرف خبرى، وبعد ذلك فإنّما تمّ علىّ هذا، لأنّ أجلى قد حضر، فالله، الله، فى دمى.

فقال له: اصدقنى عما رفعته إلى المعتضد عنّى، فحدّثه بأشياء رفعها، منها خبر الثّياب المصبّغة.

قال: فحبسه القاسم أيّاماً، وأخفى أمره، وأنفذنى إلى منزله، وقال: راعِ أمَرهم، وانظر ما يجرى.

---

(١) هذا يعنى أن أهل المنطقة من محترفى التسول والاحتيال.

(٢) الروزنة: كوة أو فتحة فى الجدار. فى ريف مصر: ناروزة.

فمضيتُ إلى داره الّتى وصفها بدرب يعقوب، فجلستُ إلى المغرب، فجاء الخادم، فصاح به.

فقالت له الجارية: ما رجع اليوم، وهذه لم تكن عادته قَط، وقد -والله- أشفَقْنا أن يكون قد حدث عليه حادث لا نعرفه. وقامت قيامتنا، فانصرف الخادم، وانصرفت.

وعدتُ أيضاً المغرب من الغد، وجاء الخادم، فقالوا له: قد -والله- أيسْنا منه، ولا نشكّ فى أنّه قد هلك، والمأتم قد أقيم عليه فى منزل أبيه وعمومته.

فانصرف الخادم، وجئتُ إلى القاسم بالخبر.

فلمّا كان من الغد، ركب القاسم إلى المعتضد، فحين رآه استدناه، وسارّه، وقال له: يا قاسم، بحياتى، أطلِقْ الهاشميَّ المُتَزامِن، وأحسِنْ إليه، وأنت آمن بعدها أن أنصب عليك صاحب خبر، وواللهِ لئن حدثت به حادثة، لا عرفتُ فى دمه غيرَك.

فقبّل الأرض، وتلجلج، وانصرف، فعاد إلى منزله، وحمِدَ الله إذ لم يعجل عليه بسوء، وأخبرنا الخبر، وجاء الهاشميّ، فخلع عليه، ووصله بمال له قدر، وصرفه.

وانقطعت أخباره عن المعتضدِ.

✿✿✿

٩- وَاحِدٌ منهم

ذكر ابن عَبْدوس فى كتابه "الوزراء"، قال :

كان الرّشيد قد قلّد فَرَجاً الرُّخَّجى [1] الأهوازَ، فاتّصلت السَّعايات به عنده، وكثرت الشكايات منه، وتظلّم الرعية، وادعى عليه أنّه اقتطع مالاً عظيماً، فصرفه بمحمّد بن أبان الأنبارى، وقبض عليه.

وحدث للرّشيد سفر، فأشخصه معه، فلما كان فى بعض الطّريق دعا به، فقال مَطَرُ بنُ سعيد، كاتبُ فَرَج: فلمّا أمر بإحضاره، حضر وأنا معه، ولستُ أشكّ فى الإيقاع به، وإزالة نعمته، فوقفتُ بباب مضْرَب الرّشيد، ودخل فرج، ونحن نتوقعه أن يخرج منكوباً، إذ خرج وعليه الخِلَعُ، فتضاعفت النعمة عندى، وسرتُ معه إلى منزله.

فلمّا خلا سألتُه عن خبره، فقال : دخلتُ عليه ووجهه إلى الحائط، وظهرُهُ إلىّ، فلمّا أحسّ بى، شتمنى أقبحَ شَتْم، وتوعّدنى أشدّ توعد.

ثمّ قال : يا ابنَ الفاعلة، رفعتُك فوق قَدْرك، وائتَمَنْتُك، فخنتَنى، وسرقتَ مالى، وفعلت، وصنعت، والله، لأفعلنّ بك ولأصنعنّ.

فلمّا سكت، قلت: القولُ ما قاله أميرُ المؤمنين فى إنعامه، وأكثر منه، وحلفتُ له بأيمان البيعة وغيرها، أنّى ناصحتُ وما سرقتُ، ووفّرتُ وما خنتُ، واستقصيتُ حقوقَه من غير ظُلم، ولكنّى كنت إذا حضر وقتُ الغَلاّت، جمعتُ التجّار وناديتُ عليها، فإذا تقرّرت العطايا أنفَذْتُ البيع، وجعلت لى مع التجّار حِصّة، فربّما رَبحْتُ، وربّما وضعت، إلى أن اجتمع لى من ذلك وغيره، فى عدّة سنين، عشرون ألف ألف درهم، فاتّخذتُ أزجاً كبيراً، وأودعته المال، وسدّدته عليه، فَخُذْها، وحوِّل وجَهك إلى عبدك، وكرّرتُ عليه الأيْمان، بأيْمان البيعة على صدقى.

فقال لى : بارك اللهُ لك فى مالِك، ارجع إلى عملك.



---

(١) فرج الرخجى من عمّال الرشيد، موصوف بقبح المظهر والمخبر، والظلم، والسرقة، وقد اعترف فى هذا الخبر بمتاجرته -بنفوذه - فى أملاك الدولة، وكان هذا الاعتراف طريقه للبقاء فى وظيفته، كواحد من أهل الثقة، أو كلاب الصيد.

١٠ - كَمَا تَدِينُ ...

حدّثني عليّ بن هشام بن عبد الله الكاتب، ويُعرف هشام بأبي قيراط، قال: كنت حاضراً مع أبي رحمه الله، في مجلس أبي الحسن بن الفُرات [١] في شهر ربيع الأوّل سنة خمس وثلثمائة، في وزارته الثانية، فسمعته يتحدّث، قال:

دخل عليّ أبو الهيثم العبّاس بن محمّد بن ثَوَابة الأنبارى، في محبسى بدار المُقتدر[٢]، فطالبني بكَتْب خطّى بثلاثة عشر ألف ألف دينار.

فقلت: والله، ما جرى قدر هذا المال على يدى للسُلطان، في طول وزارتى، فكيف أصَادَرُ على مثله؟

فقال: قد حلفتُ بالطّلاق أنّه لابّد من أنّك تكتب خطّك بذلك، فكتبتُ ثلاثة عشر ألف ألف، من غير ما أذكر ما هى، أو ضماناً فيها.

قال: فاكتب ديناراً، لتبرّني من يمينى.

فكتبتُ ديناراً، ثمّ ضَرَبْتُ عليه، وأكلتُ الرُّقعة[٣]، وقلت له: قد بَرِئْتَ من يمينك، ولا سبيل لك إلى غير هذا منّى.

فاجتهد بى، فلم أجبه إلى شىء، فحبسنى.

فلمّا كان من الغد، دخل إلى الحبس، ومعه أمّ موسى [٤]، فطالبنى بذلك، وأسرف في سبّى وشتمى، ورمانى بالزّنا.

فحلفتُ بالطّلاق، والعتاق، والأَيْمان المُغلَظة، أنّى ما دخلتُ في محظور من هذا الجنس، من نيّف وثلاثين سنة، وسُمْتُه أن يحلف بمثل تلك اليمين أنّ غلامه القائم على رأسه، لم يَأْتِهِ في ليلته تلك، فأنكرت أمّ موسى هذا الحال، وغطّت وجهها حياءً منه.

---

(١) ابن الفرات بطل هذه القصة شغل منصب الوزارة ثلاث مرات، في مرتين يخرج من الوزارة إلى السجن، وفي ختام الثالثة قتل. والحادثة هنا عن سجنه الثاني. تأمل مقادير الأموال التى اتهم بجنيها من منصبه.

(٢) الخليفة العباسي، وكان في داره مكان لسجن الكبراء، أما المقتدر فكان طفلاً وكانت السُلطة الفعلية في يد خمسة من الغِلمان والنساء!!

(٣) في موقف طرفاه وزير خطير، وكاتب الخليفة جاء يحاسبه، يتصرف الوزير تصرف السوقة (يأكل الورقة) والكاتب يسب بلغة الأوباش.. وهذا هو العصر في صورته الداخلية المؤلمة.

(٤) القهرمانة ذات النفوذ في ذلك الوقت.

فقال ابنُ ثَوابة: إن هذا إنّما تُبْطِره الأموال الّتى وراءه، ومثله فى ذلك كمثل المزّين مع كسرى، والحجّام مع الحجّاج، فتستأمرين السّادة، فى إنزال المكروه به، حتّى يُذعِنَ بالأموال.

قال أبوالحسين : ويعنى بالسّادة: المقتدر، ووالدته، وخالته خاطف، ودستنبويه أمّ المُعتضدِ، لأنّهم كانوا -إذ ذاك- يدّبرون الأمور، لحداثة سنّ المقتدر.

قال ابنُ الفُرات: فمضت أمّ موسى، ثمّ عادت، فقالت لابن ثَوابة: السّادة يقولون لك: صدقتَ فيما ذكرتَ، ويدك مطلقةٌ فيه.

وكنتُ فى دار ضيّقة، فى حرّ شديد فأمر بكَشْف البوارى[1] حتى صرتُ فى الشّمس، ونُحِّيَ الحصير من تحتى، وأغلق أبواب البيوت، حتّى حَصَلْتُ فى الصّحن، ثم قيّدنى بقيد ثقيل، وألبسنى جبّة صوف قد نقعت فى ماء الأكارع[2]، وغلّنى بغُلّ[3]، وأقفل باب الحجرة وانصرف فأشرفتُ على التّلف.

وعدّدتُ على نفسى ذنوبى، فوجدتُنى قد عُومِلت بما عَامَلتُ به النّاس، من المصادرة، ونَهْب المنازل، وقبْض الضِّياع، وتسليم النّاس إلى أعدائهم، وحبسهم، وتقييدهم، وإلباسهم جِباب الصّوف، وهتْك حريمهم، وإقامتهم فى الشّموس، وإفرادهم فى الحبوس.

ثمّ قلت : ما غَلَلْتُ أحداً، فكيف غُلِلْتُ؟[4].

ثمّ تذكّرتُ أنّ النّرسى، كاتبَ الطائىِّ، كان سَلّمَه إلىَّ عبيدالله بن سليمان، لمال عليه، فسلّمتُه إلى الحسن، المعروف بالمعلوف، المستخرِج، وكان عَسُوفاً، وأمرتُه بتقييده، وتعذيبه، ومطالبته بمال ذكرتُه له، فألطّ به [5]، فأمرتُ أن يُغَلّ، ثم تَحَوَّبْتُ بعد أن غُلَّ مقدار ساعتين من النّهار، فأمرتُ بأخذ الغُلّ عنه.

---

(١) البوارى: ستائر الحصير التى تحمى من الشمس.

(٢) الأكارع : ما يُطْلِق عليه العامة: الكوارع.

(٣) الغل بضم الغين: القيد من الحديد أو الحبال.. يجمع اليدين إلى العنق!!

(٤) ياله من سؤال برىء!! كأن كل ما اعترف به لا يكفى أن يُغَل فى سقر!!

(٥) ألط -كما يدل السياق- راوغ وتهرب.

فلمّا جازت السّاعتان، تذكرتُ شيئاً آخر، وهو أنّه لما قرب سبَكْرَى من الجبل، مع رسول صاحب خُراسان، مأسوراً، كتبتُ إلى بعض عمّال المشرق، بمطالبته بأمواله وودائعه، فكتب إلىّ بإلطاطه، فكتبت بأن يُغَلَّ، وكنت أتغدّى، فلمّا غسلتُ يدى، تندّمتُ، وتَحَوَّبْتُ، فكتبتُ بأن يحلّ الغُلّ عنه إن كان قد غلَّ، فوصل الكتاب الأوّل فغُلّ، ووصل الكتاب الثّانى بعد ساعتين، فحُلَّ عنه، على ماكتبتُ به.

فلمّا مضت أربع ساعات، إذا بصوت غلمان مجتازين فى الممّر الّذى فيه الحجرة الّتى أنا محبوس فيها، فقال لى الخدم الموكّلون بى: هذا بَدْرٌ الحَرَمِىُّ[1] وهو لك صنيعَةٌ.

فاستغثت به، وصحتُ : يا أبا الخير، أللّهَ، أللّه، فىّ، لى عليك حقوق، وقد ترى حالى، والموت أسهل مّما أنا فيه، فتخاطبُ السّادةَ فى أمرى، وتذكّرهم حرمتى، وخدمتى فى تثبيت دولتهم، إذ خذلهم النّاس[2]، وافتتاحى البلدان المنغلقة، وإثارتى الأموالَ المنكسرة، فإن كان ذنبى يوجب القتل، فالسّيفُ أرْوَحُ لى. فدخل إليهم، فخاطبهم ورقّقهم، و لم يبرَح حتّى أمروا بأخذ حديدى، وإدخالى الحمّام، وأخذْ شعرى، وتغيير لباسى، وتسليمى إلى زَيْدان[3]، وترفيهى.

فجاءنى بذلك، وقال : يقولون لك، لن ترى بعدها بأساً، وأقمتُ عند زَيدان، إلى أن رُدِدتُ إلى هذا المجلس.

✿✿✿

(١) الحرمى: نسبة إلى حرم الخليفة، فهو المسئول عن قصر النساء، أو قصورهن.
(٢) يذكرهم بموقفه معهم فى فتنة ابن المعتز، إذ وقف ابن الفرات فى جانب المقتدر.
(٣) زيدان الكهرمانة، ومعنى العبارة أنه نقل ليسجن عندها سجناً مخففاً، وكانت زيدان تؤثره، وتتجسس له، فكأن هذا مقدمة لإطلاقه، وإعادته إلى الوزارة.. وقد كان.

١١- صَفَاءُ البَدِيهة

حدّثني عليّ بن محمّد النّوفليّ :

أنّ المأمون ذكر عَمرو بنَ مَسْعَدة [1] ، فاستبطأه في أشياء، وقال: أيحسَب عمرو أنّي لا أعرف أخباره، وما يُجبى إليه، وما يعامل به الناس، بلى واللهِ، ثم يظنّ أنّه لا يسقط عليّ منه شيء؟ وكان أحمدُ بنُ أبي خالد حاضراً لذلك، فمضى إلى عمرو، فأخبره بما قال المأمون.

فنهض من ساعته، ودخل إلى المأمون، فرمى بسيفه، وقال: أنا عائذٌ بالله من سَخَط أمير المؤمنين، وأنا أقلّ من أن يشكوَني إلى أحد، أو يسرّ عليَّ ضغْناً يَظهر منه بكلامه ما ظهر.

فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه.

فقال : لم يكن الأمر كذلك، وإنّما جرى معنى أوجب ذكر ما ذكرتُ، فقدّمته قبل أن أخبرَك به، وكان ذلك عزمي، وما لك عندي إلا ما تحبّ، فليفرخ رَوْعُك، ولْيَحْسُنْ ظنُّك، وسكَّنَ منه حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه.

فلمّا دخل أحمد بن أبي خالد إلى المأمون، قال له : أشكو إليك مَن بحضرتي من خدمي وأهلي، أما لمجلسي حقّ ولا حُرْمةٌ لِيُكتم ما يجري فيه، حتى يؤدَّى إلى عَمرو بن مَسْعَدة؟ فإنّه قد أبلِغَ أشياء قلتها فيه، واتّهمت فيها بعضَ بني هاشم مّمن كان حاضراً، وذلك أنّ عمراً دخل عليّ، وأعاد ما كان، فاعتذرتُ له لعذر لم يُبِن الحقَ نسجُه، ولم يتّسق القولُ مني فيه، وإنّ لسان الباطل، لعيّ الظاهر والباطن، وما نَعَشَ الباطلُ أحداً. قال له أحمد: لا يتّهم أمير المؤمنين أحداً، أنا أخبرتُ عَمْراً.

قال : ما دعاك إلى ذلك؟

قال : الشكر لله، ولك لاصطناعك، والنصحُ لك، والمحبّةُ لتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمتُ أنّ أمير المؤمنين يحبّ استصلاح الأعداء والبُعَداء، فكيف بالأولياء والقرباء، ولا سيّما مثل عمرو، في موضعه من الدولة، وموقعه من الخدمة،

(١) عمرو بن مسعدة وزير المأمون، معدود من البلغاء. والسياق يدل على أن المأمون تحدَّث عن وزيره، ولم يكن حاضراً.

ومكانهِ من رأى أمير المؤمنين، فخبّرتُه بما أنكَرَه عليه، ليقوِّمَ أَوَدَ نفسه، ويتلافى ما فَـرَطَ منه، وإنّما العيْبُ لو أفشيْتُ كلاماً فيه لأمير المؤمنـين سـر، أو قـدْحٌ علـى السـلطان، أو نقضُ تدبيرٍ له.

فقال له: أحسنتَ والله يا أحمد ، إذ كفيتنى مخاضة الظنّ، وصَدَقْتنى عن نفسك، وأزلت التُّهمةَ عن غيرك.

✿✿✿

١٢- اللَّبِنَةُ الأخيرة

حدّثني الحسين بن نُمَيْر الخُزَاعى، قال :

صار الفَضْلُ بن الرّبيع إلى الفَضْلِ بن يَحيى بن خالد البرمكى [1] فى حاجة له، فلم يرفعْ له رأساً، ولا قضى حاجته، فقام مُغْضَباً، فلم يَدْعُ بدابَته، ولا اكترث له، ثم أتبعه رجلاً، فقال : انظر ما يقول، فإنّ الرّجل ينبيء عما فى نفسه فى ثلاثة مواضع: إذا اضطجَع على فراشه، وإذا خلا بعرْسِه، وإذا استوى على سَرْجه، قال الرّجل: فاتّبعته، فلمّا استوى على سرجه، عضّ على شفتيه، وقال:

عسى وعسى يَثْنِى الزّمانُ عِنَانَه ... بدَوْرِ زمانٍ والزّمانُ يدورُ
فيُعقِبَ روْعَاتٍ سروراً وغِبطةً ... وتحدثُ من بعد الأمورِ أمورُ

لم يكن بين ذلك، وبين أن سَخِطَ الرّشيد على البرامكة، واستوزر الفضل بن الرّبيع، إلاّ أياماً يسيرة.

وحدّثني بهذا الخبر، أبى، على مثل هذا الإسناد، و لم أحفظه، لأنّى لم أكتبه عنه فى الحال، فقال فى البيت الأوّل:

عسى وعسى يَثْنِى الزّمانُ عِنَانَه ... بِعَثْرَةِ دَهْرٍ والزّمانُ عَثُورُ

وقال فى البيت الثانى :

فَتُدرَكُ حاجاتٌ وتُقضَى مآربٌ ... وتحدثُ من بعد الأمورِ أمورُ

وزاد فيه : أنّ الفضل بن يحيى بن خالد ردّه فقضى حوائجه.

✿✿✿

---

(١) الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربى، والفضل بن يحيى البرمكى قطب الحزب الفارسى فى البلاط العباسى، بينهما عداوة راسخة تغلب فيها البرامكة بحلمهم، ثم تغلب ابن الربيع بدهائه. وهذا الحادث بمثابة اللبنة الأخيرة فى حائط العداء المستحكم.

١٣- أمَويةٌ على بابِ عبَّاسِيَّة

قالت زينب بنت سليمان الهاشمية: كنتُ -من أوّل أمس- عند الخَيْزُرَان[1]، ومجلسى ومجلسها -إذا اجتمعنا- فى عتبة باب الرُّواق، وبالقرب منّا فى صدر المكان، برذَعة [2] ، ووسادتان، ومسانيد، عليها سبنيّة[3] لأمير المؤمنين.

وهو كثير الدخول إليها والجلوس عندها، فإذا جاء جلس فى ذلك الموضع، وإذا انصرف، طرحت عليه السبنية إلى وقت رجوعه، فإنّا لَجُلوس، إذ دخلت عليها إحدى جواريها، فقالت: يا ستّى، بالباب امرأة ما رأيتُ أحسنَ منها وجهاً، ولا أسوأ حالاً، عليها قميص ما يستر بعضهُ موضعاً من بدنها، إلاّ انكشف منها موضع آخر غيرُه، تستأذن عليكِ.

فالتفتت إلىّ، وقالت : ما تَرَيْن؟

فقلت: تسألين عن اسمها، وحالها، ثم تأذنين لها على عِلْم. فقالت الجارية: قد واللهِ جَهدت بها كلّ الجَهْد، أن تفعل، فما فعلت، وأرادت الانصراف، فمنعتها.

فقلت للخيزران: وما عليكِ أن تأذنى لها، فأنت منها بين ثواب ومَكْرُمة، فأذنَتْ لها.

فدخلت امرأة على أكثر مما وصفَتْ الجارية، وهى مستخفية، حتى صارت إلى عِضَادة [4] الباب، مما يلينى، وكنتُ متّكئة.

فقالت: السلام عليكم، فرددنا عليها السلام.

ثم قالت للخيزران: أنا امرأةُ مَرْوان بن محمّد.

قالت : فلمّا وقع اسمها فى أذنى، استويتُ جالسة، ثم قلت: مُزْنة؟

قالت : نعم.

---

(١) الخيزران: هى زوجة الخليفة العباسى: المهدى، وأم الخليفتين: الهادى والرشيد، وكانت جليستها زينب بنت سليمان، حين أقبلت مزنة زوجة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وقد قتله العباسيون.. لقد جاءت مزنة تحتمى بأعدائها من فعل الزمن.

(٢) برذعة: كنبة صغيرة للراحة.

(٣) سبنية : فرش لحماية الكنبة التى يجلس عليها الخليفة.

(٤) الإطار الخشبى الذى يثبت فيه الباب. فى لغة النجارين يسمى "حلق الباب".

قلت : لا حيّاكِ الله، ولا قرّبك، الحمد لله الذى أزال نِعمتك، وأدَالَ عزّك، وصيّركِ نَكَالاً وعبرة، أتذكرين يا عدوّة الله، حين أتاكِ عجائزُ أهل بيتى يسألنَك أن تكلّمى صاحبكِ فى إنزال إبراهيم بن محمّد من خشبته[1] فلقيتيهنّ ذلك اللقاء، وأخرجتيهنّ ذلك الإخراج، الحمد لله الذى أزال نعمتك.

فضحكت -والله- المرأة، حتى كادت تقهقه، وبدا لها ثَغْر، ما رأيتُ أحسن منه قط.

وقالت: أى بنتَ عمّ[2]، أىَّ شىء أعجبك من حُسْن صُنْع الله بى على ذلك الفِعل، حتى أردتِ أن تتأسّى[3] بى، والله، لقد فعلتُ بنساء أهل بيتك، ما فعلتُ، فأسلمنى الله إليك جائعةً، ذليلةً، عريانةً، فكان هذا مقدار شكرك لله تعالى على ما أولاك فىَّ، ثم قالت : السلام عليكم.

ثم ولّت خارجه تمشى خلاف المِشية التى دخلت بها.

فقلت للخيزران : إنّها مُخبَّأة[4] من الله عَزَّ وجَلَّ، وهدية منه إلينا، ووالله - يا خَيْزُرَان - لا يتولّى إخراجَها مما هى فيه أحدٌ غيرى.

ثم نهضْتُ على أثَرِها، فلمّا أحست بى أسرعَتْ، وأسرعْتُ خلفها حتى وافيتُها عند السِّتْر، ولحقتنى الخَيْزُرَان، فتعلّقَتْ بها.

وقلت : يا أختُ، المعذرةُ إلى الله -عَزَّ وجَلَّ- وإليكِ، فإنّى ذكرتُ، بمكانك، ما نالنا من المصيبة بصاحبنا، فكان منّى ما وددتُ أنّى غَفَلت عنه، و لم أملك نفسى.

وأردتُ معانقتها، فوضعت يدها فى صدرى، وقالت: لا تفعلى يا أخت، فإنّى على حال، أصونك من الدنوِّ منها.

فرددناها، وقلت للجوارى: أدخُلْنَ معها الحمّام.

وقلت للمواشط: اذهبْنَ معها، حتى تُصلِحْنَ حِفَافها، وما تحتاج إلى إصلاحه من وجهها.

---

(١) إبراهيم بن محمد عباسى هاشمى قتله الأمويون وصلبوه، ورفضت مزنة -أيام عزها- أن تكلم زوجها الخليفة فى إنزاله عن آلة الصلب.

(٢) لا غرابة فى نداء خصمها بابنه العم فالأمويون والعباسيون من قريش.

(٣) تتأسى: تقتدى وتقلّدى.

(٤) أى أن الله تعالى أرسلها اختباراً لنا ليرى هل نحسن أو نسىء إلى مَن سبقت إساءته إلينا.

فمضت، ومضيْن معها، ودعونا بكرسى، وجلسنا أنا والخَيْزُرَانُ عليه، فى صحن الدار، ننتظر خروجها.

فخرجت إلينا إحدى المواشِط وهى تضحك.

فقلت لها : ما يُضحكك؟

فقالت : يا ستّى، إنّا لنرى من هذه المرأة عجباً.فقلت : وما هو؟

فقالت : نحن معها فى انْتِهَار، وزَجْر، وخصومة، ما تفعلين أنت، ولا ستُّنا، مثله إذا خدمناكما.

فقلت للخيزران: حتى تعلمين -واللهِ- يا أختى أنّها حرّة رئيسة، والحرّة لا تَحْتَشِمُ من الأحرار.

وخرجت إلينا جاريةٌ أعلمتنا أنّها قد خرجت من الحمّام، فوجّهت إليها الخيزران أصناف الخِلَع، فتخيّرت منها ما لبسته، وبعثنا إليها بطيب كثير، فتطيَّبتْ، ثم خرجت إلينا.

فقمنا جميعاً، فعانقناها، فقالت : الآن، نعم.

ثم جئنا إلى الموضع الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى، فأقعدناها فيه.

ثم قالت الخيزران: إنّ غداءنا قد تأخر، فهل لك فى الطعام؟

فقالت: واللهِ ما فيكنّ مَن أحوج إليه منّى.

فدعونا بالطعام، فجعلت تأكل، وتضع بين أيدينا، حتى كأنها فى منزلها.

فلمّا فرغنا من الأكل، قالت لها الخيزران: مَن للكِ ممن تعنين به؟

قالت : ما لى وراء هذا الحائط أحدٌ من خلق الله تعالى

فقالت لها الخيزران: فهل لك فى المُقام عندنا، على أن نخلى لك مقصورة من المقاصير، ويحوّل إليها جميع ما تحتاجين إليه، ويستمتع بعضنا ببعض؟

فقالت: ما دُرْتُ إلا على أقلِّ من هذا الحال، وإذ قد تفضّل الله -عَزَّ وجَلَّ- علىّ بكما، وبهذه النعمة، فلا أقلّ من الشكر لأمير المؤمنين المهدى، لكلّ نعمة، ولكما، فافعلى ما بدا للكِ، وما أحببتِ.

فقامت الخَيْزُرَانُ، وقمتُ معها، وأقمناها معنا، ودخلنا نطوف بالمقاصير، فاختارت -والله- أوسعَها، وأحسنَها.

فملأتها الخيزران، بالجوارى، والوصائف، والخدم، والفَرْش، والآلات، ثم قالت: ننصرف عنكِ، وعليك بمنزلك، حتى تصلحيه، فخلّفناها فى المقصورة، وانصرفنا إلى موضعنا.

فقالت الخيزران، إنّ هذه امرأة رئيسة، وقد عضّها الفقر، وليس يملأ عينهَا إلاّ المالُ، ثم بعثت إليها بخمسة آلاف دينار، ومائةِ ألفِ دِرهم. وأرسلت إليها : تكون هذه فى خزانتك، ووظيفتُك، ووظيفةُ حشمك، قائمةٌ فى كلّ يوم، مع وظيفتنا.

ثم لم نلبث أن دخل علينا المهدى، فقلت له: يا سيّدى، لك -واللهِ- عندى حديث طريف.

فقال : ما هو؟ فحدّثته بالخبر.

فلمّا قلت له ما كان منّى، من الوثوب عليها، وإسماعها، اقشعرّ، واصفرّ.

ثم قال : يا زينب، هذا مقدار شكرك لرّبك عَزَّ وجَلَّ، وقد أمكنك من عدوّك، وأظفرك به، على هذا الحال الذى تصفين؟ والله، ولولا مكانُك منّى، لحلفت أن لا أكلّمَك أبداً، وأين المرأة؟

قالت: فوفّيته خبَرها، فالتفت إلى الخَيْزُرَان، يصوّب فعلَها، وجَزَاها خيراً.

ثم قال لخادم بين يديه: احمل إليها عشرة آلاف دِينار، ومائتى ألف دِرهم، وبلّغها سلامى، وأعلمها أنّه لولا خوفى من احتشامها لِسَرْتُ إليها مسلّماً عليها، ومخبراً لها بسرورى بها، فقل لها: أنا أخوك، وجميع ما ينفذ فيه أمرى، فأمرك فيه نافذ مقبول.

قالت زينب : فإذا هى قد وردَت إلينا مع الخادم، وعلى رأسها دُوَاج ملحَّم[1]، حتى جلست.

فلقيها المهدى أحسن لقاء، فأقعدها عنده ساعة، تحادثه، ثم انصرفت إلى مقصورتها.

✿✿✿

(١) الدواج: كلمة فارسية معناها اللحاف، وفى هذا السياق تعنى ما يشبه الحِرام أو العباءة.

١٤- مَراكِزْ القُوَى .. أيضاً !!

وصف سليمانُ بنُ وَهْبٍ ما جرى له فى أعقاب تولى "المتوكل" الخلافة، وقبضه ومصادرته لرجال عصر أخيه "المعتصم" وفى مقدمتهم القائدُ التركى "إيتاخ" وولداه، وكان سليمان بن وهب كاتباً – فى تلك الفترة – لإيتاخ– وَصَفَ فقال :

ساعة قُبِض على إيتاخ ببغداد. قُبِضَ علىَّ بـ "سُرَّ مَنْ رأى". وسُلِّمتُ إلى عبيدالله بن يحيى.[1]

وكتب المتوكّل إلى إسحاق بن إبراهيم[2]، بدخول "سُرّ مَنْ رأى" ليتقوى به على الأتراك، لأنه كان معه بضعة عشر ألفاً، ولكثرة الطاهرّية (جند خراسان) بخراسان، وشدّة شوكتهم.

فلما دخل إسحاقُ "سامراء"، أمرالمتوكّل بتسليمى إليه، وقال: هذا عدوّى، ففصِّل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقانى فى أيّام المعتصم، فلا يبدأنى بالسلام فأبدأه به لحاجتى إليه، فيردّ علىّ كما يردّ المولى على عبده، وكلّ ما دّبره إيتاخ، فعن رأيه.

فأخذنى إسحاق، وقيّدنى بقيد ثقيل، وألبسنى جبّةَ صوف، وحبسنى فى كَنِيف، وأغلق علىّ خمسةَ أبواب، فكنتُ لا أعرف الليل من النهار.

فأقمتُ على ذلك عشرين يوماً، لا يُفتح علىّ الباب إلا دفعة واحدة فى كلّ يوم وليلة، يُدفع إلىّ فيها خبز وملح جريش، وماء حار، فكنت آنس بالخنافس، وبنات وردان[3]، أتمنّى الموت من شدّة ما أنا فيه.

فعرضَ لى ليلة من اللّيالى، أن أطلتُ الصلاة، وسجدتُ، فتضرّعتُ إلى الله تعالى، ودعوتُه بالفرج، وقلت فى دعائى: اللّهم، إن كنتَ تعلم أنّه كان لى فى دم نجاح بن[4] سلمه صُنع، فلا تخلّصنى مما أنا فيه، وإن كنتَ تعلم أنّه لا صُنع لى فيه، ولا فى الدّماء الّتى سُفِكت، ففرّج عنى.

---

(١) أحد كبار الكتاب.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب (أو المصعبى) قائد شرطة بغداد الجبار.

(٣) بنات وردان: الصراصير.

(٤) نجاح بن سلمة :أحد الكُتاب، تآمر عليه الكتّاب فى صراعاتهم على السُلطة، وقتلوه، واستصفوا أمواله، بأمر الخليفة، بعد أن أوغروا صدره عليه.

فما استتممتُ الدّعاء حتى سمعتُ صوت الأقفال تُفتح، فلم أشكّ أنّه القتل، ففتحت الأبواب، وجيء بالشّمع، وحملنى الفرّاشون، لِثقَلِ حديدى.

فقلت لحاجبه[1] : سألتُك بالله، اصدُقْنى عن أمرى.

فقال : ما أكل الأمير اليوم شيئاً، لأنّ أغْلِظَ عليه فى أمرك، وذلك أنّ أمير المؤمنين وبّخه بسببك، وقال : سلّمتُ إليك سليمان بن وهب تُسَمِّنُهُ أو تستخرج[2] ماله؟

فقال الأمير : أنا صاحبُ سيف، ولا أعرف المُناظرة على الأموال ووجوهها، ولو قُرّر أمرُه على شىء لطالبته به.

فأمر أمير المؤمنين الكتّاب بالاجتماع عند الأمير لمناظرتك، وإلزامك مالاً يُؤخذ به خطُّك، وتطالَب به، وقد اجتمعوا، واستُدْعيتَ لهذا.

قال : فحُمِلت إلى المجلس، فإذا فيه موسى بن عبدالملك، صاحبُ ديوان الخَراج، والحسن بن مَخْلد، صاحبُ ديوان الضِّياع، وأحمدُ بن إسرائيل الكاتب، وأبونوح عيسى بن إبراهيم، كاتبُ الفتح بن خاقان، وداودُ بن الجرّاح، وصاحب الزِّمام، فطُرِحْتُ فى آخر المجلس.

فشتمنى إسحاقُ أقبحَ شَتْم، وقال : يا فاعل، يا صانع، تعرّضنى لاستبطاء أمير المؤمنين، والله، لأفرّقنّ بين لحمك وعظمك، ولأجعلنّ بطنَ أرض أحبَّ إليك من ظهرها، أين الأموال؟

فاحتججت بنكبة ابن الزّيات لى[3].

فبدرنى الحسنُ بن مخلد، فقال : أخذتَ من النّاس أضعافَ ما أدّيت، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ، فأخذت ضِياع السلطان، واقتطعتَها لنفسك، وحزتَها سرقةً إليك، وأنت تُغِلّها ألفى ألف دِرهم، وتتزيا بزىّ الوزراء، وقد بَقِيَتْ عليك من تلك المصادرة

---

(١) أى حاجب الأمير إسحاق المصعبى (أمير الشُرطة).

(٢) كان من عادة الخليفة حين يأمر بالقبض على أحد الكبراء أن يسلمه إلى مَن يساويه أو يعلوه منزلة (يحدد إقامته عنده، أو يسجنه) حتى يرى فيه رأيه. وقد يندب لمحاسبته (محاسبة مالية وسياسية) عدداً من نظرائه فلا يتركونه حتى يلتزم بأموال ضخمة، كما سنرى، وهذا يدل على فساد السياسة والإدارة فى ذلك العصر (الذهبى!!)

(٣) احتج سليمان بن وهب بأنه سبق القبض عليه واستصفاء ما لديه من مال فى مرة سابقة، تولاها الوزير ابن الزيات.

جملةٌ لم تؤدِّها. وأخذت الجماعةُ تواجهُنى بكلِّ قبيح، إلاّ موسى بن عبدالملك، فإنّه كـان ساكتاً لصداقةٍ كانت بينى وبينه.

فأقبل من بينهم على إسحاق، وقال: يا سيّدى، أتأذن لى فـى الخَلـوة بـه لأفصـل أمرَه؟ قال : افعل.

فاستدنانى، فحملتُ إليه، فسارَّنى، وقال : عزيز علىَّ يا أخى حالُك، وبـا لله لـو كان خلاصُك بنصف ما أملكه لفديتُك بـه، ولكـن صورتـك قبيحـة[1]، ومـا أملـك إلاّ الرأى، فإن قبلتَ منّى، رجوْتُ خلاصك، وإن خالفتنى، فأنت –واللهِ– هالكٌ

فقلت: لا أخالفك.

فقال : الرأى أن تكتـب خطَّـك بعشـرة آلاف ألـف دِرهـم، تؤدّيهـا فـى عشـرة أشهر، عند انقضاء كلّ شهر ألف ألف درهم، وتَتَرفَّهُ عاجلاً مما أنت فيه[2].

فسكتُّ سكوت مبهوت، فقال لى: ما لك؟

فقلت له: والله، ما أرجع إلى رُبْعِها، إلاّ بعد بيع عَقارى، ومَن يشترى منّى وأنـا منكوب، وكيف يتوفّر لى الثمن وأنا على هذه الحالة؟

فقال : أنا أعلم أنّك صادق، ولكن احرس نفسك عاجلاً بعِظَم ما تبذله، ويُطَمع فيه من جهتك، وأنا من وراء الحيلة لك فى شىء أمِيلُ به رأى الخليفة من جهتك، يعـود إلى صلاحك، والله المعين، ومن ساعةٍ إلى ساعة فَرَج، ولا تتعجّل الموت، ولو لم تسـتفد إلا الرّاحة مما أنت فيه يوماً واحداً، لكفى[3].

فقلت : لست أتّهم ودَّك ولا رأيَك، وأنا أفعل ما تقول.

فأقبل على الجماعة، وقال : يا سادتى، إنّى قد أشرتُ عليه أن يكتب خطه بشىء لا يُطيقه، فضلاً عما هو أكثر منه، ورجوتُ أن نعاونه بأموالنـا وجاهنـا، ليمشـىَ أمـرُه، وقد وافقته ليكتب بكذا وكذا.

فقالوا: الصواب له أن يفعل هذا.

---

(١) أى أن التهمة (السرقة والاستيلاء على ممتلكات الدولة) ثابتة عليك.

(٢) يدعوه للاعتراف بأنه سيدفع للخلافة هذا القدر علـى عشرة أقسـاط، وهـذا يعنى أن يُرفَـع عنـه الحبـس والعقوبة والمصادرة ليتمكن من الوفاء بما التزم.

(٣) هكذا نصحه صديقه (الخفى) موسى بن عبدالملك، وقد صدق فيما وعد، إذ دبر طريقة تجعل الخليفة يغيِّر رأيه فى سليمان بن وهب، ويوليه مصر، بعد أن كان حريصاً على قتله، كما سنرى.

فدعا لى بِدَوَاةٍ وقرطاس، وأخذ خطّى بالمال على نجومه [١] ، فلما أخذه، قام قائماً، وقال لإسحاق: يا سيّدى، هذا رجل قد صار عليه للسلطان -أعزه الله- مالٌ، وسبيله أن يُرَفَّهَ، وتُحْرَسَ نفسه، ويُنقلَ من هذه الحال ويغيّرَ زيُّه، ويردَّ جاهُهُ، بإنزاله داراً كبيرة، وإخدامه بفَرْشٍ وآلة حسنة، وإخدامه خُداماً بين يديه، ويُمكَّنَ من لقاء مَن يؤثرُ لقاءَه من مُعامليه، ومَن يحب لقاءه من أهله وولده وحاشيته، ليجد فى حَمْلَ المال الحالِّ عليه، قبل محلّه، ونعينه نحن، ويبيع أملاكه، ويرتجع ودائعه ممن هى عنده[٢].

فقال إسحاق : السّاعة أفعلُ ذلك، وأبلغه جميع ما ذكرت، وأمكّنه منه، ونهضت الجماعة.

فأمر إسحاقُ بفكّ حديدى، وإدخالى الحمّام، وجاءنى بخلعه حسنة وطيب، وبخور، فاستعملته، واستدعانى، فلمّا دخلتُ عليه، نهض إلىّ و لم يكن فى مجلسه أحد، واعتذر إلىّ مما خاطبنى به، وقال: أنا صاحب سيْف، ومأمور، وقد لحقنى اليوم من أجلك سماعُ كل مكروه، حتى امتنعتُ عن الطعام غمّاً بأن أبتلَى بقتلك، أو يعتب الخليفة على من أجلك، وإنّما خاطبتك بذلك، إقامة عذر عند هؤلاء الأشرار[٣] ليبلغوا الخليفة ذلك، وجعلته وقايةً لك من الضرب والعذاب، فشكرتُه، وقلتُ ما حضرنى من الكلام.

فلما كان من الغد، حوّلنى إلى دار كبيرة، واسعة، حسنة، مفروشة، ووكّل بى فيها، على إحسان عِشْرَةٍ وإجلال، فاستدعيْتُ كلَّ مَن أريده، وتسامَعَ بى أصحابى، فجاؤونى وفرّج الله عنّى.

ومضت سبعة وعشرون يوماً، وقدأعددتُ ألف ألف درِهم، مال النَّجْم الأوّل[٤]، وأنا أتوقّع أن يَحِلّ، فأطُالَب، فأؤديه، فإذا بموسى بن عبدالملك قد دخل إلىّ، فقمتُ إليه، فقال: أبْشرِ.

---

(١) نجومه: أقساطه.

(٢) أى لابد من أن يستعيد مكانته الاجتماعية ليتمكن من السيطرة على ممتلكاته، ومن ثَمْ الوفاء بالأقساط التى التزم بها.

(٣) هكذا اختلفت معاملة المصعبى لسليمان بن وهب بعد احتمال العفو عنه، وعودته إلى الحياة العامة.. واختلف رأيه فى كبراء زمانه أيضاً، فهم أشرار، وكذلك كانوا يرونه!!.

(٤) النجم الأول : القسط، وستتغير أحواله ويصبح والياً على مصر، حتى قبل أن يدفع هذا القسط الأول ببركة "مراكز القوى" التى تعمل فى خدمته، وتنتظر معونته فى ظروف أخرى.

فقلت : ما الخبر يا سيّدى؟

فقال : ورد كتابُ عامل مصر[1]، بمبلغ مـال مصر لهـذه السنة مجملاً فـى مبلـغ الحَمْل والنفقات، إلى أن ينفذ حسابه مفصّلاً، فقرأ عبيدالله ذلك على المتوكّل، فوقّع إلى ديوانى بإخراج العبرة لمصر، ليُعرفَ أثرُ العامل، فأخرجتُ ذلك من ديوان الخَراج والضياع، لأنّ مصر تجرى فى ديوان الخَراج والضياع، وينفذ حسابُها إلى الديوانين، كما قد علمتَ، وجعلت سنتَك التى تولّيتَ فيها عمالة مصر، مصدرَةً، وأوردتُ بعدها السنين النّاقصة عن سنتك، تلطّفا فى خلاصك، وجعلتُ أقول: النُّقصان فى سنة كذا عن سنة كذا وكذا التى صدّرناها، كذا وكذا ألفاً.

فلمّا قرأ عبيدالله العمل على المتوكل، قال : فهذه السنة الوَافرة، مَن كان يتوّلى عِمَالَتها؟

فقلت أنا : سليمانُ بنُ وَهْب يا أمير المؤمنين.

فقال المتوكّل: فلِمَ لا يردّ إليها؟

فقلت: وأين سليمانُ بنُ وهب؟ ذاك مقتول بالمطالبة، قد استُصْفِى وافتقر.

فقال : تُزَال عنه المطالبة، ويُعان بمائة ألف درهم، ويُعَجّل إخراجُه.

فقلت: وتُردّ ضياعه يا أمير المؤمنين، ليرجَع جَاهُه.

قال : يفعَل ذلك، وقد تقدّم إلى عبيدالله بهذا، واستأذنته فى إخراجك فأذِنَ لى، فقم بنا إلى الوزير، وقد كان دخل إلى إسحاقَ برسالة الخليفة بإطلاقى.

فخرجتُ من وقتى، و لم أؤدّ من مال النّجم الأوّل حبّةً واحدة، ورددته إلى موضعه.

وجئتُ إلى عبيد الله، فوقّع لى بمائة ألف دِرهم معونةً على سفرى، ودفع إلىّ عهدى على مصر، فخرجتُ إليها.

✿✿✿

(١) المسؤول عن أموال مصر. وقد جاء صافى إيراد مصر فى هذه السنة هابطاً عن المعدّل فطلب الخليفة الاطلاع على معدل ما تقدمه مصر للخلافة من مال، وهنا كانت الفرصة لإبراز أن هذا المعدّل كان فى قمته حين تولى سليمان بن وهب هذه الوظيفة. لهذا السبب وحده أعاده الخليفة ورضى عنه.

القصص الوعظية

١- آية للحماية

حدّثنا إبراهيم بن رَياح، قال : حدّثنا أبوعبدالله أحمد بن أبى دُؤَاد، قال: حدّثنا الواثق، قال : حدّثنا المعتصم:

أنّ قوماً ركبوا البحر، فسمعوا هاتفاً يهتف بهم، مَن يعطينى عشرة آلاف دينار حتى أعلّمَه كلمةً، إذا أصابه غمّ، أو أشرف على هلاك، فقالها، انكشف ذلك عنه.

فقال رجل من أهل المركب، معه عشرة آلاف دينار، فصاح: أيّها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وعلّمنى.

قال : إرم بالمال فى البحر، فرمى به، وهو بدرتان فيهما عشرة آلاف دينار.

فسمع الهاتفَ يقول: إذا أصابك غَمٌّ، أو أشرَفْتَ على هَلَكة، فاقرأ: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**[1].

فقال جميع مَن فى المركب للرجل: لقد ضيّعتَ مالَك.

فقال : كلاّ، إنّ هذه لعظة ما أشكّ فى نفعها.

قال : فلمّا كان بعد أيّام، كُسِرَ بهم المركب، فلم ينج منهم أحدٌ غير ذلك الرجل، فإنّه وقع على لَوْح.

فحدّث بعد ذلك، قال: طرحنى البحر على جزيرة، صعدتُ أمشى فيها، فإذا بقصر منيف، فدخلته، فإذا فيه كلّ ما يكون فى البحر من الجواهر وغيرها، وإذا بامرأة لم أر قطّ أحسن منها.

فقلت لها : مَن أنتِ وأيّ شيء تعملين ههنا؟

قالت : أنا بنت فلان بن فلان التاجر بالبصرة، وكان أبى عظيم التجارة، وكان لايصبر عنّى، فسافر بى معه فى البحر، فانكسر مركبنا، فاختُطفتُ، حتّى حَصَلْتُ فى هذه الجزيرة، فخرج إلىّ شيطانٌ من البحر، يتلاعب بى سبعة أيّام، من غير أن يطأنى،

---

(١) الطلاق : ٢-٣.

إلاّ أنّه يُلامسُنى، ويؤذينى، ويتلاعب بى، ثم ينظر إلىّ، ثـم ينـزل إلى البحـر سبعة أيّـام، وهذا يوم موافاته، فاتّق الله فى نفسك، واخرج قبل موافاته، وإلا أتى عليك.

فما انقضى كلامُها حتى رأيتُ ظُلْمةً هائلة، فقالت: قد والله جاء، وسيهلكك.

فلما قرب منّى، وكاد يغشانى، قرأت الآية، فإذا هو قد خرّ كقطعة جبل، إلاّ أنّه رمادٌ محترق.

فقالت المرأة: هَلَك والله، وكُفيتُ أمرَه، مَن أنت يا هذا الذى منّ الله علىّ بك؟

فقمتُ أنا وهى، فانتخبنا ذلك الجوهر، حتى حملنا كلّ ما فيه من نفيس وفـاخر، ولزمنا الساحلَ نهارنا أجمع، فإذا كان الليل، رجعنا إلى القصر.

قال : وكان فيه ما يؤكل، فقلت لها: من أين لكِ هذا؟

فقالت: وجدته ههنا.

فلما كان بعد أيام رأينا مركباً بعيداً، فلوحنا إليه، فدخـل، فحَمَلَنـا، فسـلّمنَا الله تعالى إلى البصرة، فوصفَتْ لى منزل أهلها، فأتيتهم.

فقالوا : مَن هذا؟

فقلت: رسول فلانة بنت فلان.

فارتفعت الواعية [(١)]، وقالوا : يا هذا لقد جدّدت علينا مصابنا.

فقلت : اخرجوا، فخرجوا.

فأخذتُهم حتى جئتُ إلى ابنتهـم، فكـادوا يموتـون فرحـاً، وسـألوها عـن خبرهـا، فقصّته عليهم.

وسألتهم أن يزوجونى بها [(٢)] ، ففعلـوا، وحصّلنـا ذلـك الجوهـر رأس مـال بينـى وبينها، وأنا اليوم أيسر أهل البصرة، وهؤلاء أولادى منها.

✿✿✿

---

(١) الصراخ والبكاء على الميت.

(٢) أراد واضع الحكاية أن يحتفظ برموز العفة سليمة، فهذا الشيطان البحرى احتفـظ بالفتـاة عـذراء (غير أن يتلاعب بها) أما الرجل التقى الذى دفع ثروته نظير آية كريمة، فإنه صاحبَ الفتاة حتى طلب من أهلها أن يزوجوه منها.

٢ – دُعاءٌ للخَلاص

قال لى المعلّى بن أيّوب :

أعنتنى[١] الفضلُ بن مروان، ونحن فى بعض الأسفار، وطالبنى بعمل طويل يُعمل فى مدّة بعيدة، واقتضانيه فى كلّ يوم مراراً، إلى أن أمرنى عن المعتصم بالله أن لا أبرَح إلاّ بعد الفراغ منه.

فقعدتُ فى ثيابى، وجاء الليل، فجعلتُ بين يدى نفّاطة[٢] وطرح غلمانى أنفسهم حولى، وورد علىّ همٌّ عظيم، لأننى قلت: ما تجاسر على أن يوكّل بى إلا وقد وقف على سوء رأى فىّ من المعتصم.

فإنّى لجالس، وذَقنى على يدى، وقد مضى الليل، وأنا متفكّر، فحملتنى عيناى، فرأيت كأنّ شخصاً قد مُثّل بين يدىّ، وهو يقول:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾[٣]

ثم انتبهتُ، فإذا أنا بمشعَل قد أقبل من بعيد، فلما قرُب منّى كان وراءه محمد بن حماد دَنْقَش صاحبَ الحرس، وقد أنكر نفّاطتى، فجاء يعرف سببها، فأخبرته خبرى.

فمضى إلى المعتصم، فأخبره، فإذا الرُسل يطلبونى، فدخلتُ إليه، وهو قاعد، و لم يبق بين يديه من الشمع إلا أسفلُه.

فقال لى : ما خبرك؟ فشرحته له.

فقال : ويلى على النَّبَطىّ، يَمْتَهِنُك، وأىُّ يدٍ له عليك، أنت كاتبى، كما هو كاتبى، انصرف.

فلما ولّيْتُ، ردَّنى، واستدنانى، ثم قال لى : تمضى مُدَيْدَة، ثم ترى فيه ما تُحبّ.

قال : فانصرفتُ، وبكَّرت إلى الفضل على عادتى، لم أُنْكِر شيئاً.

✿✿✿

---

(١) الإعنات : التضيق والاضطهاد. وكان الفضل –وهو وزير المعتصم– يضطهد المعلى وهو كاتب الخليفة كما سيظهر.

(٢) النفاطة : المصباح المضاء بالنفط.

(٣) الأنعام : ٦٣-٦٤

٣- الإنشراح

وأمّا الخبر فى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1]، فإنّ أبا بكر بن شُجاع، المُقرِئ البغدادى، الذى كان يخلفنى على العِيار فى دار الضَّرْب بسوق الأهْواز، فى سنة ستّ وأربعين وثلثمائة، وكان خازن المسجد الجامع بها، وكان شيخاً محدّثا ثقةً نبيلاً، من أمناء القاضى الأحنف وهو محمد بن عبدالله بن علىّ بن محمد ابن أبى الشوارب، حدّثنا بإسناد له ذكره، لم أحفظه، ولا المتن بلفظه، وبَعُدَ عن يدى إخراجه من الأصل، وقد تحرّيتُ مقاربة اللّفظ بجَهدى، ولعلّه يزيد أو ينقص:

أنّ بعض الصالحين، ألحّ عليه الغمّ، وضيقُ الصدر، وتعذّر الأمور، حتى كاد يَقْنَطُ، فكان يوماً يمشى، وهو يقول:

أرى الموتَ لمن أمسى ... على الذلّ له أصْلَحْ

فهتف به هاتف، يُسمع صوته، ولا يُرى شخصه، أو أُرِىَ فى النوم.

- أنا الشاكّ - كأن قائلاً يقول "

ألا يا أيّها المرءُ ... الذى الهمُّ به بَرَّحْ
إذا ضاق بك الأمر ... ففكّر فى أَلَمْ نَشْرَحْ

قال : فواصلتُ قراءتها فى صلاتى، فشرح الله صدرى، وأزال همّى وكربى، وسهّل أمرى - أو كما قال.

وحدّثنى غيره بهذا الخبر، على قريب من هذا، وزادنى فى الشعر:

فإن العُسْرَ مقرونٌ ... بيسرين فلا تَبْرَحْ [2]

❁❁❁

(١) الشرح : ١.
(٢) فى سورة الشرح تكرر العُسر مرتين بـ "الـ" المعرفة، وتكرر اليسر (نكرة) مرتين. وإذا تكررت المعرفة كانت هى الأولى بذاتها، أما النكرة فتكون غير الأولى. وهذا معنى أن العسر فى السورة واحد. واليسر اثنان، ولن يتغلب واحد على اثنين.

٤- الاستِغْفَار طريقُ الفَرَج

إنّ أعرابياً شكى إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب عليه السلام شدّة لحقته، وضيقاً فى الحال، وكثرة من العيال.

فقال له: عليك بالاستغفار، فإن الله تعالى يقول :﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**﴾.... الآيات[1].

فعاد إليه، وقال: يا أمير المؤمنين قد استغفرتُ كثيراً، وما أرى فَرَجاً مما أنا فيه.

قال : لعلّك لا تُحسِن أن تستغفر.

قال : علّمني.

قال : أخلص نيّتك، وأطع ربّك، وقل : اللهم إنّى أستغفرك من كلّ ذنب، قَوِىَ عليه بدنى بعافيتك، أو نالته يدى بفضل نعمتك، أو بسْطتُ إليه يدى بسابغ رزقك، أو اتّكلتُ فيه، عند خوفى منه، على أناتِك، أو وثِقْتُ فيه بحلمك، أو عوّلتُ فيه على كَرَمِ عفوك.

اللهم إنّى أستغفرك من كلّ ذنب خُنْتُ فيه أمانتى، أو بَخَستُ فيه نفسى، أو قدّمت فيه لذّتى، أو آثرتُ فيه شهوتى، أو سَعيْتُ فيه لغيرى، أو استغويتُ فيه مَن تَبِعَنى، أو غَلَبْتُ فيه بفضل حيلتى، أو أحلتُ فيه عليك يا مولاى، فلم تؤاخذنى على فِعلى، إذ كنتَ -سبحانك- كارهاً لمعصيتى، لكن سبق علمك فىّ باختيارى، واستعمالى مرادى وإيثارى، فحَلُمْتَ عنّى، لم تدخلنى فيه جبراً، و لم تحملنى عليه قهراً، و لم تظلمنى شيئاً، يا أرحم الراحمين: يا صاحبى عند شدّتى، يا مؤنسى فى وَحدتى، ويا حافظى عند غُربتى، يا وليى فى نعمتى، ويا كاشف كُربتى، ويا سامع دعوتى، ويا راحم عَبرتى، ويا مقيل عَثرتى. يا إلهى بالتحقيق، يا ركنى الوثيق، يا رجائى فى الضيق، يا مولاى الشفيق، وياربّ البيت العتيق، أخرجنى من حَلَق المضيق، إلى سَعَة الطريق، وفَرَجٍ من عندك قريب وثيق، واكشف عنّى كل شدّة وضيق، واكفنى ما أطيقُ وما لا أطيق.

---

(١) نوح : ١٠.

اللّهمّ فرّج عنّى كلّ همّ وكرب، وأخرجنى من كلّ غمّ وحزن، يا فارج الهمّ، ويا كاشف الغمّ، ويا منزل القَطْر، ويا مجيب دعوة المضطّر، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، صلّ على خيرتك محمد النبىّ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وفَرِّج عنّى ما ضاق به صدرى، وعيلَ معه صَبْرى، وقلّت فيه حيلتى، وضعفت له قوّتى، ياكاشف كلّ ضُرّو بلية، ويا عالِمَ كل سرّ وخفيّة، يا أرحم الراحمين، وأفوّض أمرى إلى الله، إنّ الله بصيرٌ بالعباد، وما توفيقى إلاّ بالله، عليه توكلّتُ، وهو ربّ العرش العظيم.

قال الأعرابى: فاستغفرتُ بذلك مراراً، فكشف الله عَزَّ وجَلَّ عنّى الغم والضيق، ووسّع علىّ فى الرزق، وأزال عنّى المحنة.

✿✿✿

٥- العِلْمُ بالكتاب

قال إبراهيم التيْمى :

لما حُبستُ الحَبْسَةَ المشهورة، أدخلتُ السجن، فأنزلتُ على أناس فى قيد واحد، ومكان ضيّق، لا يجد الرّجل إلاّ موضع مجلسه، وفيه يأكلون، وفيه يتغوّطون، وفيه يُصَلُّون.

قال : فجيءَ برجل من أهل البحريْن، فأدخل علينا، فلم نجد مكاناً، فجعلوا يتبرّمون به، فقال : اصبروا، فإنّما هى اللّيلة.

فلمّا دخل اللّيل، قام يُصلى، فقال : ياربّ، مننتَ علىَّ بدينك، وعلّمتنى كتابَك، ثم سلّطت علىّ شرّ خلقك، يارب، اللّيلة، اللّيلة، لا أصبح فيه.

فما أصبحنا حتّى ضُرِبَتْ أبوابُ السجن: أين البحرانى، أين البحرانى؟ فقال كلّ منّا: ما دُعِيَ السّاعة، إلاّ لُيقتَل، فخُلِّيَ سبيلُه.

فجاء ، فقام على باب السجن، فسلّم علينا، وقال : أطيعوا الله لا يُضيِّعْكم(١).

❁❁❁

---

(١) فى هذا الخبر (القصة) دلالات متعددة، فراويه إبراهيم التيمى من الزُّهاد، حبسه الحجاج، وقتله ومثّل به (فيما بعد) لكنه يحكى هنا عن رجل بحرينى مستور، تعلم كتاب الله وأطاعه، فكانت لديه الثقة بالفرج!! وفى هذا العصر (ولعله تقليد قديم نجد ملامحه فى هذا النصّ) ينسب إلى البحرْين: بحرْينى، فإذا قيل: بحرانى، فالمنسوب من الشيعة!! هكذا عرفنا من أهل البحرين. والله أعلم.

٦- قصّة أصحابِ الأخدود

وذكر الله سبحانه وتعالى، فى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[1] ، أصحاب الأخدود، وروى قوم من أهل الملل المخالفة للإسلام عن كتبهم أشياء من ذلك، فذكرت اليهودُ والنّصارى: أنّ أصحاب الأخدود كانوا دعاةً إلى الله، وأنّ ملك بلدهم، أضرم لهم ناراً، وطرحهم فيها، فأطّلع الله تعالى على صبرهم، وخُلُوصِ نيّاتهم فى دينه وطاعته، فأمر النارَ أن لا تحرقهم، فشوهدوا فيها قعوداً، وهى تضطرم عليهم، ولا تحرقهم، ونجوا منها، وجعل الله دائرة السوْءِ على الملك، وأهلكه.

❁❁❁

(١) البروج : ١.

٧- فَرَجٌ عَام

حكى عبيدالله بن سليمان، وكان وزيراً، عن أبيه سليمان بن وهب أنه قال:

كنتُ يوماً في حبس محمد بن عبدالملك الزيات [1] ، في خلافة الواثق، آيس ما كنتُ من الفرج، وأشدّ محنة وغماً، حتى وردت عليّ رقعة أخي الحسن بن وهب، وفيها شِعر له:

مِحَنٌ أبا أيّوب أنت مَحَلُّها ... فإذا جزعتَ من الخطوب فمَنْ لها
إنّ الّذي عقد الّذي انعقدت به ... عُقَد المكارهِ فيك يُحسِنُ حلَّها
فاصبر فإنّ الله يُعقِبُ فُرْجَةً ... ولعلّها أن تنجلي ولعلّها
وعسى تكونُ قريبةً من حيث لا ... ترجو وتمحو عن جديدك ذلّها

قال : فتفاءلتُ بذلك، وقَوِيَتْ نفسي، فكتبتُ إليه :

صبّرتني ووعظتَني وأنالها ... وستنجلي، بل لا أقول: لعلّها
ويَحُلُّها مَن كان صاحبَ عَقْدِها ... ثقةً به إذ كان يملك حلَّها

قال : فلم أصلِّ العَتْمةَ ذلك اليوم، حتّى أطلِقتُ، فصلّيتُها في داري ولم يمضِ يومي ذاك، حتّى فرَّج الله عنّي، وأطلقتُ من حَبْسي.

وروى أنّ هاتين الرقعتين وقعتا بيد الواثق [2] ، الرّسالة والجواب، فأمر بإطلاق سليمان، وقال: والله، لا تركتُ في حبسي مَن يرجو الفَرَج، ولا سيما مَن خَدَمَني، فأطلقه على كُرْهٍ من ابن الزّيات لذلك.

✿✿✿

---

(١) كان ابن الزيات وزيراً للمعتصم، ثم الواثق، وكان يتفنن في التعذيب، حتى صنع تنوراً (فرناً) من الحديد بداخله مسامير، وحين جاء الخليفة المتوكل أذاقه من نفس الكأس. أما سليمان بن وهب (الذي عذّبه الزيات) فقد كان كاتباً مهماً، ثم وزيراً فيما بعد.

(٢) الخليفة العباسي.

٨- قصّة دانيال عليه السلام

وذكر هؤلاء القوم: أنّ نبيّاً، كان فى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام بزمان طويل، يُقال له دانْيال [١] ، وأنّ قومه كذّبوه فأخذه ملكهم، فقذفه إلى أسْدٍ مجموعة فى جُبٍّ، فلما أطّلع الله تعالى على حُسن اتّكاله عليه، وصبره طلباً لما لديه، أمسك أفواه الأسْد عنه، حتى قام على رؤوسها برجليه، وهى مذلّلة، غيرَ ضارّة له، فبعث الله تعالى إرميا[٢] من الشام، حتى تخلّص دانيال من هذه الشدّة، وأهلك مَن أراد إهلاك دانيال.

وعضدت روايتَهم، أشياءٌ رواها أصحاب الحديث، منها ما حدّثناه علىُّ ابن أبى الطيّب الحسن بن علىّ بن مطرف الرّامَهُرْمُزى، قال : حدّثناه علىُّ ابن أبى الطّيب الحسن بن علىّ بن مطرف الرّامَهُرْمُزى، قال: حدّثنا أحمد بن محمد بن الجرّاح، قال : حدّثنا أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى، قال: حدّثنا أحمد بن عبدالأعلى الشيبانى، قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان، فحدّثنا بعض أصحابنا عنه، عن الأجْلح الكِنْدىّ، عن عبدالله بن أبى الهديل قال: ضرّى "بُخْتَ نَصّر" [٣] أسدين، فألقاهما فى جُبٍّ وجاء بدانيال فألقاه عليهما، فلم يُهيجاه، فمكث ماشاء الله، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون، من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى إرميا، وهو بالشام، أن أعدَّ طعاماً وشراباً لدانيال، فقال : ياربّ، أنا بالأرض المقدّسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله تعالى إليه أن أعدّ ما أمرناك به، فإنّا سنرسل إليك من يحملك، ويحمل ما أعددتَ، ففعل، فأرسل الله إليه مَن حمله، وحمل ما أعدّ، حتى وقف على رأس الجُبّ.

فقال دانيال : مَن هذا؟

قال : أنا إرميا.

قال : ما جاء بك؟

---

(١) يُنسب إليه أحد أسفار العهد القديم، فى الإسكندرية شارع يحمل اسمه.

(٢) من أنبياء بنى إسرائيل مثل دانيال.

(٣) بختنصر أو نبوخذ نصّر، ملك بابلى، أزال مملكة اليهود فى القدس وحملهم أسرى إلى بلاده. وضرّى أسدين: أى جوّعهما.

قال : أرسلنى إليك ربك.

قال : وذكرنى ؟

قال : نعم.

قال : الحمد لله الذى لا ينسى مَن ذكَره، والحمد لله الّذى لا يُخيّب مَن رجاه، والحمد لله الذى مَن توكّل عليه كفاه، والحمد لله الذى مَن وَثِقَ بـه لم يَكلْه إلى غـيره، والحمد لله الّذى يجزى بالإحسان إحساناً، وبالسّيئات غفُراناً، والحمـد لله الـذى يجـزى بالصبر نجاة، والحمد لله الّذى يكشف ضُرّنا، بعد كَرْبنـا، والحمـد لله الّـذى هـو ثقَتُنـا، حين تسوء ظنوننا بأعمالنا، والحمد لله الّذى هو رجاؤنا، حين تنقطع الحِيَلُ منّا.

✿✿✿

٩- دَعْوَةُ المظْلُوم

حدّثنى أبوالحسن بن أبى الطاهر محمّد بن الحسن الكاتب، صاحب الجيش، قال:

قبض علىَّ أبوجعفر محمّد بن القاسم بن عبيدالله، فى أيّام وَزارته للقاهر با لله، وعلى أبى، فحبسنا فى حجرة ضيقة، وأجلسنا على التّراب، وشدّد علينا، وكان يُخرجنا فى كلّ يوم، فيطالب أبى بمال المصادرة، وأضربُ أنا بحضرة أبى، ولا يُضرب هو، فلاقيْنا من ذلك أمراً شديداً صعباً.

فلمّا كان بعد أيّام، قال لى أبى: إنّ هؤلاء الموكّلين، قد صارت لهم بنا حُرْمة [1]، فتَوَصَّلْ إلى مكاتبة أبى بكر الصيرفى -وكان صديقاً لأبى -حتّى يُنفِذَ إلينا بثلاثة آلاف درهم، نفرّقها فيهم، ففعلتُ ذلك، فأنفذ إلينا بالمال من يومه. فقلتُ للموكّلين، فى عَشِيِّ ذلك اليوم: قد وجبت لكم علينا حقوق، فخذوا هذه الدراهم، فانتفعوا بها، فامْتَنَعُوا.

فقلتُ: ما سبب امتناعكم؟ فورُّوا عن ذلك.

فقلت : إمّا قبلتم، وإمّا عرفتمونا السّبب الّذى لأجله امتناعُكم.

فقالوا : نُشفق عليكم، ونستحى من ذلك.

فقال لهم أبى : اذكروه على كلّ حال.

قالوا: قد عزَمَ الوزيرُ على قتلكما اللّيلة، ولا نستحسن أخذ شئ منكما مع هذا.

فقَلِقْتُ، ودخلتُ إلى أبى بغير تلك الصورة، فقال : مالك؟ فأخبرته بالخبر، وقلت لأبى: ما أصنع بالدراهم؟

فقال : ردَّها على أبى بكر، فرددتها عليه.

وكان أبى يصوم تلك الأيّامَ كلّها، فلمّا غابت الشّمس، تطهّر، وصلّى المغرب، فصلّيتُ معه، ولم يُفطرِ، ثم أقبل على الصّلاة والدّعاء، إلى أن صلّى العشاء الآخرة، ثم دعانى.

---

(١) اعتقد أبوطاهر أن سجانيه ومعذبى ولده أصبحوا من أهله يستحقون الإكرام، فطلب المال لهذا، لكنهم رفضوا أخذه لما غلب لديهم أنه سيُقتل مع ولده!!.

فقال : اجلس يا بنىّ إلى جانبى، جاثياً على ركبتك، ففعلت، وجلس هو كذلك.

ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال : ياربّ، محمّد بن القاسم ظلمنى، وحبسنى على ما ترى، وأنا بين يديك، وقد استعديْتُ إليك، وأنت أحكم الحاكمين، فاحكم بيننا - لا يزيد عن ذلك.

ثم صاح بها إلى أن ارتفع صوته، ولم يزل يكرّرها بصياحٍ ونداءٍ واستغاثة، إلى أن ظننتُ أنّه قد مضى ربع اللّيل.

فوالله ما قطعها حتّى سمعتُ الباب يُدَقّ، فذهب علىَّ أمرى، ولم أشكّ فى أنّه القتل.

وفُتِحَت الأبوابُ، فدخل قوم بشموع، فتأمّلتُ، وإذا فيهم سَابُور، خادمُ القاهر، فقال : أين طاهر؟ فقام إليه أبى، فقال : ها أنذا.

فقال : أين ابنُك؟

فقال : هُوَ ذَا.

فقال : انصرفا إلى منزلكما، فخرجنا، فإذا هو قد قَبَضَ على محمّد بن القاسم، وحدَّرَهُ إلى دار القاهر.

وعاش محمّد بن القاسم فى الاعتقال ثلاثة أيّام، ومات.

✿✿✿

١٠- بابُ الفَرَج

حدّثني فتىً من الكتّاب البغداديّين، يُعرف بأبي الحسن بن أبي اللّيث، قال:

قرأتُ في بعض الكتبُ، إذا دهمك أمرٌ تخافـه، فبِتْ وأنـت طـاهر، علـى فِـراش طاهر، وثياب كلّها طاهرة، واقرأ : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[1] ... إلى آخر السورة، سبعاً، و ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[2] .... إلى آخر السورة، سبعاً، ثم قل : اللهـم اجعـل لي فَرَجاً ومخرجاً من أمري، فإنّه يأتيك في الليلـة الأوّلـة أو الثانيـة، وإلى السـابعة، آتٍ فـي منامك، يقول لك: المخرج منه كذا وكذا.

قال : فحبست بعد هذا بسنين، حَبْسَةً طالت حتى أيسْـتُ مـن الفَـرَج، فذكرتـه يوماً وأنا في الحبس، ففعلتُ ذلك، فلم أر في الليلة الأوّلة، ولا الثانية، ولا الثالثـة شـيئاً، فلما كان في الليلة الرابعة، فعلتُ ذلك على الرسم، فرأيتُ في منامي، كأنّ رجلاً يقـول لي: خلاصُك على يدِ عليِّ بنِ إبراهيم.

فأصبحت من غدٍ متعجّباً، ولم أكن أعرف رجلاً يقال له علي بن إبراهيـم، فلمـا كان بعد يومين، دخل إليّ شاب لا أعرفه، فقال لي: قد كُفلْتَ بما عليك، فَقُمْ، وإذا معه رسـول إلى السـجّان بتسـليمي إليـه، فقمـتُ معـه، فحملنـي إلى مـنزلي، وسـلّمني فيه، وانصرف.

فقلت لهم : مَن هذا؟

فقالوا : رجل بزّاز [3] من أهل الأهْوَاز، يقـال لـه علـيُّ بـنُ إبراهيـم، يكـون فـي الكَرْخ، قيل لنا إنّه صديق الذى حَبَسَك، فطرحنا أنفسَنا عليه، فتوسّط أمرك، وضمن ما عليك، وأخرجك.

قال مؤلّف هذا الكتاب: فلما كان بعد سنين، جاءني عليُّ بن إبراهيم هذا، وهـو معاملي في البَزّ، منذ سنين كثيرة، فذاكرته بالحديث، فقال: نعـم، كـان هـذا الفتـى قـد

---

(١) الشمس : ١.

(٢) الليل :١.

(٣) البزاز: تاجر الحرير، البزّ (بفتح الباء) : الحرير.

حبسه عَبْدُوس بن أخت أبى علـى الحسـن بـن إبراهيـم النصرانّـى، خـازن مُعـزّ الدولـة، وطالبه بخمسة آلاف درهم، كانت عليـه مـن ضَمَانـه [1] ، وكـان عَبْـدُوس لى صديقـاً، فجاءنى مَن سألنى خطابه فى أمر هذا الرجل، وجرى الأمر على ما عرّفتك.

✿✿✿

(١) معز الدولة أحد أمراء البويهيين، ونظام الضمان عُرِف فى مصر فى القرن الماضى بنظام الالتزام.

١١- دَوَاءُ المِحنة

روى عن بُزُرْجُمِهرْ بن البَخْتِكَان الحكيم(١)، الذى كان وزير أنوشَرْوَان، أنّه حبسه عند غضبه، فى بيت كالقبر ظلمة وضيقاً، وصفّده بالحديد، وألبسه الخشن من الصوف، وأمر أن لايُزاد فى كلّ يوم على قرصين خبزاً شعيراً وكـفّ ملـح جريـش، ودَوْرَقَ مـاء، وأن تحصى ألفاظه، فتُنقل إليه، فأقام بُزُرْجُمِهرْ شهوراً، لا تُسمع له لفظة.

فقال أنوشروان: أدخِلُوا إليه أصحابه، ومروهم أن يسألوه، ويفاتحوه فى الكلام، واسمعوا ما يجرى بينهم، وعرّفونيه.

فدخل إليه جماعة من المختصين -كانوا- به، فقالوا لـه: أيّهـا الحكيـم، نـراك فـى هذا الضيق، والحديـد، والصـوف، والشـدّة التـى وقعـتَ فيهـا، ومـع هـذا، فـإنّ سـحنة وجهك، وصحّة جسمك، على حالها لم تتغيّرا، فما السبب فى ذلك؟

فقال : إنّى عمِلتُ جَوَارِشاً(٢) من ستّة أخلاط، آخـذ منـه كـلّ يـوم شـيئاً، فهـو الذى أبقانى على ما تَرَوْنَ.

قالوا : فصِفْه لنا، فعسى أن نبتلى بمثـل بلـواك، أو أحـدٌ مـن إخواننـا، فنسـتعمله ونَصِفه له.

قال : الخَلْط الأوّل: الثقة بالله عَزَّ وجَلَّ، والخَلْط الثانى: عِلمـى بـأنّ كـلَّ مقـدّر كائن، والخَلْط الثالث: الصبر خير ما استعمله الممتحنون، والخَلْط الرابع: إن لم أصـبر أنـا فأىَّ شىء أعمل، و لم أعِنْ على نفسى بالجَزَع، والخَلْطُ الخامس: قد يُمكن أن أكونَ فى شرّ مما أنا فيه، والخَلْط السادس: من ساعةٍ إلى ساعةٍ فَرَج.

فبلغ كسرى كلامُه، فعفا عنه.

✿✿✿

---

(١) حكيم فارسى له أقوال كثيرة مأثورة، نُسبت إليه النسخة الفارسية من كتاب "كليلـة ودمنـة" ذى الأصـل الهندى. وكان وزيراً لأنو شروان كما يدل الخبر.

(٢) الجوارش: المساحيق التى تُخلط ويتكون منها الدواء.

١٢- دُعاءُ جعفرَ الصَّادِقِ لفكّ الاعتقال

عن الفضل بن محمد اليزيدى، قال:

أراد جعفر بن محمد الحَجّ، فمنعه المنصور، فقال : الحمد لله الكافى، سبحان الله الأعلى، حسبى الله وكفى، ليس من الله منجى، ماشاء الله قضى، ليس وراء الله منتهى، توكّلتُ على الله ربّى وربكم، ما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها، إنّ ربّى على سراط مستقيم، اللّهم إنّ هذا عبد من عبيدك، خلقتَه كما خلقتنى، ليس له علىّ فضل، إلا ما فضّلته علىّ به، فاكفنى شرّه، وارزقنى خيره، واقدح لى فى قلبه المحبّة، واصرف عنّى أذاه، لا إله إلاّ أنت، سبحان الله ربُّ العرش العظيم، وصلى الله على محمد النبى وعلى آله وسلّم كثيراً.

قال : فأذن له المنصور فى الحَجّ.

✿✿✿

١٣- موت الظالم

انصرف يحيى بنُ خالد البرمكى، من عند الهادى [1] ، وقد نَاظَره فى تسهيل خَلْع العهد عن هارون، فحلف له يحيى أنّه فَعَل، وجهد فيه، فامتنع عليه هارون.

فقال له الهادى: كذبتَ، ووالله لأفعلنّ بك وأصنعنّ، وتوعّده بكلّ عظيمةٍ، وصَرَفَهُ.

فجاء إلى بيته، فكلّم بعض غِلمانه بشىء، فأجابه بما غاظه، فلطمه يحيى، فانقطعت حَلْقَةُ خاتَمه، وطاحَ الفَصُّ، فاشتدّ ذلك على يحيى، وتطيّر منه، واغتم فدخل عليه السيارى[2] الشّاعر، وقد أخبر بالقصّة، فأنشده فى الحال :

أخلاكَ من كلِّ الهموم سُقوطُهُ   وأتاك بالفَرَجِ انفراجُ الخاتِمِ
قد كان ضاق فَفَكّ حلْقَةَ ضيقه   فاصبر فما ضيقُ الزمانِ بدائِمِ

وقال : فما أمسى حتّى ارتفعت الواعية بموت موسى الهادى، وصار الأمر إلى هارون الرّشيد، فأعطاه مائة ألف درهم.

✿✿✿

(١) كان الرشيد ولى عهد أخيه الهادى، أراد خلعه ووضع ابنه مكانه، فرفض الرشيد، وكان الهادى يعتقد أن يحيى البرمكى هو الذى يغرى الرشيد بالرفض.

(٢) هو شاعر مجهول، لكنه أجاد التقاط الحادثة، وتأولها بما يرضى البرمكى، فاستحق الجائزة السخية، وجاء الفَرَج.

١٤- مجيب المضطر

أخبرنا أبو سعد البقّال، قال :

كنتُ محبوساً في ديماس [1] الحجّاج، ومعنا إبراهيمُ التَّيْمـيُّ، فبـات فـي السّـجن، فأتى رجل، فقال له: يا أبا إسحاق، في أيّ شيء حبست؟

فقال : جاء العرِّيف، فتبرّأ منّي، وقال : إنّ هذا كثيرُ الصّـوم والصّـلاة، وأخـاف أنّه يرى رأي الخوارج [2] .

فإنّا لنتحدّث مع مغيـب الشّـمس، ومعنـا إبراهيـم التَّيمـيّ، إذ دخـل علينـا رجـلٌ السجن، فقلنا: يا عبدالله، ما قصّتك، وأمرك؟

فقال : لا أدري، ولكنّي أخذت في رأي الخـوارج، ووالله، إنّـه لـرأي مـا رأيتُـه قط، ولا أحببته، ولا أحببتُ أهْلَه، يا هؤلاء، ادعـوا لي بوضـوء، فدعونـا لـه بـه، ثـمّ قـام فصلّى أربع ركعَـات، ثـمّ قـال: اللّهـم إنّـك تعلـم، أنّـي كنـت علـى إسـاءتي وظلمـي، وإسراف على نفسي، لم أجعل لك ولداً، ولا شريكاً، ولا نِدًّا، ولا كُفئـواً، فـإن تُعـذّبْ فَعَدْل، وإن تَعْفُ، فإنّك أنت العزيز الحكيم، اللّهمّ إنّي أسألك يا مَن لا تغلّطـه المسـائل، ولا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا يُبْرِمُهُ إلحاحُ الملحّين، أن تجعل لي فـي سـاعتي هـذه، فَرَجاً مّما أنا فيه، من حيث أرجو، ومِن حيث لا أرجو، وخذ لي بقلب عبدِك الحجّاج، وسمعِه، وبصرِه، ويدِه، ورجلِه، حتّى تُخرجَنـي فـي سـاعتي هـذه، فـإنّ قلبـه، وناصيتـه، بيدك، يارب، يارب.

قال : وأكثر، فوالّذي لا إله غيره، ما انقطع دعاؤه، حتّى ضُـرِب بـابُ السّـجن وقيل: أين فلان؟

فقام صاحبنا، فقال: يا هؤلاء، إن تكن العافية، فوالله، لا أدَع الدّعاء لكـم، وإن تكن الأخرى، فجمع الله بيننا وبينكم، في مستقرّ رحمته.

قال: فبلغنا من الغد، أنّه خُلّي سبيلُه.

✿✿✿

---

(١) أطلقت هذه التسمية على سجن الحجاج، إذ كان أشبه بخندق تحت الأرض، وفي اللغة: الديماس: السرب المظلم، ومنه دمس الليل.

(٢) هذا دليل على انتشار العرفاء في زمن الحجاج وهم أشبه بالشرطة السرية أو الكفلاء.

١٥- الأنبياءُ والمساكين

عن أنس بن مالك، عن النّبى صلى الله عليه وسلم، قال :

"كان ليعقوب عليه السّلام، أخ مؤاخٍ فى الله عزّ وجَلّ، فقال ليعقوب: ما الّذى أذهب بصرَك، وقوّس ظهرَك؟

فقال : أمّا الّذى قوّس ظهرى، فالحزن على بِنْيَامين، وأمّا الّذى أذهب بصرى، فالبكاء على يُوسُف.

فأوحى الله تعالى إليه: أما تستحى، تشكونى إلى عبدى.

قال : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ﴾ [١]، ثم قال: يارَبّ، ارحم الشيخ الكبير، أذهبْتَ بصرى، وقوّست ظهرى، أردد علىّ ريحانتى يوسف، أشمّه، ثم افعل بى ما شئتَ.

فقال له جبريل عليه السّلام: إنّ ربّك يُقْرِؤُك السّلام، ويقول لك: أَبْشِرْ،وليفرحْ قلبُك، فوعزّتى لو كانا ميتين، لأنشرتهما لك، فاصنع طعاماً للمساكين وادعهم إليه، فإنّ أحبّ عبادى إلىّ، الأنبياءُ والمساكين، وإنّ الّذى ذهب ببصرك، وقوّس ظهرك، وسبب صنع إخوة يوسف به ما صنعوا، أنّكم ذبحتم شاةً، فأتاكم رجل صائم، فلم تطعموه.

فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء، أمر مناديه، فنادى: مَن كان يريد الغداء من المساكين فليتغدّ مع يعقوب، وإن كان صائماً أمر مناديه، فنادى: مَن كان صائماً من المساكين فليُفطر مع يعقوب.



(١) يوسف : ٨٦.

١٦- الفَقِيهُ والجَبَّار !!

حدثنى بعض شيوخنا :

أنّ الحسن البَصرى دخل على الحجّاج بواسط [١] ، فلما رأى بناءه قال: الحمد لله، أنّ هؤلاء الملوك ليَرَوْن فى أنفسهم عِبَراً، وأنّا لنرى فيهم عِبَراً، يَعمِد أحدُهم إلى قصرٍ فيشيّده، وإلى فَرْش فيتّخذه، وقد حفّ به ذباب طمع، وفراش نار، ثم يقول : ألا فانظروا ما صنعتُ، فقد رأينا -ياعدوّ الله- ما صنعتَ، فماذا يا أفسقَ الفَسقَة، ويا أفجرَ الفَجَرة، أما أهل السماء فلعنوك، وأما أهل الأرض فمقتوك.

ثم خرج وهو يقول : إنّما أخذ الله الميثاق على العلماء، ليبيّنُنّه للنّاس، ولا يكتمونه.

فاغتاظ الحجّاج غيظاً شديداً، ثم قال: يا أهل الشّام، هذا عُبَيد أهل البَصرة يشتمنى فى وجهى فلا ينكر عليه أحد، علىّ به، والله لأقتلنّه.

فمضى أهلُ الشام، فأحضروه، وقد أعلم بما قال، فكان فى طريقه يحرّك شفتيه بما لا يُسمَع.

فلمّا دخل على الحجّاج، رأى السيّف والنِّطع [٢] بين يديه وهو متغيّظ، فلمّا وقعت عليه عينُ الحجّاج، كلّمه بكلام غليظ، ورَفَق به الحسن، ووعظه.

فأمر الحجّاج بالسيف والنِّطْع فَرُفِعَا، ثمّ لم يزل الحسن يمر فى كلامه، إلى أن دعا الحجاج بالطعام، فأكلاَ، وبالوضوء فتوضّأ، وبالغالية فغلّفه بيده، ثم صرفه مكرّماً.

وقال صالح بن مِسمار: قيل للحسن بن أبى الحسن: بِمَ كنتَ تحرّك شفتيك؟

قال : قلتُ: يا غياثى عند دعوتى، ويا عُدَّتى فى ملمّتى، ويا ربّى عند كُربتى، ويا صاحبى فى شدّتى، ويا وليّى فى نعمتى، ويا إلهى، وإله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى، ويارب النبيّين كلّهم أجمعين، ويارب

(١) واسط : منطقة فى جنوب العراق تجاه فارس.
(٢) النطع : بساط من الجلد يقف فوقه المحكوم بقتله.

كهيعص، وطه، وطس، ويس، وربّ القرآن الحكيم، يا كافي موسى فرعون، ويا كـافي محمّد الأحزاب، صلّ على محمّد وآله الطيّبين الطـاهرين الأخيـار، وارزقني مـودة عبـدك الحجّاج، وخيره ، ومعروفه، واصرف عنّي أذاه، وشرّه، ومكروهه ومعرّته.

فكفاه الله تعالى شرّه بمنّه وكرمه.

✿✿✿

١٧- مَنْ يَرْحم

وذكر المدائنيُّ فى كتابه، قال: وجَّه سليمانُ بن عبدالملك، حين وَلِيَ الخلافة، محمدَ بنَ يزيد إلى العراق، فأطلق أهل السجون، وقسَّم الأموال، وضيّق على يزيدَ بنِ أبى مسلم كاتبِ الحجّاج، فظفر به يزيدُ بإفريقية لما وليها فى شهر رمضان عند المغرب، وفى يده عنقود عنب.

فجعل محمدٌ يقول : اللّهم احفظ لى إطلاقى الأسرى، وإعطائى الفقراء.

فقال له يزيد حين دنا منه: محمّد بن يزيد؟ ما زلتُ أسأل الله أن يُظْفِرَنى بك.

قال له : ما زلتُ أسأل الله، أن يجيرَنىْ منك.

قال : والله، ما أجارك، ولا أعاذك منّى، ووالله لأقتلنّك قبل أن آكل هذه الحبّة العنب، ووالله لو رأيتُ مَلَكَ الموت يريد قبضَ روحك، لسبقته إليها.

فأقيمت الصّلاة، فوضع يزيد الحبّة العنب من يده، وتقدّم، فصلّى بهم.

وكان أهلُ إفريقية قد أجمعوا على قتله، فلمّا ركع، ضربه رجل منهم على رأسه بعمود حديد، فقتله.

وقيل لمحمّد : اذهب حيث شئت، فمضى سالماً.

✿✿✿

١٨- مَنْ القتيلُ ؟

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه، قال :

حُبِس رجل قد وجب عليه حدّ، فلمّا رُفع خبره، أُمِرَ بضرب عنقه.

قال المخبر : فدخلتُ إلى الحبس إلى رجل بينى وبينه صُحبة، لأعرف خبره، فرأيتُ الذى أمر بضرب عنقه يلعب بالنَّرد.[1]

فقلت للذى دخلتُ عليه، وأنا لا أعلم أنّ قد أُمِرَ بضرب عنق ذلك الرجل : ما أفرغَ قلبُ هذا، يلعب بالنَّرد، وهو محبوس.

فقال : إنّ أطرف من هذا أنّه أُمِرَ بضَرْب عُنقه، وقد عرف بذلك، فهوذا ترى حاله.

قال : فازددتُ تعجبًا، وفَطَنَ الرجل لما نحن فيه، فأخذ بيده فَصًّا من فصوص النَّردِ فرفعه، وقال: إلى أن يسقط هذا إلى الأرض، مائة ألف فرج، ورمى بالفصّ من يده.

قال : فخرجتُ، وأنا متعجّب منه ، مفكّر فى قوله.

فما أمسْينا ذلك اليوم، حتى شَغَب الجند، وفُتحت السجون، وخرج مَن كان فيها، والرجل فيهم، وسلّمه الله تعالى من القتل.

❁❁❁

(١) النرد : طاولة الزهر.

١٩- مَنْ يَأمنُ للحيَّة ؟!

كان فى بنى إسرائيل، رجلٌ فى صحراء قريبةٍ من جبل، يعبد الله تعالى، إذ مَثُلت له حيّة، فقالت له: قد أرهقنى مَن يريد قتلى، فأجرْنى، أجارك الله فى ظلّه، يوم لا ظل إلا ظلّهُ.

قال لها : وممّن أجيرك ؟

قالت : من عدوّ يريد قتلى.

قال : وممّن أنت ؟

قالت : من أهل لا إله إلا الله.

قال : فأين أخبّيكِ؟

قالت : فى جوْفك، إن كنت تريد المعروف.

ففتح فاه، وقال : ادخلى، ففعلت.

فلمّا جاء الطالب، قال له: رأيتَ حيّةً تسعى؟

فقال العابد : ما أرى شيئاً، وصدق فى ذلك.

فقال له الطالب : الله.

فقال : الله.

فتركه، ومضى، ثمّ قال لها : اخرجى الآن.

فقالت : إنّى من قوم لا يكافئون على الجميل إلاّ بقبيح .. لابد من قتلك!!

فقال لها الرجل: ليس غنىً عن هذا؟

قالت : لا ؟

قال : فأمهلينى، حتى آتى سفح جبل، فأصلّى ركعتين، وأدعو الله تعالى، وأحفر لنفسى قبراً، فإذا نزلته، فافعلى ما بدا لك.

قالت : افعل.

فلمّا صلّى، ودعا ، أوحى الله إليه: إنّى قد رحمتك، فاقبض على الحيّة، فإنّها تموت فى يدك، ولا تضرّك.

ففعل ذلك، وعاد إلى موضعه، وتشاغل بعبادة ربّه.

✿✿✿

٢٠- الفرج على لِسَان طَائِر !!

وجدتُ في بعض الكتب :

حُكِيَ أنّ رجلاً خرج في وجه شتاء، فابتاع بأربعمائة درهم - كان لا يملك غيرها - فراخَ الزرياب[(١)] للتجارة.

فلمّا ورد دكّانه ببغداد، هبّت ريح باردة، فأماتتها كلّها إلا فرخاً واحداً، كان أضعفَهَا وأصغرها، فأيقن بالفقر.

فلم يزل يبتهل إلى الله تعالى ليلته أجمع بالدعاء والاستغاثة، ويسأله الفَرَج مَما لَحِقَه، وكان قوله: يا غياثَ المستغيثين، أغثْني.

فلمّا انجلى الصبح، زال البردُ، وجعل ذلك الفرخ الباقي ينفش ريشَه، ويقول: يا غياثَ المستغيثين، أغثْني.

فاجتمع النّاس على دكان الرّجل، يرون الفرخ، ويسمعون الصوت.

فاجتازت جارية راكبة، من جوارى أمّ المقتدر، فسمعت صوتَ الطائر، ورأته، واستامته [(٢)]، وتقاعد الرّجل، فاشترته بألفيْ درهم، وأعطته الدراهم، وأخذت الطائر.

✿✿✿

---

(١) الزرياب : طاشر صغير جميل، يمكنه محاكاة الأصوات كالببغا.

(٢) عرفت ثمنه، وناقشت فيه.

٢١- العَقْل !!

عن نوف البَكالى :

أنّ نبياً أو صدّيقاً ذبح عجلاً بين يدى أمّه، فخَبِل[1]، فبينما هو كذلك ذات يوم، تحت شجرة فيها وكر طير، إذ وقع فَرْخُ طائر فى الأرض، وتغبّر فى التراب، فأتاه الطائر، فجعل يطير فوق رأسه، فأخذ النبىّ أو الصدّيق الفرخَ، فمسحه من التراب، وأعاده فى وكره، فرّد الله عَزَّ وجَلَّ عليه عقله.

✿✿✿

(١) أصابه الخبل، أى الذهول والهوس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة" والحيوان لا يعقل ولكنه يشعر، ويدرك.

٢٢ - دُعاء زَيْن العابِدين

عن طاووس[١] ، قال :

إنّى لفى الحِجْر[٢] ذات ليلة، إذ دخل علىّ بن الحسين عليهما السلام، فقلت: رجلٌ صالحٌ من أهل بيت الخَير، لأستمعنّ إلى دعائه الليلة، فصلّى، ثم سجد، فأصغيت بسمعى إليه، فسمعته يقول : عُبَيْدُكَ[٣] بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك.

قال طاووس: فحفظتهنّ، فما دعوتُ بهنّ فى كرب، إلا فرج الله عنّى.

✿✿✿

---

(١) طاووس بن كيسان : فقيه محدِّث من التابعين، وهو يمنىّ.

(٢) حِجْر إبراهيم بفناء الكعبة.

(٣) عُبَيْدُك (بصيغة المصغر): تصغير عبد.

٢٣- لا يَرْضَى الظُّلْم .. حتى للمجوسيّ

وجدتُ في بعض الكتب: حدّث على بن المعلّى، عن الزهرى البصرى، قال:

كنّا جلوساً عند أبى عبدالله جعفر بن محمّد (الصادق) وذكر حديثاً فيه : أنّ أبا عبدالله قال: إنّ قوم سَدُوم، هلكوا بمجوسيّ.

قيل : ما سبب ذلك؟

قال : أما تعرفون بالبصرة عندكم جسراً، يقال له: جسر الخشب؟

قلنا : بلى.

قال " ذاك جسُر سدوم، جاءه رجل مجوسى، ومعه زوجته حاملاً، راكبة حماراً، تريد العبور، فمنعوها إلا أن يأخذوا خمسة دراهم، فأبيا أن يعطيا ذلك، فطلبوا منهما عشرة دراهم، فأبيا أن يعطيا ذلك، فشمصوا الحمار، وقطعوا ذنبه، فاضطربت المرأة، فأسقطتْ جنينها، فاشتدّت بالمجوسى محنتُه.

وقال : إلى مَن نتظلّم فيما فُعِلَ بنا ؟

فقيل : إلى صاحب هذا القصر.

فدخل إليه، وقال : : فُعِلَ بى كَيْتَ وكَيْتَ.

قال : لا بأس، ادفع إليهم حمارك، يعملوا عليه إلى أن ينبت ذَنَبهُ، وادفع إليهم زوجتك، حتّى يطؤوها إلى أن تحمل.

فرفع المجوسى رأسه إلى السماء، وقال : اللّهم، إن كان هذا حكم من عندك، وأنت به راضٍ، فأنا به أرضى، وأرضى.

فبعثَ اللّهُ إليه مَلَكاً من الملائكة، فأخذ بَعضُدِهِ، وعَضُدِ زوجته، فعبر بهما الجسر.

فقال له : ياعبد الله مَن أنت؟ فلقد مننتَ عليّ.

قال : أنا مَلَكٌ من الملائكة، لما أن قلت: اللهم إن كان هذا حكم من عندك، وأنت به راضٍ، فأنا أرضى وأرضى، بعثنى الله لأخلّصك، فالتفِتْ إلى القوم، وانظر ما أصابهم.

فالتفت المجوسى، فإذا القوم قد خُسِفَ بهم.



٢٤- الخائن

وحكى أبوالحسن أحمد بن يوسف الأزرق التّنوخيّ :

أنّ رجلاً أمسى فى بعض محالّ الجانب الغربى من مدينة السلام، ومعه دراهم لها قدر.

فخاف على نفسه من الطائف[1]، أو من بليّة تقع عليه، فصار إلى رجل من أهل الموضع، وسأله أن يبيّته عنده، فأدخله.

فلمّا تيقّن أنّ معه مالاً، حدّث نفسه بقتله، وأخذ المال.

وكان له ابن شاب، فنوّمه بحذاء الرجل، في بيت واحد[2]، ولم يُعلم ابنه ما فى نفسه وخرج من عندهم، وقد عرف مكانهما، وطُفِيءَ السراج.

فقُدّر أنّ الابن انتقل من موضعه إلى موضع الضيف، وانتقل الضيف إلى موضع الابن، وجاء أبوه يطلب الضيف، فصادف الابن فيه، وهو لا يشكّ أنّه الضيف، فخنقه، فاضطرب، ومات.

وانتبه الضيف باضطرابه، وعرف ما أريد به، فخرج هارباً، وصاح فى الطريق، ووقف الجيران على خبره، وأغاثوه، وخرجوا إليه.

وأخِذَ الرجل، فقُرِّر، فأقرَّ بقتل ولده، فحُبِس، وأخِذَ المال من داره، فرُدَّ على الضيف، وسَلِمَ.

✿✿✿

(١) الطائف : العسس، أو جنود الحراسة التى تطوف بالليل فى المدينة.
(٢) البيت : الغرفة، أما مجموع الغرف فيكون "الدار".

٢٥- دِرْهَمٌ طيِّبٌ

إنّ رجلاً خرج بغزل، فباعه بدرهم ليشترى به دقيقاً، فمّر على رجلين، كلّ واحد منهما آخذ برأس صاحبه.

فقال : ما هذا؟

فقيل : يقتتِلان فى درهم، فأعطاهما ذلك الدرهم، وليس له شيء غيره.

فأتى إلى امرأته، فأخبرها بما جرى له، فجمعتْ له أشياء من البيت، فذهب ليبيعها، فكسدت عليه، فمرّ على رجل ومعه سمكة قد أرْوَحَتْ.

فقال له : إنّ معك شيئاً قد كسد، ومعى شيء قد كسد، فهل لك أن تبيعنى هذا بهذا؟ فباعه.

وجاء الرّجل بالسمكة إلى البيت، وقال لزوجته: قومى فأصلحى أمر هذه السمكة، فقد هلكنا من الجوع.

فقامت المرأة تصلحها، فشقّت جوف السمكة، فإذا هى بلؤلؤة، قد خرجت من جوفها.

فقالت المرأة : يا سيّدى، قد خرج من جوف السمكة شيء أصغر من بيض الدجاج، وهو يقارب بيض الحمام.

فقال : أرينى، فنظر إلى شيء ما رأى فى عمره مثله، فطار عقله، وحار لبّه.

فقال لزوجته : هذه أظنّها لؤلؤة.

فقالت : أتعرف قدر اللؤلؤة؟

قال : لا، ولكنّى أعرف مَن يعرف ذلك، ثمّ أخذها، وانطلق بها إلى أصحاب اللؤلؤ، إلى صديق له جوهريّ، فسلّم عليه، فردّ عليه السلام، وجلس إلى جانبه يتحدّث، وأخرج تلك البيضة.

وقال : أنظر كم قيمة هذه؟

قال : فنظر زماناً طويلاً، ثمّ قال: لك بها علىّ أربعون ألفاً، فإن شئتَ أقبضتك المال الساعة، وإن طلبتَ الزيادة، فاذهب بها إلى فلان، فإنّه أثمنُ بها لك منّى.

فذهب بها إليه، فنظر إليها واستحسنها، وقال : لك بهـا علـىّ ثمـانون ألفـاً، وإن شئتَ الزيادة، فاذهب بها إلى فلان، فإنّى أراه أثمنَ بها لك منّى.

فذهب بها إليه، فقال : لك بها علىّ مائة وعشرون ألفـاً، ولا أرى أحـداً يزيـدك فوق ذلك شيئاً.

فقال : نعم، فوزن له المال، فحمل الرّجل فى ذلك اليوم اثنتـى عشـرة بـدْرَة فـى كلّ بِدرة عشـرة آلاف درهـم، فذهـب بهـا إلى منزلـه، ليضعهـا فيـه، فـإذا فقـيرٌ واقـف بالباب، يسأل.

فقال : هذه قصّتى الّتى كنتُ عليها، ادخل، فدخل الرّجل.

فقال : خذ نصفَ هذا المال، فأخذ الرّجل الفقير، ست بِدَرٍ، فحملها، ثـمّ تبـاعد غير بعيد، ورجع إليه.

وقال : ما أنا بمسكين، ولا فقـير، وإنّمـا أرسـلنى إليـك ربّـك عَـزَّ وجَـلَّ، الـذى أعطـاك بـالدرهم عشـرين قيراطـاً، فهـذا الـذى أعطـاك قـيراط منـه، وذَخَـرَ لـك تسـعة عَشَرَ قيراطاً.

✿✿✿

٢٦- عَطَاءُ رَسولِ الله (صلى الله عليه وسلم)

أنّ عطاراً من أهل الكَرخ، كان مشهوراً بالستر والأمانة، فركبه ديْـن، وقـام مـن دكانه، ولزم بيته مستتراً، وأقبل على الدّعاء والصّلاة، إلى أن صلّى ليلة الجمعة صلاة كثيرة، ودعا، ونام. فرأى النّبى صلى الله عليه وسلم فى منامـه، وهـو يقـول لـه: اقصُـد علىّ بن عيسى، وكان إذ ذاك وزيراً، فقد أمرته أن يدفع إليـك أربعمائـة دينـار، فخذْهـا وأصلحْ بها أمرك.

قال الرّجل : وكان علىَّ ستمائة دينار، فلمّا كان من الغد، قلتُ: قـد قـال النّبـى صلى الله عليه وسلم: "مَن رآنى فى منامه فقد رآنى، فإنّ الشيطان لا يتمثّـل بـى"، فَلِـمَ لا أقصد الوزير.

فلمّا صـرتُ ببابـه، مُنِعـتُ مـن الوصـول إليـه، فجلسـتُ إلى أن ضـاق صـدرى، وهممتُ بالانصراف، فخرج الشافعى صاحبُه، وكـان يعرفنـى معرفـة ضعيفـة، فأخبرتـه الخبر.

فقال: يا هذا، الوزير والله فى طلبـك منـذ السَّحَر إلى الآن، وقـد سـألنى عنـك فأنسيتُك، وما عرفك أحد، والرّسل مبثوثة فى طلبك، فكن بمكانك. ثـمّ رجـع فدخـل، فلم يكن بأسرعَ من أن دُعِىَ بى، فدخلتُ إلى علىّ بن عيسى.

فقال لى : ما اسمك؟

قلت : فلان بن فلان العطّار.

قال : من أهل الكَرْخ ؟

قلت : نعم.

قال : أحسن اللّهُ إليك فى قصدِكَ إيّاى، فوالله ما تهنّأتُ بعيش منذ البارحة، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءنى البارحة فى منامى، فقال : أعطِ فلان بن فـلان العطّار من أهل الكَرْخ أربعمائة دينار يُصلح بهـا شـأنَه، فكنـتُ اليـوم فـى طلبـك، ومـا عرفك أحد.

فقلت إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنى البارحة، فقال لى كَيْتَ وكَيْتَ.

قال : فبكى عليُّ بنُ عيسى، وقال : أرجو أن تكون هذه عنايةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بى.

ثمّ قال : هاتوا ألف دينار، فجاءوه بها عَيْناً.

فقال : خذ منها أربعمائة دينار، امتثالاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وستمائة دينار هِبَةً منّى لك.

فقلت : أيّها الوزير ما أحبُّ أن أزداد على عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، فإنّى أرجو البركة فيه، لا فيما عداه.

فبكى علىّ بن عيسى، وقال : هذا هو اليقين، خذ ما بدا لك.

فأخذتُ أربعمائة دينار، وانصرفتُ، فقصصت قصّتى على صديق لى وأريته الدنانير، وسألته أن يقصِد غُرَمائى، ويتوسّطَ بينى وبينهم، ففعل.

وقالوا: نمهله بالمال ثلاث سنين.

فقلت : لا، ولكن يأخذون منى الثُلث عاجلاً، والثلثين فى سنتين، فى كل سنة ثلثاً. فرضوا بذلك، وأعطيتهم مائتى دينار، وفتحت دكانى بالمائتى دينار الباقية.

فما حال الحَوْل إلاّ ومعى ألفُ دينار، فقضيت دَيْنى، وما زال مالى يزيد، وحالى يصلح، والحمد لله.



الفهرس

القســم الأول

الـدراسـة الفنيـة

الفصل الأول

ثلاث صور "العصر – الكاتب – الكتاب"

الفصل الثانى

الذات والموضوع

الفصل الثالث

تحليل المحتوى

الفصل الرابع

البناء الفنى للقصة التراثية

القسم الثانى

النماذج

الفصل الأول

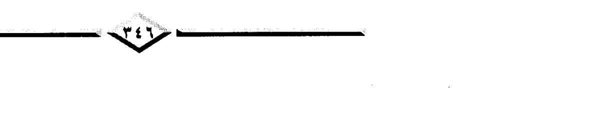
القصص الفنية

الفصل الثانى

القصص الاجتماعية

الفصل الثالث

القصص الشعبية



الفصل الرابع

القصص السياسية

الفصل الخامس

القصص الوعظية